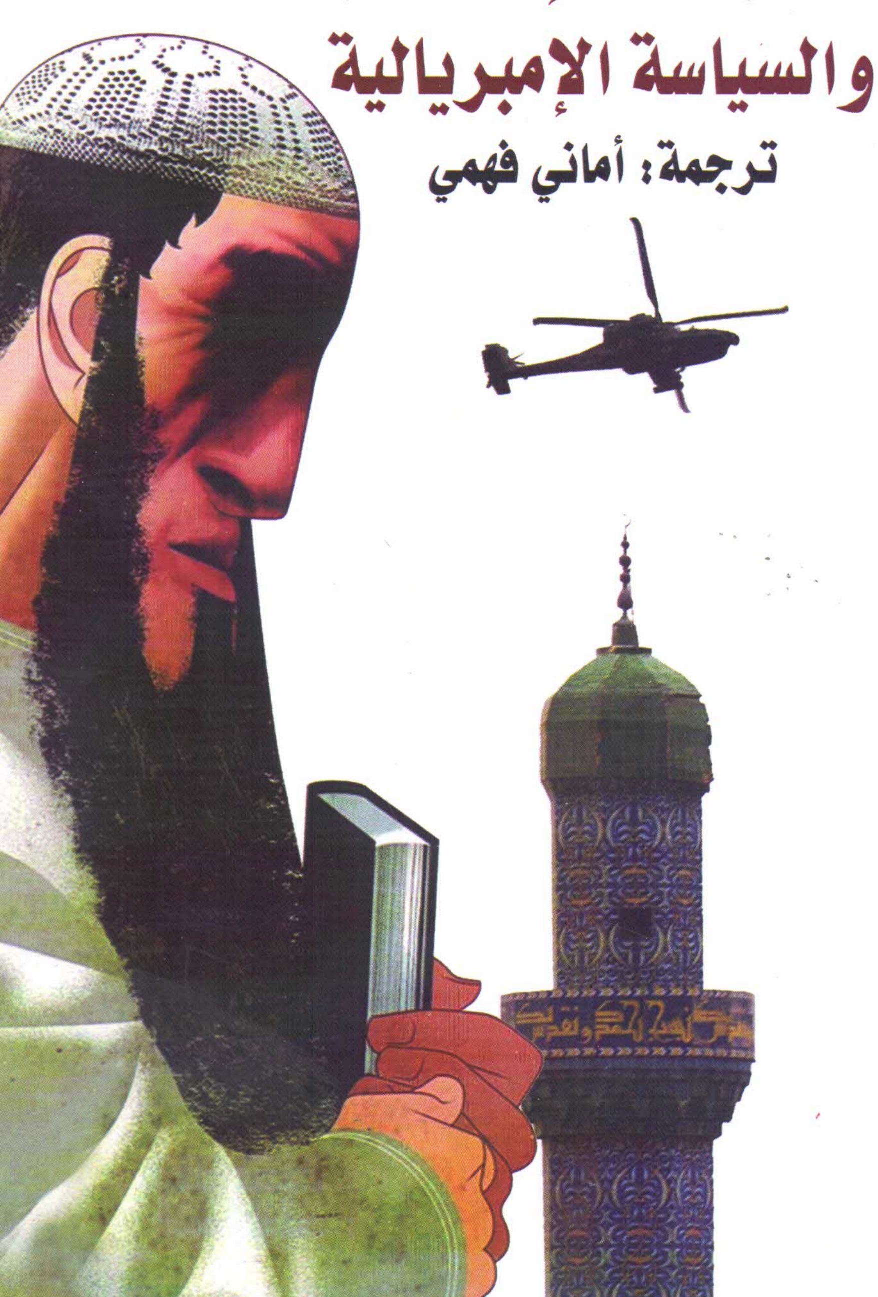
ديبا كومار

فوبيا الإسلام
والسياسة الإمبريالية

ترجمة: أماني فهمي



المركز القومى للترجمة

2671



يقول آرون كونداني، مؤلف كتاب " نهاية التسامح: العنصرية في بريطانيا القرن الحادي والعشرين" إن كتاب " فوبيا الإسلام والسياسة الإمبريالية" سيكون عملاً تصحيحياً جوهرياً لأولئك الذين لا يفطنون إلى أن أصول " مشكلة الإسلام" تكمن في النزعة الإمبريالية لا في الشريعة؛ فديبا كومار تدلل على أن الأكاذيب النابعة من فوبيا (أي إرهاب) الإسلام لم تنشأ تلقائياً بعد انتهاء الحرب الباردة، بل تضرب بجذورها في قرون من الغزو والاستعمار، بدءاً بالحروب الصليبية وانتهاءً بـ " الحرب على الإرهاب". وهي تبيّن، بما تسوقه من حُجج دقيقة وبيّنة، كيف قام الليبراليون، تماماً مثل المحافظين، بنشر هذه الأكاذيب، وتعرّي الكيفية التي استغلت بها مؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية، في سياقات مختلفة، الحركات السياسية الإسلامية، واستغلت العنصرية المضادة للمسلمين.

ووصف طارق رمضان، أستاذ الدراسات الإسلامية المعاصرة بجامعة أكسفورد، هذا الكتاب بالغ الأهمية بأنه كتاب جوهري وجاء في حينه. وأضاف قائلاً إن الكتاب يتناول إرهاب الإسلام تناولاً كلياً ومتعمقاً وجدياً. وسيفهم من يقرأ الكتاب السبب الذي يحتّم علينا أن نكفُ عن سذاجتنا وعن عدم إبصارنا للحقيقة. فلن يكون هناك مستقبل يرفرف عليه السلام والعدل في مجتمعاتنا الديمقراطية إذا لم نكافح هذا النمط الجديد من العنصرية الخطيرة.

تصميم الغلاف: هانى الشناوى

فوبيا الإسلام

والسياسة الإمبريالية

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2671
- فوبيا الإسلام والسياسة الإمبريالية
- ديبا كومار
- أمانى فهمى
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:
Islamophobia and the Politics of Empire
By: Deepa Kumar

Published in 2012 by Haymarket Books
"First Published in English by Haymarket Books"

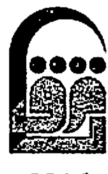
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

فوبيا الإسلام

والسياسة الإمبريالية

تأليف : ديبا كومار

ترجمة : أماني فهمي



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كومار، ديبا

فوبيا الإسلام والإسلام الإمبريالية / تأليف : ديبا كومار؛

ترجمة وتقديم : أمانى فهمى

ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة، ٢٠١٦ .

٣٠٨ ص، ٢٤ سم

١- الإسلام والإمبريالية .

(أ) فهمى ، أمانى (مترجمة ومقدمة)

(ب) العنوان ٢٠١٤/٣٢٥٣

رقم الإيداع ٢٠١٤/٢٠٠٦٦

الترقيم الدولى 0- 876-718 - 977 - 978 .I.S.B.N

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

الباب الأول

التاريخ والسياق

المقدمة

فى ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ تابعتُ المشهد التليفزيونى لانهيار البرجين التوأم والإحساس بالهلع يتملّكنى. كنت أشعر بأسف بالغ للأشخاص الأبرياء الذين دفعوا ثمنًا لويلات الإمبراطورية، وكُنت أخشى أن أيًا من أصدقائى أو أقاربى كان موجودًا فى البرجين. ولكن بدأ على الفور تقريبًا ينتابنى إحساس بالرعب مما سيأتى: ما الذى ستفعله الولايات المتحدة ردًا على ذلك؟ وأخذتُ أتساءل، بإحساس عميق بالخوف، كم عدد الأشخاص الأبرياء الذين سيُقتلون فى مختلف أنحاء العالم فى السنوات اللاحقة؟

وعندما توجّهت إلى الكلية فى ذلك اليوم، كان أحد أوّل مَن التقيت بهم زميلاً لى قال ساخرًا " أأنت سعيدة؟" وبعد أن ألجمنى تساؤله لحظةً، لم يكن بوسعى سوى أن أتمتم قائلةً إننى لم أكن سعيدة، وإننى قد علمتُ توًا أن بعض الأشخاص الذين أعرفهم ربما كانوا فى البرجين التوأم وقت انهيارهما. وفى وقت لاحق من ذلك اليوم، توجّهت إلى متجر Winn-Dixie المحلى، حيث لم يتمكّن المحصلّ من إخفاء احتقاره لى. وفى النهاية طلب منى صراحةً أن أعتذر عما حدث فى ذلك اليوم. ومرة أخرى، ألجمتنى هذه المفاجأة. ولم أعرف كيف أردّ. فلم أكن معتادة، بصفتى ناشطة فصيحة عادةً، على هذا الإحساس بالخرَس؛ فقد ظللت واقفة هناك أتطلع إليه، معقودة اللسان مؤقتًا. وكان الشيء الوحيد الذى أعرفه دون أدنى شك فى تلك اللحظة هو أن ردى، عندما يخرج من فمى، لن يكشف أننى لست مسلمة ولست عربية. وعندما تمالكت نفسى، سألته عما إذا كان قد سمع بتيموثى ماكفى Timothy Mc veigh والأصوليين

المسيحيين الآخرين الذين قتلوا على نفس النحو أشخاصًا أبرياء. وسألته عما إذا كان يعتقد أن جميع المسيحيين مسؤولون عن هذه الأفعال. فلم يرد.

وسمعت بعد ذلك بفترة وجيزة أن طالبًا عزبيًا شابًا فى جامعة مجاورة قد تعرّض للضرب وأن شرطة الجامعة لم تُعر الأمر أى انتباه. ونُشرت فى المجمّع السكنى الخاص بنا إعلانات تطلب من الناس الإبلاغ عن السلوك " المثير للشبهات" وعن الأشخاص " المثيرين للشبهات". وقُتل رجل هندى من طائفة السيخ يرتدى عمامة فى أريزونا. وفى الأشهر التالية، قامت الولاية بعملية " استجواب" لعشرات الآلاف من المسلمين، وسُجن آلاف منهم وتعرضوا للتعذيب وتم ترحيلهم؛ إذ كانت قد بدأت عملية شيطنة كاملة للمسلمين. وبدعم جماهيرى واسع النطاق، استُخدمت الآلة العسكرية لقتل الأفغان الأبرياء بأعداد كبيرة. وأصبحت العنصرية ضد المسلمين – أو فوبيا الإسلام – تعمل فى خدمة النزعة الإمبريالية.

وأدركتُ عندئذ أن عليَّ أن أنظِّم عملى وأن أتحدث وأكتب عنْ هذا الظلم. وهذا الكتاب ثمرة عشر سنوات من هذا العمل مع النشطاء فى الحركة المناهضة للحرب، والطلبة والزملاء فى الجامعات فى مختلف أنحاء الولايات المتحدة، والتعليقات من محررى وسائط إعلام مستقلة شتى على مقالاتى عن فوبيا الإسلام. فهو نتاج جماعى، بهذا المعنى، كان الدافع إليه هو ضرورة إنتاج معرفة يمكن أن تصدّ بفعالية الدعاية العنصرية وتساعد على تعزيز الحركات الاجتماعية المضادة للحرب والعنصرية.

أولا، ملحوظة بشأن ما لا يتناوله هذا الكتاب. هذا ليس كتابًا عن الدين الإسلامى. فلستُ متفقّهة فى الدين ولا أزعم أن لدى أى معرفة واسعة خاصة بشأن هذا الموضوع. فهذا الكتاب يتناول صورة " الإسلام"، تلك الصورة الكاذبة المنبثقة من احتياجات السيطرة الإمبريالية التى أدت إلى جعل التقدميين أنفسهم يزعمون أن المسلمين أكثر عنفًا من أى فئة دينية أخرى. إنه كتاب عن " العدو المسلم" والكيفية التى استُخدمت بها هذه الصورة الملفّقة لإثارة الخوف والكراهية.

وحتى قبل أن أبدأ دراستى لتاريخ الإسلام، وللبلدان ذات الأغلبية المسلمة، وللعلاقة بين الشرق والغرب، كُنتُ أدرك بالفطرة أن طنطنة فوبيا الإسلام التى كانت تُقبل كشىء منطقى فى الولايات المتحدة خاطئة تمامًا. فقد نشأتُ فى الهند فى منزل كان جيراننا من كلا الجانبين مسلمين، وكان صوت الأذان (الدعاء الإسلامى إلى الصلاة) صوتًا مسموعًا كل يوم. فالهند يوجد فيها أكثر من مائة مليون مسلم – أى أكثر من عدد المسلمين الموجودين في معظم الدول العربية – ولعلمى من خلال التجربة أن المسلمين يمثلون فئة معقّدة تمامًا مثل أى فئة أخرى من البشر، فإننى أشعر بالغثيان من الصور النمطية المقبولة كمعرفة لها مصداقية فى الولايات المتحدة، ذلك البلد الذى قضيت فيه حياتى فى سن الرشد.

وإنى أدين بالامتنان لعشرات الباحثين فى مجال دراسات الشرق الأوسط ولغيرهم قبلى الذين درسوا " العالم الإسلامي" لأنهم عززوا معرفتى بهذا الموضوع وساعدونى على فضح العنصرية الكامنة فى منطق فوبيا الإسلام. وإسهامى فى هذا البنيان هو التركيز على فوبيا الإسلام فى السياق الأمريكى، الذى لا توجد أبحاث كثيرة بشأنه (وأنا أستخدم مصطلح " أمريكي" للإشارة إلى الولايات المتحدة فى هذا الكتاب لأغراض أسلوبية فحسب، وأتقدم باعتذارى لقرّائى فى أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية). واعتماداً على تدريبى الأكاديمى منظّرة ثقافية، فإنى أضع طنطنة فوبيا الإسلام داخل السياق السياسى والتاريخى والقانونى والمجتمعى الأوسع نطاقًا الذى انبثق منه كى أبيِّن أن العنصرية ضد المسلمين كانت فى المقام الأول أداة للنخبة فى مجتمعات شتى. وهناك قدر من الجدل بشأن ما إذا كان مصطلح " فوبيا الإسلام" كافيًا للإشارة إلى ظاهرة العنصرية الثقافية ضد المسلمين. وأواصل استخدام هذا المصطلح، رغم ما ينطوى عليه من بعض القيود، ليس فحسب لأنه أصبح الآن مقبولا على نطاق واسع بل أيضًا لأننى أدرس فى هذا الكتاب تحديداً الخوف (والكراهية) المتولدين ضد " الخطر الإسلامى".

ولذا يبدأ الكتاب ببحث الحالات الأولى فى الغرب التى صوَّر فيها المسلمون على أنهم يمثلون تهديداً لأوروبا. وقد حدث ذلك فى القرن الحادى عشر فى سياق الحروب الصليبية وإعادة الاستيلاء على شبه جزيرة أيبيريا. ثم يحدد ذلك الفصل العلاقة التاريخية بين الشرق والغرب بدءاً من القرن الثامن حتى القرن الثامن عشر. وهذه النظرة الطويلة المدى تتيح لنا أن نرى أن صورة المسلمين والإسلام فى أوروبا مرّت بسلسلة من التحولات والتغيّرات التى كانت مقابلة للتغيرات الحاصلة فى العالمين السياسى والاجتماعى. ومن ثم، وعلى النقيض من فكرة أن العلاقة بين الشرق والغرب كانت تتسم دومًا بالتعارض أو " صدام الحضارات"، فإننى أبيِّن أن التحيّز ضد المسلمين أوجدته النخبة الحاكمة واستخدمته عمداً فى لحظات معينة. وبينما تقبّل الأشخاص العاديون فى أوروبا هذه الأفكار، مثلا أثناء الحروب الصليبية، فإنهم قاوموها أيضًا. ووجود هاتين الظاهرتين معًا محاه تقريبًا باحثون مستشرقون من أمثال برنارد لويس، صَاحب مصطلح " صدام الحضارات". فلويس يسطّح نظريته ليحاجج بأن

الصراع بين هذين النظامين الغريمين [المسيحية والإسلام] دام نحو أربعة عشر قرنًا حتى الآن. وقد بدأ بقدوم الإسلام، فى القرن السابع، واستمر حتى وقتنا هذا تقريبًا. وقد انطوى على سلسلة طويلة من الهجمات والهجمات المضادة، والجهاد والحروب الصليبية، وعمليات الاستيلاء وعمليات إعادة الاستيلاء(١).

وبالنسبة للويس، العلاقة بين " الغرب المسيحي" و " الشرق المسلم" هى علاقة مدفوعة فى المقام الأول بالتعارض؛ ولذا فإن هذه السمة الأساسية من سمات التعامل بين الشرق والغرب استمرت بالضرورة فى أواخر القرن العشرين. ويفنّد الفصل الأول هذا المفهوم بوضع صورة الإسلام فى أوروبا فى سياقها التاريخى الصحيح.

ويركز الفصل الثانى على القرنين التاسع عشر والعشرين، وهى حقبة شهدت استعماراً واسع النطاق من قِبل الدول الكبرى. فإنجلترا وفرنسا على وجه الخصوص استولتا على أجزاء كبيرة من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. وبررتا عملية الاستعمار

هذه باللجوء إلى مجموعة من الأفكار تسمى " الاستشراق". ففى القرن التاسع عشر، أقامت دول أوروبية شتى مراكز لدراسة الشرق انبثقت منها مجموعة ضخمة من المِنح الدراسية للمستشرقين ترتبط ارتباطًا عضويًا بالإمبريالية والاستعمار. وأركِّز بصفة رئيسية فى هذا الفصل، وفى ثنايا الكتاب بوجه عام، على الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، لأن هاتين المنطقتين هما اللتان تولدت منهما إلى حد كبير، نتيجة لقربهما من أوروبا، المعلومات التى أوجدت مفردات غربية نخبوية عن " الإسلام". وبعد الحرب العالمية الثانية، تولّت الولايات المتحدة زمام الأمر من فرنسا وإنجلترا، حرفيًا وعلى سبيل الكناية على حد سواء. فقد بدأت فى ممارسة هيمنتها فى المنطقة ليس فقط عن طريق لغة الاستشراق المستعارة، ولكن أيضًا عن طريق مفردات التحديث الرأسمالى، التى كانت أنسب للشكل الجديد من الإمبريالية الذى بدأته الولايات المتحدة. ويتناول الفصل الثالث استمرار وجود الآراء الاستشراقية (وبعض الآراء التى تنتمى إلى القرون الوسطى) فى القرن الحادى والعشرين. وهو يبيِّن خمسة أقاويل عنصرية مقبولة على أنها أقاويل صحيحة عن المسلمين تنتشر اليوم ويبيّن أن هذه الأكاذيب ذات تاريخ أطول.

ويتناول الباب التالى النهج الأمريكى إزاء الإسلام على المسرح السياسى. وهو يبيّن أن الإسلاميين لم يكن يُنظر إليهم دومًا على أنهم يشكّلون تهديدًا للولايات المتحدة. ويتناول فصلان من الكتاب هذا التاريخ، هما الفصل الرابع والفصل السابع. ويبيّن الفصل الرابع السياسة المتناقضة التى اتبعتها النخبة السياسية فى الولايات المتحدة إزاء أحزاب الإسلام السياسى. فإبان الحرب الباردة وحتى الثورة الإيرانية فى عام ١٩٧٩، كانت الولايات المتحدة تؤيد بحماس القوى التى يمكن أن تؤسلم الشرق الأوسط وتكون بمثابة حركة مضادة لأولئك الذين كانوا يمثلون تحديًا لسيطرتها، وهم القوميون العلمانيون واليسار. وفى فترة ما بعد سبعينيات القرن المنصرم، أقام واضعو السياسات فى الولايات المتحدة تحالفات مع أولئك الإسلاميين الذين كانوا يقفون إلى

جانب الإمبريالية الأمريكية وعملوا ضد أولئك الذين كانوا يرفضون أداء هذا الدور. وحتى بعد ١١ سبتمبر، عندما صوّر الإسلاميون بوجه عام على أنهم عدو الولايات المتحدة اللدود، استمر النهج المذكور آنفًا.

ويبحث الفصلان الخامس والسادس ظاهرة الإسلام السياسى حسب وصفه لنفسه. ويبين الفصل الخامس أن أحزاب الإسلام السياسى ليست الامتداد الطبيعى للمجتمعات التى تسيطر عليها أغلبية مسلمة، مثلما حاجج البعض. إذ إن " العالم الإسلامي" (وهى تسمية خاطئة) شهد، مثلما حدث فى المجتمعات التى توجد فيها أغلبية مسيحية، فصلا للدين عن السياسة أيضًا. وفهم هذا التاريخ يتيح لنا أن نرى أن الإسلام السياسى ظاهرة معاصرة. ويبين الفصل السادس أن التأسلم، الذى كثيرًا ما يسمى الأصولية الإسلامية، هو نتاج ظروف تاريخية معيّنة فى أواخر القرن العشرين كان ما دفع إليها أيضًا هو تنامى الأصولية المسيحية والهندوسية واليهودية.

ويتناول الفصل السابع فكر ما بعد انتهاء الحرب الباردة داخل مؤسسة السياسة الخارجية والمسار الذى أفضى إلى حقبة " الحرب على الإرهاب". ويفكك الفصل أسلوبين سائدين فى التفكير فى دوائر صنع السياسة، هما أسلوب المحافظين الجدد وأسلوب المعسكر الواقعى/ الليبرالى. وعلى الرغم من الاختلافات بين هذين الجناحين فيما يتعلق بمسائل الخطاب والاستراتيجية، فإنهما يتقاسمان التزامًا مشتركًا بالإمبريالية الأمريكية. فنقاط الاختلاف بينهما تدور حول أفضل السُّبل للحفاظ على سيطرة الولايات المتحدة وهيمنتها على العالم. بيد أن هذه الاختلافات نُحيَت جانبًا فى أعقاب أحداث ١١ سبتمبر مباشرةً، عندما تآلف المحافظون/المحافظون الجدد والليبراليون المتخوفون من الإسلام لشن الحرب على الإرهاب. ومنذ ذلك الحين، كانت الولايات المتحدة على استعداد لعقد صفقات مع طالبان أو مع الإخوان المسلمين المصريين.

أما الباب الأخير فى الكتاب فهو يتناول استخدامات فوبيا الإسلام فى السياق الداخلى. ويبيِّن الفصل الثامن الطرائق التى جرى بها لَيّ عُنق النظام القانونى بعد

١١ سبتمبر لمقاضاة المواطنين والمهاجرين المسلمين، لا سيما أولئك الذين ينحدرون من منطقة الشرق الأوسط وجنوب آسيا. وجدير بالذكر أن العرب والمسلمين كانوا يتعرضون للاضطهاد قبل عام ٢٠٠١ من قبل الأجهزة القانونية وكانوا يعاملون كإرهابيين محتملين. وشهدت فترة ما بعد ١١ سبتمبر التلاقى بين السياسة الداخلية والسياسة الخارجية، مما أسفر عن تكوين صورة العدو " الإرهابى الإسلامي" الذى يجب مكافحته فى الخارج وفى الداخل. و " الرعب الأخضر" (الأخضر هو اللون الذى يرمز إلى الإسلام) المقابل مماثل لمختلف أشكال " الرعب الأحمر" المناهضة للشيوعية التى كانت من سمات السياسة الداخلية للولايات المتحدة فى القرن العشرين. وعندما تدخل دولة حربًا مع عدو خارجي، فإنها تتحول حتمًا ضد أولئك الذين تعتبرهم تجسيدًا لذلك العدو داخل حدودها: وحالة المسلمين فى الولايات المتحدة الآن تشبه شبهًا شديدًا حالة الأمريكيين اليابانيين أثناء الحرب العالمية الثانية. وإحصائيًا، تزيد احتمالات وفاة الأمريكيين من جراء صاعقة برق عن احتمالات وفاتهم من جراءً عمل "إرهابي". والتركيز على الأمريكيين المسلمين " الذين أصبحوا راديكاليين" لا يخدم هدف الحفاظ على سلامة الأمريكيين، بل يعمل على إثارة إحساس بالخوف وجنون الشك وهو ما يمكن عندئذ استخدامه لإخماد المعارضة وكسب التأييد لانتهاكات الحريات المدنية فى الداخل وللحروب فى الخارج.

ويبحث الفصل التاسع التحول داخليًا إلى " الإرهاب الداخلى المنشأ" فى نهاية العقد ويبيّن الدور الذى قام به الرئيس أوباما والحزب الديمقراطى فى إيجاد منفذ لأقصى اليمين. ويركز الفصل تحديدًا على الجدل الذى تولّد نتيجة للاقتراح الداعى إلى إقامة مركز إسلامى على مقربة من موقع مركز التجارة العالمى السابق. فقد أظهر الجدل بشأن " مسجد جراوند زيرو"، الذى يمثّل تسمية خاطئة، العوامل الديناميية القائمة: فبينما أشعل المتخوفون من الإسلام الذين يمثلون أقصى اليمين الكراهية ضد المسلمين، أخذ الليبراليون والديمقراطيون يؤججون النيران. وكانت المحصلة النهائية هى تعزيز المتعصبين العنصريين والتمكين من إحداث طفرة فى رهاب الإسلام لم

تُشهد منذ أحداث ١١ سبتمبر. وكان هذا هو أول انتصار واضح لليمين الصهيونى المتخوف من الإسلام، الذى كان ضالعًا فى حملات شتى منذ أحداث ١١ سبتمبر. وأدت المناورات السياسية المتعلقة بالفوبيا الليبرالية للإسلام على قمة المجتمع إلى تمكين الفوبيا المتطرفة للإسلام لدى اليمين. وبذلك استطاع أقصى اليمين أن يستغل جو العنصرية هذا، بحيث قام ببناء صفوفه عن طريق آليات تقديم كبش فداء. كذلك، استغل الساسة فوبيا الإسلام لكسب الأصوات والنفوذ السياسى.

أما الفصل العاشر فهو يتناول تحديدًا محاربى الجناح اليمينى المتخوفين من الإسلام - وهم المكارثيون الجدد - وصلاتهم بالمؤسسة الأمنية، ووسائط الإعلام، والأوساط الأكاديمية، والطبقة السياسية. وحجّتى التى أسوقها فى هذا الفصل هى أن المتخوفين من الإسلام الذين يمثلون الجناح اليمينى ليسوا أقلية هامشية بل هم جزء لا يتجزأ من هياكل المجتمع الأمريكى العام. فالمكارثيون الجدد، مثلهم مثل السيناتور جوزيف مكارثى من قبلهم، يلعبون دورًا جماعيًا فى تصعيد الخوف والكراهية ضد المسلمين، بموافقة كاملة من جانب الحزبين الجمهورى والديمقراطى على حد سواء. وتمامًا مثلما أصبح مكارثى ممكنًا بواسطة نظام سياسى وجد أن أساليبه الغريبة مفيدة فى شن الحرب الباردة، فإن المكارثيين الجدد الموجودين الآن مفيدون فى تجاوز الحدود والمضى قُدمًا فى الحرب على الإرهاب.

وأخيرًا، تتناول الخاتمة الطرائق التى يمكن بها مكافحة فوبيا الإسلام ومقاومته. فأنا أحاجج بأن فوبيا الإسلام يتعلق بالسياسة لا بالدين فى حد ذاته؛ ولذا من اللازم مكافحته على تلك الأرض. وقد كان هناك قدر كبير من الأمل لدى الأمريكيين المسلمين وبين شرائح من اليسار فى أن رئاسة أوباما ستخفف، إن لم تكن تقضى على، العنصرية ضد المسلمين. ومع ذلك، وكما يبيّن ذلك الفصل الختامى من فصول الكتاب، لم يتحقق هذا الأمل فى التغيير: فأوباما تبنّى وقنّن تمامًا سياسات عهد بوش. وبعد سنوات من مظاهر الخيانة من جانب الحزب الديمقراطى، تكاتفت شرائح من الأمريكيين المسلمين، إلى جانب حلفائهم فى الحركة المناهضة للحرب والحركات

الاجتماعية الأخرى، لمقاومة العنصرية ضد المسلمين. وبدأت حركات محلية للدفاع عن الأمريكيين المسلمين المستهدفين دون وجه حق تندمج فى حركة على نطاق البلد. وربط منظمو حركة الدفاع عن حقوق المسلمين بين تحرّش إدارة شرطة نيويورك بالسود واللاتينيين وبين حملة المراقبة التى تستهدف المسلمين، مما أوجد أواصر تضامن متعدد الأعراق. واختتم بسوق الحجة القائلة بأن النجاح فى إلحاق الهزيمة بفوبيا الإسلام لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق بذل جهود من هذا القبيل، وعن طريق سياسة تضامن دولى تربط بين الهجمات الداخلية على المسلمين وبين أهداف الإمبريالية.

ولم يكن من الممكن أن أختار سنة أفضل من عام ٢٠١١ للعمل فى تأليف هذا الكتاب. فقد شهد الجزء الأول من ذلك العام مولد " الربيع العربى": ففى غضون أسابيع، أطاح أناس عاديون فى تونس ومصر بديكتاتورين كانا مكروهيْن منذ أمد طويل ويحظيان بمساندة الولايات المتحدة. وجعلت التغطية الإعلامية التى تلت ذلك فى الولايات المتحدة الأمريكيين يرون صوراً للعرب والمسلمين لم يشاهدوها من قبل، على الأقل على هذا النحو المتواصل. وقطع النشاط الذاتى من جانب العرب والمسلمين العاديين شوطًا طويلاً صوب تحطيم الصور النمطية الراسخة منذ أمد طويل التى تنم عن فوبيا الإسلام؛ وحمل المحتجون الموالون للنقابات فى ماديسون وويسكونسن لافتات اعتصامية تقول " مراقب حسنى" و " كافح كمصرى". وفى غضون أشهر قليلة، كان ما حققه الناس فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا لمكافحة الصور الكاريكاتيرية التى تنم عن فوبيا الإسلام عن طريق أنشطتهم أكبر مما حققته جميع الكتب التى كُتبت عن الموضوع. ومن ثم فإننى أهدى هذا الكتاب بكل التواضع إلى نساء الربيع العربى الباسلات وإلى رجال الربيع العربى البواسل.

شكر وعرفان

لقد أسعدنى الحظ على مدى العقد المنصرم للتفاعل مع أشخاص أذكياء ورائعين وذوى عواطف جياشة كثيرين دفعونى إلى التفكير فى هذا الموضوع بطرائق لم أكن لأتبعها لو أننى قُمت بتأليف هذا الكتاب وأنا منعزلة فى برج عاجى. فكل سؤال وكل تعليق وكل تفاعل مع مئات من الأشخاص فى محادثات واجتماعات وحلقات عمل فى الولايات المتحدة والخارج كان له تأثيره على هذا الكتاب وشكّل الكتاب. ومن ثم يجب أن أبدأ بالإعراب عن تقديرى لهم، حتى وإن لم يكن بوسعى أن أذكر كل شخص بالاسم.

ويأتى بين أولئك الذين بذلوا جهدًا شاقًا ومكثفًا بشأن الكتاب، أولاً وفى المقدمة، بول داماتو، المحرر الإدارى لصحيفة International Socialist Review. فقد نُشرت نُسخ مبكرة من بعض فصول الكتاب فى تلك الصحيفة، واستفادت تلك النسخ من معرفة بول الواسعة بجميع الأشياء المهمة (وغير المهمة!). وقد قرأ أيضًا الفصول الأول والثانى والثالث والسابع وقدم تعليقات مفيدة. ويجب أن أتوجه بالشكر إلى أحمد شوقى، رئيس تحرير الصحيفة والمفكّر الرائع الآخر، لما قدّمه من مساندة للمشروع ولوقوعه على العديد من الأخطاء التى كانت فى الكتاب. وقرأ لانس سيلفا الفصول الرابع والسابع والعاشر، وكانت معرفته المتعمقة بالمؤسسة السياسية الأمريكية لا تقدّر بثمن. وقام محاميان رائعان، هما ستيف داونز وآمنة أكبر، بقراءة وتصحيح الفصل الثامن الذى يتناول الأجهزة القانونية. ونُشرت نسخة من الفصل الثالث فى صحيفة Journal of Communication Inquiry؛ وأُعرب عن شكرى مرة أخرى للمجهولين الذين استعرضوا ذلك الفصل.

ويجب أيضًا أن أشكر يوشي فوروهاشي، صديقتي من الكلية التي درسْتُ فيها، لنشرها أول مقالة لي عن فوبيا الإسلام في MRZine. وقد أبلغتني أن المقالة قرأها أكثر من عشرة آلاف شخص في الأيام القليلة الأولى. واعتبرتُ ذلك مؤشراً على أنني ربما ينبغي أن أواصل الكتابة عن الموضوع. وأود أن أشكر أيضًا طالبتي هدى متولي وطالبي برايان ساكس لرغبتهما الشديدة في مساعدتي في البحث عن مرجع أو التأكد من صحة حقيقة. وأخيراً وليس آخراً، محررة نسختي، سارة جراي. فأي أحد عمل مع محرر جيد للنسخ يدرك مدى أهمية ذلك المحرر للعملية، وقد كانت سارة هي الأفضل. وبينما شارك كل منْ أسميته هنا في إعداد الكتاب وقام بتشكيله بطرائق كبرت أو صغرت، فإن أية أخطاء باقية في الكتاب أتحمل أنا المسؤولية عنها.

وأخيراً، أتوجه بالشكر الكبير إلى جميع أصدقائي الأعزاء لما أبدوه من عطف ومساندة أثناء سنة صعبة، ولا سيما هيلين سكوت، وميجان بيهرينت، وأنجالي جاناباثي، وسرينيفاس ريدي، وآشلي سميث، وسارة جراي، وجو كليفي، وسوزان مناحم، ولي وينجراف، وسوزان دواير، وفيرجينيا هرابين، ورجينا مارشي.

الفصل الأول

صور الإسلام فى أوروبا

فى أعقاب أحداث ١١ سبتمبر مباشرةً، ارتفعت معدلات بيع القرآن ارتفاعًا هائلاً فى الولايات المتحدة. فالأشخاص الذين لم يكن ليعنيهم كثيرًا الإسلام اتجهوا إلى هذا الكتاب المقدس لعلهم يجدون تفسيرات لأسباب حدوث الهجمات. ولكن ما الذى دفع إلى هذا الربط التلقائى بين أفعال بعض الأفراد وديانتهم؟ إذ يمكن القول بأن أحدًا لم يتجه إلى الإنجيل، سواء العهد القديم أو العهد الجديد، ليفهم السبب الذى جعل تيموثى ماكفى يفجّر قنبلة فى مبنى فيدرالى فى مدينة أوكلاهوما. فلماذا إذًا يُنظر إلى العرب والمسلمين من خلال عدسة الإسلام فى المقام الأول؟

وللإجابة عن هذا السؤال يجب أن نتجه إلى الصور السائدة للإسلام والمسلمين فى الغرب. وبوجه خاص، يبحث هذا الفصل الطرائق التى قامت بها النُّخب الحاكمة فى أوروبا على مر التاريخ بتكوين صور معيّنة " للعدو المسلم" تعزيزًا لطامحها السياسية. وإيجازًا، تاريخ " الإسلام والغرب"، كما يسمى عادةً، ليس قصة نزاع دينى بل هو بالأحرى قصة نزاع وُلد من رحم تنافسات سياسية وأجندات إمبريالية متنافسة.

بيد أن هذا لا يعنى أن الالتقاء بين " الشرق" و " الغرب" كان مريرًا وعدائيًا دومًا. وأضع كلمة " الشرق" وكلمة " الغرب" بين أقواس تنصيص إقرارًا بعدم وجود شرق أحادى الخواص، تمامًا مثلما لا يوجد غرب وحيد. فالشعوب التى عاشت فى المواقع

الجغرافية التى نسميها أوروبا والشرق الأدنى فى الفترة المتناولة بالدراسة فى هذا الفصل، بدءًا من القرن الثامن وحتى القرن الثامن عشر، كانت تتسم بأشكال اختلاف ثقافية ولغوية وعرقية وطبقية وقومية وأشكال اختلاف أخرى. وهذا الفصل، مثله مثل الكتاب بأكمله، يتجنب الفهم التبسيطى لأوروبا والشرق الأدنى على أنهما يمثلان "نظامين غريمين" استنادًا إلى الانتماء الدينى.

ولذا فإن الغرب لم تكن لديه صورة واحدة فقط للإسلام بل كانت لديه صور متعددة. فعلى سبيل المثال، وجد فى بعض الأحيان الأوروبيون العاديون الذين التقوا بنظرائهم فى الشرق الأدنى الكثير فى أولئك النظراء الذى يبعث على إعجابهم واحترامهم؛ ومع ذلك من الخطأ التقليل من شأن سيطرة الأفكار السائدة فى أى مجتمع على أفراد ذلك المجتمع. فحتى بينما يمكن للأشخاص العاديين أن يقاوموا الأفكار السائدة، وبينما يقاومون تلك الأفكار بالفعل، فإن منْ يحكمون مجتمعًا هم الذين يحددون عادةً شروط النقاش. وعلى نفس المنوال، عندما تغيِّر النُّخب أفكارها عن موضوع بعينه، فإنها تُفرز تحولاً مقابلاً فى المجتمع الأوسع نطاقًا.

وقد شهدت صورة الإسلام فى أوروبا سلسلة من التحولات من هذا القبيل. فالمواجهة بين الشرق والغرب، البعيدة كل البُعد عن كونها " صدام حضارات" بسيطًا، هى مواجهة معقّدة وديناامية ومتناقضة. ويبيِّن هذا الفصل الظروف التاريخية المتغيرة التى أفرزت صورًا مختلفة للإسلام والمسلمين فى الغرب.

الاحتكاك المبكر بالإسلام

لقد نشأ الإسلام فى القرن السابع فى منطقة الحجاز بشبه الجزيرة العربية، التى تضم مدينتى مكة والمدينة. وكانت هذه المنطقة مركزًا رئيسيًا للنشاط التجارى، وكان العرب الذين يعيشون هناك على اتصال مستمر بجيرانهم البيزنطيين المسيحيين وبجيرانهم الساسانيين الفُرس. وفى هذا السياق بدأ مُحمَّد، الذى كانت مهنته هى

التجارة، يكرّس وقتًا للشؤون الروحية. وعمل مُحمَّد لحساب زوجته الثرية الأكبر منه سنًا، التى كانت قوافلها تتاجر مع سوريا. ويؤمن المسلمون بأن مُحمَّدًا بينما كان معتكفًا فى التلال على مقربة من مكة عام ٦١٠ ظهر له الملاك جبريل لينقل له رسالة من الله. وعلى مدى العقدين التاليين (٦١٠-٦٣٢)، تلقى مُحمَّد العديد من هذه التجليّات، وعلى ذلك الأساس دعا إلى دين جديد يسمى الإسلام. وكلمة الإسلام تعنى " الخضوع"؛ فالمسلم هو شخص يخضع لإرادة الرب. والقرآن، وهو الكتاب المقدس للإسلام، هو تجميع لكلمة الله التى أُنزلت على مُحمَّد، نبيّه.

وفى البداية كان معتنقو الإسلام قليلين للغاية. فقد قابل أهل مكة فى البداية مُحمَّدًا بالعداء. وكان هذا ناجمًا جزئيًا عن الرسالة التى أتى بها، وهى أن الله يتوقع من الناس أن يتقاسموا ثروتهم مع منْ هم أشد حاجة منهم. وفى عام ٦٢٢ غادر مُحمَّد وأتباعه مكة إلى المدينة، وهى رحلة يُشار إليها باسم الهجرة. وفى المدينة أصبح مُحمَّد قائدًا روحيًا وسياسيًا واجتذب أعدادًا متزايدة من المؤمنين؛ وعند وفاته فى عام ٦٣٢، كان الإسلام قد انتشر فيما يتجاوز الحجاز وإلى أجزاء أخرى من شبه الجزيرة العربية.

وفى غضون عقدين من وفاة مُحمَّد، لم تهزم جيوش المسلمين العرب حكم الساسانيين (الذين ظلوا يحكمون بلاد فارس والمناطق المجاورة لعدة قرون) فقط بل استولت أيضًا على أجزاء من أراضى الإمبراطورية البيزنطية. واستمر التوسّع فى ظل الحكم الأموى (من عام ٦٦١ حتى عام ٧٥٠) بحيث بلغ شمال أفريقيا، ثم وصل إلى أوروبا فى أوائل القرن الثامن. وبدأت عمليات غزو تلك الجيوش فى إسبانيا، واستمرت فى شبه جزيرة أيبريا بأكملها، ووصلت إلى إيطاليا.

وهذا الغزو لأوروبا أثار الانزعاج. ولكن فى هذه المرحلة كان يُنظر إلى الغزاة المسلمين على أنهم مجرد وبال آخر، لا يختلف عن الجيوش الأخرى التى اجتاحت الحدود. ويصف نورمان دانييل السنوات الأربعمائة الأولى من الاحتكاك (بين عامى ٧٠٠ و ١١٠٠) بأنها " عصر الجهل". فإبّان تلك الفترة كان الغرب " لا يعرف شيئًا

تقريبًا عن الإسلام كديانة. وبالنسبة له كان الإسلام مجرد واحد من عدد كبير من الأعداء الذين يهددون المسيحية من كل حدْب وصوْب، ولم يكن لدى الغرب أى اهتمام بالتمييز بين النورمان والسلافيين والمجريين البدائيين من عَبدة الأوثان وبين دين الإسلام التوحيدى ... ولا يوجد أى مؤشر على أن أحدًا فى شمال أوروبا كان قد سمع حتى باسم مُحمَّد."(١).

بيد أن انعدام المعلومات هذا عن الإسلام لم يوقف النُّخب فى شمال أوروبا عن تكوين صورة الناس الذين أطلقت عليهم السراسنة. وأعرب القس بيد، وهو أحد علماء الإنجيل فى القرن الثامن، عن الاعتقاد السائد وقتئذ، قائلاً إن السراسنة هم نسل هاجر، إحدى زوجات إبراهيم. وكان هناك ربط بين اسماعيل ابن هاجر والسراسنة، وكان مفهومًا أن شقيقه إسحاق هو جَدّ اليهود (وجَدّ المسيحيين لذلك)(٢) . وعلى الرغم من هذا الارتباط العائلى، صوِّر السراسنة مع ذلك فى صورة البرابرة.

ولكن فى إسبانيا تحت حكم المسلمين كان هناك مزيج من الأفكار. " فقد كانت الأكاذيب المسيئة والمهينة عن السراسنة منتشرة على نطاق واسع بين جموع المسيحيين واليهود. ولكن هذه الأكاذيب كانت ممزوجة بانطباعات أكثر موثوقية تستند إلى الاحتكاك اليومى الفعلى."(٣) وقد دام حكم المسلمين لشبه جزيرة أيبيريا (إسبانيا والبرتغال وأجزاء من جنوب فرنسا) ثمانية عقود قبل أن يخرجهم المسيحيون فى نهاية الأمر عام ١٤٩٢، وأثناء هذه الفترة، كان هناك تسامح إزاء المسيحيين واليهود باعتبارهم " من أهل الكتاب" وكان يُسمح لهم بممارسة شعائر ديانتهم إذا دفعوا جزية. وهذا الاحتكاك المستمر خفّف من الصور الأكثر عداءً.

الأندلس والحكم الإسلامى فى أوروبا

بينما كانت بقية أوروبا تمر بفترة ركود ثقافى تُعرف باسم عصور الظلام، شهدت الأندلس، وهو الاسم الذى أُطلق على شبه الجزيرة الأيبيرية تحت الحكم الإسلامى،

نمو المعرفة البشرية وتطورها. فأعمال مختلف المجتمعات العظيمة، بدءًا من الإغريق إلى الفُرس، تُرجمت إلى اللغة العربية فى المكتبات الكثيرة التى أنشأها الحكّام المسلمون (ليس فى الأندلس فحسب بل أيضًا فى بغداد فى ظل الحكم العباسي). وكانت مدينة قرطبة بإسبانيا أحد المقار العظيمة للمعرفة. ففيها، كما فى أماكن أخرى، تحققت أوجه تقدم هائلة فى ميادين الفلسفة والطب والفلك والمعمار، بل وحتى فى مجال التنمية الحضرية. وبينما كانت بقية أوروبا قابعة فى الظلام، كان مواطنو قرطبة يتمتعون بأنوار الشوارع وبالمياه الجارية[٤].

وليس مما يبعث على الدهشة، فى سياق حضارة مزدهرة، أن تتبدد المواقف السلبية تجاه " المور" (مسلمى إسبانيا). وشكا كاتب مسيحى، متحدثًا عن تغيّر المواقف هذا، من أن:

> **المسيحيين مغرمون بقراءة قصائد العرب وقصصهم الغرامية؛ وهم يدرسون المنظّرين والفلاسفة العرب، لا لدحضهم بل لتكوين لغة عربية صحيحة وأنيقة [منقولة دون تعديل]. فأين هو رجل الشارع الذى يقرأ الآن التعليقات اللاتينية على الكتاب المقدس، أو الذى يدرس الأناجيل أو الأنبياء أو الرُسل؟ وأسفاه! إن المسيحيين الشبان الموهوبين يقرأون ويدرسون بحماس الكتب العربية؛ وهم يقتنون مكتبات ضخمة بتكلفة باهظة؛ ويحتقرون اللغة المسيحية باعتبارها غير جديرة بالاهتمام. وقد نسوا لغتهم. فمقابل كل شخص يستطيع أن يكتب حرفًا باللغة اللاتينية إلى صديق يوجد آلاف يستطيعون التعبير عن أنفسهم باللغة العربية بأناقة ويكتبون قصائد بهذه اللغة أفضل من قصائد العرب أنفسهم[٥].**

وتقول ماريا روسا مينوكال، التى درست أوجه التقاطع بين الفكر اليهودى والمسيحى والإسلامى فى الأندلس، إن هذا المجتمع، ولا سيما عوالمه الفكرية والفنية، كان يتسم بـ convivencia، أى التعايش، فى وئام نسبى. ومع أن ذلك العصر لم يكن خاليًا من الصراع – مثلما أشار إلى ذلك منْ ينتقصون من شأن ما تقوله ماريا روسا مينوكال – فإنه بمثابة مثال للتسامح والتناغم النسبى بين أناس ذوى ديانات مختلفة. بل إن Park51، وهو المركز المجتمعى الإسلامى فى الجزء الجنوبى من مانهاتن الذى

أشعل بناؤه جدلاً في عام ٢٠١٠، كان يسمى أصلاً دار قرطبة إحياءً لروح التعايش (convivencia) هذه[٦]. يرد مزيد من المناقشة لهذا الجدل في الفصل التاسع.

ومن الناحية الفكرية، على أوروبا أن تدين بالعرفان للباحثين في الشرق الأدنى. فإمبراطوريات إسلامية شتى لم تستهل فحسب حقبة شهدت ترجمة الأعمال العظيمة لثقافات مختلفة بل شهدت أيضًا فترة تطور. فعلى سبيل المثال، بنى الباحثون المسلمون على المفاهيم العلمية الفارسية واليونانية، ومهّدت أعمالهم السبيل لعصر النهضة ولنشوء العلم الحديث[٧].

وفي النهاية بدأت أوروبا عملية الخروج من عصور الظلام في أوائل القرن الثاني عشر، وتدافع المثقفون أفواجًا على المكتبات المختلفة في الإمبراطوريات الإسلامية لكي يستعيدوا المعرفة المفقودة. وشهدت تلك الحقبة ترجمة الأعمال العظيمة التي أنتجتها الإنسانية من اللغة العربية إلى اللغات الأوروبية. وخلال تلك العملية استوعب المثقفون الأوروبيون المساهمات المتعمقة التي قدمها مفكرو الشرق الأدنى. وكما كتب زاكاري لقمان،

لقد استُخدمت لمدة قرون المؤلفات العربية المترجمة عن الطب والرياضيات والفلك والعلوم الأخرى ككتب مدرسية في أوروبا العصور الوسطى، بينما كانت مؤلفات الفلاسفة المسلمين من أمثال ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧، المعروف في الغرب باسم (Avicenna) وابن رُشد (١١٢٦-١١٩٨، المعروف باسم (Averroes)، والفلاسفة اليهود الذين كانوا يكتبون باللغة العربية بصفة رئيسية من أمثال الحاخام موسى بن ميمون (Maimonides)، ١١٣٥-١٢٠٤)، تُقرأ بشغف وتُناقش وأثرت في أجيال متعددة من الفلاسفة وعلماء اللاهوت المسيحيين في القرون الوسطى [٨].

ومع أن الكنيسة اللاتينية رفضت أعمال ابن سينا، فقد فتحت هذه المساهمات الباب لفهم أدق للإسلام وللمسلمين. وكان أحد الأشخاص الذين ساهموا مساهمة

كبيرة فى ذلك هو بطرس الناسك، الذى كان من بين أشياء أخرى قام بها إصداره تكليفًا بترجمة القرآن. ومع ذلك بينما أفرز الاطلاع على القرآن (وكذلك على نصوص عربية أخرى مترجمة) صورة للإسلام أكثر واقعية لدى غير المسلمين، فقد كانت الكنيسة تستشهد به أيضًا بطريقة انتقائية لتكوين دعاية مضادة للمسلمين[٩].

الحروب الصليبية وإعادة الاستيلاء

لقد كانت حقبة النمو الفكرى الأوروبى فى القرن الحادى عشر مصحوبةً بنمو فى التجارة داخليًا وخارجيًا. وبدأت تنبثق أسواق ومدن. ولكن فى تلك المرحلة لم يعد المسلمون عدوًا واحدًا بين كثيرين؛ فالغزاة الوثنيون الآخرون (من قبيل النورمان والمجريين البدائيين) الذين غزوا أوروبا المسيحية بلا هوادة فى القرنين التاسع والعاشر اعتنقوا المسيحية.وجرى إدماجهم. وكان العدو الوحيد الذى بقى هو المسلمون. لكن هذا لا يعنى أن أوروبا كانت موحدةً وتحيا فى وئام. بل أصبح الإسلام، بالأحرى، هو " الآخر" المناسب لحشد الدعم لما يطمح إليه حكّام شتى من غزو للأراضى. وفى إسبانيا، بدأ الحكام المسيحيون فى الشمال حربًا لاستعادة شبه الجزيرة الأيبيرية من " العدو المسلم" فى ما أصبح يُعرف باسم إعادة الاستيلاء (reconquest).

وفى الشرق، تعرضت الإمبراطورية البيزنطية المسيحية (أو روما الشرقية) لسلسلة من الهزائم على أيدى الأتراك السلاجقة المسلمين. وكتب الإمبراطور رسالة إلى البابا أوربان الثانى يلتمس فيها المساعدة من أوروبا ضد الأتراك. ولقى نداؤه استجابة. فقد شنْ أوربان حربًا مقدسة (تُعرف باسم الحروب الصليبية) فى عام ١٠٩٥ ودعا جميع المسيحيين فى أوروبا إلى الاتحاد ومحاربة " أعداء الله". وهذه التهمة لم تكن تتعلق ببساطة، أو حتى فى المقام الأول، بالديانة. فكما يوضّح جون إزبوزيتو، " بالنسبة للبابا، كانت الدعوة إلى الدفاع عن الدين وبيت المقدس تتيح فرصة

مثالية لكسب الاعتراف بالسلطة البابوية ودورها فى إضفاء الشرعية على الحكّام الدنيويين، وإعادة توحيد الكنيستين الشرقية (اليونانية) والغربية (اللاتينية)[١٠].
وأصبحت الديانة هى الستار الذى كانت تدور وراءه الصراعات الاجتماعية والاقتصادية. ومن المؤكد أن المسلمين لم يكونوا هم وحدهم الذين قتلهم الصليبيون: فقد جرت مذابح ممنهجة ضد اليهود فى أوروبا، وكان المسيحيون فى الإمبراطورية البيزنطية يُذبحون أيضًا بلا رحمة. وإضافة إلى ذلك، فى مراحل شتى تعاون المسلمون والمسيحيون معًا، وانقلب كل منهما على معسكره، من منطلق المصلحة الذاتية.

وقد استجاب حكّام أوروبا للدعوة إلى الحرب المقدسة لأسباب مختلفة. " فالحكّام والفُرسان والتجّار المسيحيون كانوا مدفوعين بالمزايا السياسية والعسكرية والاقتصادية التى كانت ستنتجم عن إقامة مملكة لاتينية فى الشرق الأوسط"[١١].
وإضافة إلى ذلك، كانت أوروبا تتكون من عدد من الأنظمة الإقطاعية المتنافسة التى تحارب بعضها بعضًا باستمرار. وكانت الحروب الصليبية بمثابة وسيلة للحد من هذا الصراع الأوروبى الداخلى وصرف الانتباه إلى عدو خارجى. وعندما أطلق أوربان الحرب الصليبية الأولى، فإنه أعلن ما يلى: " دع أولئك ... الذين اعتادوا على شن حرب خاصة غاشمة على المؤمنين يزحفون على غير النصرانيين. ... دعْ أولئك الذين كانوا لصوصًا منذ أمد طويل يصبحون الآن من جُند المسيح. دعْ أولئك الذين حاربوا يومًا ما أشقاءهم وأقاربهم يحاربون الآن عن حق ضد البرابرة. دعْ أولئك الذين كانوا مرتزقة يتقاضون بضع قطع من الفضة ينالون الآن جائزة أبدية [١٢]." فباستخدام الدين لترسيخ الهوية والولاء، سعت البابوية إلى إيجاد أوروبا مسيحية موحدة يمكن أن تملك سلطة روحية عليها. بيد أن أولئك الذين استجابوا لهذا النداء وانضموا إلى الجيوش الصليبية كانوا مدفوعين بكل شيء بدءًا من الحماسة الدينية وانتهاءً بثمار النهب.

ومن ثم فإن صورة العدو المسلم وصورة الإسلام كديانة شيطانية بدأت تبرز فى هذا السياق فى أواخر القرن الحادى عشر. وكان حشد السكان من أجل شن حرب

مقدسة يقتضى حججًا دينية؛ وأصبح من الضرورى اكتساب معلومات عن الإسلام وتعاليمه وحياة النبى مُحمَّد وما إلى ذلك من أجل سَوْق الحجج ضدها. وهنا مثَّلت أعمال بطرس الناسك وآخرين مادة مفيدة للكنيسة لمهاجمة الإسلام على أنه هرطقة ولمهاجمة مُحمَّد على أنه نبى زائف.

وكان ما جابهه المسيحيون آنذاك هو ديانة مماثلة لديانتهم ولكنها تطعن فى تفوّق نظامهم العقائدى. فإله المسيحية هو نفس إله إبراهيم الذى يُعبد فى الإسلام، ولكن المسيحية تزعم أن تجسّد الرب فى يسوع يمثّل نهاية الآيات الربانية ونهاية النبوة. والإسلام يقول نفس الشىء ولكنه يؤكد أن مُحمَّدًا هو آخر نبى تلقى كلمة الرب الأخيرة والصحيحة.

ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى واجهت فيها المسيحية تحديًا من هذا القبيل. فاليهود، كذلك، لا يقبلون النسخة المسيحية من الآيات الربانية ولا يقبلون نبوة المسيح. بيد أن اليهود لم يكونوا يدخلون بجيوش فى العواصم المسيحية. ولم يكونوا يشكلون تهديداً للنُّخب على النحو الذى كانت الإمبراطوريات الإسلامية تشكله. ومن ثم، كما يقول ريتشارد سازرن Richavrd Southern، كان من السهل على المسيحية ألا تعير التحدى اليهودى انتباهها بسبب " تدنى مكانة اليهود اقتصاديًا واجتماعياً".[١٣] وبعبارة أخرى، لم تكن لدى اليهود السلطة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية التى تمكّنهم من تهديد العالم المسيحى. وعلاوة على ذلك، كان بإمكان المسيحيين الحصول على " مجموعة هائلة ومحرجة من المواد للرد على قضية اليهود[١٤]." وهذه المواد تُجمع الآن من أجل القضية المضادة للإسلام.

وقد أجرى نورمان دانييل Norman Daniel واحدة من أكثر الدراسات موثوقية عن صورة الإسلام التى أوجدتها النخبة الثقافية فى الغرب منذ أوائل القرن الثانى عشر حتى منتصف القرن الرابع عشر فكتابه "الإسلام والغرب" يبيّن أن أهم ما رد بين خطوط هجومهم المختلفة هو الحجة القائلة بأن آيات الإسلام كانت "وحيًا زائفا، استنادًا ليس فحسب إلى الكتب المقدسة المسيحية بل أيضًا إلى فكرة أن مُحمَّدًا لا يمكن

أن يكون نبيًا. وبدلاً من ذلك، صوّر مُحمَّد على أنه "شخص متواضع ووثنى النشأة، تمكّن من أن يكتسب سلطة، وحافظ عليها بآيات مدّعاة، ونشرها بواسطة العنف وبواسطة السماح لآخرين بنفس الممارسات الفاسقة التى انغمس فيها"(١٥). ونرى فى تلك المرحلة الربط بين الإسلام والعنف، وهو موضوع سيتكرر على مر القرون. وكان المحور هنا هو أن أولئك الذين لا يخضعون لسحر مُحمَّد، مثلما خضع العرب " السذّج"، إما يتم إخضاعهم بالقوة العنيفة أو إغراؤهم بالانغماس فى الشهوات الجنسية.

فما الأسس التى استندت إليها الكنيسة فى زعمها أن الإسلام اجتذب أتباعًا من خلال الانحراف والضلال الجنسيين؟ بالنسبة للمسيحيين، كان الزواج يعنى قرانًا مع شريك واحد، لا ينفصم إلا بالموت، بحيث كانوا يشيرون إلى تعدد زوجات مُحمَّد على أنه دليل على انحرافه. (بيد أن تعدد زوجات إبراهيم كان خارج النقاش.) فالإسلام سمح للرجال بأربع زوجات، وسمح بالطلاق، بل وسمح للمرأة المطلّقة بأن تتزوج مرة أخرى. وكان المسيحيون ينظرون إلى ذلك بهلع. وعلى مستوى الباحثين وعلى المستوى الشعبى على حد سواء، بدأت تنتشر قصص سامة (وخيالية تماما) من مختلف الأنواع:

قيل إن مُحمَّدًا ساحر ومشعوذ استخدم قدراته الشريرة لإنتاج معجزات زائفة وإغواء الرجال بذلك على اعتناق عقائده الزائفة؛ وإنه قس مسيحى مرتد، بل وربما كان كاردينالا، دفعته شهوته المحبطة للسلطة إلى السعى إلى الانتقام من الكنيسة بنشر تعاليمه الخبيثة؛ وإنه منحل جنسيًا، وزانٍ، ويدعو إلى الفسق لكى يُوقع الرجال فى الفجور؛ وإن وفاته كانت لا تقل إثارة للاشمئزاز والخزى عن حياته، لأن الكلاب التهمته، أو الخنازير خنقته أثناء نوبة صرع(١٦).

وبدأت هذه القصص الشائنة والمشكوك فى صحتها تنتشر بدون حاجة فيما يبدو إلى دليل من أى نوع كان. (وما زال من الممكن الآن أن نجد بعضها ينشره أشخاص من أمثال جلين بيك.) وكانت النتيجة هى أن الإسلام تعرّض للتحقير وصوِّر على أنه عدو خطير.

وكان الشيء الخطير بالذات بشأن هذا العدو هو أنه لم يكن يستولى فحسب على أراضٍ مسيحية بل الأسوأ من ذلك أنه كان ينجح فى تحويل الناس إلى الإسلام. فعندما اجتاحت جيوش المسلمين أراضٍ أوروبية بدءًا من القرن السابع حتى القرن الحادى عشر، اعتنق رعايا كثيرون من غير المسلمين (من بينهم مسيحيون ويهود) الإسلام. فعلى سبيل المثال، رحّب بالحكم الإسلامى المسيحيون غير الأرثونوكس الذين كانوا يتعرضون للاضطهاد من الكنيسة اليونانية. وتحوّل كثيرون منهم إلى الإسلام على مدى عدة قرون.

ولذا صوِّر الإسلام على أنه تهديد خطير يجب القضاء عليه وكان هذا معناه هو تعبئة جيش لاستعادة الأرض المقدسة، وتخليص إسبانيا من المتطفلين، وإعادة الهيمنة المسيحية. واقتضت تلك المهمة نشر أنواع الصور الشيطانية والسلبية تمامًا والتى وردت مناقشتها أعلاه. ومع ذلك، حتى إبان تلك الفترة، كانت توجد جيوب من عمليات التصوير والعلاقات الأكثر تعاطفًا . وكانت ثقافة الأندلس استثناء من هذا القبيل، وكذلك الموقف الذى كان سائدًا فى أوساط الباحثين المسيحيين فى بقية أوروبا فى أعقاب حقبة إعادة الترجمة.

وإضافة إلى ذلك، أفرز الاتصال المباشر مع المسلمين صورًا مضادة للصور التى كانت سائدة. فالتجارة بين التجار المسلمين والتجار المسيحيين كانت على الأقل تجرى بناءً على الاحترام المتبادل، وإن لم تكن وديّة. كذلك، فى ميدان القتال، كان الصليبيون ينقدون غير النصرانيين ولكنهم كانوا يمتدحون قدراتهم الحربية وكانوا يروون قصصًا عن شجاعة المحاربين المسلمين[١٧]. وكان صلاح الدين، الذى استولى مرة أخرى على بيت المقدس من الصليبيين ولذا كان يُعتبر عدوًا لدودًا، مثار إعجاب لفروسيته. وكُتبت عنه قصص كثيرة، وكان اسمه يُطلق على أطفال أوروبيين لعدة أجيال بعد ذلك. بيد أن معظم باحثى العصور الوسطى يتفقون على أن النظرة السائدة إلى الإسلام والمسلمين أثناء تلك الحقبة كانت سلبية للغاية. وإيجازًا، كانت الروح " الصليبية" – أى مزيج الغزو العسكرى مع الحماسة الدينية – هى التى طبعت المواقف الأوروبية وقتئذ.

من الجدل إلى اللامبالاة

فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ولمّا بدأت أوروبا تخرج من العصور الوسطى إلى العصر الحديث، تغيّر تصويرها الجدلى للإسلام. ومع الاضمحلال المتزايد لرؤية الإسلام كتهديد للوجود، زحف موقف اللامبالاة. وهذا التحول كان نتاج عددٍ من التطورات. أولاً، بدأ ازدياد انهيار مشروع أوروبا المسيحية الموحدة الذى لم يتحقق قط تماماً فى حوالى هذا الوقت نتيجة لتصاعد القومية وعمليات تحديد الهوية الأولية. وبدأ المسيحيون يعرّفون أنفسهم بأنهم فرنسيون أو انجليز أو إسبان وما إلى ذلك. وكما كتب مكسيم رودنسون Maxime Rodinson، " حلّت محل خطة توسّع أوروبا مسيحية موحدة مرة واحدة وإلى الأبد [بدءًا من حوالى القرن الرابع عشر] مشاريع سياسية قومية." (١٨). وهذا الانقسام الداخلى فيما بين المسيحيين صرف الاهتمام عن عدوهم الخارجى. ثانيًا، أدت نهضة الثقافة الأوروبية إلى زيادة إضعاف سلطة الكنيسة، فالكنيسة، التى كانت المصدر الأساسى للحماسة الدينية ضد المسلمين، لم تعد قادرة على تأجيج حروب مقدسة؛ وانتهت الحروب الصليبية. ثالثًا، كان المغول قد دخلوا فى الصورة وأصبحوا يشكلون تهديداً لأوروبا. وكان هذا الاعتراف بالأراضى التى تتجاوز أوروبا، وبالتهديدات التى تتجاوز المسلمين، يعنى أن العالم لم يعد من الممكن أن ينقسم بشكل واضح إلى مسيحيين مقابل مسلمين بطريقة ضيّقة وتبسيطية. وأدى التلاقى بين هذه العوامل إلى نظرة إلى الإسلام أكثر تسامحاً(١٩).

ولكن هذه الحقبة، التى اتسمت بعلاقات سلمية نسبيًا بين الشرق والغرب، وازدهار التجارة، ووجود موقف لا مبالاة عام، سرعان ما خرقها عدو جديد هو: الإمبراطورية العثمانية البازغة.

العثمانيون

إنقلب عثمان، مؤسس الإمبراطورية العثمانية، على الحكم المغولى فى أواخر القرن الثالث عشر وبدأ عهداً من الغزو. وفى القرن الذى تلاه، اجتاحت الجيوش

العثمانية منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط ومنطقة البلقان. وتمامًا مثلما حدث أثناء الغزوات المبكرة لجيوش المسلمين فى القرنين السابع والثامن، رحّب بعض الناس فى الدول المسيحية بالأتراك من أجل الإفلات من الاضطهاد الدينى، هذه المرة على أيدى كنيسة الروم الكاثوليك. وكانت السياسة العثمانية المتمثلة فى مبدأ " عش ودعْ الآخرين يعيشون" تتناقض مع التعصب الذى واجهته أقليات المسيحيين الأرثوذكس والأقليات الدينية الأخرى تحت حكم الكنيسة. وعبّر الفلاحون البلقان عن هذه الحالة المزاجية بقولهم " عمامة التركى أفضل من تاج البابا"[٢٠].

وفى عام ١٤٥٣ استولى العثمانيون على القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، وأنهوا الحكم المسيحى فى الشرق. ثم وجهوا اهتمامهم إلى أجزاء أخرى من أوروبا، بحيث غزوا بلجراد فى عام ١٥٢٣، وهذه الغزوات فى عمق أوروبا جعلت العدو المسلم الجديد فى بؤرة التركيز. ولكن هذه المرة كان يُنظر إلى العدو من ناحية علمانية ويُعتبر تهديدًا سياسيًا أكثر من كونه تهديدًا دينيًا (حتى وإن أصبح مصطلح " تركي" مرادفًا لكلمة " مسلم"). وتلت ذلك حقبتان: الأولى حقبة الإعجاب بالأعداء العثمانيين الجدد، الذين كان يُنظر إليهم على أنهم قوة أوروبية عظمى؛ والثانية، حقبة انقلاب تام لهذه الحالة المزاجية، عندما بدأ العثمانيون فترة تراجع بالنسبة إلى أوروبا.

المرحلة الأولى: الآراء المتناقضة بشأن العثمانيين

أصبح يُنظر فى هذه المرحلة إلى العدو المسلم الجديد على أنه جزء من أوروبا لا على أنه طرف خارجى. ولم يكن يُنظر إلى التهديد الذى يشكله ذلك العدو بالنسبة لجيرانه على أنه تهديد ديني؛ بل كان يُنظر إليه بالأحرى على أنه تهديد تمثله دولة أوروبية قوية، يمكن أن يقال إنها أقوى دولة فى أوروبا. ففى حقيقة الأمر، كان الأتراك يُنظر إليهم إلى حد كبير على أنهم أوروبيون عرقيًا. وأشارت إحدى النظريات إلى أنهم، مثل الفرنسيين والإيطاليين، من نسل أهالى طروادة.[٢١]. وهذه النظرية تنطوى

على قدر من الشبه بقصة إبراهيم وهاجر من حيث إن المسلمين كان يُنظر إليهم على أنهم يشكلون جزءًا من تاريخ أوروبا؛ وحتى مع كونهم أعداء فإنهم لا يزالون جزءًا من الأسرة، كما يمكن أن يقال.

وهذه النظريات عن نسب العثمانيين الأوروبى كان يتقبلها البعض ويرفضها آخرون. ومع ذلك، أقامت شخصيات أوروبية شتى تحالفات مع العثمانيين. فقد تحالف ملك فرنسى مع سلطان تركى ضد إمبراطورية هابسبورج؛ وأقام البابا تحالفًا كذلك معارضًا لخطط إمبراطور هابسبورج شن حرب صليبية على العثمانيين[٢٢]. ووجد اليهود الفارون من أوروبا، لا سيما بعد طردهم من إسبانيا عام ١٤٩٢، وطنًا لهم فى الإمبراطورية العثمانية. وكان هذا يصدق أيضًا على البروتستانت والمسيحيين المنشقين الآخرين الذين يسعون إلى الإفلات من الاضطهاد الكاثوليكى. وإيجازًا، وجد التنوع الذى اتسمت به الأندلس انعكاسًا له فى الأراضى العثمانية؛ ولم يعش المسيحيون واليهود فى ظل التسامح فحسب بل شهدوا رخاءً.

أما أوروبا، على العكس من ذلك، فقد كانت تشهد حقبة صراع مرير وعنيف بين البروتستانت والكاثوليك. فقد شهد النصف الأول من القرن السادس عشر ظهور حركة الإصلاح. وهذا الشقاق داخل المسيحية أوجد مناخًا أصبح الإسلام يُنظر إليه فيه على أنه انقسام آخر فحسب، وإن يكن خطيرا. ومن ثم، حتى عندما كانت توجد لدى مارتن لوثر، الذى قاد حركة الإصلاح البروتستانتية، أشياء سلبية يقولها عن الإسلام، فإنه كان يعتبر الفاتيكان هو العدو الأكبر. وبالنسبة للوثر، كان لا يمكن هزيمة الإسلام إلا بعد هزيمة الكاثوليكية[٢٣]. أما المدافعون عن الكاثوليكية فقد كانوا يهاجمون البروتستانتية بمقارنتها بالإسلام، بحيث كانوا يعتبرونها أسوأ من الإسلام فى بعض الحالات. وفى ظل ذلك، أصبح العثمانيون ضالعين فى هذا الصراع إلى جانب البروتستانت ضد عدوهم المشترك، أسرة هابسبورج، التى كانت المدافعة الأساسية عن الكاثوليكية.

وقد كانت صورة العثمانيين فى تلك الحقبة متناقضة. فمن ناحية، كان الأدب الشعبى يصوِّر العثمانيين على أنهم متوحشون ويتسمون بالعنف، اعتماداً فى بعض النواحى على التصوير الكاريكاتيرى الأسبق للمسلمين، وكان هناك أيضًا انبهار مرضى بحياة الأتراك الجنسية وفضول شديد بشأن الحريم. ولكن، من الناحية الأخرى، كان هناك فى أوساط منْ كانوا يفهمون نظام الإدارة العثمانى تقدير لكفاءة ذلك النظام فضلاً عن تقدير لعظمة الإمبراطورية بوجه عام.

وشهد القرن السادس عشر أيضًا ظهور بعض الدراسات الأولى عن الشرق التى كانت نبرتها أكثر انفتاحًا وأكثر ابتعادًا عن التغرّض. وعلى المستوى الأعم، أدى عصر النهضة إلى الثورة العلمية التى شهدها القرنان السادس عشر والسابع عشر، والتى كانت بمثابة تحول إلى دراسة عالم الطبيعة من خلال استخدام الطرق العملية والعلمية (على العكس من الطرق الدينية). وقد ترك ذلك أثرًا على كيفية دراسة الإسلام فى مراكز شرقية شتى أنشئت حديثًا فى باريس وأكسفورد. ويوضح رودنسون أن هذا " الفهم الأكثر موضوعية للشرق الأوسط" انبثق من عوامل من قبيل " القرب الجغرافى، والعلاقات السياسية الوثيقة، وتزايد التفاعلات الاقتصادية، [و] تزايد عدد المسافرين وأعضاء البعثات التبشيرية الذين سافروا إلى الشرق"(٢٤).

ولكن الإمبراطورية العثمانية بدأت تتداعى، لا سيما بعد هزيمتها فى فيينا عام ١٦٨٣، وتلاشى موقف الإعجاب بها، بل وحتى موقف التسامح والحياد إزاءها، الذى كانت تنعم به.

المرحلة الثانية: الاستبداد الشرقى

أثناء القرن السابع عشر بدأت الإمبراطورية العثمانية تفقد تفوقها العسكرى على أوروبا، ووجد الرحالة الأوروبيون إلى الأراضى العثمانية ما يبعث على الانتقاد أكثر مما يبعث على الاحترام. ويقول زاكارى لقمان إن الأتراك أصبحوا فى تلك المرحلة

يصوَّرون على أنهم " أجلاف وجهلة وغير جديرين بالاحترام وعديمو الأخلاق وغير فعالين وفاسدون وغير عقلانيين. وتلاشت الصورة الأقدم للدولة العثمانية كدولة تتسم بالكفاءة والعدل والفضيلة والتسامح وقائمة على الجدارة، وحل محلها تصوير لتلك الدولة على أنها فاسدة وقمعية ووحشية"(٢٥). وقد كان هذا، جزئيًا، دقيقا: فالنظام العثماني شهد فى حقيقة الأمر تدهورًا، كما وصفه مؤرخوه أنفسهم.

ولكن احتقار أوروبا للشرق كان مرده بدرجة أكبر إلى الصورة الذاتية الجديدة لأوروبا. فالمفكرون الأوروبيون أثناء عصر النهضة وبعده كانوا يتخيلون تاريخهم فى شكل خط متصل لم ينقطع من اليونان وروما القديمتين حتى الوقت الحاضر، بحيث كانوا يستبعدون فى تلك العملية تاريخ أوروبا الإسلامى. وأصبحت أوروبا تتخيل نفسها فى صورة المتفوقة، وريثة نظم الإغريق والرومان السياسية الديمقراطية، والشديدة الاختلاف بالتالى عن النُظم الاستبدادية التى أصبحت تعتبرها سمة من سمات الشرق. وعلى العكس من الغرب الديمقراطى، أصبح يُنظر إلى العثمانيين على أنهم مظهر " الاستبداد الآسيوى". ولذا كان اندماج العثمانيين فى أوروبا قصير الأمد، ومرة أخرى أصبح العدو المسلم هو " الآخر" بالنسبة لأوروبا.

وقد أوضح الكاتب الفرنسى مونتيسكيو، فى عام ١٧٤٨، أن آسيا كان مقدرًا لها أن تكون استبدادية بسبب مناخها الحار الذى أثّر على أمزجة سكانها. وقال إن الناس فى المناطق الأكثر برودة من قبيل أوروبا يكونون عادةً نشطين ومن ثم أكثر شجاعة، بينما فى أجواء آسيا الأدفأ يكون الناس غير نشطين ومن ثم يكونون أذلاّء ومخنثين(٢٦). ويتبع ذلك أن الديمقراطية موطنها هو المناطق الأولى، فى حين أن شعوب الشرق الذليلة ليست قادرة إلا على الاستبداد. ومع أن نظرية مونتيسكيو الغريبة والتى تبعث على السخرية أصبحت عتيقة منذ أمد طويل، فإن فكرة " الاستبداد الشرقي" والاعتقاد بأن شعوب الشرق الأوسط وشمال أفريقيا من الأنسب لها النُظم الديكتاتورية قد داما.

ومنشأ هذه الأكذوبة يستند إلى تحوّل أوروبا وصعودها لاحقًا إلى مرحلة السيطرة العالمية. فحتى عام ١٥٠٠ أو نحو ذلك، كانت أوروبا جهة فاعلة هامشية على المسرح العالمى بالنسبة إلى القوى الكبرى الأخرى (من قبيل العثمانيين والصينيين والهنود). وقد تغلبت على تخلّفها ويرجع الفضل فى ذلك إلى حد ليس بالقليل إلى صعود الرأسمالية. ومسألة أصول الرأسمالية هى قضية معقّدة وتُناقش بشكل محموم، ولن أناقشها هنا. فلأغراض كتابنا هذا، دعونى أقُل إن نمو الرأسمالية أضفى مزايا شتى - تكنولوجية وعسكرية واتصالية وما إلى ذلك - أدت أولاً إلى سيطرة أوروبا على التجارة العالمية ثم أدت فى نهاية المطاف إلى الاستعمار والإمبريالية.

وبحلول القرن الثامن عشر، فقد العثمانيون الذين كانوا لا يُقهرون يومًا ما قدرتهم حتى على مقاومة الغزوات الأوروبية لأراضيهم. وشهد " العالم الإسلامي"، الذى لم يعد يشكل تهديداً عسكريًا، تحولاً فى صورته مرة أخرى، هذه المرة إلى عالم الغرائب. ففى أوائل القرن الثامن عشر، تُرجمت مجموعة " ألف ليلة وليلة" الملحمية من القصص الفولكلورية إلى اللغات الأوروبية. فقصصها عن " عالم المسلمين" كأرض غرائبية وخيالية مأهولة بالجن والحريم وجميع الأشياء الساحرة والمسلية بالنسبة للغربيين كان لها أثر كبير على نظرة الأوروبيين إلى الشرق الأدنى. وأثناء عصر التنوير، حدث تحول مرة أخرى فى هذه النظرة عندما بدأت تنبثق بعض الروايات الدقيقة عن الإسلام.

الحركة الرومانسية والتنوير

كان نمو الحركة الرومانسية، وهى حركة فنية وفلسفية ظهرت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، هو الذى أجج الاتجاه نحو ما هو غرائبى. ويمكن العثور على صورة الشرق الغرائبى المرتبطة بـ " الحسية، والوعد، والرعب، والسمو، والمتعة

الرعوية، والطاقة المكثفة" فى أعمال الموسيقيين والرسامين والروائيين والفلاسفة بدءًا من موزارت إلى بايرون وهيجو وجيته[٢٧]، وإحقاقًا للحق، لم يكن الرومانسيون ينظرون إلى الشرق فحسب بحثًا عما هو غرائبى، بل كانوا ينظرون أيضًا إلى ماضيهم، مستفيدين من قصص العصر القوطى وقصص البرابرة الأوروبيين. ويلخص رودنسون الرؤية الرومانسية للشرق بقوله إنها " تتسم بمناظر جبارة وثرية فى مجموعة جامحة من الألوان؛ والحريم وسرايات السلطان؛ والأجساد المقطوعة الرأس، والنساء اللائى يُقذف بهن فى البوسفور داخل أجولة؛ والفلوكات والمراكب الشراعية التى ترفع علمًا عليه صورة الهلال؛ والمآذن المستديرة ذات القباب التركوازية والبيضاء التى ترتفع إلى عنان السماء؛ والوزراء، والمخصيين؛ والينابيع المنعشة الموجودة تحت أشجار النخيل؛ والجوارى بحلوقهن المشقوقة؛ والأسيرات اللائى يُجبرن على الخضوع لآسيريهن الشبقين"[٢٨].

وصورة الشرق الجامحة الحسيّة الغرائبية هذه ستتعايش مع تصوير أدق للإسلام أثناء حركة التنوير، تلك الحركة الفلسفية التى ساقت حججًا ضد العقيدة المسيحية الدوجماتية ودعت إلى اتباع المنطق والعقلانية كوسيلة لتحقيق التقدم البشرى. إلا أن الحركة الرومانسية رفضت تأكيد الفلاسفة التنويريين على العقلانية وأعطت قيمة بدلاً من ذلك للعاطفة والحدس والخيال. وبالنسبة للشعراء والفلاسفة والروائيين والرسامين الرومانسيين كان الشرق مصدراً لحكمة عظيمة ولتقدّم روحى، وعكسوا هذه الصورة كنقيض لمجتمعاتهم، التى فقدت خصائصها فى ظل التدافع الجنونى على التصنيع والحداثة الرأسمالية، ونهلوا من الأساليب الشرقية فى التعبير الأدبى والمعمار ومجالات إبداعية أخرى من هذا القبيل.

وشهد عصر التنوير مولد دراسات عن الإسلام كانت واقعية ومتعاطفة على حد سواء [٢٩]. فعلى سبيل المثال، على العكس من شيطنة القرون الوسطى الشريرة لمُحمَّد، نشر فلاسفة متعددون دعايات تقول إن مُحمَّدًا لم يكن دجالاً. فقد دافع فولتير عن مُحمَّد باعتباره مفكرًا عظيمًا ومؤسس ديانة عقلانية حتى مع أنه (وغيره من منتقدى

الديانة المنظمة الذين ينتمون إلى حركة التنوير) أدان الإسلام بفظاظة إلى حدّ ما. ويفسر دانييل مواقف فولتير المتناقضة هذه بقوله: " علينا أن نقول إن فولتير كان يظن فى البداية أن الهجوم على الإسلام مفيد للهجوم على الدين بوجه عام؛ وتبيّنت له ميزة التعامل مع الحقائق بطريقة أقل انفعالا، من أجل تزكية عقيدة الطبيعة على حساب العقيدة المسيحية"[٣٠]، ومن المؤكد أن حركة التنوير أفرزت آراء متناقضة بشأن الإسلام والمسلمين.

وكما يرد بالتفصيل فى الفصل التالى، بدأت تظهر النظريات العنصرية أثناء تلك الحقبة، وأعرب كثيرون من كبار مشاعل حركة التنوير - من قبيل مونتيسكيو وكانت وهيجل وهيوم - عن آراء تُعتبر الآن آراء عنصرية بشكل صادم. ويقول الفيلسوف إمانويل شوكوودى إيزى، فى مقتطفاته الأدبية عن العِرق فى فلسفة حركة التنوير، إن بعض المفكرين كانوا عنصريين بلا ريب بيد أن آخرين طرحوا نظريات عن العِرق كانت محايدة، بينما كان آخرون مناهضين للتحيز العرقى. وكان مفكرو حركة التنوير يصنفون البشر فى أعراق وأفرزوا فى تلك العملية نظامًا أصبح هناك ربط فيه بين بياض البشرة والتفوق الثقافى والعرقى، بينما كان من المريح أن يُنسب " اللامنطق والوحشية إلى غير البيض" [٣١]. وفيما يتعلق بالمسلمين، يقول رودنسون إن " القرن الثامن عشر كان ينظر إلى الشرق الإسلامى بأعين أخوية ومتفهمة"؛ وأثناء عصر التنوير، " لم يكن المسلمون هم وحدهم الذين كانوا يُعتبرون مختلفين عن الآخرين" [٣٢]. وقد حدث تحول فى هذا الموقف مع نشوء الاستعمار الأوروبى ومولد الاستشراق، وهو مجموعة جديدة من الأفكار التى استُخدمت لتبرير الغزو. وسنتطرق إلى ذلك فى الفصل التالى.

* * *

لقد حدّد هذا الفصل الخطوط العامة لبعض التحولات الأساسية فى الصورة الأوروبية للإسلام بدءًا من القرن الثامن حتى القرن الثامن عشر. وتبيّن لنا هذه الرحلة

عبر التاريخ أن غزوات المسلمين فى أوروبا كانت، خلال الفترة ما بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر، لا يُنظر إليها نظرة مختلفة عن الغزوات الوثنية الأخرى. بل إن السراسنة كان يُعتقد أنهم من نسل إبراهيم وأنهم بالتالى ينحدرون من نفس "الأسرة" التى ينحدر منها المسيحيون واليهود. ولكن حالما أُدمج الوثنيون الآخرون فى أوروبا المسيحية، أصبح العدو المسلم القوى هو " آخَر" يجب القضاء عليه من خلال حروب مقدسة. وسعت البابوية إلى توحيد أوروبا المنقسمة تحت لواء المسيحية كسبيل لتعزيز سلطتها.

ومع ذلك، حتى فى القرن الحادى عشر، عندما كانت الكنيسة تنشر صوراً عدائية للإسلام لحشد المسيحيين من أجل الحروب الصليبية وإعادة الاستيلاء على شبه جزيرة أيبيريا، ظهرت صورة إيجابية أيضًا من خلال أعمال الباحثين الأوروبيين. فعندما بدأوا فى إعادة ترجمة الأعمال العظيمة التى أفرزتها المعرفة البشرية، فإنهم أصبحوا يقدّرون مساهمات الباحثين الشرقيين. وحُكم المسلمين فى الأندلس لم يساعد فحسب على تحقيق قفزات فكرية هائلة، بل كان أيضًا حقبة تعايش (convivencia) أو تسامح عاش فيها المسلمون والمسيحيون فى وئام نسبى.

وعندما بدأت أوروبا، الموحدة روحيًا تحت قيادة الفاتيكان، تنقسم على أساس القوميات، ابتعد التركيز عن العدو المسلم. ولذا شهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر ابتعاداً عن الجدل واتجاهًا نحو اللامبالاة، إلى أن بدأت الإمبراطورية العثمانية تتوغل فى أوروبا فى أوائل القرن السادس عشر، إيذانًا بتهديد جديد. ولكن العدو كان هذه المرة يُنظر إليه على أنه تهديد علمانى وسياسى أكثر من كونه تهديداً دينيا. وكان العثمانيون يصوَّرون على أنهم أوروبيون تقريبًا ويحظون بالإعجاب لإنجازاتهم الكثيرة؛ وأقام الحكام الأوروبيون تحالفات معهم ضد منافسيهم الأوروبيين الآخرين. ومن المؤكد أن تحالفات المصلحة هذه التى تجاوزت الخطوط الدينية تعود حتى إلى حقبة الحروب الصليبية.

وقد حدث التحول التالى فى التصور عندما نهضت أوروبا من كبوتها التاريخية التى دامت فترة طويلة بالنسبة إلى القوى الأخرى لتبدأ فترة صعود. وأدى صعود أوروبا وتراجع العثمانيين النسبى إلى تحويل الإعجاب إلى احتقار. وأصبح يُنظر إلى الشرق بوجه عام وإلى العثمانيين بوجه خاص على أنهم أدنى من الغرب وغير قادرين إلا على إفراز مجتمعات استبدادية. ثم تحولت هذه الصورة الجدلية إلى صورة غرائبية أثناء الحقبة الرومانسية. وتعايشت هذه الفانتازيا مع رؤى أدق للإسلام ظهرت أثناء عصر التنوير.

وإيجازًا، على العكس من أكذوبة أن الغرب والشرق كانا دائمًا فى حالة صراع، فإن الصراع تعايش فى حقيقة الأمر مع التعاون. وبعيدًا عن فكرة أن " الشرق شرق والغرب غرب والاثنان لا يمكن أن يلتقيا أبدًا"، فإن ما شهدناه هو أن تاريخ الشرق وتاريخ الغرب، بقدر ما يمكننا حتى أن نتحدث عن شرق منفرد وغرب منفرد، يوجد بينهما تداخل وثيق. وأقل ما يمكن أن نقوله هو أن التوصيفات الجغرافية والدينية العامة من قبيل " الإسلام والغرب" هى توصيفات تنطوى على قدر بالغ من الجدلية، ومرد ذلك ليس أقله إلى أن الإمبراطورية البيزنطية المسيحية انتعشت فى الأراضى التى كانت تسمى " الشرق" حتى القرن الخامس عشر، وأن حكم المسلمين فى الأندلس دام نحو ثمانمائة عام. ومن ثم فإن فكرة " صدام الحضارات" عبر التاريخ بين غرب مسيحى موحد وشرق مسلم هى فكرة معيبة إلى حد بالغ.

ويتضح أيضًا من التاريخ المبيّن فى هذا الفصل أن " الغرب" لم تكن لديه دومًا صور سلبية عن الإسلام. ففى أوقات الصراع، كانت النُّخب السياسية تحشد فوبيا الإسلام وسيلة للدفع بمآربها الأوسع نطاقًا، سواء كانت تلك المآرب هى السيطرة البابوية على أوروبا أو الطموحات التوسعية للحكام المسيحيين. وكان الطعن فى الإسلام أداة مفيدة فى مناورات السلطة لمدة طويلة جدًا. وفى القرون التالية، وأثناء حقبة الاستعمار الحديث، استمرت شيطنة الإسلام والمسلمين. ولكن هذه المرة أُضفيت عليها مشروعية جديدة فى الأوساط الأكاديمية وتحولت إلى علم.

الفصل الثانى

الاستعمار والاستشراق

عندما بدأ فى عام ٢٠١٠ عرض فيلم " الجنس فى المدينة ٢"، الذى تدور أحداثه فى أبو ظبى، انتقده بشدة عن حق نقاد متعددون لما تضمَّنه من صور نمطية عنصرية للعرب وللمسلمين. وبدا وكأنما ارتد منتجو الفيلم إلى عشرينيات القرن العشرين، وبعثوا من جديد نموذج أفلام على بابا، وأضافوا بضعة أجهزة "iPhones" وبضعة فنادق خمسة نجوم كإشارة إلى حداثة أبو ظبى، تاركين كل شىء آخر كما هو تقريبًا. فكيف نفهم هذه النظرة إلى الشرق الأوسط كمكان لا يتغير، كمكان يظل فيه الناس، رغم التكنولوجيا العالية والكماليات الاستهلاكية، على جمودهم وهم أساسًا "مسلمون"؟

وهذه النظرة إلى الإسلام تنبثق من مجموعة من الأعمال تسمى الاستشراق ظهرت فى سياق الاستعمار الأوروبى، الذى بلغ ذروته فى القرنين التاسع عشر والعشرين. فبينما تمسكت الإمبراطورية العثمانية بمعظم أراضيها أثناء القرن الثامن عشر، بدأت قبضتها تضعُف فى القرن التاسع عشر.

وبدأت الدول الإمبريالية، لا سيما النمسا وروسيا، تستولى على الأراضى العثمانية. وإضافة إلى ذلك، انفصلت مقاطعات مسيحية شتى كانت واقعة تحت الحكم العثمانى وشكَّلت دولاً جديدة، لا سيما اليونان. وبذلك كانت الإمبراطورية العثمانية الأسطورية تتهاوى.

وبدت دول مسلمة أخرى غير قادرة بنفس القدر على الحيلولة دون الانقضاض على الإمبراطورية. فقد غزت فرنسا الجزائر واحتلتها عام ١٨٣٠، ثم استولت أيضًا على تونس فى الفترة من عام ١٨٨١ حتى عام ١٨٨٣، وفى عام ١٨٨٢ احتلت بريطانيا مصر، وفى عام ١٨٩٨ استولت على السودان. وفى النهاية انهارت الإمبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى. وقامت الدول الظافرة فى الحرب بتقسيم أراضى الإمبراطورية العثمانية، والشرق الأوسط بوجه عام، فيما بينها. ورسمت حدودًا تعسفية حول الدول الجديدة - ومن بينها لبنان وسوريا وما وراء نهر الأردن والعراق وفلسطين - التى سيطرت عليها فرنسا وبريطانيا عن طريق نظام الانتداب. وبعد الحرب العالمية الثانية، بدأت الولايات المتحدة تمسك بزمام الأمور بدلاً من الحكّام الاستعماريين القدماء.

وفى هذا السياق وُلد الاستشراق، وهو ميدان كامل من ميادين الدراسة مكرّس لدراسة " الشرق". وبينما كانت قد أنشئت فى وقت أسبق معاهد لدراسة الشرق، فقد أصبحت تلك المعاهد صناعة نامية فى القرن التاسع عشر. وكرّست مجموعة كبيرة من الباحثين نفسها لمشروع تعلّم لغات الشرق المختلفة، وترجمة طائفة متنوعة من الكتب، ومراكمة المعرفة عن الشرق بطريقة منتظمة.

ويلقى هذا الفصل نظرة على صورة " العالم الإسلامي" فى القرنين التاسع عشر والعشرين كما تنعكس من خلال لغة الاستشراق، دارسًا افتراضاتها والطرائق التى استُخدم بها الاستشراق كأداة للاستعمار. وسنبدأ بإلقاء نظرة على نشوء الاستشراق فى فرنسا وبريطانيا، ثم نتجه إلى الولايات المتحدة.

نابليون والاستعمار «المستنير»

لقد كانت فرنسا رائدة أولى للفكر الاستشراقى. ففى عام ١٧٩٥، أنشئت فى باريس كلية الدراسات الشرقية الحية. وعندما غزا نابليون مصر بعد بضع سنوات،

فإنه استطاع أن يأخذ معه مستشرقين يمكن استخدام معرفتهم تحقيقًا لأغراض استعمارية. ويبرز غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨ كأول مثال أصبحت فيه المعرفة عن السكان المحليين محورية بالنسبة لبعثة احتلال.

وهذا ليس معناه أن المعرفة عن العدو لم تكن جوهرية فى الفترات السابقة. فحتى أثناء القرون الوسطى، كان الحكام الأوروبيون يجمعون معلومات دقيقة عن الممالك الإسلامية من خلال الجواسيس والمسؤولين والمخبرين من أجل وضع استراتيجيات عسكرية. ولم يطلعوا الجمهور على تلك المعلومات بطبيعة الأمر. وبدلاً من ذلك، استخدموا الطنطنة اللاذعة عن الحروب المقدسة للتحفيز على الحروب الصليبية وإعادة الاستيلاء[1]. وبينما استمر هذا الأسلوب العام حتى فى القرن الحادى والعشرين، فإن ما دشّنه غزو نابليون هو الاستخدام المنهجى لمعرفة الباحثين من أجل خدمة احتياجات الإمبراطورية، سواء فى الخارج أو فى الداخل.

وهذا النموذج من الاستعمار المستنير ينطوى على ثلاثة جوانب. أولا، يجب أن يُعد المستعمر العدة بشكل وافٍ قبل بدء الغزو وذلك لكى يكون قادراً على معالجة العقبات. ثانيًا، ينبغى أن يجنّد الباحثين كيّ يعملوا إلى جانب الجنود فى عملية الاستعمار. وقد اصطحب نابليون معه نحو ١٦٠ باحثًا للمساعدة فى العملية اليومية للإدارة الاستعمارية وتكوين مجموعة من المعارف عن مصر من أجل استخدام الفرنسيين لها. ثالثًا، يجب أن تضع الدولة المستعمرة أساسًا منطقيًا تبريريًا. وكانت فرنسا، التى كانت قد تخلصت للتو من نير نظامها الملكى الإقطاعى القمعى، تعتقد أن مهمتها هى إعادة مصر إلى عظمتها السابقة. ويمكن أن نرى هنا سلائف ما سيُعرف لاحقًا باسم "mission civilisatrice"، أى " مهمة الحضرنة".

وكان نابليون مستعداً بشكل جيد لهذه المهمة، كما يقول لنا إدوارد سعيد فى كتابه الكلاسيكى " الاستشراق". إذ كان، لولعه بالشرق منذ فترة صباه، قد قرأ المؤلفات الأوروبية عن الموضوع باستفاضة، سواء كانت المؤلفات حديثة العهد أو كلاسيكية. ويركز سعيد بوجه خاص على كتاب الرحالة الفرنسية كومت دى فولنى

الذى يقع فى مجلدين ويحمل عنوان " رحلة إلى مصر وسوريا". ووجد نابليون أن تقييم فولنى للشرق الأوسط كموضع للاستعمار الفرنسى مفيد على وجه الخصوص، وكذلك قائمة العقبات التى أوردها والتى قد تصادف البعثة الاستعمارية. وكان من بين تلك العقبات تشكك المصريين فى الأوروبيين. واستخدم نابليون كتاب " رحلة إلى مصر وسوريا" كدليل استعمارى.

وفى هذا المانيفستو، الذى انتشر على نطاق واسع فى مصر، حاول نابليون أن يكسب أفئدة المصريين وعقولهم:

يا أهل مصر، سيُقال لكم إننى جئت لأدمّر دينكم. وهذه أكذوبة واضحة؛ فلا تؤمنوا بها! بل قولوا للمفترين إننى جئت إليكم لأعيد حقوقكم لكم من أيدى القامعين وإننى، أكثر من المماليك [الذين حكموا مصر وقتئذ]، أخدم الرب ... وأوقّر نبيّه مُحمَّدًا والقرآن الكريم. ... وفى أرض مصر سابقًا كانت هناك مدن عظيمة، وقنوات واسعة، وتجارة مزدهرة. فما هو الذى ألحق الخراب بكل هذا، إن لم يكن جشع المماليك وطغيانهم؟ ... قولوا لأمتكم إن الفرنسيين مسلمون مخلصون أيضًا. فالحقيقة هى أنهم غزوا روما ودمّروا عرش البابا، الذى حرّض دائمًا المسيحيين على شن الحرب على المسلمين(٢).

وعدا عن التلفيقات الواضحة عن كون الفرنسيين مسلمين وتدميرهم البابوية، فإن ما تجدر ملاحظته بشأن هذا المانيفستو هو محاولته كسب المصريين من خلال الثناء على الإسلام. فقد أصر نابليون مراراً على أنه يكافح فى سبيل الإسلام. ودعا ٦٠ باحثًا مسلمًا من الأزهر إلى مقره وأثار إعجابهم بما لديه من معرفة عن القرآن واحترامه له. وكل شيء قاله نابليون تُرجم للاستهلاك الشعبى إلى اللغة العربية القرآنية. وقد نجحت هذه الاستراتيجية: فقد تخلى أهل القاهرة عن عدم ثقتهم فى المستعمرين الفرنسيين(٣).

وعندما رحل نابليون من مصر فإنه أعطى تعليمات صارمة إلى نائبه تقضى بأن تُدار مصر وفقًا للنموذج الذى حدده: أى استشارة المستشرقين قبل سنّ أى سياسات، وضرورة أن يكون الزعماء الدينيون المسلمون الذين كسبهم إلى جانبه جزءًا أيضًا من

ترسانة الحكم الاستعماري. وكلّف نابليون جيشه الصغير من الباحثين بمهمة جمع كميات هائلة من المعلومات المباشرة عن مصر. وكما يقول إدوارد سعيد، فإن فريقًا:

من الكيميائيين والمؤرخين وعلماء الأحياء وعلماء الآثار والجراحين وجامعي العاديات [أصبحوا] فرقة الجيش المتعلمة. ولم تكن مهمتها أقل عدوانية، وهي إدخال مصر ضمن الدولة الفرنسية الحديثة. وكان نابليون حريصًا منذ لحظات الاحتلال الأولى على أن يبدأ المعهد [أي المعهد المصري الذي أنشأه] اجتماعاته وتجاربه، ومهمة تقصي الحقائق كما نطلق عليها الآن. والأهم هو أن كل شيء يقال أو يُشاهد أو يُدرس كان يجب تسجيله(٤).

وقد أسفر هذا العمل عن نشر كتاب " وصف مصر"، وهو خلاصة تقع في ٢٣ مجلدًا صدرت خلال الفترة ما بين عامي ١٨٠٩ و ,١٨٢٨ ووُضعت معلوماته المفصلة عن كل جانب من جوانب المجتمع المصري، بدءًا من الآثار ووصولاً إلى تكوينات الوجه، لا ليستخدمها المصريون بل ليستخدمها الفرنسيون. وبينما يوجد قدر كبير من المعلومات الدقيقة والقيّمة في ذلك الكتاب، فإن النقطة المهمة التي يبرزها إدوارد سعيد هي أن تلك المعرفة الواسعة جُمعت بدون مدخلات من أهل البلد. ويقول إدوارد سعيد إن هذا التصوير لمصر حقق غرضَ أن تحل محل إحساس مصر بنفسها وبمكانتها في العالم رؤية استعمارية فرنسية لمصر. وكان الهدف منه في نهاية المطاف هو مساعدة الفرنسيين على السيطرة على المصريين.

ولم يكن الفرنسيون، بطبيعة الأمر، يرون غزوهم لمصر من زاوية مصطلحات حقيرة من قبيل التحكم والسيطرة. بل كانوا يدّعون، كما يشير الاقتباس من مانيفيستو نابليون، أن هدفهم هو إعادة مصر إلى مجدها التليد الذي يتسم بـ " المدن العظيمة"، و "القنوات الواسعة". وكانوا يعتقدون أنهم سينقذون بلدًا كان عظيمًا من الخراب ويبينون لأهالي البلد ما كانوا عليه يومًا ما وما يمكن أن يصبحوا عليه مرة أخرى تحت وصاية الفرنسيين. وأصبح هذا المنطق الأبوي أكثر تطورًا مع نمو البعثات الاستعمارية الأوروبية؛ وقد خلّده روديارد كيبلنج في قصيدته التي كتبها عام ١٨٩٩" عبء الرجل الأبيض". واستُخدمت الصيغة الفرنسية البديلة لها، وهي " مهمة

الحضـرنة"، بنجاح كبير لكسب الموافقة الداخلية على الغزوات الاستعمارية في دولة قامت على أساس مبادئ الحرية والمساواة والإخاء.

وقد دام احتلال الفرنسيين لمصر حتى عام ١٨٠١، فقد كان التنافس الإمبريالى الداخلى مع بريطانيا هو الذى أجبرهم فى نهاية المطاف على أن يرحلوا من مصر، ولكن المصريين سرعان ما أدركوا أيضًا أن الفرنسيين لم يكونوا حريصين على أفضل مصالحهم. ومع ذلك، فإن هذا الأسلوب فى الاستعمار كان يُنظر إليه على أنه نموذج يحاكى. ويقول إدوارد سعيد إن " لغة الاستشراق نفسها تغيرت تغيّرًا جذريًا" بعد نابليون؛ فمنذ ذلك الحين " أعيد تكوين صورة الشرق، وأعيد تجميعها، وأعيدت صياغتها، وإيجازًا، فإن صورته " وُلدت" من رحم جهود المستشرقين"(٥). ولم يعد الشرق غريبًا وغرائبيًا بل أصبح منطقة يمكن فهمها والتحكم فيها. وكانت دراسات المستشرقين هى السبيل الذى من شأنه أن يفض أسرار الشرق.

خصائص الاستشراق

لم يكن مستشرقو القرن التاسع عشر يرون أنفسهم بالضرورة على أنهم عملاء وإمبرياليون؛ بل كانوا يرون أنهم، بوجه عام، يُنتجون معرفة غير مغرضة. إلا أن بعضهم كان يسدى مشورته إلى الحكومة الفرنسية ويؤدى دورًا هامًا فى تمكين الاستعمار، من قبيل سيلفيستر دى ساسى، وهو مستشرق هام كان له تأثير على أجيال من الباحثين. وقد أنتج المستشرقون، سواء بوعى منهم أو بدون وعى، مجموعة من الأعمال التى ساعدت مشروع الإمبريالية. وقبل أن ننظر فى بعض الافتراضات التى قام عليها الاستشراق، من المفيد التمييز بين الطنطنة الاستعمارية الخاصة بالقرن التاسع عشر وبين سلائفها.

فقبل القرن التاسع عشر كان الاستعمار الأوروبى يفسَّر أساسًا من خلال عدسة المسيحية. وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر، برر الأوروبيون ذبحهم

واستغلالهم " للهنود" فى العالم الجديد من خلال الحجة القائلة بأن الهنود "المتوحشين" هم حيوانات بريّة، ووثنيون قضى الرب بأن يسيطر المسيحيون عليهم(٦)، وبرروا على نفس الغرار استعبادهم للأفارقة من خلال كتاب سِفر التكوين، قائلين إن الأفارقة شعب ملعون (وهو أمر مستمد من أكذوبة لعنة حام) يدل لون بشرتهم الأسود على لعنتهم. وكانت " اللعنة" تعنى، بشكل مريح للأوروبيين، أن حتى العبيد الأفارقة الذين اعتنقوا المسيحية يظل من الممكن مع ذلك الإبقاء عليهم كعبيد(٧).

ثم بدأ التحول عن التبريرات الدينية إلى التبريرات "العلمية". فقد قسّم فلاسفة عصر التنوير البشر إلى أعراق أو " أنواع" شتى تتسم بخصائص مميزة. وبمرور الوقت، أدى نظام التصنيف هذا إلى استخلاص الأوروبيين البيض أنهم متفوقون على " الشعوب الملونة ذات البشرة الداكنة بدرجة أكبر من " الأخرى، التى كانت " قبيحة" وكانت فى أفضل الحالات " شبه متحضرة"(٨). وكان هذا مكونًا هامًا فى التطور المبكر للعنصرية كعقيدة لتبرير الاستعباد والغزو(٩). وإضافة إلى ذلك وكما يوضح الفصل الأول، شهد القرن الثامن عشر تطور مفاهيم التفوق الأوروبى، لا سيما من خلال ربط الغرب بالديمقراطية وربط الشرق بالاستبداد. ومع ذلك، كما يقول رودنسون، " فى القرن الثامن عشر، كان هناك إحساس غير مدرك بالمركزية الأوروبية ولكن كانت توجهه عقيدة التنوير الشمولية ولذا كان ينطوى على احترام الحضارات والشعوب غير الأوروبية(١٠). غير أنه بحلول القرن التاسع عشر سرعان ما حل محل شمولية التنوير هذه تشديد على الاختلافات بين الناس والحضارات. وتكون لدى أوروبا ما يُطلق عليه إتيان باليبار "عقدة التفوق الامبريالية(١١).

وهذا التشديد على الاختلافات اتخذ شكلاً عقائديًا فى مجموعة الأفكار التى أصبحت تعرف باسم " الاستشراق". ويتسم الاستشراق ببضع سمات مميزة له. واعتمادًا على أعمال زاكارى لقمان فى " معارضة رؤى الشرق الأوسط"، وكذلك على آخرين، فإننى أحدد أربع سمات أساسية للاستشراق. أولاً، أنه يستند إلى رؤية للتاريخ من زاوية الحضارة، وهى فكرة أن الحضارات تنشأ وتزدهر ثم تتراجع. ثانيًا،

أنه يفترض، لأنه نشأ من الفلسفة ومن الدراسة التاريخية والمقارنة للغات، أن كل شيء يحتاج المرء إلى معرفته عن أى حضارة يمكن العثور عليه فى نصوصها ولغاتها. ثالثًا، أن الاستشراق يرى الإسلام ونصوصه الكلاسيكية كسبيل لفهم المسلمين المعاصرين ومجتمعاتهم. رابعًا، أنه يعتمد على نظريات العِرق وفكرة أن المسلمين عِرق متميز.

وكان من بين النظريات المقبولة على نطاق واسع فى القرن التاسع عشر أن المجتمع البشرى ينقسم إلى حضارات مختلفة ومتميزة وجدت بمعزل بعضها عن بعض، وكانت تقف وراء كل منها مجموعة قيمه الأساسية الخاصة به. ووفقًا لهذه النظرية كانت للغرب، كحضارة فريدة تضرب بجذورها فى بلاد الإغريق القديمة، خصائص ميّزته عن جميع الحضارات الأخرى. وتضمّنت هذه الخصائص " الحرية، والقانون، والعقلانية، والعِلم، والتقدم، والفضول الفكرى، وروح الاختراع، والمغامرة، والمبادرة"[١٢]. ثم حُددت مكانة كل حضارة أخرى بالنسبة إلى فكرة " الغرب" المتفوق هذه. وكما كان متوقعا، كان يوصف عالم الإسلام بأنه عالم يرجع إلى ما قبل العصر الحديث، ومتخلّف وبدائى، واستبدادى، وجامد، وغير ديمقراطى، ومتصلب.

وترتبط ارتباطًا وثيقًا بنظريات الحضارة فكرة أن أى شعب يمكن فهمه من خلال لغاته ونصوصه الأساسية. فقد نادى علماء اللغة من أمثال ساسى بفكرة أن دراسة النصوص المكتوبة لأى مجتمع يمكن أن تسفر عن التوصل إلى أفكار متعمقة عن الجوهر السرمدى لأى حضارة. لذا كان المستشرقون يتعلمون اللغات العربية والفارسية والتركية ويترجمون نصوص الشرق ويحللونها. وسعى علماء اللغة إلى تحليل النصوص فحسب بدلاً من أن يدرسوا السياق التاريخى للمجتمعات الإسلامية. ولا غرو إذًا أن يقول رودنسون إنه على الرغم من " الكم الهائل من المعلومات الدقيقة والوثائق المُحكمة، التى استطاع المتخصصون تجميعها، فإن الانفصام بين جهودهم الفكرية وعالم الحقيقة الموضوعية استمر فى الاتساع[١٣]."

ويترتب على ذلك أن الإسلام، كما تحدده نصوصه الكلاسيكية، كان هو العدسة الأساسية التى يمكن من خلالها فهم المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة. فإذا تعرضت

المرأة للقمع فذلك يرجع إلى تعاليم القرآن؛ وإذا كان المسلمون يفتقرون فيما يُفترض إلى روح المبادرة فإن ذلك يرجع إلى " التراث الإسلامي"؛ وإذا كانت الحداثة مرفوضة، فإن القرآن هو مرة أخرى المسؤول عن ذلك. وإيجازًا، كان من الممكن تفسير مجموعة كاملة من الخصائص المرتبطة بالغرب ولكنها فيما يُزعم غير موجودة في " العالم الإسلامي" بالرجوع إلى النصوص الدينية والعقليات التي أوجدتها تلك النصوص فيما يُفترض. وفي هذا الكتاب، يوضع مصطلح " العالم الإسلامي" بين أقواس تنصيص اعتراضًا على فكرة أن الإسلام هو أهم عامل وحيد في تحديد هوية الناس الذين يعيشون في الشرق الأوسط، وشمال أفريقيا، وأماكن أخرى، أو أن هناك كيانًا واحدًا لا يمكن التمييز فيه يسمى " العالم الإسلامي". فأنا أحاول، بدلاً من ذلك، أن أبيّن أن الديانة هي، كما في أي مكان آخر من العالم، عامل واحد بين عوامل أخرى تؤثر على حياة الناس الذين يعيشون في مجتمعات يشكل المسلمون أغلبية فيها (وهو مصطلح أفضّله عن " العالم الإسلامي").

وإضافة إلى النظريات القائمة على الحضارة، اعتمد المستشرقون على نظريات العِرق التي وردت مناقشتها أعلاه والتي وضعت القوقازيين الأوروبيين على قمة التراتب العرقي. وكما يوضح رودنسون:

> **ربما كان الشرقي يوصف دومًا بأنه عدو متوحش، ولكنه كان أثناء العصور الوسطى يُعتبر على الأقل على نفس مستوى نظيره الأوروبي. وبالنسبة لرجال حركة التنوير، منظّري الثورة الفرنسية، كان الشرقي قبل كل شيء" ورغم غرابة مظهره وملبسه، رجلاً مثل أي رجل آخر. ولكنه في القرن التاسع عشر أصبح منفصلاً نوعًا ما وحبيس خصوصيته، ومع ذلك كان جديرًا بنوع من الإعجاب المتذمر. وهذا هو منشأ " التماثل الإسلامي"، وهي فكرة مقبولة على نطاق واسع حتى يومنا هذا(١٤).**

وزعم المستشرقون، انطلاقًا من فكرة أن المسلمين يمثلون عِرقًا هذه، أنهم قادرون على تفسير " عقلية المسلم" أو " عقلية العربي". وبالنظر إلى أن النظريات المستندة إلى العِرق تفترض أن أفراد أي عِرق متماثلون جميعًا، استطاع الباحثون في إطار هذه

التقاليد أن يصدروا تعميمات كاسحة عن الكيفية التى يفكر بها المسلمون ويتصرفون. وقبل كل شيء، كان هناك حط من قدر " عقلية المسلم"؛ وكما كتب الشاعر البريطانى روديارد كيبلنج، " لن تتمكن أبداً من سبر أغوار عقل الشرقى. وحتى إذا فعلت، فإن ذلك لا يستحق العناء[١٥]."

ويستتبع منطق التفوق الحضارى والعرقى هذا أنه كان على الغرب أن يقود الأمم والشعوب الأدنى مرتبة منه. وفى أواخر القرن التاسع عشر، عندما كتب كيبلنج " عبء الرجل الأبيض"، فإنه كان يعزز فحسب فكرة كانت وقتئذ واسعة الانتشار. فقد كتب كيبلنج عن تفوق الغرب بحكم طبيعته، وعن ما يقع عليه من " عبء" حضرنة وترويض شعوب الشرق. وكان يُنظر إلى منْ يُستعمر، مع وصفه بأنه " نصف شيطان ونصف طفل"، على أنه شرير وبربرى وأشبه بالطفل على حد سواء ولذا فهو بحاجة إلى حماية. وعندما نُشرت القصيدة أصلا، استخدم كيبلنج العنوان الفرعى "الولايات المتحدة وجزر الفلبين" كسبيل لحث الأمريكيين على تولى نفس المسؤوليات التى تولاها البريطانيون[١٦].

وقد تولى الأمريكيون تلك المسؤوليات فعلا. وجمع صحفى أمريكى فى تقرير كتبه فى عام ١٩٢١ افتراضات المستشرقين عن الحضارة والعرق على النحو التالى:

من ظلال ما قبل التاريخ اندفعت الأعراق البيضاء إلى الصدارة وأثبتت بطرق متعددة صلاحيتها للهيمنة على البشرية. وتدريجيًا أقامت حضارة مشتركة؛ ثم، عندما مُنحت فرصتها الفريدة للسيطرة على المحيطات قبل أربعة قرون، فإنها انتشرت فى أنحاء المعمورة، فملأت أماكنها الفارغة بسلالاتها المتفوقة وضمنت لأنفسها تفوقها الذى لا نظير له من حيث الأعداد والسيطرة. ... وأخيرًا، أصبح الكوكب مندمجا تحت هيمنة عِرق وحيد ذى حضارة مشتركة[١٧].

أما وودرو ويلسون، الذى يُنظر إليه على أنه كان صاحب رؤية لمناصرته حق تقرير المصير، فهو يطرح الأمر على النحو التالى:

من الضرورى أن نعرف التاريخ السياسى للإغريق واللاتينيين والتيوتنيين والسلتينيين بصفة أساسية من أجل تتبّع تسلسل الحكومات الأوروبية والأمريكية التى أسهمت فى نظام الحياة الاجتماعية لتلك الأعراق الأقوى والأكثر نبلاً التى حققت أكبر تقدم ملحوظ فى الحضارة[١٨].

وإيجازًا، كانت نظرة المستشرقين إلى الشرق كما انبثقت فى القرن التاسع عشر تستند إلى الحط عرقيًا وحضاريًا من شأن المسلمين. إلا أن هذا ليس معناه أن دراسات المستشرقين وُجدت أو استُخدمت فى السياقات الاستعمارية بدون وجود ما يناقضها. فقد كان هناك مستشرقون رفضوا أفكار التفوق العرقى؛ ولكنهم كانوا يُجمعون فى الوقت ذاته على أن العرق هو فئة مفيدة من فئات التحليل. وكان هناك أولئك الذين يُعجبون بالإسلام وغيرهم ممن يذمّونه؛ وكان هناك البعض الذين عاونوا بنشاط مهمة الاستعمار بينما كان هناك آخرون ممن اعتبروا أنفسهم ينتجون معرفة موضوعية. واستُخدمت أفكار المستشرقين استخدامًا مختلفًا فى سياقات شتى. ولكن العلاقة بين الفكر الاستشراقى ومشروع بناء إمبراطورية هى علاقة معقدة، ببسيط العبارة.

ومع ذلك، مما لا سبيل إلى إنكاره أن الافتراضات المذكورة آنفًا التى قامت عليها جميع دراسات المستشرقين تتناسب جيدًا مع الدعوة إلى الغزو الاستعمارى. والرؤية العالمية التى يطرحها المستشرقون هى رؤية يُرى فيها " الغرب" كمجتمع مفعم بالحيوية ومعقّد ويتغير باستمرار لا يمكن اختزاله فى ديانته الأساسية أو أى عامل آخر منفرد، بينما يصوَّر " الشرق" أو " عالم الإسلام" كعالم لا يتغير وبربرى وكاره للنساء وغير متحضر واستبدادى. والاستنتاج المنطقى الوحيد الذى ينبع من هذا هو أن الغرب تقع عليه مسؤولية التدخل فى هذه المجتمعات الجامدة وإحداث تغيير فيها. إذ كان الغرب قد اكتسب عقدة تفوّق وكان على بقية العالم أن تخضع لما يمليه عليها.

وهذه الأفكار ربما كانت قد ساعدت على تبرير الغزو الفرنسى والإنجليزى للشرق الأوسط وشمال أفريقيا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، ولكن الولايات المتحدة هى

التى بعثت حياة جديدة فى تلك الأفكار بعد الحرب العالمية الثانية. وحتى يومنا هذا، يمكن العثور على تنويعات لهذه الأفكار فى المجتمع الأمريكى. فعلى سبيل المثال، تمثل كتب من أمثال كتاب " العقل العربى" [١٩]. لرافائيل باتاى، الذى استخدمته المؤسسة العسكرية الأمريكية لابتكار أساليب التعذيب التى استُخدمت فى أبو غريب وأماكن أخرى، إعادة تأكيد لفكرة " التماثل الإسلامى" وقد حاجج مستشرقون معاصرون من أمثال برنارد لويس وصمويل هنتينجتون بأن الصراع بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط هو " صدام حضارات". ووفقًا لهنتينجتون، الذى فعل الكثير للترويج لفكرته، " كثيرًا ما لا يكون هناك سوى قدر ضئيل من الصدى فى المجتمعات الإسلامية للأفكار الغربية المتمثلة فى الفردية والليبرالية والدستورية وحقوق الإنسان والمساواة والحرية وسيادة القانون والديمقراطية والأسواق الحرة وفصل الكنيسة عن الدولة [٢٠]." وفى الفصل التالى، سنستكشف استمرارية مجموعة مؤلفات المستشرقين الكلاسيكية. ونتطرق هنا إلى الإمبريالية الأمريكية ورؤيتها للسلطة الإمبراطورية واللغة السيطرة.

الإمبريالية الأمريكية

قبل القرن التاسع عشر لم يكن معروفًا فى الولايات المتحدة سوى النزر اليسير عن " العالم الإسلامي". فقد كانت غزوات أمريكا تركز أكثر على التوسع فى القارة إلى الغرب والجنوب الغربى؛ ولم تكن تعير أجزاء أخرى من العالم اهتمامًا كبيرًا. وفى القرن الثامن عشر، كانت مصادر الأمريكيين الأساسية للمعلومات عن الشرق الأوسط هى " ألف ليلة وليلة" وإنجيل الملك جيمس [٢١]، وكانت النخبة السياسية التى أسست الأمة الأمريكية وأشرفت عليها " بعد عام ١٧٧٦ تعتبر العالم الإسلامى، المنكوب بالاستبداد الشرقى، والفساد الاقتصادى، والتسفيه الفكرى، نقيضًا للمذهب الجمهورى الذى تعهدت باحترامه احترامًا مقدسًا" [٢٢].

. أما المعرفة الكبرى عن الشرق الأوسط فى القرن التاسع عشر فقد كان مصدرها هو زوار الأراضى المقدسة وأعضاء البعثات التبشيرية. فقد كتب مارك توين، الذى أصبح مناهضًا للإمبريالية بشدة، فى عام ١٨٦٩ عن رحلته إلى الأراضى المقدسة فى كتاب بعنوان " الأبرياء الموجودون فى الخارج"، بيع منه ما يقرب من مائة ألف نسخة[٢٣]. وبينما انتقد توين بشدة (وبفكاهة) زملاءه المسافرين لتعاليهم وصلفهم وعدم حساسيتهم الثقافية – وهى سمة من سمات السياح الأمريكيين استمرت حتى القرن التالى وأصبحت مادة لطاحونة هوليوود – فقد كانت لديه أيضًا انتقادات قاسية للمسلمين. فقد وصفهم بأنهم " أناس، بطبيعتهم وبالتدريب، قذرون ومتوحشون وجهلة وغير تقدميين [و] يؤمنون بالخرافات،] ورأى أن العثمانيين يمثلون " حكومة فضائلها الثلاث هى الطغيان والسلب [و] الدماء][٢٤].

وكانت الأفكار الرومانسية عن الشرق تسيطر على الثقافة الشعبية. إذ كانت تُباع على نطاق واسع نُسخ مصورة من " ألف ليلة وليلة"، وكذلك كتب عن النبى صوَّرت العالم العربى على أنه عالم متخلِّف ومتوحش. وإضافة إلى الروايات والمحاضرات المصوَّرة عن الرحلات، نقلت سلسلة من الوسائط الشعبية الأخرى من قبيل الأسواق والمعارض والصور الفوتوغرافية وحدائق الملاهى ذات الموضوع صورة الشرق الغرائبية الموجودة لدى أوروبا إلى الولايات المتحدة [٢٥]، وفى أوروبا القرن التاسع عشر وجدت معًا صورة المستشرقين والصورة الغرائبية عن الشرق، وسارع الجمهور فى الولايات المتحدة إلى تبنى الصورة الأخيرة. فعلى سبيل المثال، أنتج الرسام الأمريكى فريديك بريدجمان عشرات من اللوحات عن الشرق محمَّلة بإيحاءات جنسية تماشيًا مع أعمال أستاذه، الرسام الفرنسى جان – ليون جيروم، الذى يشتهر بلوحتيه " ساحر الثعابين" و " العبد"[٢٦]، وعززت هوليوود هذه الصور الغرائبية فى أفلامها الصامتة الأولى من قبيل " العربى" (١٩١٥)، و " كليوباترا" (١٩١٧)، و " سالومى" (١٩١٨)، و " الفارس العربى" (١٩٢٠)، بين أفلام أخرى. وأدى رودلف فالنتينو دور الشيخ على غرار " لورانس العرب" فى فيلمين، هما " الشيخ" (١٩٢١) و " ابن الشيخ" (١٩٢٦)، صورا الشرق على أنه مشحون جنسيًا، بين أشياء أخرى.

وخارج نطاق الثقافة، فى عالم السياسة، لم تتراكم عن الشرق سوى معرفة منهجية هزيلة. وقد تأسست جمعية المستشرقين الأمريكيين عام ١٨٤٢، ولكن الولايات المتحدة لم تبدأ فى الاقتراب من دراسة الشرق الأوسط بطريقة منهجية، مثلما فعلت أوروبا، إلا بعد الحرب العالمية الثانية [٢٧]، وقبل هذه المرحلة، كان باحثو الولايات المتحدة القليلون نسبياً الذين درسوا الإسلام والشرق قد فعلوا ذلك فى المقام الأول من خلال عدسة الاستشراق وكانوا موجودين فى أقسام أو معاهد " دراسات الشرق الأدنى" أو " الدراسات الشرقية" [٢٨]، وكان المستشرقون الأوروبيون يحظون بمكانة ثقافية فى هذا الميدان [٢٩].

وقد غيّر انتهاء الحرب العالمية الثانية هذا الوضع، لأن الولايات المتحدة خرجت من تلك الحرب وهى أقوى دولة غربية. وانبرت لتأخذ مكانة بريطانيا وفرنسا فى الشرق الأوسط وتفرض سيطرتها على المنطقة. ولكن الولايات المتحدة كانت بحاجة، كى تحقق ذلك، إلى معلومات لتوجّه سياستها. وفى البداية، كان بإمكانها أن تعتمد فحسب على شبّان نشأوا فى المنطقة، هم أبناء أعضاء البعثات التبشيرية أو أساتذة الجامعات، المعروفين باسم " المستعربين". ولكن فى سياق الحرب الباردة، ومع تطور حركات التحرر الوطنى، كانت النُّخب تحتاج إلى معلومات موثوقة لكى تعزز مصالحها فى المنطقة. وبدأت الحكومة والمؤسسات الخاصة ترعى وتموّل برامج وأقساماً " لدراسات المناطق" لم تكن تركّز على دراسة الشرق الأدنى فقط بل تركز أيضاً بوجه أعم على آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وفى ذلك السياق اتجهت الجامعات الأمريكية إلى إنتاج معرفة تكون لها فعاليتها فى خدمة احتياجات الإمبراطورية. وكان هناك نهجان يوجهان دراسة الشرق الأوسط هما: الاستشراق، الذى ما زال علماء اللغة يسيطرون عليه، والبحث العلمى الاجتماعى، الذى تطور منه نموذج جديد يُعرف باسم " الحداثة".

وقد عبر باحثون مستشرقون بارزون من أوروبا المحيط الأطلنطى كى يتولوا مناصب أكاديمية فى الجامعات الأمريكية أثناء حقبة ما بعد الحرب. فقد ترك هـ. أ. ر.

جيب، الذى كان محوريًا فى تطور نهج الاستشراق فى الولايات المتحدة، أكسفورد كى يتولى منصبًا فى جامعة هارفارد عام ١٩٥٥، وأثّر جوستاف فون جرونيباوم ، المستشرق النمساوى، على جيل جديد من الباحثين فى جامعة شيكاجو ثم فى جامعة كاليفورنيا [٣٠]، وقد جلبوا فيما بينهم أساليب المستشرقين فى التحليل إلى الولايات المتحدة وواصلوا عمل المستشرقين المؤثرين فى أواخر القرن التاسع عشر من أمثال إرنست رينان. فجيب، مثلاً، قال إن " العقل العربى" و " عقل المسلم" ينطويان على جوهر يمكن فهمه بقراءة نصوص الإسلام الكلاسيكية. وقال جرونيباوم إن الثقافة الإسلامية الجامدة يمكن أن تساعد على تفسير جميع الظواهر المعاصرة. وهذه التعميمات الكاسحة، التى تتسم بها دراسات المستشرقين، كان لها تأثيرها فى الولايات المتحدة لأنها وفّرت طريقة سريعة وسهلة لفهم منطقة كبيرة ومعقّدة.

وفى العقود اللاحقة، طعنت بحوث علم الاجتماع فى الاستشراق لدرجة أن جيب اعترف ببعض أوجه القصور فى أسلوب المستشرقين وحث علماء الاجتماع والمستشرقين على العمل سويًا [٣١]. ولكن، بالرغم من نشر عدد من الأعمال التى انتقدت افتراضات الاستشراق وأساليبه فى الفترة اللاحقة لسبعينيات القرن العشرين، فقد ظل الاستشراق قائمًا. ويمكن أن يُعزى إلى برنارد لويس، المستشرق البريطانى، الفضل فى مواصلة إرث الاستشراق وتأثيره. وقد قبل لويس منصبًا فى جامعة برينستون عام ١٩٧٤ وأصبح شخصية رئيسية فى الفكر الاستشراقى فى الولايات المتحدة منذ ذلك الحين.

بيد أن الولايات المتحدة لم يكن بإمكانها أن تقبل ببساطة لغة الإمبراطوريات القديمة فى مجملها. فقد كان تاريخها المناهض للاستعمار يعنى وجود أصوات فى الساحة السياسية تقاوم عباءة الإمبريالية. ومع أنها دخلت الساحة الإمبريالية بالحرب الإسبانية - الأمريكية فى عام ١٨٩٨، كتب سيدنى لينز يقول إن " مسألة الحكم الذاتى كانت مترسخة فى الروح الوطنية لدرجة أنه بدأت تتشكل معارضة مناهضة للإمبريالية[٣٢]، ولم تكن العصبة المناهضة للإمبريالية، التى تأسست فى نوفمبر

١٨٩٨، تشمل شخصيات من أمثال مارك توين فقط بل شملت أيضًا ساسة بارزين يمثلون الاتجاه السائد. وقد خف اتجاه المعارضة السائد هذا أثناء القرن العشرين؛ إلا أنه أدى إلى صورة للولايات المتحدة تبدو فيها قوة عالمية من نوع مختلف، أى أنها قوة مختلفة عن " الإمبريالية القديمة" فى أوروبا.

وقد اعتملت هذه العوامل الدينامية بشكل ملموس فى حقبة ما بعد الحرب. فقد أضعفت انتفاضات الحرب العالمية الثانية الإمبراطوريات القديمة وأوجدت عالمًا ثنائى القطبية يدور حول القوتين الجديدتين، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى. وفى هذا السياق، كانت الولايات المتحدة تعقد الأمل على تخفيف قبضة القوى الإمبريالية القديمة على مستعمراتها. ولذا زعمت حكومتا ترومان وأيزنهاور أنهما تدعمان حركات التحرر الوطنى المناهضة للاستعمار؛ وأعلنتا اعتزامهما مساعدة البلدان النامية بدعم مشاريع لإقامة البنية التحتية وتعزيز النمو الاقتصادى. ولكن هذه المساعدة الاقتصادية كان لها ثمنها، فقد طالبت الحكومتان بالولاء السياسى للولايات المتحدة. فعلى سبيل المثال، سعت الولايات المتحدة فى البداية إلى انضواء مصر فى عهد جمال عبد الناصر تحت جناحها عن طريق وعود بتقديم مساعدة مالية لها. بيد أن ناصر غازل الاتحاد السوفييتى، وعاقبته حكومة أيزنهاور بأن حنثت بوعدها بتقديم تمويل لبناء سد فى أسوان. وعلى الفور قام ناصر بتأميم قناة السويس، مما دفع بريطانيا وفرنسا وإسرائيل إلى شن حرب على مصر. ثم تدخلت الولايات المتحدة (والاتحاد السوفييتى) فى صف ناصر، وسمحا لمصر بأن تتخلص فى نهاية الأمر من سيدها الاستعمارى السابق، وهو بريطانيا. ويكشف هذا المثال نهج الجزرة والعصا الذى استخدمته النخبة الأمريكية مرة تلو الأخرى أثناء الحرب الباردة: أى استخدام الحوافز النقدية لكسب الحلفاء، ومعاقبتهم عندما يبتعدون عنها، ولكن مع العمل أيضًا على إضعاف قبضة الدول المستعمرة السابقة متى أمكن ذلك.

وقد قال جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكية عن أزمة السويس إن ما " فعله البريطانيون والفرنسيون ليس سوى الطراز المباشر والقديم من الاستعمار

بأوضح أشكاله"[٣٣]، وعلى العكس من ذلك، قامت الولايات المتحدة بصياغة نموذج جديد للإمبريالية على أساس ما أسمته ميلانى ماكأليستر " التفوق المُحسِن".
وكان هذا النموذج يقوم على فكرة أن العالم الذى تسيطر عليه أمريكا سيكفل الحرية والديمقراطية للجميع عن طريق آلية حرية الأسواق. وعبّر هنرى لوس، رئيس تحرير مجلتى " لايف" و " تايم"، عن هذا الدور العالمى الجديد للولايات المتحدة فى مقال افتتاحى بعنوان " القرن الأمريكى الجديد". وقال إن الولايات المتحدة " محسنة جيدة" وستحقق " الحرية والعدالة" فى مختلف أنحاء العالم فى فترة ما بعد الحرب[٣٤].

وتذكر ميلانى ماكأليستر أن " التفوق المُحسِن" كان يعنى، على صعيد السياسة، ربط " قوة الولايات المتحدة الاقتصادية والعسكرية ببرنامج مناهض للشيوعية، ومناهض للاستعمار، ومؤيد لحرية الأسواق"[٣٥]، وكانت سياسة مناهضة الاستعمار هى الحلول محل القوى الاستعمارية القديمة ولذا فإنها كانت شديدة الانتقائية. فقد دعمت الولايات المتحدة نضالات مناهضة للاستعمار فى بعض الحالات التى توافقت فيها أهدافها مع أهداف مناهضى الاستعمار بينما أحبطت نضالات أخرى (فهى، على سبيل المثال، وقفت إلى جانب فرنسا فى الجزائر والهند الصينية)، وَكان لها بضع مستعمرات خاصة بها فى منطقة الكاريبى والمحيط الهادى. وقبل كل شىء، كان على الدول التى انتهى استعمارها حديثًا ألا تعارض الإمبريالية الاقتصادية ووصول الولايات المتحدة إلى الأسواق والفرص الاستثمارية فى مختلف أنحاء العالم. ويوضح سيدنى لينز أن استراتيجية واشنطن كانت تدور حول ثلاثة أهداف هى: إيجاد سياسة " باب مفتوح" تتيح للولايات المتحدة دخول الأسواق التى كانت لولا ذلك ستُغلق فى وجهها وإقامة تجارة متعددة الجنسيات كركيزة للسياسة الاقتصادية؛ وإضعاف وعزل القوى التى تعارض سياسة الباب المفتوح (والتى كان من بينها الدول الاستعمارية السابقة فضلاً عن القوميين والشيوعيين الراديكاليين)؛ وكسب، كما قال الرئيس كنيدى، " نفوذ وسيطرة" على الحكومات الطيِّعة، التى تمثل الجناح اليمينى عادةً، من

خلال " المِنَح والقروض المقيّدة بشروط، والمعونة العسكرية، والمعدات، وتدريب الجيوش العميلة، والأحلاف العسكرية، وحركات التمرد التى ترعاها وكالة المخابرات المركزية، وكذلك أحيانًا، عندما لم تكن الأساليب الأخرى كافيةً، التدخل المباشر من جانب قوات الولايات المتحدة المسلحة نفسها"(٣٦).

وكان هذا الشكل الجديد من الإمبريالية يتطلب لغة جديدة؛ وأُطلق على تلك اللغة اسم " نظرية التحديث". وكان هذا النهج سائدًا فى دراسات المناطق التى أجريت فى الولايات المتحدة بدءًا من خمسينيات القرن العشرين حتى سبعينياته. وتعتمد نظرية التحديث على أعمال ماكس ويبر، التى تميز بين المجتمعات " التقليدية" والمجتمعات " الحديثة". والمجتمعات التقليدية كانت مجتمعات زراعية وريفية، تتغير ببطء، وسلطوية سياسيًا. أما المجتمعات الحديثة فقد كان يُنظر إليها على أنها مجتمعات صناعية، تتغير بسرعة، وديمقراطية وقائمة على المساواة سياسيا. وقدمَ الباحثون الذين وضعوا هذا النهج تفسيرات شتى لعدم تقدم المجتمعات التقليدية؛ فأشار بعضهم إلى عوامل ثقافية، بينما أشار آخرون إلى عوامل اقتصادية. ولكن، فى النهاية، اتُّفق على أن التغيير لن يتأتى من داخل هذه المجتمعات بل يجب أن يتأتى من الخارج.

وإيجازًا، كان ذلك أسلوبًا جديدًا لتقسيم العالم إلى " نحن" و " هم". ووفقًا لمنظّرى التحديث، كان " مجتمعنا" مفعما بالحركة، وذا وجهة علمية، وعقلانيًا، ومساندًا للتطور الفردى، وديمقراطيًا، وقائمًا على المساواة، بينما كانت " مجتمعاتهم" جامدة، وضيّقة التفكير، واستبدادية، وسلطوية. وما كان يلزم بالتالى هو تدخل غربى من أجل " مساعدة" المجتمعات التقليدية على التحول إلى الحداثة. وهذه النظرة لم تكن تختلف كثيرًا عن أفكار المستشرقين السابقين، ولكنها مغلفة بمصداقية علم الاجتماع. ولم يتكهن منظّرو التحديث بالمجتمعات المعاصرة المستندة إلى النصوص الكلاسيكية: فقد أجروا بحوثًا على أساس التجربة العملية وجمعوا بيانات جرى تقييمها باستخدام أساليب تحليل البيانات تحليلاً كميًا. وهذه المرة كان ذلك هو العلم الحقيقى، ولا بد أن يكون صحيحا!

وقد قال دانييل ليرنر، مؤلف كتاب " زوال المجتمع التقليدى: تحديث الشرق الأوسط" ذى التأثير البالغ، إن الناس الذين يعيشون فى مجتمعات حديثة مميزون بشخصياتهم، التى فسّرها بعبارات سيكولوجية. فالأفراد العصريون لديهم " تعاطف"، يتيح لهم أن يضعوا أنفسهم موضع الآخرين ويتيح لهم بالتالى أن يتصوروا الأمور ويجعلوا الحراك الاجتماعى ممكنًا. أما الأفراد التقليديون فهم يفتقرون إلى هذه القدرة ولذا فهم بحاجة إلى التأثير الغربى لمساعدتهم على التخلص من أساليبهم الجامدة العتيقة(٣٧)، وكان أسلوب ليرنر فى التحليل يستند إلى أساليب علم الاجتماع واستخدام بيانات كمية. وفى ميدان الاتصال الجماهيرى، نشر إيفيريت رودجرز كتابه " نشر الابتكارات"، الذى درس الكيفية التى يمكن بها نشر الأفكار الجديدة فى المجتمعات التقليدية. وقد خلص رودجرز إلى أن من هم ليسوا منفتحين بالنسبة لـ " الابتكار" الذى يقدمه الغرب يصوَّرون فى أفضل الحالات على أنهم " متخلفون"(٣٨)، وإيجازًا، لم يكن يُنظر إلى أولئك الذين قاوموا الدعاية الغربية/"الابتكار الغربي" على أنهم أفراد يتصرفون بما يحقق مصالحهم بل كان يُنظر إليهم على أنهم تقليديون ضيّقو التفكير يعوقون التقدم.

وبينما توجد لكل من الاستشراق ونظرية التحديث تقاليده وأساليبه البحثية، فقد كانت تجمع بينهما نظرة مستقطبة للعالم: الشرق متدنٍ والغرب متفوق. وبالنظر إلى أن أيًا منهما لم يكن ممكنا أن يرى تغيّرا متأتيًا داخليًا فى المجتمعات الشرقية، فقد دعا كلاهما إلى التدخل الغربى، الذى زعما أنه سيعود بالفائدة على الشعوب المحلية/التقليدية. وإجمالا، كانت قلة، إن وُجدت، هى التى شككت فى مبدأ أن البحوث المتعلقة بالشرق الأوسط (وفى دراسات المناطق بوجه عام) ينبغى تكييفها لتلبية احتياجات حكومة الولايات المتحدة. وقد كان هذا هو الاتجاه السائد حتى سبعينيات القرن العشرين. وفى تلك المرحلة، أدت عوامل شتى، لا سيما أثر نضالات التحرر الوطنى الناجحة على ميدان دراسات الشرق الأوسط، إلى تكاثر الكتب والمقالات التى تنتقد كلاً من الاستشراق ونظرية التحديث.

ورغم هذه الانتقادات، استمر ازدهار مدارس الفكر الاستشراقى والتحديثى. بل إن تلك المدارس تلاقت فى صورة صمويل هنتنجتون، أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفارد. ففى مقال نُشر فى مجلة "Foreign Affaires" فى عام ١٩٦٨، اعتمد هنتنجتون على نظرية التحديث لتبرير قذف الولايات المتحدة للريف الفيتنامى بالقنابل على نطاق هائل. ولاحقًا، فى عالم ما بعد الحرب الباردة، طوّر هنتنجتون مفهوم لويس عن " صدام الحضارات" وساعد على إكساب دراسات المستشرقين شعبية.

* * *

لقد ركّز هذا الفصل على مولد الاستشراق فى أوروبا أثناء حقبة الاستعمار الحديث، بحيث ناقش الطرائق التى كان بها الاستشراق كمجموعة من الأفكار مرتبطًا ارتباطًا مباشرًا بمشروع الغزو الإمبريالى. وبينما تبدأ القصة فى أوروبا، فإنها تستمر فى الولايات المتحدة، التى استولت على عباءة السيد الأعلى الإمبريالى فى " العالم الإسلامي" بعد الحرب العالمية الثانية. وقد تصورت الولايات المتحدة نفسها فى صورة طراز من القوة العالمية مختلف عن " أوروبا القديمة"، وانعكست مصالحها الإمبريالية من خلال عدسة " الإحسان". وكان هذا معناه، من حيث الجوهر، مناهضة الشيوعية واعتناق رأسمالية حرية الأسواق. وقد انبثقت نظرية التحديث فى هذا السياق لتلبية احتياجات الإمبراطورية " الجديدة". بيد أن مكانة الاستشراق وهجرة الباحثين المستشرقين من أوروبا إلى برامج دراسات المناطق فى الولايات المتحدة كانتا تعنيان أن التحديث أيضًا كان مؤثرًا فى المجال السياسى. وسيتناول الفصل الرابع بشكل ملموس كيف استخدمت الولايات المتحدة كلتا النظريتين لوضع سياستها فى الشرق الأوسط. ونحن نتناول، على وجه الخصوص، " سياساتها بالنسبة للإسلام" والطرائق التى تعاملت بها مع منظمات الإسلاميين.

ومن المعروف الآن جيدًا أن الولايات المتحدة كانت تعتبر أحزاب الإسلام السياسى بمثابة حلفاء أثناء الحرب الباردة. ولكن فى ثمانينيات القرن العشرين بدأ

الجناح اليمينى الإسرائيلى ومجموعة من المتشددين فى مجال السياسة الخارجية يطلق عليهم " المحافظون الجدد" يصوران " الإرهاب الإسلامي" على أنه تهديد عالمى مماثل للتهديد الذى كان يمثله الاتحاد السوفييتى (انظر الفصل السابع). وفى حقبة ما بعد الحرب الباردة، بدأت هذه الحجج – التى عززها لويس وهنتنجتون وآخرون – تكسب أرضًا لدرجة أن عملية تفجير قنبلة فى مدينة أوكلاهوما نُسبت فى البداية إلى "إرهابيين إسلاميين" قبل التعرّف على منْ قام بعملية التفجير، وهو تيموثى ماكفى الأمريكى. وفى أعقاب هذا الحادث مباشرةً، واستنادًا إلى محاولة تفجير قنبلة فى مركز التجارة العالمى عام ١٩٩٣، أدى إصدار قانون مكافحة الإرهاب الشامل إلى تعزيز مناخ الخوف من " الإرهابيين" العرب والمسلمين (انظر الفصل الثامن). ومع ذلك، وعلى مستوى السياسة الخارجية، تحاشت إدارة بوش الأب وإدارة كلينتون هذه الطنطنة عن " صدام الحضارات" فى صالح موقف " واقعى يوازن بين العوامل". وبعد أحداث ١١ سبتمبر فقط تلاقت السياسة الداخلية والسياسة الخارجية للولايات المتحدة للتعبير عن التهديد الشامل الذى يمثله المسلمون. وسنرى فى الفصل التالى أن هذا لم يكن بالمهمة الصعبة، بالنظر إلى أن افتراضات المستشرقين عن " العالم الإسلامى" كانت مقبولة بل وحتى مسلّمًا بها من قبَل المؤسسة الليبرالية.

الفصل الثالث

استمرار أكاذيب المستشرقين

وُجه جون ماكين، المرشح الجمهورى، فى أثناء وقفة له فى حملته الانتخابية للفوز بالرئاسة فى عام ٢٠٠٨، بامرأة بيضاء مسّنة قالت إنها لا تثق فى باراك أوباما. وأومأ ماكين برأسه علامة على اتفاقه فى الرأى معها إلى أن أضافت قائلة إن أوباما عربى. فأجاب ماكين قائلاً: " كلا يا سيدتى، كلا ياسيدتى إنه رجل أسرة ومواطن مهذب، أختلف معه فحسب" [١]، وكانت وراء هذا الحوار مجموعة كاملة من الافتراضات عن العرب: أنهم سيئون، ولا يمكن الثقة بهم، وليسوا أمريكيين (لأن الأمريكيين العرب لا يُحسبون، وليسوا مهذبين، ولا يقدرون الأسرة). ورغم عدم الاتفاق البادى، كانت تجمع بين ماكين ومؤيدته نظرة ضمنية إلى العرب على أنهم إرهابيون أجانب.

ورد أوباما – المرشح " الليبرالى" – على الاتهامات التى وُجهت إليه بأنه مسلم وإرهابى بالإصرار على أنه مسيحى. وفى أعقاب الحملة الانتخابية أكد أنه كان يتردد على نفس الكنيسة المسيحية لمدة عقدين، وأنه أدى يمين منصبه باستخدام إنجيل أسرته، وأنه يتعهد باستمرار بولائه للعلَم فى مجلس الشيوخ[٢]، وإيجازاً، فإنه لم يفعل شيئًا للاعتراض على ربط المسلمين والعرب بالإرهاب، متقبلاً ضمنيًا المنطق المناهض للمسلمين الذى يُنظر إليه على أنه الرأى التقليدى فى السياسة السائدة التى تتبعها الولايات المتحدة.

ومنذ أحداث ١١ سبتمبر، لم يروّج الساسة ووسائط الإعلام لفوبيا الإسلام فحسب، بل أصبحوا يؤرخون بهذا الحدث. وهذه الطنطنة لم تُخترع بعد سبتمبر ٢٠٠١؛ فتاريخها طويل، مثلما شاهدنا فى الفصلين السابقين. وسيتناول هذا الفصل بعض صور المسلمين التى استمرت إلى حد أنها أصبحت تمثل " شيئًا بديهيًا"، أى أنها أصبحت أفكارًا يُعتقد أنها صحيحة وجلية للغاية بحيث لا تحتاج إلى التحقق منها. وبوجه خاص، سنبحث خمس أكاذيب عن الإسلام والمسلمين. وإنى أستخدم مصطلح "myth" لمعنييه الاثنين، كقصة تقليدية لأحداث يُفترض أنها تاريخية تلقى ضوءًا على النظرة العالمية إلى أناس، وكقصة زائفة ويمكن الطعن فيها. فالأكاذيب عن الإسلام فى القرن الحادى والعشرين هى أكاذيب تاريخية بالفعل، ولكنها تستند إلى تفسير مشوّه أو انتقائى للماضى. والهدف من هذا الفصل هو تبيان كيف نشأت هذه الأكاذيب المعبّرة عن فوبيا الإسلام من رحم الفكر الاستشراقى والتقاليد السابقة، ثم تفنيد تلك الأكاذيب.

الأكذوبة الأولى: الإسلام ديانة أحادية الخواص

فى القرن الحادى عشر، عندما بدأت صورة العدو المسلم تتبلور، لم يبذل الباحثون الدينيون الذين أصدرت النخبة الأوروبية تكليفًا لهم إلا بضع محاولات لفهم مختلف فروع الإسلام وممارسته الفعلية من قِبَل المسلمين فى مختلف أنحاء العالم. فقد أرادوا، بدلاً من ذلك، كشف مُحمَّد كمدع وكشف الإسلام كدين زائف. ولم يُستثمر قدر كبير من الوقت فى معرفة كيف دمج الإسلام الممارسات الثقافية للإمبراطوريات والشعوب التى قهرها أو كيف تحوّل بفعل الثقافات المختلفة بحيث اتخذ أشكالاً مختلفة فى المناطق المختلفة.

ومع أن أولئك الذين يمثلون أقصى اليمين هم الذين من شأنهم أن يزعموا الآن أن الإسلام ديانة زائفة، كثيرًا ما يكون من المسلّم به كشىء بديهى أن الإسلام متجانس الخواص. وهذا يرجع إلى حد كبير إلى ترويج المستشرقين، مثلهم مثل

نظرائهم في القرون الوسطى، لأكذوبة أن الإسلام دين أحادي الخواص يمكن فهمه تمامًا من خلال نصوصه الكلاسيكية. فالعمل من منطلق افتراض من هذا القبيل هو وحده الذي يمكّن أي أحد من أن يطلق مزاعم عن كيان جامد يسمى " الحضارة الإسلامية" ذي مجموعة أساسية من القيم التي لا تتغير، أو عن " العقل الإسلامي" (الذي يُنظر إليه، بطبيعة الأمر، في صيغة المفرد، وكأن جميع المسلمين لديهم عقل خلية). وإنكار تنوع التاريخ الإسلامي وتنوع الممارسات الإسلامية هو وحده الذي يمكن أن يجعل المرء يقول إن الإسلام له خصائص متأصلة معينة لا تتغير تجعله يتسم بمناهضته للديمقراطية وبعنفه وبتحيزه الجنسي وما إلى ذلك. والأكاذيب التي ترد مناقشتها في هذا الفصل تنبع من هذا الافتراض الأساسي وهو أن الإسلام أحادي الخواص.

ويتضح حتى من إلقاء نظرة خاطفة على ممارسة الإسلام في مختلف أنحاء العالم أن هذه الأكذوبة زائفة تماما. فمليار ونصف مليار شخص في مختلف أنحاء العالم مسلمون، ٨٥ في المائة منهم سنّة و ١٥ في المائة منهم شيعة [٣]. وداخل هاتين الطائفتين الرئيسيتين، هناك فروع أخرى كثيرة. وتوجد على امتداد المعمورة بلدان ومناطق يمثل المسلمون أغلبية فيها، بدءًا من إندونيسيا إلى بنغلاديش إلى بلدان متعددة في وسط آسيا إلى الشرق الأوسط وصولاً إلى شمال أفريقيا. وفي معظم هذه البلدان الإسلام هو الدين السائد، ومن هنا ينبع مصطلح " البلدان التي يشكل فيها المسلمون أغلبية". ولكن هذه البلدان تؤوي أيضًا مسيحيين ويهودًا وأشخاصًا ينتمون إلى ديانات أخرى، فضلاً عن الملحدين. ويوجد في الهند، وهي بلد يشكّل فيها الهندوس أغلبية مهيمنة، أكثر من مائة مليون مسلم.

ويبدو الإسلام مختلفًا في كل منطقة من هذه المناطق وكل بلد من هذه البلدان، ويرجع هذا إلى حد كبير إلى أن الناس مزَجوه، عندما انتشر، بعاداتهم وتقاليدهم المحلية. فالإسلام الصوفي الذي يُمارَس في شمال الهند يختلف اختلافًا كبيرًا عن الإسلام الشيعي الذي يُمارَس في لبنان، الذي يختلف بدوره عن الإسلام السنّي الذي

يُمارَس فى باكستان. وحتى داخل أى فرع منفرد من فروع الإسلام توجد عادات وممارسات تتباين بحسب المنطقة وعبر الزمن. ومن ثم، يختلف إسلام شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع عن المذهب الوهابى الموجود الآن فى المملكة العربية السعودية. وقد تكون النصوص الدينية ثابتة تقريبًا، ولكن ديانات العالم، ومن بينها الإسلام، تغيّرت وتكيّفت استنادًا إلى التحولات التاريخية.

ويسعى قدر كبير من الطنطنة الحالية المعبّرة عن فوبيا الإسلام إلى شيطنة العرب على وجه الخصوص. فكما شاهدنا فى المثال الذى سُقته فى بداية هذا الفصل، " اتُّهِم" أوباما بأنه عربى، وهو اتهام يمثّل اختزالاً لـ " المسلم" فى بعض الأوساط. ولذا دعونا نلاحظ نقطة بسيطة: المسلمون ليسوا جميعهم عربًا، والعرب ليسوا جميعهم مسلمين. فالعرب هم أُناس يتحدثون اللغة العربية، وتجمع بينهم تقاليد ثقافية مشتركة معينة، ويزعمون أن لديهم هوية عرقية عربية مشتركة(٤)، ومن الناحية الجغرافية، كان العالم العربى ينقسم تقليديًا إلى جزأين: منطقة المغرب العربى أو الغرب، التى تشمل كلاً من المغرب وليبيا والجزائر وتونس والسودان وبلدانًا أخرى تقع غربى نهر النيل، ومنطقة المشرق العربى أو الشرق، التى تشمل كلاً من مصر وسوريا ولبنان وجميع البلدان التى تقع شرقى نهر النيل حتى إيران ولكن بما لا يشملها. وبسبب الاختلافات اللغوية والثقافية، لا يُعتبر الإيرانيون والأتراك عربًا.

ومن ثم، إذا نظرنا نظرة فعلية، حتى ولو موجزة مثلما فعلنا آنفًا، إلى تنوع البشر الذين يتبعون الإسلام، فإننا لن نجد فحسب أى أساس بيولوجى أو عرقى للإسلام المتماثل بل إن فكرة الإسلام الأحادى الخواص تنهار على الفور أيضا. وكذلك ادعاء المستشرقين أن هناك " حضارة إسلامية" عبر التاريخ تستند إلى مجموعة أساسية من القيم ويمكن انطلاقًا منها أن يفسّر المرء طائفة من الظواهر المعاصرة. ومع ذلك فإن هذا هو على وجه التحديد المنطق الذى سنجد أنه السائد فى الأكاذيب التالية، التى تجزم بأن الإسلام بحكم طبيعته متحيز جنسيًا، ولا عقلانى، ويتسم بالعنف، وغير ديمقراطى. وإضفاء طابع التجانس على الإسلام والمسلمين يُعتبر أمرًا بديهيًا لدرجة

أنه يمثل أساس جميع الأكاذيب الأخرى. وقد لاحظ إدوارد سعيد أن المستشرق ذا النفوذ جرونيباوم " أنتج عملاً متيناً ركّز على الإسلام كثقافة كلية وظل يطرح بشأنها، منذ بداية حياته المهنية حتى نهايتها، نفس مجموعة التعميمات السلبية الانتقاصية بصفة جوهرية" (٥)، وهذا النمط يمكن العثور عليه ليس فحسب فى دراسات الباحثين بل أيضاً فى الثقافة الشعبية(٦).

الأكذوبة الثانية: الإسلام ديانة متحيزة جنسياً بشكل فريد

بينما كانت أوروبا المتسمة بالاضطهاد الجنسى مبهورة ومأخوذة بالعادات الإسلامية المتعلقة بالزواج حتى أثناء القرون الوسطى، لم تجر أى مناقشة منهجية بشأن المرأة والإسلام إلا فى القرن التاسع عشر. وقد ذكر أحد الباحثين، تعليقاً على استحواز أوروبا فى القرن التاسع عشر بشأن المرأة المسلمة، أن " ما من موضوع مرتبط بالإسلام اعتبره الأوروبيون أهم من وضع المرأة المسلمة"(٧)، وكانت الحكاية السائدة التى انبثقت من ذلك الاستحواز هى حكاية تصوّر المرأة المسلمة على أنها امرأة يُخضعها الرجل لسيطرته إخضاعاً شديداً، ومقمعة، ولا تزيد كثيراً عن كونها عبدةً. وكان يُقال إن المسلمين المستبدين كانوا، تماماً مثلما مارسوا طغيانهم على رعاياهم، يمارسون طغيانهم على زوجاتهم وبناتهم أيضاً. وكما أظهر باحثون شتى، لم يكن الرجال الأوروبيون الذين كتبوا عن محنة المرأة المسلمة يحتكون كثيراً فى حقيقة الأمر بتلك المرأة للتحقق من افتراضاتهم. وتكشف قصص كثيرة سردتها نساء غربيات عن النساء المسلمات اللائى التقين بهن عن وجود واقع أكثر تعقيداً(٨). ومع ذلك، فقد خدمت هذه الأقاويل عن المرأة المقمعة المشروع الاستعمارى. إذ كان باستطاعة الرجال الغربيين بذلك أن يمتطوا ظهور خيولهم وهم يرتدون سراويل الفرسان والخوذات المصنوعة من اللباب لإنقاذهن.

وكان إيفلين بارينج، الذى كان فى البداية إيرل كرومر، وأصبح أكثر اشتهاراً باسم اللورد كرومر، واحداً من الإنجليز الذين يرتدون الخوذات اللبابية واستغل

الفرصة. فعندما غزت بريطانيا مصر واحتلتها فى عام ١٨٨٢، عُهد إلى كرومر بمهمة الإشراف على الاحتلال. وقد كتب يقول إن " الإسلام كنظام اجتماعى أثبت فشله التام .... فتحقير المرأة فى الشرق هو داء مُهلك يبدأ فتكه فى مرحلة مبكرة من الطفولة واستشرى فى منظومة الإسلام بأكملها." وكان الحل هو " حض المسلمين أو إجبارهم على تشرُّب الروح الحقة للحضارة الغربية" (٩). أما داخليًا، فإن نصير حقوق المرأة المصرية هذا كان يعمل بشكل محموم على حرمان المرأة البريطانية من حقها فى التصويت وذلك بوصفه عضواً مؤسسًا لعصبة الرجال العاملة على معارضة حق المرأة فى الاقتراع، وبوصفه رئيسًا لتلك العصبة. ولم يكن هذا يمثل تناقضًا بالنسبة لكرومر، الذى كان محافظًا من الناحية الاجتماعية فى الداخل، ولكنه كان مستعمرًا مستنيرًا فى الخارج. ولم يكن، كسيد أعلى استعمارى، يطرح أى بيان مبادئ بل كان يستخدم ببساطة حججًا مفيدة للمهمة الاستعمارية.

وبعد انقضاء أكثر من قرن، لم يكن من قبيل المفاجأة أن يتخفى الرئيس جورج دابليو بوش، الذى كان سجله السياسى مناهضًا للمرأة بشكل ثابت، فى صورة المنقذ للمرأة الأفغانية. فقد كان من بين أعمال بوش الأولى بعد أن تقلّد منصب الرئاسة خفضه للتمويل الذى تقدمه الولايات المتحدة للجماعات الدولية التى تقدم خدمات الإجهاض للمرأة، ومع ذلك فقد وصف الحرب على أفغانستان بأنها ضرورية لإنقاذ المرأة الأفغانية: " من الواضح أن لدينا مشاكل خطيرة مع حكومة طالبان. فهى حكومة قمعية بدرجة لا تصدّق، حكومة لديها منظومة قيم من الصعب على كثيرين فى أمريكا أن يتقبلوها. فهى تضطهد المرأة اضطهاداً لا يصدّق" (١٠). ولعل الجزء " الذى لا يصدّق" هو الذى أثار انبهار دوبيا، لأن حياته موغلة فى الافتراضات والممارسات التى تنم عن التحيز الجنسى. وعلى أية حال، انبرت مجموعة كاملة من السياسيات، بل وحتى المنظمات النسائية من قبيل منظمة " الأغلبية النسائية"، لتأييد الحرب. وزعمت لورا بوش، التى كانت قد اتخذت مؤقتًا صورة المدافعة العتيدة عن المرأة، أنه: " نتيجة لمكاسبنا العسكرية التى تحققت مؤخرًا فى أجزاء كبيرة من أفغانستان، لم تعد المرأة الأفغانية حبيسة بيتها. فقد أصبح بإمكانها أن تستمع إلى الموسيقى وأن تعلّم بناتها

دون خوف من العقاب. ومع ذلك فإن الإرهابيين الذين ساعدوا على حكم ذلك البلد يتآمرون ويخططون الآن في بلدان كثيرة. ويجب إيقافهم. ومكافحة الإرهاب هي أيضاً مكافحة في سبيل حقوق المرأة وكرامتها" [١١]. وفي واقع الأمر، تدهورت أوضاع المرأة في أفغانستان، لا سيما في المناطق الريفية، بعد غزو الولايات المتحدة لأفغانستان. وقد أبرزت هذه النقطة تماماً مالالاي جويا، أصغر امرأة تُنتخب في البرلمان الأفغاني والمدافعة عن حقوق المرأة؛ وردّت الولايات المتحدة على ذلك بحظر دخولها البلد للقيام بجولة لإلقاء كلمات في عام ٢٠١١ إلى أن اندلع احتجاج عام [١٢].

ورغم هذا الواقع، فإن المنطق القائل بأن المرأة المسلمة مقمعة ولذا فهي بحاجة إلى إنقاذ على يد الغرب ما زال هو المنطق السائد. وكان الحجاب الإسلامي موضوع قدر كبير من الجدل. فقد جرى حظر الحجاب، أو تحقيره، أو استخدامه تعزيزاً للحجة الاستعمارية آنفة الذكر، من منطلق رؤيته دوماً كرمز لقمع المرأة المسلمة. وفي أبريل ٢٠١١، أعادت الحكومة الفرنسية تدوير هذه الحجة عندما منعت النساء من ارتداء الحجاب في الأماكن العامة، منتهكة بذلك الحرية الدينية في العملية. وتغيب عن هذا الخطاب أصوات المرأة المسلمة ذاتها، التي كان يمكن أن تقدم سرداً بديلاً للأمر، سرداً يتحدث عن الاختيار الواعي من جانب أفراد يتمتعون بالاستقلال الذاتي. وكما قلت في مواضع أخرى، فإن خطوة من هذا القبيل من شأنها أن تستتبع تحولاً في شروط النقاش: ففي هذه الحالة تصبح المرأة المسلمة عنصراً فاعلاً قادراً على تغيير ظروفها الخاصة، بدلاً من تصويرها على أنها ضحية معدومة الصوت [١٣]. وغني عن البيان أن هذا لن يكون فعالا، على الأقل ليس بالنسبة للدول الإمبريالية العاقدة العزم تماماً على "إنقاذ" المرأة المسلمة سواء شاءت أم لم تشأ.

ومع ذلك، حالما نتخلص من مغالطة إمبريالية، فإن السؤال المنطقي التالي هو ما إذا كان الإسلام متحيزاً جنسياً بشكل فريد. وتعزيزاً لهذه المقولة، قد يشير المرء إلى أن حقوق المرأة تقلصت بشدة على يد النظم الإسلامية اليمينية من قبيل طالبان في أفغانستان وتحالف المحافظين في إيران. وقد نرد على هذه النقطة بطريقتين. أولاً،

أحزاب الإسلام السياسى تكيِّف الدين لخدمة أهدافها السياسية بنفس الطريقة التى استخدم بها الأصوليون الأمريكيون المسيحية لمهاجمة حقوق المرأة. ثانيًا، جميع ديانات العالم الرئيسية متحيزة جنسيًا بدرجة قد تكون أكبر أو أقل. والتحدث عن الإسلام وحده لممارساته المتحيزة جنسيًا فى وسائط الإعلام السائدة وفى الخطاب العام ليس سهوًا تاريخيًا بل هو محاولة ممنهجة لتصوير " قيمنا" وديانتنا على أنها مستنيرة على العكس من " قيمهم وديانتهم".

فمن الممكن، مثلا، الإشارة إلى التحيز الجنسى فى تاريخ المسيحية وفى المجتمعات التى يشكل فيها المسيحيون أغلبية بسهولة تامة. فأسطورة الخلق المسيحية تخبرنا أن حواء خُلقت من ضلع آدم، وأن الألم الذى تعانيه المرأة أثناء الولادة هو عقاب على عدم طاعة حواء للرب. وكانت النساء اللائى يُعتقد أنهن ساحرات يُحرقن وهن مشدودات إلى خازوق ليس فحسب فى أوروبا بل أيضًا فى أمريكا الاستعمارية، قبل ثلاثة قرون بالكاد. وتحظر كل من نيكاراجوا وشيلى والسلفادور ومالطة، وجميعها بلدان يهيمن عليها الكاثوليك، الإجهاض دون استثناء، حتى ولو كانت حياة المرأة فى خطر (١٤). ولم تنتخب الولايات المتحدة حتى الآن رئيسة لها، بينما نجد بلدانًا يمثل فيها المسلمون أغلبية، مثل باكستان وبنغلاديش وإندونيسيا، سبق لها أن فعلت ذلك. والأسوأ هو أن الولايات المتحدة " المستنيرة" تواصل قمع حقوق المرأة. فنسبة لا تتجاوز ١٣ فى المائة من مقاطعات الولايات المتحدة هى التى تتيح خدمات الإجهاض. وقد أصدرت ولايات متعددة قوانين تتيح للصيادلة أن يرفضوا صرف التذاكر الطبية الخاصة بتنظيم النسل، بما يشمل الحمل الطارئ. وفى نفس الوقت الذى جرى فيه تقييد حق المرأة فى التحكم فى جسدها، زاد الاهتمام بالجنين. وهذه القيود على حقوق المرأة ترجع، إلى حد لا يستهان به، إلى تأثير اليمين المسيحى على سياسة الولايات المتحدة. وهذا يماثل العوامل الدينامية الموجودة فى كثير من البلدان التى يمثل فيها المسلمون أغلبية، حيث أدى نشوء جماعات الإسلاميين إلى حدوث تدهور فى وضع المرأة.

وحتى إذا درسنا الإسلام دراسة موضوعية فإن هناك قدراً كبيراً من الجدل بشأن دور المرأة. فالقرآن، مثله مثل أى نص دينى، قابل لتفسيرات متعددة. فثمة آيات فى القرآن تمنح المرأة نفس الحقوق الممنوحة للرجل فيما يتعلق بالطلاق وتسمح لها بأن تكون لديها وترث ممتلكات، مما يمثّل خطوة إلى الأمام بالنسبة للمرأة فى المجتمع العربى وقتئذ(١٥). ومع ذلك هناك أيضاً آيات تبيح تعدد الزوجات وتقصر حق المرأة فى الميراث على نصف ما يحصل عليه الرجل(١٦).

وقد حاجج باحثون من أمثال ليلى أحمد وأسماء برلس بأن الإسلام ليس كارهاً للمرأة بطبيعته. وهما تشيران إلى آيات المساواة فى القرآن التى تدل على المساواة بين الرجل والمرأة. وتقول أسماء برلس إن تفسيرات القرآن المتحيزة جنسيًا هى نتاج مجتمعات معينة تحتاج إلى سند دينى لتبرر انعدام المساواة بين الجنسين (١٧). وتذكر ليلى أحمد أن المرأة فى المجتمع العربى قبل مأسسة الإسلام كانت تشارك فى الحرب والدين وكان لها استقلالها الذاتى الجنسى. ويذهب مونتجمرى وات حتى إلى أبعد من ذلك قائلاً إن المجتمع العربى وقتذاك كان يُنسب فيه المرء إلى الأم فى الأغلب (١٨). بيد أن مكسيم رودنسون يرفض هذا التحليل، واصفًا شبه الجزيرة العربية فى تلك الحقبة بأنها كانت مجتمعًا يُنسب فيه المرء إلى أبيه تسود فيه ممارسات تعدد أزواج المرأة، المقرونة بأدوار اجتماعية جوهرية للمرأة، فى بعض المناطق (١٩). وكانت السيدة خديجة الزوجة الأولى للنبى مُحمَّد امرأة ثرية فى الأربعين من عمرها عندما عرضت على النبى مُحمَّد وهو فى الخامسة والعشرين من عمره الزواج. وكانت قد سبق لها الزواج مرتين وترملّت؛ بينما كان هذا هو الزواج الأول لُمحمَّد.

ومع انتشار الإسلام فإنه تبنى الممارسات الثقافية للإمبراطوريات المختلفة، بما فى ذلك ممارسات الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية البيزنطية المجاورتين. أما المسيحيون الذين أقاموا فى الشرق الأوسط ومنطقة البحر الأبيض المتوسط فقد كانت لهم عادات أكثر صرامة فيما يتعلق بالمرأة. ففى الإمبراطورية البيزنطية المسيحية، كان هناك فصل بين الجنسين. ولم يكن مسموحًا للمرأة بأن تُشاهَد فى الأماكن العامة،

وكانت ترتدى حجاباً، وكان لا يسمح لها إلا بالحصول على تعليم أولى فقط. ومع دمج الإمبراطورية الإسلامية الآخذة فى التوسع لهذه المناطق، فإنها استوعبت أيضًا هذه الممارسات الثقافية والاجتماعية[٢٠]، وبعبارة أخرى، فإن الممارسات المعينة المضادة للمرأة التى تبناها الإسلام كانت موروثة إلى حد كبير من العادات الدينية المسيحية واليهودية الخاصة بالمجتمعات المجاورة التى غزاها المسلمون. والنقطة الهامة هى أن المواقف التى تنم عن تحيز جنسى نحو المرأة هى بعيدة تمامًا عن أن تكون مقصورة على الإسلام بل كانت سائدة بين المسيحيين واليهود كذلك.

وقد شهدت المرأة فى هذه المنطقة تقليص حقوقها فى ظل النفوذ الغربى من قبل. وتبيّن ليلى أحمد أن مصيراً مماثلاً تعرضت له المرأة المصرية عندما غزا الإغريق مصر فى عام ٣٣٣ قبل الميلاد[٢١]. ففى المجتمع الإغريقى، كانت للمرأة حياة منعزلة، وكانت ترعى الصغار، وكانت فى حكم " الطفلة الحقيقية" بموجب القانون. وكان الفيلسوف الإغريقى أرسطو يعتقد أن الذكر " متفوق بحكم طبيعته، وأن المرأة أدنى بحكم طبيعتها، وأن الأول يحكم والآخر يُحكَم" [٢٢]. وعلى العكس من ذلك، فى المجتمع المصرى، كانت للمرأة مكانة سامية، لا سيما المرأة التى تنتمى إلى الطبقة العليا. ففى المملكة الجديدة (١٥٧٠-٩٥٠ قبل الميلاد)، كانت المرأة المصرية وكان الرجل المصرى يُعتبران متساويين بموجب القانون. وكان يحق للمرأة أن ترث أملاكًا وأن تكون لها أملاك وأن تديرها، وكانت قوانين الزواج قائمة على المساواة، وكان بإمكان المرأة أن تتنقل بحرية وبدون عزل. وهذا ليس معناه أنه لم يكن مجتمعًا يسيطر عليه الرجل، ولكن قيود القمع كانت أخف من تلك الموجودة فى المجتمع الإغريقى.

وهذا ما ينم عن وجود الكثير بالنسبة للأكذوبة التى يروجها المستشرقون عن الحرية وحقوق المرأة بوصفهما " قيمتين أساسيتين" فى الغرب مستمرتين من بلاد الإغريق القديمة حتى وقتنا الحاضر. ففى حقيقة الأمر، التراث الغربى " الليبرالي" العظيم ليس غارقًا فى التحيز الجنسى فقط بل إنه - كما تبيّن حالة مصر - لعب دوراً فى تقليص حقوق المرأة فى الشرق. وعلاوة على ذلك، من الجوهرى أن نتذكر أن

الحقوق التى تتمتع بها المرأة فى أى مكان فى العالم الآن هى نتاج ضروب الكفاح التى خاضتها المرأة (وخاضها الرجل) فى سبيل تلك الحقوق. فنيل المرأة لحق التصويت فى الولايات المتحدة لم يستغرق أقل من مائة عام من الكفاح المرير.

الأكذوبة الثالثة: « العقل الإسلامى » غير قادر علي المنطق والعقلانية

فى خطاب ألقى عام ٢٠٠٦، بعنوان " الإيمان والمنطق والكونية"، ساوى البابا بينديكيت السادس عشر بين الكاثوليكية والمنطق وبين الإسلام والعنف وانعدام المنطق. فقد قال، معيداً صياغة عبارة لإمبراطور بيزنطى يرجع إلى القرن الرابع عشر، إنه عندما تنتشر ديانة (مثل الإسلام) عن طريق العنف فإنها تكون مضادة للمنطق ومضادة أيضاً للطبيعة، لأن " عدم التصرف وفقًا للمنطق يتناقض مع طبيعة الرب" [٢٣]، وقد انضم البابا، بقوله هذا، إلى رتل طويل من المستشرقين الذين قالوا إن المنطق والعقلانية والعلم هى أمور غريبة بالنسبة لعالم الإسلام.

فقد ذكر المستشرق الفرنسى إرنست رينان، الذى ناصر العلم والمنطق، فى مقالته التى نشرها عام ١٨٨٣ بعنوان " الإسلام والعلم" أن " الإسلام فى عصوره الأولى والعرب الذين اعتنقوه كانوا معادين للروح العلمية والفلسفية" [٢٤]. وقال فى محاضرة فى السوربون:

إن أى أحد لديه أى معرفة بالشؤون الحالية يمكن أن يرى بوضوح تام التدنى الفعلى لمنزلة البلاد الإسلامية، وانحطاط الدول التى يحكمها الإسلام، والعقم الفكرى للأجناس التى تستمد ثقافتها وتعاليمها من تلك الديانة وحدها. فجميع أولئك الذين سافروا إلى الشرق أو إلى أفريقيا هالهم ضيق تفكير المؤمن الحقيقى، ونوع القيد الحديدى الملفوف حول رأسه والذى يعزله تماماً عن العلم ويجعله غير قادر إلى حد كبير عن تعلّم أى شىء أو فتح عقله لتقبّل أى أفكار جديدة [٢٥].

وقد أصدر رينان تعميمات كاسحة عن " العقول الضيّقة" لمن يعيشون فى الشرق وفى أفريقيا، الذين يمثلون جنسًا عقيمًا فكريًا بسبب تمسكهم بالإسلام. وما نراه هنا ليس ادعاءات عنصرية فحسب عن المسلمين بل أيضًا فكرة أن الإسلام أدى إلى وقف النمو العلمى. وعندما طُلب من رينان، تحديًا لمقولته، أن يفسّر ازدهار العلم فى الإمبراطوريات الإسلامية فى القرون الوسطى، فإنه أجاب قائلاً إن العرب، مثل " الساميين" الآخرين، كانوا غير قادرين على العلم. وأضاف قائلاً إن الخلافة العباسية كانت أساسًا إغريقية وفارسية، حتى وإن استخدمت اللغة العربية. ومن ثم فإن "الآريين" هم الذين كانوا مسؤولين عن ازدهار العلم هذا [٢٦].

أما كرومر، الذى التقينا به وهو يرتدى خوذته اللبابية فى مصر من قبل، فقد كان لديه ما يلى ليقوله فى كتابه الذى يقع فى مجلدين ويحمل عنوان " مصر الحديثة":

إن الأوروبى يتبّع المنطق تماما؛ فتعبيراته عن الحقيقة تخلو من الغموض؛ وهو يتبع المنطق بشكل طبيعى، حتى وإن كان لم يدرس المنطق؛ وهو متشكك بطبيعته ويحتاج إلى دليل قبل أن يتمكن من قبول حقيقة أى قول؛ وذكاؤه المدرّب يعمل كالآلة. أما عقل الشرقى، من الناحية الأخرى، فهو، مثل شوارعه الجديرة بأن تكون موضوعًا لصورة، يعوزه التماثل إلى حد شديد. وأسلوبه فى المنطق يمثل أقصى درجات التخلف. ومع أن العرب الأقدمين اكتسبوا علم الديالكتيك (الجدل المنطقى) بدرجة أعلى نوعًا ما، فإن من خلفوهم لديهم قصور متفرد فى مَلَكَة المنطق. فكثيرًا ما يكونون غير قادرين على استخلاص أوضح الاستنتاجات من أى فرضية بسيطة قد يكونون معترفين بحقيقتها [٢٧].

وكرومر، على الاختلاف من رينان، كان شفوقًا بدرجة تكفى لاعترافه بأن العرب والمسلمين كانوا يفهمون يومًا ما " علم الديالكتيك"، ولكنهم الآن، كما يزعم، قاصرون تمامًا فى المنطق والاستنتاج المنطقى. وبينما يستمر هذا التصوير الكاريكاتيرى حتى فى أوائل القرن الحادى والعشرين، كما أوضحت لنا أقوال البابا، فإن العنصرية البيولوجية من النوع الذى شاهدناه قد حلت محلها تقريبًا عنصرية ثقافية [٢٨].

وبينما لا يسوق الآن حججًا عنصرية سافرة بهذا الشكل مثل حجج كرومر إلا أولئك الذين يمثلون أقصى اليمين، ليس من الصعب أن نرى كيف يتخلل المنطق العام لانعدام العقلانية مناقشات كثيرة. فكثيراً ما يصوَّر أولئك الذين يُعتبرون " إرهابيين" على أنهم مصابون بالجنون، وليسوا عقلانيين، ومتعصبون: أى أنهم يصوَّرون على أنهم أفراد يرتكبون أهوالاً غير مسبوقة بدون أى منطق أو دافع واضح (٢٩). فالفلسطينيون الانتحاريون الذين يفجرون القنابل، مثلا، يصوَّرون على أنهم ملتاثون متطرفون، لا كأشخاص يُدفَعون إلى اتخاذ تدابير متطرفة فى ظل ظروف الاحتلال (٣٠). ويقال لنا إن الإرهابيين لا يمكن التحاور منطقيًا معهم، إذ تحركهم دوافع غير عقلانية ويجب لذلك وضعهم على " قوائم المطلوب قتلهم".

والجدل بشأن ما إذا كان ينبغى السماح لإيران بامتلاك أسلحة نووية نابع من هذه الحجج. فقد قال رودلف جولياني، المرشح الجمهورى وعمدة مدينة نيويورك السابق، إن " حقيقة الأمر هى أن استخدام القوة العسكرية ضد إيران سيكون أمراً بالغ الخطورة. ... إذ سيكون استفزازيًا للغاية. ولكن الشيء الوحيد الأسوأ من ذلك هو أن تصبح إيران دولة نووية. فهذا هو أسوأ كابوس من كوابيس الحرب الباردة. أليس كذلك! وجود أسلحة نووية فى أيدى شخص غير عقلاني، فى أيدى قوة غير عقلانية. ومن الواضح أن أحمدى نجاد غير عقلاني" (٣١). وخطوط الفصل هذه شائعة. إيران " اللاعقلانية" والغرب " العقلاني". ولا يكرّس سوى قدر ضئيل من النقاش للسبب الذى يجعل إيران، كجهة فاعلة سياسية عقلانية، قد ترغب فى الحصول على أسلحة نووية؛ فهى، بعد كل شيء، محاطة بدول نووية من قبيل الهند وباكستان والصين وروسيا وإسرائيل، ومحاطة بقواعد الولايات المتحدة فى قطر والعراق وتركيا وأوزبكستان وأفغانستان، التى قد توجد فيها أسلحة نووية.

وثمة طرائق كثيرة لتفنيد هذه الأكذوبة عن الإسلام والعلم والعقلانية، وتوجد أيضًا كتب ومقالات ممتازة تقضى تمامًا على نفس مفهوم الأعراق المحددة بيولوجيًا والصلة الكاذبة بين التكوين البيولوجى والقدرة الفكرية. (انظر، مثلاً، المقالات النقدية

الممتازة المختلفة التى تناولت كتاب "The Bell Curve"[٣٢]، ولكنى، هنا، سأسهب بمزيد من التفصيل بشأن النقطة المثارة فى الفصل الأول، وهى أن الغرب لم يكن ليمر بعصر النهضة لولا المساهمات العلمية المقدمة من العباسيين وممالك الأندلس.

إبان القرن السابع، بينما كانت أوروبا غارقة فى مستنقع عصور الظلام، برز الإسلام على الساحة وأقامت جيوش المسلمين إمبراطورية شاسعة امتدت من آسيا الوسطى وحتى أجزاء من أوروبا إلى أن وصلت إلى المحيط الأطلنطى. وقد اعترف الحكام المسلمون الذين ينتمون إلى الأمويين والعباسيين (٦٦١-١٢٥٨ بعد الميلاد) بالتطور المتقدم للممالك والثقافات التى غزوها وآلوا على أنفسهم أن يستوعبوا هذه الثقافات ويتبنوها. فأقاموا مكتبات ومراكز للترجمة جُمعت وتُرجمت فيها الأعمال العظيمة المتعلقة بالعلم والطب والفلسفة، الشرقية والغربية على حد سواء. وتلت عصر الترجمة هذا حقبة إبداع عظيم بقيام جيل جديد من المفكرين والعلماء المسلمين بالبناء على هذه المعرفة وتقديمهم مساهمات خاصة بهم.

فقد أرسى العلاّمة الفارسى ابن سينا - المعروف فى التاريخ الغربى باسم "Avicenna" الأساس لدراسة المنطق والعلم والفلسفة والسياسة والطب. وقام ابن رشد بمنهجة فكر أرسطو لتقديم العقلانية والمذهب المناهض للمذهب الاستبطانى إلى جمهور جديد؛ وتجاوز أرسطو أيضًا بالدعوة إلى الفكر العقلانى بوصفه فضيلة فى حد ذاته. وألّف ابن راوندى عدة كتب تشكك فى المبادئ الأساسية ليس فحسب للمسيحية واليهودية بل أيضًا للإسلام. وكان ابن راوندى ينتمى إلى طائفة المعتزلة، التى بلغ بها الأمر التساؤل عما إذا كان القرآن هو حقًا مجموعة من الآيات التى أنزلها الرب على مُحمَّد. واستخدم المعتزلة التفكير العقلانى، وشذرات من الفلسفة اليونانية، وملاحظاتهم الخاصة بهم لوضع نظريات لتفسير العالم المادى[٣٣]، وإيجازًا، ازدهر العلم فى عالم الإمبراطوريات الإسلامية.

وعندما تخلصت أوروبا من فترة ركودها، استفاد عصر النهضة فيها فى مجالات الفن والثقافة والعلم من هذا الإرث المستديم لأن المفكرين الأوروبيين توافدوا على

المكتبات الإسلامية العظيمة، ليس فحسب ليعاودوا معرفتهم عن تاريخهم وتراثهم بل أيضًا لاستيعاب التطوير الإضافى لهذا التراث الذى أحدثه المفكرون المسلمون(٣٤). وهذا التاريخ إما موضع تجاهل أو موضع تنقيح من قِبَل المستشرقين السابقين والمستشرقين الحاليين، الذين يصورون " الغرب" ككيان أسطورى تطور فيما يبدو بمعزل عن بقية العالم.

ومن المهم أيضًا أن البابا، فى استنكاره للإسلام على أساس أنه يفتقر إلى المنطق، لم يثر موضوع المعارضة العدائية من جانب الكنيسة الكاثوليكية للثورة العلمية ولمولد الطرائق غير الدينية والعقلانية لفهم العالم. فالثورة العلمية، والتنوير بوجه أعم، كانا يتعارضان مع العقيدة الجازمة المسيحية وكانت الكنيسة تنظر إليهما على أنهما يشكلان تهديدا. وتعرّض لعقاب شديد أولئك العلماء الذين استخدموا المنطق والعقلانية لتفسير العالم المادى. فجيوردانو بروتو، الذى ناصر نظام كوبرنيكوس لعلم الفلك، سجنته محاكم التفتيش التابعة لروما والتابعة لمدينة البندقية لمدة ثمانى سنوات لرفضه التخلى عن معتقداته. وقد حُرق لاحقًا وهو مشدود إلى الخازوق. ومَثُل جاليليو أيضًا أمام محكمة التفتيش وحُددت إقامته فى منزله بقية حياته.

وخطاب البابا يضرب بجذوره بشكل عميق فى أكاذيب المستشرقين؛ وهو يعرض رؤية معينة لـ " غرب" عقلانى ومستنير بينما يحجب تاريخ العنف الخاص بالمسيحية. وهو يستشهد بالإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى باليولوجوس، الذى قال " فلتظهروا لى الجديد الذى أتى به مُحمَّد، ولن تجدوا سوى أشياء شريرة وغير إنسانية، من قبيل أمره بنشر الدين الذى كان يدعو إليه بواسطة السيف"(٣٥). ومن دواعى السخرية أن جوزيف راتزينجر - الذى انتُخب حاملاً اسم البابا بنيديكت السادس عشر بعد أن كان قد تولى منصب رئيس مكتب لجنة الكرادلة الداعية إلى عقيدة الإيمان (التى كانت معروفة سابقًا باسم محكمة التفتيش) - كان بإمكانه أن يستنكر انتشار ديانة عن طريق العنف ثم يواجه انتقاداً هزيلاً أو لا يواجه انتقاداً على الإطلاق لانتمائه إلى تلك اللجنة. وهذا يرجع إلى حد ليس بالقليل إلى أكذوبة أخرى مترسخة بعمق: هى أن الإسلام هو فى جوهره دين يتسم بالعنف.

الأكذوبة الرابعة: الإسلام ديانة تتسم بالعنف بطبيعتها

بعد انهيار البرجين التوأم بدقائق بالكاد، بدأ ساسة الولايات المتحدة ودهاقنتها يربطون بين هذا العمل من أعمال العنف والإسلام بطرائق ليست مختلفة عن تأويلات المستشرقين السابقين. فبدءًا من الخُطب العامة للشخصيات السياسية التى تمثل التيار السائد ومرورًا بتبجحات من يمثلون الجناح اليمينى من قبيل آن كولتر وانتهاءً بتصريحات البابا وآخرين، ربطت مجموعة وافرة من التعليقات، التى يصعب تعدادها هنا لكثرتها الشديدة، أفعال حفنة من المتطرفين بالدين الإسلامى.

ولهذه الأكذوبة تاريخ طويل. فكما شاهدنا فى الفصل الأول، تعود أصولها إلى القرن الحادى عشر وبداية الحروب الصليبية. ويمكن العثور على صدى معاصر لها فى الرسم الكاريكاتيرى للنبى مُحمَّد الذى نُشر فى الصحيفة الدانمركية "Jyllands-Posten" فى عام ٢٠٠٥، فقد صوَّر ذلك الرسم الكاريكاتيرى النبى وهو يحمل قنبلة فوق عمامته، مما يوحى ضمنًا بأن الإسلام نشأ مع كون العنف يمثل أساسه. وقد احتج المسلمون فى مختلف أنحاء العالم بغضب، ولكن نتيجة لتصرفات عدد ضئيل من الإسلاميين، فُسِّرت فى الغرب الاحتجاجات لا على أنها اعتراض مشروع على فرية قديمة بل على أنها رد دوجماتى على نشر صورة للنبى. وأيَّد أصحاب أعمدة صحفية ليبراليون هذا الموقف، مدافعين عن رسام الكاريكاتير بدعوى حرية الكلام، ونشرت صحف أمريكية كثيرة الرسم الكاريكاتيرى استنادًا إلى نفس الأسس، بدون الاعتراف بأن الرسم الكاريكاتيرى نفسه كان يؤيد أكذوبة أن الإسلام يتسم بالعنف بطبيعته.

وقد استمر ربط الإسلام بالعنف فى ظل إدارة أوباما. فبعد أن قام الرائد نضال حسن بتصويب مسدسه على زملائه فقتل ثلاثة عشر منهم فى فورت هود فى نوفمبر عام ٢٠٠٩، ربط التفسير السائد فى وسائط الإعلام بين الإسلام والعنف[٣٦]، بل بلغ الأمر بمقالة فى مجلة " فوربس" أن قالت إن أفعال حسن يمكن فهمها بشكل أفضل

من خلال عبارة " المسلم الجهادى" التى تصف عملية " يتخلى فيها المسلم عن اندماجه الظاهر فى المجتمع الأمريكى ويختار أن ينتقم لدينه فى عمل من أعمال العنف المخلِّص ضد زملائه الأمريكيين" (الأحرف المائلة مضافة) [٣٧]. وفحوى الحجة هى أن المسلمين هم أشبه بقنابل زمنية تتكتك برمجها دينهم لكى يتحولوا حتمًا إلى العنف ومن ثم فهم لا ينتمون إلى المجتمع الأمريكى. وقد وسّع الجدل بشأن " مسجد جراوند زيرو" فى عام ٢٠١٠ نطاق هذا الربط. فقد حاجج المعارضون لبناء مركز مجتمعى إسلامى فى الجزء الجنوبى من مانهاتن بأن أى رمز للإسلام مسيء لأسر ضحايا ١١ سبتمبر. وتقوم هذه الحجة على فكرة أن الإسلام نفسه هو المسؤول عن أحداث ١١ سبتمبر، لا التفسيرات الأصولية المعينة للدين.

ويفنّد أميتاب بال، فى كتابه "الإسلام" معناه السلام"، هذه الأكذوبة بالإشارة إلى التراث الثرى من اللاعنف فى الإسلام. فالكتاب لا يستشهد فحسب بآيات من القرآن تدعو إلى السلام وبالأحاديث النبوية بل يلقى الضوء أيضًا على حركات الاحتجاج غير العنيفة فى المجتمعات التى يمثل فيها المسلمون أغلبية، والتى تُعتبر غير معروفة إلى حد كبير[٣٨]، ويجب أن يضاف إلى هذا تاريخ العنف فى المسيحية، على الأقل للتساؤل عن السبب فى تنحيته جانبًا فى معظم الأحوال، لا سيما على العكس من تاريخ العنف فى الإسلام الذى يُستشهد به باستمرار. والزعم بأن الإسلام انتشر من خلال الحروب فى المراحل الأولى بعد نشوئه فى شبه الجزيرة العربية هو زعم دقيق فى حقيقة الأمر. ففى العقدين التاليين لوفاة النبى فى عام ٦٣٢ بعد الميلاد، هزمت جيوش المسلمين جارتيهما الكبيرتين، الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية (الساسانية)، وغزت أجزاء كبيرة من أراضيهما، وأقامت إمبراطورية إسلامية. وقد تمكنت من هزيمة هاتين الإمبراطوريتين القويتين لأن الحروب المستمرة بين البيزنطيين والفُرس خلال القرن الذى سبق ذلك كان قد ترك الناس منهكين من تلك الحروب. وبعبارة أخرى، كانت الحرب حقيقة مستمرة من حقائق الحياة فى ذلك الحين. بل إن بعض القرى رحبت بجيوش المسلمين. وعندما تولى الغزاة المسلمون زمام السلطة فإنهم منحوا رعاياهم الخيار إما التحول إلى الإسلام أو دفع الجزية (على الاختلاف من نظرائهم

المسيحيين الأرثوذكس، الذين اضطهدوا المنشقين عن عقيدتهم وحكموا من خلال الخوف والترويع والإرهاب).

وقد سادت المسيحية أيضًا من خلال الغزو والتحويل الدينى، أولاً فى العالم الذى كانت تسوده روما ثم فى المناطق المجاورة فى أوروبا وأرمينيا وشبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا ووسط آسيا[٣٩]. وكما ذُكر سابقًا، كانت الحروب الصليبية، التى شنها المسيحيون الأوروبيون بدءًا من القرن الحادى عشر حتى القرن الثالث عشر، فصلاً عنيفًا آخر من فصول تاريخ المسيحية. فإبان الحرب الصليبية الأولى فى عام ١٠٩٩، أطلق الصليبيون العنان لموجة من أعمال القتل بعد أن سيطروا على بيت المقدس، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال المسلمين جميعهم تقريبا. ولم يستثنوا أيضًا اليهود، الذين كانوا يقاتلون جنبًا إلى جنب مع المسلمين للدفاع عن المدينة. فقد أشعل الصليبيون النار فى معبد يهودى كان اليهود قد لجؤوا إليه وحرصوا تمامًا على أن يحترق كل اليهود فيه حتى الموت[٤٠]. ولم يكن هذا شيئًا غريبا: فالصليبيون الذين مروا عبر ألمانيا فى طريقهم إلى بيت المقدس كانوا قد قتلوا اليهود بدم بارد. وكان هناك مسيحيون بين الضحايا. وعندما هاجم الصليبيون القسطنطينية فى عام ١٢٠٢، "قام الصليبيون على مدى ثلاثة أيام وليالٍ بقتل أو اغتصاب كل شخص أو نهب أو تدمير كل شيء استطاعوا أن يضعوا أيديهم عليه. وهلكت آلاف مؤلفة من البشر لا تعد ولا تحصى؛ وتعرض كثيرون آخرون لأعمال وحشية وبُترت أطرافهم وتُركوا بلا مأوى"[٤١]. وقد قطع الملك ريتشارد ملك إنجلترا (المعروف باسم ريتشارد قلب الأسد) رؤوس آلاف من الرجال على مرأى كامل من جيوشهم بعد إحدى المعارك. وعلى العكس من ذلك، بعدما نجح صلاح الدين، سلطان مصر، فى استعادة بيت المقدس من الصليبيين، فإنه منع أعمال الانتقام والعنف ضد الصليبيين، وأعطى اليهود نقودًا من الدولة لإعادة بناء معابدهم، وترك الكنائس كما هى[٤٢]. وهذا أمر يتسق مع الطريقة التى عاملت بها الإمبراطوريات الإسلامية المسيحيين واليهود. فإبان خمسمائة عام من حكم المسلمين فى بيت المقدس، بدءًا من القرن السابع حتى القرن الحادى عشر، كانت الكنائس المسيحية تُترك لشأنها وكان يُسمح لليهود بالعودة ومعاودة

الاستقرار فى المنطقة. وهذا التناغم خرقته بعنف الحروب الصليبية، عندما أشاعت جيوش المسيحيين الخراب فى المنطقة، ودمرت المعابد اليهودية والمساجد، وقتلت اليهود والمسلمين والمسيحيين.

ولم تكن الإمبراطوريات المسيحية أقل وحشية إزاء سكانها أنفسهم. وقد تراوح هذا من الاضطهاد الذى واجهه المسيحيون غير الأرثوذكس فى الإمبراطورية البيزنطية إلى تعصب الفاتيكان إزاء المسيحيين غير الكاثوليك وإزاء اليهود. ثم أتت بعد ذلك عمليات التفتيش، وهى سلسلة من الحركات التى نسقتها الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية المسيحية لإعادة فرض السيطرة الاقتصادية للكنيسة على أوروبا. فمحاكم التفتيش الإسبانية، مثلا، تُذكر لوحشيتها البالغة، ولما قامت به من أعمال تعذيب جماعى للرجال والنساء وحرقهم وهم مشدودون إلى الخازوق. وقد لاذ كثيرون من اليهود والمسيحيين بالفرار من أوروبا للإفلات من محاكم التفتيش والتماساً لوطن جديد فى ظل الإمبراطورية العثمانية الإسلامية (١٢٩٩-١٩٢٢). فالمجتمع العثمانى كان أكثر تسامحاً بمراحل؛ وكان اليهود والمسيحيون يعيشون فى وئام هناك، وحصل بعضهم على مناصب عالية فى الجهاز البيروقراطى (حتى بدون أن يتحولوا إلى الإسلام).

ومن الممكن للمرء، عندما ينظر الآن إلى تاريخ المسيحية الوحشى، أن يسوق حجة مفادها أن جميع الكاثوليك متعصبون متعطشون للدماء. وفى حقيقة الأمر من شأن هذا المنطق أن يكون مناظراً للحجة القائلة بأن الإسلام يتسم بالعنف بطبيعته وأن المسلمين لديهم " ميل مسبق" إلى العنف. إلا أن هذا التعميم لا يمكن تصوره. فعلى حد علمى، لم تضع أية صحيفة أو مجلة تمثل التيار السائد خطاً مستقيماً بين الحروب الصليبية ومحرقة اليهود على يد النازيين، ناهيك عن رسم خط مستقيم بين مولد المسيح ومختلف أنواع الإرهاب التى ارتكبها الأصوليون المسيحيون. وعلاوة على ذلك، كما يقول طلال أسد، فإن نفس الأشخاص الذين يصفون أعمال الانتحاريين الذين يفجّرون القنابل بأنها أعمال لا مبرر لها يضفون الشرعية على

الحروب الأمريكية فى العراق وأفغانستان، التى تسببت فى موت مئات الآلاف. وإيجازًا، فإن عنف جماعات معينة هو الذى تُلقى الأضواء عليه ويُرمز إليه بأنه نتاج الانتماء الدينى لتلك الجماعات.

الأكذوبة الخامسة: المسلمون غير قادرين علي اتباع الديمقراطية وعلي الحكم الذاتي

إن فكرة " الاستبداد الشرقى" نشأت، كما شاهدنا، فى القرن الثامن عشر على يد كتّاب من أمثال مونتيسكيو، الذى حاجج بأن المناخ الحار فى الشرق يجعل الشرقيين فاترى الهمّة وخاضعين ومن ثم غير قادرين على مقاومة الطغيان. وقد أضفى المستشرقون مصداقية أكاديمية على هذه النظرية بقولهم إن الاستبداد هو إحدى القيم الأساسية " للحضارة الإسلامية". ثم أتت نظرية التحديث لتجعل هذه النظرية علمية بدرجة أكبر بقولها إن المجتمعات " التقليدية" تتسم بنُظم تراتبية للسلطة. وحاجج هؤلاء المنظّرون بأنه بالنظر إلى أن التغيير لن يتأتى أبدًا من الداخل، فإن الغرب يقع عليه عبء حضرنة الشرق وتحديثه وجعله ديمقراطيا. وقد استُخدمت حجة " عبء الرجل الأبيض" هذه، بأشكال ومظاهر شتى، من قِبَل كل دولة إمبريالية منذ ذلك الحين.

فقد طرحها آرثر جيمس بلفور، الشهير بصياغة وعد بلفور الذى اعترف بمطالبة الصهاينة بدولة لهم فى فلسطين، على هذا النحو فى عام ١٩١٠:

أولاً، فلننظر إلى وقائع القضية. إن الأمم الغربية تُظهر حالما تنبثق فى التاريخ بدايات تلك القدرات على الحكم الذاتى ... ولديها مزاياها الخاصة بها. ... ولكم أن تنظروا خلال تاريخ الشرقيين كله فى ما يسمى، بوجه عام، الشرق، ولن تجدوا أبدا أى آثار للحكم الذاتى. فقرونهم العظيمة – وقد كانت عظيمة جدًا – انقضت جميعها فى ظل الاستبداد، وفى ظل الحكم المطلق. وجميع مساهماتهم العظيمة فى الحضارة – وقد كانت عظيمة – تحققت فى ظل ذلك الشكل من الحكم. فكل

غازٍ خلف غازيًا؛ وكل سيطرة تلتها أخرى؛ ولكنكم لم تروا قط فى جميع تقلبات القدر والحظ أمة من تلك الأمم تنشئ من تلقاء نفسها ما نعتبره، من وجهة نظر غربية، حكمًا ذاتيا(٤٣).

ومضى بلفور قائلاً إن بريطانيا كانت تحتل مصر لهذا السبب ليس فقط من أجل المصريين بل " من أجل أوروبا بوجه عام." واختتم كلامه قائلاً إن هذا كان العبء الواقع على الإمبراطورية البريطانية العظمى، وإن على تلك الإمبراطورية أن تتحمل هذا العبء بإباء وشمم.

فما الذى كان سيحدث لو اختار السكان المحليون الناكرون للجميل الحكم الذاتى بدلاً من السيد الأعلى الاستعمارى المستنير؟ ما الذى كان على بريطانيا فى عهد بلفور أن تفعله حيال حركات التحرر الوطنى التى كانت قد بدأت عندئذ فى الظهور فى مصر والهند وغيرهما من الدول المستعمَرة؟ كان لا بد من إيجاد تفسيرات رافضة لهذه الكفاحات فى سبيل حق تقرير المصير. وكان أحد سُبل ذلك هو الجزم بأن زعماء هذه الحركات محرّضون ضالون ليس بإمكانهم أن يفهموا ما يحقق مصالحهم على أفضل وجه. وكما حاجج كرومر، " إن مستقبل مصر الحقيقى ... لا يكمن فى اتجاه قومية ضيقة، لن تضم سوى المصريين من أهل البلد ... بل يكمن بالأحرى فى جاه الكوزموبوليتانية الموسعة"(٤٤). وبعبارة أخرى، فإن الرعايا ينبغى أن يسكتوا ويدركوا أنهم أفضل حالاً كأعضاء فى الإمبراطورية البريطانية العالمية.

وقد ترددت أصداء لهذه المواقف فى الولايات المتحدة أيضا. ففى عام ١٩٠٧، ذكر الرئيس تيودور روزفلت، الذى كان يشاطر بلفور وكرومر رأيهما فى المصريين، أنهم "شعب من الفلاحين المسلمين لم يمارس فى أى وقت من الأوقات أى شكل من أشكال الحكم الذاتى " وأكد، باعتباره مؤمنًا ثابتًا بالتراتبات العِرقية و " بالعبء الواقع على عاتق الرجل الأبيض"، أن المسلمين شعب أدنى منزلة: " من المستحيل توقّع السلامة الأخلاقية والفكرية والمادية حيثما تكون الغلبة للمُحمَّديين" (٤٥)، وكثيرًا ما استُخدمت هذه الأفكار لتبرير " عدم قدرة الإمبرياليين المحبين للديمقراطية على جلب الديمقراطية

للبلدان التى استعمروها، فتلك الشعوب كانت ببساطة غير مستعدة لها. وفى أوقات أخرى كان يقال إن الاستعمار مهّد الطريق للحكم الذاتى وبدون هذا التأثير الغربى لم تكن الديمقراطية لتضرب بجذورها فى الشرق(٤٦).

وبعد قرن من الزمان تقريبًا، استخدمت حكومة جورج دابليو بوش، بعد فشلها فى الكشف عن وجود أسلحة دمار شامل فى العراق، هذه الأكذوبة للمحاججة بأن الولايات المتحدة بحاجة إلى البقاء فى العراق من أجل جلب الديمقراطية له، وهو قول لقى تأييدًا عامًا واسع النطاق. وقد كُنتُ جزءًا من ائتلاف مناهض للحرب عارض الحرب المقبلة على العراق حتى حدوث الغزو الفعلي؛ ولكن حالما أعلن بوش أن الولايات المتحدة ستبقى فى العراق لإعادة بنائه وإرساء الديمقراطية فيه وجدتُ موافقة بالإجماع تقريبًا فى الائتلاف على أن ذلك هو حقًا الشيء السليم الذى يجب القيام به. وأعلنت الولايات المتحدة كذلك فى مراحل شتى أن أحد أهدافها فى أفغانستان هو "بناء الدولة"، ولقى هذا المنطق قبولاً لدى الليبراليين وكذلك لدى دعاة الحركة النسائية المناهضة للحرب(٤٧). وفى واقع الأمر، لم يكن لدى الولايات المتحدة قط أى اهتمام بجلب الديمقراطية لشعوب الشرق الأوسط أو لأى شعب آخر. فلها تاريخ طويل وخسيس من تحطيم الحركات الديمقراطية وإحلال ديكتاتوريات محلها(٤٨).

ويمكن ملاحظة هذا الاتجاه فى الشرق الأوسط فى فترة ما بعد الحرب. ففى أعقاب الحرب العالمية الثانية، اهتز الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بحركات النضال فى سبيل التحرر الوطنى. ففى خلال الفترة ما بين عامى ١٩٣٢ و ١٩٦٢، نجحت مصر والعراق وسوريا ولبنان وليبيا والمغرب وتونس والجزائر جميعها فى القضاء على سيطرة سادتها الاستعماريين. وفى أعقاب هذه الكفاحات كانت هناك رغبة واسعة النطاق فى الإصلاح والتغيير فى المنطقة، وانبثقت قوى سياسية واجتماعية جديدة. واكتسبت القومية العربية العلمانية قوة، ولكن الأحزاب الاشتراكية والشيوعية كانت تتبارى أيضًا على النفوذ السياسى. وأيدت الولايات المتحدة علنًا الكفاح فى سبيل التحرر الوطنى ولكنها تدخلت مع ذلك عندما سنحت لها فرصة لإضعاف سيطرة

بريطانيا وفرنسا؛ فمصالحها لم تكن (ولا) تكمن فى مساندة الحركات الديمقراطية بشروط تلك الحركات. وفى حقيقة الأمر، فإن القوميين العلمانيين الذين لم يمتثلوا للمصالح الأمريكية انصبت عليهم اللعنات. فجون فوستر دالاس، عندما كان وزيراً للخارجية تحت رئاسة أيزنهاور، وصف ناصراً وغيره من القوميين العرب أمثاله بأنهم "مرضى" لشكّهم فى الغرب ووصف الزعيم الإيرانى القومى العلمانى مُحمَّد مصدّق بأنه " شرقى مراوغ"(٤٩)، وكان أيزنهاور نفسه يعتقد أن القوميين العلمانيين ليسوا سوى مستبدين شرقيين. وقال: " إذا عِشْت مع أولئك العرب، فستجد أنهم ببساطة لا يمكن أن يفهموا أفكارنا عن الحرية والكرامة. ... فقد عاشوا طويلاً فى ظل شكل أو آخر من أشكال النظم الديكتاتورية، فكيف يمكن أن تتوقع منهم أن يديروا بنجاح حكومة حرة؟"(٥٠).

وفى الحقيقة، لم يكن لدى الولايات المتحدة اهتمام كبير بـ " جلب الديمقراطية" إلى المنطقة. فنشاطها فى الشرق الأوسط يحركه هدف رئيسى واحد هو: السيطرة على الثروة النفطية فى تلك المنطقة، بأى ثمن. وبناء على ذلك، فإن سياستها الخارجية كانت موجهة نحو الحيلولة دون ظهور أى حكومة أو حركة قد تهدد سيطرتها فى المنطقة، على النحو الذى وردت مناقشته فى الفصل السابق. وتحقيقاً لهذا الهدف فقد ساندت باستمرار كل ديكتاتور وكل نظام قمعى (من قبيل النظام الملكى السعودى وغيره من النظم المماثلة فى منطقة الخليج) يمكن الاعتماد عليهما للعمل لصالح الغرب. كذلك فإنها قامت بتمويل وتدريب وتسليح القوات العسكرية والأمنية التابعة لحلفائها الديكتاتوريين وذلك لمنع التحديات المحلية لحكمهم. وقد حققت هذه الاستراتيجية نجاحاً إلى حد كبير حتى عهد قريب؛ فعلى مر السنين، أطاح الديكتاتوريون الذين تساندهم الولايات المتحدة بحركات شتى تدعو إلى التغيير التقدمي. وفى حالة فشل ذلك، تواصل الولايات المتحدة الاحتفاظ بقوات بحرية وقواعد عسكرية قوية فى المنطقة.

وعند الضرورة، وحيثما أمكن، تدخلت الولايات المتحدة عسكريًا، مثلاً فى عام ١٩٥٨ عندما دخل مشاة البحرية الأمريكيون لبنان لفترة وجيزة لإعاقة محاولة من

جانب القوى القومية العربية للإطاحة بالحكومة الموالية للغرب. وأيدت الولايات المتحدة أيضًا الجماعات الإسلامية التى عارضت القوميين والشيوعيين العلمانيين فى بلدان شتى، كما سنرى فى الفصل التالى. وكانت العمليات السرية لوكالة المخابرات المركزية أداة سهلة أخرى، بحيث استُخدمت محاولات الاغتيال، والانقلابات، ووسائل أخرى من هذا القبيل للتخلص من الحكومات ومن المنظمات السياسية غير الصديقة. وفى عام ١٩٥٣، أطاحت وكالة المخابرات المركزية بمُحمَّد مصدّق، الذى كان قد انتُخب بطريقة ديمقراطية ليتولى السلطة فى إيران عام ١٩٥١، وكانت جريمة مصدّق هى تأميم صناعة النفط. وقد حلّ محله رضا بهلوى، الشاه، الذى حكَم إيران بقبضة حديدية، وقتل وعذّب عشرات الآلاف من المنشقين السياسيين، وألغى جميع الأحزاب السياسية باستثناء حزبه(٥١)، وفى هذا، كانت الولايات المتحدة تقلّد ببساطة بريطانيا، التى عملت بنفس الطريقة ضد الحركات الدستورية والديمقراطية فى بلاد فارس (ومصر) فى بداية القرن التاسع عشر(٥٢).

ورغم حرارة الجو، فإن شعوب الشرق الأوسط وشمال أفريقيا حاربت فى سبيل الحكم الذاتى والإصلاحات التقدمية. ولكنها عندما فعلت ذلك، فإنها شاهدت سحق تطلعاتها الديمقراطية، بدلاً من أن تنال دعمًا أمريكيًا. وهذا الجهد مستمر: ففى عام ٢٠١١، انفجرت موجة أخرى من النضال الجماهيرى على المسرح التاريخى فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. وفى غضون أسابيع فقط، أطاحت حركتان شعبيتان فى تونس ومصر بديكتاتورين مواليين للغرب كانا يحكمان بقبضة حديدية لعدة عقود. وكانت الديمقراطية والحرية السياسية تمثلان مطلبين أساسيين فى الانتفاضات العربية فى عام ٢٠١١، وكان رد الولايات المتحدة هو فى البداية أن تقف إلى جانب حلفائها الديكتاتوريين. وعندما بات واضحًا أنهم ستجرى تنحيتهم، فإنها تبنّت الحركات الشعبية بالطنطنة فقط. ولكن، فى واقع الأمر، حاولت الولايات المتحدة أن تضم إلى جانبها شرائح من المقاومة (ليبيا) كسبيل للحد من نطاق التغيير، أو ساندت قوى الثورة المضادة، بدءًا من الجيش المصرى وانتهاءً بدول شتى فى الخليج (المملكة العربية السعودية وقطر على وجه الخصوص تتزعمان جهود الثورة المضادة).

وعلى الرغم من موجة الحركات المضادة للديكتاتورية، واصل المستشرق العجوز الواهن برنارد لويس الزعم بأن الديمقراطية لن تنجح مع العرب؛ وأن نظامًا استشاريًا ينبثق من الثقافة الإسلامية التقليدية سيكون هو الأفضل. وكما يقول هو عن ذلك "نحن، فى العالم الغربى على وجه الخصوص، نفكّر عادةً فى الديمقراطية وفقًا لمصطلحاتنا - وهذا أمر طبيعى وعادى - أى ما يعنى إجراء انتخابات دورية بأسلوبنا. ومن الخطأ الكبير محاولة التفكير فى الشرق الأوسط بهذه الطريقة. فهذا لا يمكن أن يفضى إلا إلى نتائج مأساوية، كما شاهدتم بالفعل فى أماكن شتى." وأضاف قائلا، مرددًا حجة أقدم، " إنهم ببساطة ليسوا مستعدين لانتخابات حرة ونزيهة. ... وأعتقد أننا ينبغى أن ندعهم يحققون الديمقراطية بطريقتهم بواسطة مجموعات استشارية" (٥٣). وقد كان برنارد لويس يتحدث هنا إلى القادة الغربيين؛ وبدا أنه كان يفتيهم بأن " مشكلة" حركات الشعوب المختلفة لا يمكن حلها عن طريق انتخابات غربية الطراز لأن " لغة الديمقراطية الغربية لم تُترجم فى معظمها إلا حديثًا ويستعصى على الجماهير الغفيرة فهمها"(٥٤). وحتى فى القرن الحادى والعشرين، ما زال سكان تلك البلاد المحليون، الذين يُنظر إليهم على أنهم الجماهير الجاهلة، يعتبرهم الغرب لا يعرفون ما هو أفضل من ذلك. وفى أفضل الحالات يكون هناك تجاهل لتنظيم أولئك السكان لأنفسهم بطريقة منهجية ودعايتهم على تويتر لإجراء انتخابات حرة، وإلى وجود مزيد من الأحزاب السياسية، وإلى زيادة الحرية السياسية؛ وبدلاً من ذلك يرى الغرب، الذى ما زال يعتبر معرفته أفضل، أنه ينبغى أن يوجههم لقبول أشكال إسلامية من الحكم أنسب لهم. حقا، إن العادات القديمة لا تندثر بسهولة.

* * *

لقد سيطرت هذه الأكاذيب الخمس على الحوار السياسى الوطنى منذ أحداث ١١ سبتمبر. فالليبراليون والمحافظون على حد سواء تقبلوا منطق تلك الأكاذيب وروّجوا لها فى السنوات اللاحقة لعام ٢٠٠١، وتوخيًا للإنصاف، لا يؤيد جميع الليبراليين أو من

يمثلون جناح اليسار فوبيا الإسلام؛ فقد ناهض بعضهم بالفعل العنصرية المناهضة للمسلمين، سواء فى كتاباته أو أحاديثه. إلا أن هذه الأصوات تشكل أقلية ضئيلة للغاية فى الولايات المتحدة. وكانت الليبرالية السائدة خصوصًا فى ظل إدارة أوباما تتبنى تمامًا فكرة أن الولايات المتحدة يمكن بالفعل أن تعمل كقوة إنسانية فى مختلف أنحاء العالم، وأبدت موافقتها على الحرب على الإرهاب.

وقد أيّد الإمبرياليون الليبراليون، بدءًا من تأييدهم للحرب الأفغانية وانتهاءً بقبولهم فكرة أن الولايات المتحدة ستجلب الديمقراطية للعراق، الأكاذيب المبيّنة فى هذا الفصل وقاموا بالترويج لها. ومع ذلك، ثمة اختلافات بين الإمبرياليين الليبراليين والإمبرياليين المحافظين. فعلى سبيل المثال، الإمبرياليون المحافظون يقولون إن المنظمات الإسلامية فى مختلف أنحاء العالم متحدة فى مؤامرة للإطاحة بالغرب وإقامة خلافة تبدأ من شمال أفريقيا إلى جنوب شرق آسيا. ولا يرى الإمبرياليون الليبراليون ذلك على أنه تهديد إسلامى عام وهم على استعداد للعمل مع الإسلاميين المعتدلين. وفى الفصول التالية سأحلل وأميّز بين أشكال فوبيا الإسلام التى تنشأ من جانب المحافظين ومن جانب الليبراليين.

ومع ذلك، أولاً، سنوجه اهتمامنا إلى العدو المسلم الجديد، " الإرهابى الإسلامي".
ومن المهم أن نبدأ بملاحظة أن الجماعات الإسلامية لم تكن حكومة الولايات المتحدة تنظر إليها دومًا على أنها بمثابة أعداء. فكما سنرى فى الفصل التالى، أيدت الولايات المتحدة أثناء الحرب الباردة أحزاب الإسلام السياسى ضد أحزاب القوميين واليساريين العلمانية التى كانت ترى أنها فى جيب الاتحاد السوفييتى. وفى الوقت ذاته، كانت الثورة الإيرانية فى عام ١٩٧٩، التى أطاحت بالشاه المدعوم من الولايات المتحدة وجلبت حكمًا إسلاميًا شيعيًا، معناها أن الولايات المتحدة لها أعداء إسلاميون فى نفس الوقت الذى لها فيه حلفاء إسلاميون. وخلاصة القول، لم تكن نظرة مؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية إلى الإسلام السياسى نظرة موحدة أو متسقة. ونتطرق إلى هذا التاريخ فى الباب التالى.

الباب الثانى

الإسلام السياسى وسياسة الولايات المتحدة

الفصل الرابع

الحلفاء والأعداء : الولايات المتحدة والإسلام السياسى

فى عام ١٩٤٥، اجتمع الرئيس فرانكلين ديلانو روزفلت بالملك سعود على متن البارجة الأمريكية "Quincy" فى البحر الأبيض المتوسط. وتطرق الحديث بينهما إلى موضوع النفط، وكانت العلاقات بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية، التى بدأت فى عام ١٩٣٣ عند منح أول امتياز للتنقيب عن النفط فى المملكة العربية السعودية، قد أصبحت علاقات " خاصة" بدرجة أكبر. وخلال العقود اللاحقة، ساعدت الولايات المتحدة المملكة العربية السعودية على تحديث مجتمعها وتعزيز جهازها الأمنى، بينما سمحت الدولة الغنية بالنفط للولايات المتحدة بالسيطرة على ذهبها الأسود. وقد عبّر تحليل إخبارى نُشر فى الصفحة الأولى من جريدة " نيويورك تايمز" عن ذلك اللقاء على النحو التالى:

> **عندما غادر الملك عبد العزيز بن سعود، ملك البيداء العربية [منقولة بدون تعديل]، بلده للمرة الأولى لزيارة الرئيس روزفلت فإن رحلته كانت مزيجًا رائعًا من مشاهد للعالم الحديث متناقضة مع الرحلة القديمة المتجهة غربيًا التى قام بها ملوك الشرق الحكماء الثلاثة(١).**

فقد حدث اتصال بين الشرق الموغل فى القِدَم وبين حداثة الولايات المتحدة. ولإبراز هذا التقابل، مضت المقالة لتتحدث عن الحريم والغنم والولائم والسيوف والخناجر والأثواب الاحتفالية والقبائل والإسلام. واستطاعت صحيفة " نيويورك

تايمز"، في مقالة واحدة قصيرة، أن تجمع ما بين صورة الشرق الغرائبي الذي لا يتغير وصورة الولايات المتحدة باعتبارها محدِّثة. وهذه الفكرة هي التي حددت ما سيُستخدم في العقود القليلة التالية.

ومن المثير للاهتمام أن ما كان غائبًا من التصوير السائد للعلاقات بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية هو حقيقة أنه بدءًا من خمسينيات القرن العشرين حاولت الولايات المتحدة تصوير عاهل المملكة العربية السعودية على أنه " قطب الجذب الإسلامي" ضد القومية العلمانية التي يمثلها ناصر رئيس مصر. وفي سياق الحرب الباردة، كان للولايات المتحدة هدفان في الشرق الأوسط هما: السيطرة على تدفق النفط وإبقاء الاتحاد السوفييتي خارج المنطقة. وبعد حقبة أولية حاولت فيها أن تطوى تحت جناحيها القوميين العلمانيين الراديكاليين، فإنها انقلبت عليهم. وكان هذا معناه تشجيع جميع القوى التي يمكن أن تناهض القومية والشيوعية العلمانيتين الراديكاليتين، وكان الإسلاميون على رأس هذه القائمة.

وقد يندهش القراء غير الملمين بهذا التاريخ عندما يعلمون أن الإسلاميين لم يكن يُنظر إليهم دومًا على أنهم أعداء. فبدلاً من ذلك، تبنّى واضعو السياسات نهجًا يمثل خليطًا وتوجهه مصالح الحرب الباردة. ففي البداية، حتى سبعينيات القرن العشرين، تحالفت النخبة السياسية مع الإسلاميين. ولكن في سبعينيات القرن الماضي تغيّر هذا النهج استجابة لعوامل شتى، من بينها الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، وبعد ذلك، وحتى نهاية الحرب الباردة، كان الأمريكيون يتبعون نهجًا مزدوجًا: إذ كان الإسلاميون بالنسبة لهم أعداء في بعض الحالات ولكنهم لم يكونوا كذلك في حالات أخرى. واستخدمت الولايات المتحدة المجاهدين في أفغانستان (أسلاف القاعدة) لخوض حرب بالوكالة مع الاتحاد السوفييتي. وفي الوقت ذاته، لا سيما في أعقاب أزمة الرهائن في عام ١٩٧٩، أصبح آية الله خوميني في إيران رمزًا لجميع الأشياء الإسلامية ولجميع الشرور. وأملت " السياسة الواقعية" على الولايات المتحدة أن تعمل ضد بعض الإسلاميين بينما تتحالف مع آخرين منهم ضد عدوها الرئيسي في الحرب الباردة.

وبعد انهيار الاتحاد السوفييتى، كانت الرؤية الجديدة للولايات المتحدة بعد انتهاء الحرب الباردة تعنى مرة أخرى عملها مع الإسلاميين الذين كانوا راغبين فى تزييت عجلات " السلام الأمريكى" وعملوا ضد منْ قاوموا ذلك السلام. وفى عام ٢٠٠١ فقط انبثق توافق آراء موحد فيما بين النخبة السياسية، على الأقل من حيث الطنطنة الخطابية، على أن الإسلاميين أصبحوا الآن العدو الرئيسى الذى يجب شن حرب ضده على الإرهاب لا نهاية لها. وتحالفت النخبة الأمريكية، مثلها مثل نظرائها فى أوروبا فى القرون الوسطى وفى العصر الحديث، مع المسلمين عندما كان ذلك يلائمها وحوّلتهم إلى أعداء لها عند الضرورة. وفى هذا الفصل، أبيِّن المواقف الأمريكية تجاه الإسلام السياسى واستخدام الإسلام على المسرح السياسى فى الفترة ما بين عام ١٩٤٥ وعام ٢٠٠١.

الإسلام والتحديث

لقد كان للولايات المتحدة، باعتبارها إحدى القوتين العظميين على المسرح العالمى، منحنى تعلّم منحدر فى حقبة ما بعد الحرب. فقد نظّم مجلس العلاقات الخارجية، الذى ينشر المجلة ذات النفوذ "Foreign Atffaires"، سلسلة من المؤتمرات فى أواخر أربعينيات وخمسينيات القرن الماضى لوضع استراتيجية للاستجابة لموجة الكفاح المضاد للاستعمار التى اجتاحت أفريقيا والشرق والأوسط وآسيا(٢)، وضمّت هذه المجموعات الدراسية أعضاء من حكومة الولايات المتحدة والخبراء القلائل الذين كانوا موجودين وقتذاك. وكما هو مذكور فى الفصل الثانى، شهدت هذه الحقبة نمو برامج " دراسات المناطق" وتطورها فى جامعات شتى لتلبية احتياجات حكومة الولايات المتحدة إلى المعرفة. وكانت النتيجة النهائية هى سياسة تأثرت بكل من نظرية التحديث والاستشراق.

ففى عام ١٩٤٩، أطلق الرئيس هارى ترومان برنامجه ذا النقاط الأربع، الذى وعد بتقديم معونة مالية وتقنية للبلدان النامية. وكانت نظرة الإدارة إلى شعوب البلدان

التى يمثل فيها المسلمون أغلبية نظرة سيئة بوجه خاص يعبّر عنها، وفقًا لدوجلاس ليتل، الاقتباس التالى من أقوال السير جون تروتبيك السفير البريطانى لدى العراق: "إنه [العربى]، إذ لا يرى إلا القليل بخلاف الفساد والركود من حوله، لن يعترف لنفسه بالإجابة الواضحة، وهى أنه ينتمى إلى عِرق ليس لديه إحساس بالمسؤولية وعاجز بشكل غير عادى"(٣)، ومنعًا لما كان يُعتقد أنه نزوع العرب العرقى الطبيعى نحو التطرف السياسى والدينى، كان يقال إن المساعدة الاقتصادية حيوية. ودق أصحاب نظرية التحديث ناقوس خطر الثورة. وساعد وولت روستو، مؤلف كتاب " مراحل النمو الاقتصادى: مانيفيستو غير شيوعي" وأحد أكثر أصحاب نظرية التحديث نفوذًا، إدارتى كنيدى وجونسون على وضع السياسة؛ وقد أثّر أيضًا على هنرى كيسينجر، الذى اتبع مبادئه(٤).

وكان التفكير السائد هو أن البلدان التى يشكل فيها المسلمون أغلبية ستتخلص من السيطرة الغربية ومن المحتمل أن تقع فى قبضة الاتحاد السوفييتى إذا تحررت من نير الاستعمار وتُركت بلا كابح. ولم تكن هذه نتيجة مقبولة. ففى البداية، سعى واضعو السياسات إلى ضم القوميين الراديكاليين أمثال ناصر ومصدّق إلى صفهم. وكان عليهم عندما فشلوا فى ذلك أن يستنبطوا استراتيجيات جديدة. فوضع أيزنهاور، الذى حل محل ترومان، سياسة بشأن الشرق الأوسط أخذت فى الاعتبار هذه الظروف. ووعدت عقيدة أيزنهاور، التى أميط اللثام عنها فى عام ١٩٥٧، بتقديم مساعدة مالية وعسكرية لبلدان الشرق الأوسط التى كانت تتعرض لتهديد " من أى دولة تسيطر عليها الشيوعية الدولية"(٥)، وإيجازًا، إضافة إلى الحوافز المالية، طرح أيزنهاور الخيار العسكرى.

وثمة جانب من جوانب عقيدة أيزنهاور معروف بدرجة أقل هو " الاستراتيجية المتعلقة بالإسلام". وكانت هذه الاستراتيجية تتكون من دعم المنظمات الإسلامية ضد القوميين العلمانيين ومحاولة إيجاد قطب إسلامى ممثلاً فى الملك سعود عاهل المملكة العربية السعودية. ففى رسالة إلى صديق مؤتمن فى أوائل الخمسينيات، قال أيزنهاور

" لقد أردنا أن نستكشف إمكانيات جعل الملك سعود يمثّل ثقلاً موازيًا لناصر. وكان الملك اختيارًا منطقيًا فى هذا الصدد؛ فقد كان على الأقل يجاهر بمناهضته للشيوعية، وكان يتمتع، استنادًا إلى الأسس الدينية، بمكانة عالية بين جميع الأمم العربية" (٦). بل إن بعض الإدارات بدأت أيضًا تضع فكرة أن الملك سعود هو " بابا إسلامى" (٧). واستقبل أيزنهاور، بعد انقضاء عام على كتابته لرسالته عن الملك سعود، سعيد رمضان، زوج ابنة حسن البنّا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، فى البيت الأبيض. وحتى على الرغم من أن جماعة الإخوان المسلمين كانت قد لجأت إلى أعمال عنف، بحيث قتلت العديد من المسؤولين المصريين، فقد آل أمرها إلى أن تصبح جزءًا من استراتيجية الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط (٨).

فالمستشرقون الذين ساعدوا على تشكيل تلك الاستراتيجية كانوا مقتنعين بأن الإيديولوجيات العلمانية الخاصة بالقومية والشيوعية لن يكون لها ثقل كبير فى " العالم الإسلامي". وفى مؤتمر نظمته وتولت رعايته حكومة الولايات المتحدة فى جامعة برينستون عام ١٩٥٣، خلص المستشرقون وواضعو السياسات ومختلف المخبرين المحليين إلى أن الولايات المتحدة يجب أن تستخدم الدين لكسب الأفئدة والعقول، متجاهلة شعبية الحركات القومية العلمانية (٩). ومن ثم أكدت الجهود الدعائية التى قامت بها الولايات المتحدة وقتذاك على الجذور المسيحية والدينية للثقافة الأمريكية على العكس من إلحاد اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية (١٠). وحاجج مجلس الأمن القومى فى عام ١٩٥٢ بأن " الديانات التوحيدية الثلاث فى المنطقة جمع بينها بغضها لإلحاد العقيدة الشيوعية وبات من الممكن أن يصبح هذا العامل ميزة هامة فى الترويج للأهداف الغربية فى المنطقة" (١١).

وإبان خمسينيات القرن العشرين، استُخدمت جماعة الإخوان المسلمين ضد ناصر فى مصر، واستُخدمت مجموعة من رجال الدين ضد مصدّق فى إيران (١٢). وإذا كانت سياسة التأميم التى اتبعها مصدّق تمثل ما كان من الممكن أن يفعله القوميون العلمانيون إذا تولوا مقاليد السلطة بالنسبة لمصالح الغرب النفطية، فإن

ناصراً كان يمثل السيناريو الكابوسى بالنسبة لواشنطن فى المنطقة. ومع أن مصر لا تملك نفطًا، فقد سعت الناصرية، بتشديدها على وحدة الأمة العربية، إلى تحقيق التزاوج بين البلدان الحضرية المتقدمة تكنولوجيًا وما لديها من طبقات عاملة كبيرة وذات مهارات عالية وبين الثروة الهائلة الموجودة لدى البلدان المنتجة للنفط. وكان مزيج القاهرة والرياض معًا من شأنه أن يعوق بشدة السيطرة الغربية على منابع النفط. ومن ثم، إضافة إلى تدبير مخططات انقلابية ضد ناصر والقيام بمحاولات شتى لاغتياله (من قبيل تسميم قطع الشيكولاته التى يتناولها)(١٣). بدأت وكالات المخابرات المركزية تشجع الإخوان المسلمين وتعتمد بدرجة متزايدة على المملكة العربية السعودية كعنصر توازن مضاد. وكما صوّر أحد كبار مسؤولى وكالة المخابرات المركزية الأمر،

كانت عدسة الإبصار هى الحرب الباردة. فقد كانت الحرب الباردة بمثابة أداة التوضيح المحدِّدة وقتئذ. وقد رأينا أن ناصراً اشتراكى، ومناهض للغرب، ومناهض لحلف بغداد، وكنّا نتطلع إلى نوع ما من السند. ورئى أن المحاولات السعودية لأسلمة المنطقة قوية وفعالة ومن المرجح أن تنجح. وقد راق لنا ذلك. فقد كان لدينا حليف ضد الشيوعية (١٤).

بيد أن هذه الاستراتيجية لم تصمد فى مواجهة الواقع وكان مآلها الفشل. فلو كان المستشرقون يهتمون فعلاً بدراسة الحقائق على أرض الواقع لكانوا قد خلصوا إلى أن ما هو " حاسم الأهمية هو أن الإسلام كفّ تدريجيا عن أن يكون منافساً جديًا للشيوعية فى الصراع على كسب أرواح النُّخب الحالية والمحتملة فى بلدان الشرق الأوسط، وهو ما خلص إليه وولتر لاكير فى عام ١٩٥٦" (١٥). ولو كان هذا يصدق على الشيوعية، فإنه كان يصدُق بدرجة أكبر حتى من ذلك على القومية. وكان من الأمور الصادمة أن العرب، مثلهم مثل غيرهم، كانوا قادرين على فصل الدين فى حياتهم الخاصة عن السياسة. وهذا، بطبيعة الأمر، لا يمثل صدمة إلا لأولئك الغارقين فى تقاليد المستشرقين، وسنرى فى الفصل التالى أن هذا الفصل بين السياسة والدين له تاريخ طويل فى ما يسمى بالخطأ ومن قبيل التهكم " عالم المسلمين".

ولكن على الرغم من هذا الواقع فإن استراتيجية تشجيع الإسلاميين استمرت بدون تناقض حتى تسعينيات القرن العشرين. ولكن يجب ملاحظة أن الاستراتيجية المتعلقة بالإسلام لم تكن مقبولة بشكل موحد أو حتى معروفة على نطاق واسع. وما كان واضحًا هو أن القوميين العرب يمثلون أعداء يجب القضاء عليهم بأى وسيلة ضرورية [١٦]. ومع أن استراتيجية أيزنهاور بشأن الإسلام فشلت فى تحقيق هذا الهدف، فإن نصر إسرائيل الساحق فى حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ فتح الباب أمام إمكانيات جديدة. ففى الحرب، لم تُهن إسرائيل وتهزم مصر تحت حكم ناصر فحسب بل أهانت وهزمت أيضًا الدول المجاورة الأخرى. وبذلك واجهت القومية العربية أزمة، وفى ظل حالة الفراغ السياسى الذى أوجده ذلك، استطاع التوجه الإسلامى أن ينمو ويتطور (على النحو الذى سترد مناقشته بمزيد من التفصيل فى الفصل السادس). ومن ثم بدأ عهد تناقض كانت الولايات المتحدة تزيح فيه من طريقها بعض الإسلاميين بينما تشجّع غيرهم. وقد تمازج هذا الموقف المتناقض مع النموذج الأمنى الجديد للولايات المتحدة فى ظل " عقيدة نيكسون"، التى أُعلنت فى عام ١٩٦٩، فقد قامت إدارة نيكسون بوضع سياستها المتعلقة بالشرق الأوسط على أساس تعزيز ثلاث قوى إقليمية: إسرائيل، وإيران تحت حكم الشاه، والمملكة العربية السعودية. وكانت هذه الاستراتيجية معروفة رسميًا باسم استراتيجية " الركائز التوأم" ولكن إضافة إلى إيران والمملكة العربية السعودية وإسرائيل ساعدت مصر وتركيا لاحقًا على تأمين مصالح الولايات المتحدة فى المنطقة. وكان التحالف مع المملكة العربية السعودية معناه تقديم دعم من الولايات المتحدة لمحاولات المملكة أسلمة السياسة فى المنطقة. وفى الوقت نفسه، وقفت الولايات المتحدة إلى جانب نظام الشاه " العلماني" و " التحديثى"، الذى واجه حركة معارضة ناشئة لعب فيها رجال الدين الإسلامى دوراً قياديا.

وعلى الرغم من أن الثورة الإيرانية التى حدثت عام ١٩٧٩ كانت اللحظة المحورية التى حدث فيها تحوّل فى موقف الولايات المتحدة ضد ما أطلق عليه الغرب اسم

" الأصولية الإسلامية"، كانت ثمة أحداث معينة قد سبقت هذا التحول. وهذه الأحداث دفعت الولايات المتحدة إلى الاعتقاد بأن الإسلاميين لا يمكن الثقة دائمًا في عملهم في خدمة مصالح الغرب. ففي عام ١٩٧٣، شن الرئيس المصري أنور السادات الذي خلف ناصرًا حربًا على إسرائيل تحت راية الإسلام (١٧). وبينما كان ناصر قد قام بتعبئة القومية العربية، اتجه السادات إلى الدين. وانطوت استراتيجيته الداخلية على تشجيع الإخوان المسلمين كسبيل لإضعاف وعزل القوميين العلمانيين. ولذا كان الإسلام أداة مفيدة بالنسبة له مثلما كانت مفيدة بالنسبة للولايات المتحدة. وفي حقيقة الأمر، أصبح السادات بعد ذلك محبوب الغرب بعد أن عقد صلحًا مع إسرائيل، إلى أن انقلبت عليه واغتالته في عام ١٩٨١ نفس القوى التي ساعد على إطلاقها من عقالها.

وقد استخدم معمر القذافي أيضًا الرموز واللغة الإسلامية لإضفاء الشرعية على حكمه في ليبيا في أوائل سبعينيات القرن العشرين. فقد أعلن، باعتباره معارضًا للغرب عالي الصوت، أن ليبيا دولة إسلامية وأنه يعتزم تشجيع " الراديكالية" الإسلامية و" الإرهاب" الإسلامي في مختلف أنحاء العالم. (١٨). وأثار ذلك حنق الولايات المتحدة على القذافي ولكنها أعطت موافقتها في الوقت نفسه للملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية عندما حاول أسلمة السياسة في المنطقة. وكان المنطق وراء ذلك هو أن الأسلمة من أعلى إلى أسفل التي كانت المملكة العربية السعودية تشجعها يمكن السيطرة عليها من أعلى وبالتالي يمكن تسخيرها في خدمة مصالح الولايات المتحدة، بينما لم يكن ممكنًا تحقيق ذلك مع النمط الذي كان القذافي يشجعه.

المملكة العربية السعودية وملك الإسلام

بينما كان الملك سعود " بابا إسلاميًا" غير فعال، فإن شقيقه الأصغر سنًا فيصل لعب هذا الدور بشكل جيد إلى حد كبير. فقد أدرك فيصل، عندما كان لا يزال أميرًا،

فعالية استخدام الدين لتعزيز الأجندات السياسية. وكانت حكومة الولايات المتحدة تنظر إليه على أنه الحلم الذى يمثل مزيجًا من " التحديث مع الإسلام". وقد واصل الإصلاح التحديثى الذى كان سلفه قد بدأه ولكنه سحق كل المقاومة القومية التى كان يمكن أن تحبط مصالح الولايات المتحدة وأنشأ حركة إسلامية شاملة تستند إلى ثلاثة أهداف هى: تعزيز التعاون فيما بين الدول المسلمة، ومحاربة الاتحاد السوفييتى والمنظمات الشيوعية فى العالم العربى، وأسلمة القضية الفلسطينية (١٩). وإيجازًا، فإنه سعى إلى إعادة تشكيل السياسة فى المنطقة من خلال عدسة الإسلام كسبيل لتوطيد الهيمنة السعودية.

وأدى انسحاق القومية العلمانية فى عام ١٩٦٧ ووفاة ناصر بعد بضع سنوات إلى إتاحة الفرصة أمام فيصل. وأدت حرب عام ١٩٧٣ إلى زيادة تعزيز صورة المملكة العربية السعودية فى العالم العربى. فالحظر النفطى الذى قادته المملكة العربية السعودية فى أعقاب الحرب رفع مكانة المملكة العربية السعودية إلى حد أنها استطاعت أن تُمسك بزمام المبادرة بدلاً من القومية العلمانية وتفرض مذهبها الإسلامى المحلى، وهو الوهابية، على الخريطة. والوهابية هى تفسير للإسلام السنى مفرط فى المحافظة استُخدم تاريخيًا لإقرار حكم أسرة آل سعود. وفى سبعينيات القرن العشرين، استخدمت النخبة الحاكمة السعودية مواردها النفطية الواسعة النطاق لتعزيز الأسلمة والوهابية على المسرح العالمى بطرائق شتى:

- فقد أقامت شبكة ضخمة من الأعمال الخيرية، أتاحت للجماعات الإسلامية توفير حلول للأزمات الاقتصادية التى تُمسك بخناق بلدان مختلفة.
- واستخدمت رابطة العالم الإسلامى (التى أنشئت عام ١٩٦٢) لمناهضة العلمانية.

- وجمعت بين عدد من بلدان المنطقة تحت لواء منظمة المؤتمر الإسلامى فى عام ١٩٦٩ لوضع جدول أعمال يتسق مع الموقف السعودى.
- وأنشأت نظامًا ماليًا إسلاميًا ربط بلدانًا شتى فى أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط بالدول الغنية بالنفط (٢٠).

وبينما كانت رابطة العالم الإسلامى ومنظمة المؤتمر الإسلامى الوسيلتين السياسيتين لفرض الهيمنة السعودية، أرسى النظام المالى الإسلامى الأساس الاقتصادى لنمو التأسلم. فبإيعاز سعودى، وُجهت مبالغ هائلة من النقود المتدفقة إلى البلدان العربية المصدِّرة للنفط فى أوائل سبعينيات القرن العشرين إلى شبكة مصارف كانت خاضعة لليمين الإسلامى وللإخوان المسلمين. ومن ثم قامت هذه المصارف بتمويل الساسة المتعاطفين والأحزاب المتعاطفة، وشركات الإعلام المتعاطفة، ومشاريع الأعمال الخاصة بالطبقة الوسطى المتدينة. وموّلت أيضًا عمليات الإخوان المسلمين فى مصر والكويت وباكستان وتركيا والأردن (٢١).

وقد أيّد الغرب تأييدًا تامًا هذا النظام المصرفى. ورغبة من البنوك الغربية فى ألا تُترك خارج الموجة المدّية للدولارات البترولية التى صارت تتدفق من خلال البنوك الإسلامية، فإنها سارعت إلى تقديم الخبرة والتدريب والدراية التكنولوجية. وكان من بين الجهات الفاعلة الأمريكية الرئيسية فى هذا الصدد سيتى بنك، وتشيز مانهاتن، وبرايس ووتر هاوس، وجولدمان ساكس. وتزامن صعود نجم النظام المصرفى الإسلامى مع نشوء النموذج الليبرالى الجديد فى الغرب. وأقام ميلتون فريدمان، المعلّم الروحى لحركة الليبراليين الجدد، وحواريوه فى جامعة شيكاجو روابط وثيقة مع الإسلاميين. وكما صوّر روبرت درايفوس الأمر، " اعتمد التمويل الإسلامى بشكل متكرر على رجال الاقتصاد اليمينيين والساسة الإسلاميين الذين كانوا يدعون إلى اتباع آراء كلية شيكاجو المنادية بالخصخصة وبحرية الأسواق" (٢٢). وخلاصة الأمر هى أن المملكة العربية السعودية لعبت، من خلال مؤسساتها السياسية والدينية

والاقتصادية المختلفة، دوراً رئيسياً من وراء الستار فى تعزيز قضية التأسلم بمباركة من الولايات المتحدة.

إيران وأفغانستان: الملالي اللاعقلانيون والمقاتلون فى سبيل الحرية

مع اقتراب السبعينيات من الانتهاء، واجهت الولايات المتحدة حقيقة ما يمكن أن يحدث عندما ينقلب حلفاؤها السابقون إلى أعداء. بيد أن هذا لم يوقف خطتها للاستعانة بالمجاهدين الأفغان (المحاربين الفدائيين الإسلاميين) فى حرب بالوكالة ضد الاتحاد السوفييتى. وهكذا بدأت حقبة تناقض عندما تحدث أعضاء حكومة ريجان بصوتين مختلفين. فمن ناحية، استخدموا لغة خشنة ليعربوا عن استنكارهم لإيران؛ ومن الناحية الأخرى كانوا يشيرون إلى المجاهدين الأفغان على أنهم " مقاتلون فى سبيل الحرية"[٢٣]. وانعكس هذا التناقض أيضًا فى الثقافة الشعبية، ففيلم " رامبو الثالث" مهدى إلى " المجاهدين الأفغان البواسل"، بينما يصوّر فيلم" لا بدون ابنتى" إيران كدولة شمولية كارهة للمرأة.

وقد أطاحت ثورة ١٩٧٩ الإيرانية بالشاه المدعوم من الولايات المتحدة وجعلت مقاليد السلطة فى يد آية الله خومينى، الذى كان يستنكر الولايات المتحدة بوصفها "الشيطان الأعظم". وكما ذُكر آنفًا، كان مصدّق الذى تولى السلطة فى إيران فى انتخابات عام ١٩٥١ قد أمّم صناعة النفط الإيرانية ووجّه بذلك ضربة للمصالح البترولية البريطانية. وفى البداية، رأت النخبة السياسية فى مصدّق وسيلة لزيادة السيطرة على منابع النفط الإيرانى وإبعاد بريطانيا. ولكن، عندما رفض مصدّق خطتها للسماح لشركات النفط الأمريكية بدخول البلد، انقلب عليه الأمريكيون الذين كانوا سيصبحون أصدقاء له. ونظمت وكالة المخابرات المركزية انقلابًا (معروفًا باسم عملية آجاكس)، معتمدة فى ذلك على دعم رجال الدين الإسلامى، لا سيما آية الله أبو القاسم كاشانى الذى كان مرشداً لخومينى، والذى كان بإمكانه أن يحشد

أعداداً كبيرة من الناس من الأحياء الفقيرة فى طهران ضد مصدّق القومى العلمانى [٢٤]. وتلقى كاشانى كميات كبيرة من الأموال من وكالة المخابرات المركزية وكانت تربطه بها علاقات وثيقة إلى حد كبير. وكان هذا الأساس الأولى، الذى أرسته وكالة المخابرات المركزية مع كاشانى، هو الذى ساعد على تهيئة خومينى للقيام بدوره فى ثورة عام ١٩٧٩.

وقد كانت الثورة الإيرانية نتاج استياء بالغ فى صفوف العمال والطلبة والفلاحين والتجار (أو أصحاب البازارات) ضد الشاه. ولعب اليسار دوراً فى الانتفاضات التى حدثت فى صفوف المؤسسة العسكرية وكذلك فى احتجاجات الطلبة. إلا أنه فشل فى تقديم قيادة للحركة ككل لأسباب شتى، من بينها الدور الذى قامت به الولايات المتحدة فى إضعاف الشيوعيين واليساريين الآخرين. وكان العمال الإيرانيون، وبخاصة عمال النفط، هم الوسيلة الرئيسية التى أسقطت الشاه ولكنهم لم يكونوا قادرين على القيام بدور مستقل. وأتاح هذا لآية الله خومينى أن يناور بين فصائل شتى على مدى عامين وأن يجعل فى نهاية الأمر الحزب الجمهورى الإسلامى يستولى على زمام السلطة [٢٥].

ولم يُهزم الشاه – الذى كان ركيزة رئيسية من ركائز سياسة الولايات المتحدة فى المنطقة – فقط، بل احتُجز ٥٢ أمريكيًا كرهائن لمدة ٤٤٤ يومًا. وكان ذلك يمثل ضربة لهيمنة الولايات المتحدة فى المنطقة، وسرعان ما جرت عملية إسقاط لمصطلحات " إرهابي"، و " أصولي"، و " متطرف"، التى كانت تُستخدم من قبل لوصف القومية العلمانية، على التأسلم. وأصبح خومينى رمزًا لكل ما هو شرير ولا عقلانى. وكما كتب فواز جرجس، " تحت تأثير الثورة الإيرانية، وقتئذ، حلّ التأسلم محل القومية العلمانية كتهديد أمنى لمصالح الولايات المتحدة، وتبلور فى أذهان الأمريكيين الخوف من صدام بين الإسلام والغرب" [٢٦]. ومن الناحية الاستراتيجية، كانت الولايات المتحدة ترغب فى إخماد الثورة، إذ كان آخر شيء تريده هو وجود نموذج ناجح للإسلام المناهض للولايات المتحدة يمكن أن يحاكيه إسلاميون آخرون فى المنطقة [٢٧].

إلا أن هذا لم يوقف تقديم الدعم والتمويل للمجاهدين فى أفغانستان، أو الموافقة على برنامج الجنرال مُحمَّد ضياء الحق الواسع النطاق للأسلمة فى باكستان (٢٨). ولم يمنع أيضًا إدارة ريجان من تسليح إيران أثناء الحرب بين إيران والعراق، فى مرحلة بدا لها فيها أن العراق قد يكسب الحرب. فالعملية السرية التى أصبحت تُعرف باسم "إيران - كونترا" انطوت على تزويد إيران سرًا بالأسلحة واستخدام عوائد ذلك فى تمويل المعارضين الذين يمثلون الجناح اليمينى فى نيكاراغوا ضد حكومة الساندينستا الشعبية. وكان المنطق وراء هذا الدعم المتواصل للإسلاميين هو أن العدو الرئيسى كان الاتحاد السوفييتى: فإذا كان من الممكن استخدام الإسلاميين لإضعاف هذا العدو فى الحرب الباردة، فليكن ذلك. وحاولت الولايات المتحدة أيضًا إضعاف الاتحاد السوفييتى بدعم الإسلاميين فى جمهوريات شتى بآسيا الوسطى(٢٩).

وقد بدأ تمويل المجاهدين فى منتصف عام ١٩٧٩، أى قبل الغزو السوفييتى بفترة كبيرة (٣٠). وقدّم زبيجنيو بريزنسكى، مستشار الأمن القومى للرئيس كارتر، تفسيرًا لهذا التمويل والدعم قبل حدوث أى عمل من أعمال العدوان السوفييتى، وذلك فى مقابلة معه أصبحت شهيرة الآن:

> **وفقًا لنسخة التاريخ الرسمية، بدأ تقديم المعونة من وكالة المخابرات المركزية إلى المجاهدين أثناء عام ١٩٨٠، أى بعد غزو الجيش السوفييتى لأفغانستان فى ديسمبر عام ١٩٧٩، ولكن الحقيقة، التى كانت طى السرية حتى الآن، بخلاف ذلك تماما: ففى الحقيقة وقّع الرئيس كارتر فى ٣ يوليو ١٩٧٩ أول توجيه بتقديم معونة سرية إلى معارضى النظام الموالى للسوفييت فى كابول. وفى ذلك اليوم نفسه، كَتَبْتُ مذكرة موجهة إلى الرئيس أوضحْتُ له فيها أن ذلك سيؤدى فى رأيى إلى تدخل عسكرى سوفييتى. ... وفى اليوم الذى عبر فيه السوفييت الحدود رسميًا، كَتَبْتُ رسالة موجهة إلى الرئيس كارتر قُلت فيها: إن الفرصة متاحة لنا الآن لإعطاء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية حربه الفييتنامية (٣١).**

وكان تقديم الدعم المالى والتقنى للمجاهدين متوقفًا على استراتيجية جرّ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية إلى حرب مطولة تزرع بذور الشقاق الداخلى

وتحوّل وجهة الموارد، تمامًا مثلما فعلت فييتنام بالنسبة للولايات المتحدة. وقد نجحت الخطة: فبعد ذلك بفترة وجيزة، غزا الاتحاد السوفييتى أفغانستان. وأدى ذلك الغزو إلى دفع كارتر إلى إعلان " عقيدته" فى عام ١٩٨٠، التى أعلن فيها أن الولايات المتحدة ستخوض غمار الحرب إذا هددت " قوة خارجية" - اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية - إمدادات الخليج الفارسى النفطية. ولكن الحرب الحقيقية بالوكالة حدثت فى أفغانستان.

وعملاً على إلحاق الهزيمة بالاتحاد السوفييتى، دعمت الولايات المتحدة جماعات ذات أهداف اجتماعية رجعية مع علمها التام بميولها العنيفة والقمعية، تمامًا مثلما فعلت فى الكونغو وشيلى وجواتيمالا وإندونيسيا، بين بلدان أخرى. فقد كان قلب الدين حكمتيار زعيم جماعة الحزب الإسلامى، مثلاً، يتلقى كميات كبيرة من المعونة الأمريكية حتى رغم أن الصحفى تيم واينر أشار إلى أن " أتباع حكمتيار أثاروا الانتباه أول مرة بإلقائهم حمضًا على وجوه النساء اللائى رفضن ارتداء الحجاب". ووصفت مصادر واينر فى وكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية حكمتيار بأنه " مخيف"، و " شرير"، و " فاشى"، و " مادة ديكتاتورية مؤكدة" (٣٢).

وعندما تولى رونالد ريجان الحكم فى عام ١٩٨١ فإنه واصل ما كان كارتر قد بدأه. فبمساعدة من المخابرات الباكستانية، قامت حكومة ريجان بتسليح وتدريب المجاهدين من أفغانستان وأماكن أخرى فى معسكرات أقيمت فى باكستان وأفغانستان. وقد برر هذا الدعم خلال ثمانينيات القرن العشرين بقوله إن المجاهدين هم " إخواننا"، و " ونحن ندين لهم بتقديم العون" (٣٣). وكان أحد أولئك الإخوان هو رجل أعمال سعودى اسمه أسامة بن لادن. ففى تلك المعسكرات أبرم بن لادن العقود التى مكّنته من تكوين القاعدة فى أوائل تسعينيات القرن الماضى. وطيلة ثمانينيات ذلك القرن قدمت له الولايات المتحدة كميات كبيرة من الأسلحة من قبيل المتفجرات البلاستيكية C-4، وبنادق القناصة الطويلة المدى، والقذائف المضادة للدبابات الموجهة سلكيًا، وقذائف ستينجر المضادة للطائرات، فضلاً عن تقديمها

بيانات استطلاعية مستفيضة مستمدة من الأقمار الصناعية عن مواقع الأهداف السوفييتية [٣٤]. ولم تقم الولايات المتحدة بتسليم وتدريب الإسلاميين فقط بل قامت أيضًا، بمساعدة من حلفائها (المملكة العربية السعودية ومصر وإسرائيل وباكستان)، بضخ نحو ثلاثة مليارات من الدولارات فى المنطقة، أى ما يتجاوز أى برنامج معونة آخر للجماعات المتمردة.

واضطلعت وكالة المخابرات المركزية ببرنامج لتجنيد أشخاص من أمثال أسامة ابن لادن والشيخ عزام (الزعيم الروحى للمجاهدين وأحد مؤسسى جماعة حماس الفلسطينية) ولتنظيم جولات لهم فى شتى أنحاء المنطقة[٣٥]. وجاب عزام أيضًا الولايات المتحدة طولاً وعرضًا، بحيث زار ٢٦ ولاية فيها[٣٦]. ثم تلقى الرجال الذين تم تجنيدهم من خلال هذا النشاط تدريبًا فى مواقع عسكرية مختلفة فى الولايات المتحدة. وبدأ تدريبهم الرسمى فى عهد حكومة كارتر وشمل موظفين من وكالة المخابرات المركزية، وعسكريين، وجنوداً، وموظفين فى جهاز المخابرات المشترك الباكستانى دربّوا لاحقًا المجاهدين فى أفغانستان وباكستان[٣٧]. ونقل مدربو المجاهدين الأفغان أكثر من ٦٠ مهارة فتّاكة، من بينها كيفية طعن عدو من الخلف، وكيفية خنق عدو، وكيفية استخدام حركات الكاراتيه للقتل، وكيفية استخدام أجهزة التوقيت المعقدة، وأجهزة الإشعال، والمتفجرات، وكيفية استخدام جهاز للتحكم عن بُعد لتفجير القنابل، وأساليب الحرب النفسية[٣٨].

وكان مصدر المتطوعين الرئيسى للجهاد الأفغانى هو العالم العربى. فقد تدفق آلاف من الأشخاص الذين أصبحوا يعرفون باسم " العرب الأفغان" من مصر والمملكة العربية السعودية والجزائر وعدة بلدان أخرى. وحتى تلك المرحلة، لم يكن لدى الإسلاميين المناضلين فى هذه البلدان أى برنامج خارج نطاق أعمال منعزلة من الإرهاب الحضرى. بل إن معظمهم كان يُنظر إليهم فى حقيقة الأمر على أنهم خارجون على القانون فى بلدانهم الأصلية. وقد وحّدت بينهم الحرب الأفغانية، ودرّبتهم، ووهبت حركتهم حياةً [٣٩]. وكما كتب فواز جرجس:

لقد تجمّع فى أفغانستان أول جيش عالمى حقًا من المحاربين الإسلاميين – العرب الأفغان. فلم يسبق قط فى العصر الحديث أن سافر إلى بلد إسلامى لمحاربة عدو مشترك مثل هذا العدد الكبير من المسلمين من أراضٍ مختلفة كثيرة يتكلمون لغات كثيرة، من مصريين وسعوديين ويمنيين وفلسطينيين وجزائريين وسودانيين وأكراد عراقيين وكويتيين وأتراك وأردنيين وسوريين وليبيين وتونسيين ومغربيين ولبنانيين وباكستانيين وهنود وإندونيسيين وماليزيين وغيرهم(٤٠).

وبدا للوهلة الأولى أن " جماعة مؤمنين" عالمية قد وحّدت صفوفها لمكافحة تعدى الكافرين، وذلك بفضل الولايات المتحدة وحلفائها فى المنطقة.

وكان انسحاب الاتحاد السوفييتى من أفغانستان فى عام ١٩٨٩ بمثابة ذروة الحركة الإسلامية العالمية وأضفى شرعية على الأساليب المتطرفة التى يتبعها المقاتلون فى أعين الآخرين الذين أصبحوا ينظرون إليهم على أنهم يمثلون طريقًا للمضى قدمًا. وبعد أن انتهت مهمة المجاهدين فى أفغانستان فإنهم تفرقوا إلى مناطق أخرى من قبيل البوسنة وكشمير وغيرهما من الأماكن لمواصلة جهادهم (٤١). وقام أسامة بن لادن، الذى كان ركيزة فى السابق لوكالة المخابرات المركزية، بتشكيل القاعدة، بالتحالف مع أيمن الظواهرى المصرى، وحوّل الجهاد الأفغانى إلى ظاهرة عالمية (٤٢).

وكان من العواقب الأخرى للحرب السوفييتية – الأفغانية نشوء طالبان وإسلاميين باكستانيين مناضلين شتى. فبمساندة من حكومة بنظير بوتو فى باكستان، بدأت طالبان، وهى حركة إسلامية تنتسب فى معظمها إلى جماعة البشتون العرقية، تسيطر على أفغانستان فى عام ١٩٨٤، وبعد كفاح وحشى دام عامين، استولت حركة طالبان فى نهاية الأمر على كابول عام ١٩٩٦، وطبّقت، حالما أمسكت بزمام السلطة، فلسفتها الديوباندية – التى تمثل نهجًا شديد المحافظة فى الإسلام السنى – لا على جماعتها فحسب بل على أفغانستان ككل. وكانت جماعات المجاهدين المختلفة التى سبق أن تولت مقاليد السلطة قد بدأت بالفعل فى أسلمة المجتمع الأفغانى، ولكن طالبان نقلت تلك الأسلمة إلى مستوى جديد. فقد أُجبرت النساء على ارتداء الحجاب

ومُنعن من العمل؛ وكان على الرجال إطلاق لحاهم وارتداء ملابس معينة؛ ومُنع منعًا باتًا التليفزيون والموسيقى والأفلام السينمائية؛ وأنشئت قوة شرطة دينية لإنفاذ هذه القواعد. وكانت الولايات المتحدة، رغم ما تتشدق به من أقوال عن الحرية والديمقراطية، أكثر من سعيدة بإقامة علاقة مع طالبان من أجل مد خط أنابيب إلى منابع النفط والغاز الطبيعى فى بحر قزوين (٤٣)، وإيجازًا، كانت الحكومة الأمريكية راغبة فى العمل مع الإسلاميين عندما كان ذلك مناسبًا لها، حتى فى أثناء تسعينيات القرن الماضى.

وتلخيصًا لمناقشة سياسة الولايات المتحدة إزاء الإسلام السياسى فى الثمانينيات، نتجه الآن إلى الدور الذى لعبته إسرائيل. فبدءًا من أواخر السبعينيات، حاول ائتلاف من المحافظين فى الولايات المتحدة، والمستشرقين، وقوى الجناح اليمينى فى إسرائيل إدخال الحديث عن العدو " الإرهابى" العالمى فى قاموس مؤسسة السياسة الخارجية. ويناقش الفصل السابع هذه الروابط بتفصيل أكبر؛ ويقدم القسم التالى عرضًا عامًا تاريخيًا.

أعداء إسرائيل

لقد كانت النظرة إلى إسرائيل إيجابية فى الولايات المتحدة منذ إنشائها فى عام ١٩٤٨، وفى الثقافة الشعبية، بدءًا من " مذكرات فتاة صغيرة" التى كتبتها آن فرانك إلى " الخروج" الذى كتبه ليون يوريس، كان يُنظر بعين التعاطف إلى محنة اليهود أثناء المحرقة النازية وإلى التطلعات الصهيونية إلى وطن. وعلى العكس من ذلك، صوِّر العرب فى أفلام من قبيل " لورانس العرب" على أنهم غير قادرين على نيل حق تقرير المصير بدون مساعدة من الغرب. وقد أكدت حرب عام ١٩٦٧ فحسب الرأى القائل إن العرب أدنى مرتبة من الإسرائيليين. وفى دوائر السياسة، كثيرًا ما استُخدمت الحرب للتدليل، كما صوّرت إحدى دراسات وكالة المخابرات المركزية الأمر، على أن " كثيرين من العرب، كعرب، ليسوا ببساطة على مستوى متطلبات الحرب الحديثة وأنهم يفتقرون

إلى الفهم والابتكار وربما يفتقرون فى بعض الحالات إلى الشجاعة أيضًا" (٤٤)، وبينما كانت للولايات المتحدة تحالفات استراتيجية مع دول عربية شتى، فإن صورة العرب فى الثقافة الشعبية كانت إلى حد كبير صورة انتقاصية وتنميطية (٤٥).

وفى إسرائيل، كانت النظرة السلبية إلى العرب شائعة بنفس القدر منذ المؤلفات الصهيونية التى ترجع إلى تسعينيات القرن التاسع عشر، والتى صوّرت الفلسطينيين المحليين على أنهم حمير. وكما صوَّر الشاعر الصهيونى القديم حمدة بن يهودا الأمر، "كم تبدو إسرائيل جميلة بدون العرب". إلا أن الإيديولوجيا الصهيونية لم تكن مضادة للمسلمين صراحةً حتى سبعينيات القرن العشرين (٤٦). بل كان العداء تجاه العرب والمسلمين جزءًا لا يتجزأ من البرنامج الصهيونى لإقامة دولة يهودية تمامًا لا ترحب بجميع منْ هم ليسوا يهودا. وقد غيَّرت مجموعتان من التطورات هذه الحالة: إحداهما داخلية والأخرى خارجية.

فقد حدث تحوّل فى السياسة الإسرائيلية إلى اليمين فى منتصف سبعينيات القرن الماضى عندما بدأت أحزاب اليمين المتدين تلعب دورًا أكثر بروزًا فى السياسة السائدة. وكان هذا التحول إيذانًا باستخدام لغة أكثر تحيزًا ضد العرب والمسلمين فى المجال العام. وإضافة إلى الجماعات الدينية، لعب غلاة القوميين ولعبت جماعات المستوطنين ذات أشد المواقف قسوة ضد المسلمين دورًا فى هذه العملية.

وفى عام ١٩٧٩، نظّم بنيامين نيتنياهو، بصفته رئيسًا لمعهد جوناثان، وهى "مؤسسة خاصة مكرّسة لدراسة الإرهاب" (٤٧)، مؤتمرًا محوريًا فى القدس اجتمع فيه زعماء سياسيون من مختلف أنحاء العالم لمناقشة "الإرهاب" بوصفه تهديدًا عالميًا جديدًا. (وهذا المسعى الدولى ترد مناقشة له أكثر تفصيلاً فى الفصل السابع). وحتى فى هذه المرحلة، انتصرت "السياسة الواقعية". فقد كان موقف إسرائيل موقفًا متسامحًا إزاء الإسلاميين، مقلدة فى ذلك حلفاءها الأمريكيين. وفى عام ١٩٧٣، أقام الإخوان المسلمون المركز الإسلامى (المجمّع الإسلامى)، وهو المنظمة السلف لحماس، وفى عام ١٩٧٨ اعترفت به الدولة الإسرائيلية. ويقول شاؤول ميشال وإفراهام سيلا

إن " أنشطة المجمّع المجتمعية كانت بمثابة نوع من صمام الأمان بالنسبة للسلطات الإسرائيلية" [٤٨]. واضطلع المجمع بتنفيذ برنامج لبناء مسجد بموافقة إسرائيل، بحيث تضاعف عدد المساجد فى قطاع غزة من ٧٧ إلى ١٥٠ خلال الفترة ما بين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٨٦، وفى سياق انتفاضة ثمانينيات القرن الماضى، زاد عدد المساجد إلى مائتين بحلول عام ١٩٨٩، وقال البعض إن إسرائيل قامت حتى فى بعض الأوقات بتمويل الإسلاميين [٤٩]. وكان الإسلاميون، بدورهم، يصطدمون روتينيا مع القوميين العلمانيين وقوى أقصى اليسار. وفى نهاية المطاف دفعت التطورات الخارجية، ومن بينها الثورة الإيرانية، ومولد حزب الله فى لبنان، وصعود نجم حماس، إلى إعادة التفكير فى هذه الاستراتيجية. فبعد انهيار الاتحاد السوفييتى، سعى الزعماء الإسرائيليون – بمساعدة من حلفائهم من المحافظين الجدد فى الولايات المتحدة – إلى إقناع القيادة السياسية الأمريكية بأنها تواجه عدوًا أكبر مما تتصور هو: الأصولية الإسلامية[٥٠]، ولم تنجح جهودهم إلا بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١؛ ففى ثمانينيات القرن الماضى، ورغم صعود حزب الله وحماس كتهديدين لإسرائيل، واصلت الولايات المتحدة دعم الإسلاميين ضد اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية. وكان ميدان المعركة الرئيسى فى هذه الحرب الباردة بالوكالة هو، كما شاهدنا، أفغانستان.

الإسلاميون وحقبة ما بعد الحرب الباردة

لقد شهدت السنوات التى سبقت مباشرة عام ١٩٩١ انتصارات متعددة للإسلاميين. فإضافة إلى هزيمة السوفييت فى أفغانستان، اكتسب الإسلاميون فى بلدان شتى زخمًا حول ذلك الوقت تقريبًا. ففى السودان، جلب انقلاب عسكرى العقائدى الإسلامى حسن الترابى إلى السلطة. وفى الجزائر، حققت الجبهة الإسلامية للإنقاذ فوزًا حاسمًا فى أول انتخابات حرة تجرى فى ذلك البلد منذ استقلاله. وفى فلسطين، أخذت سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية على الانتفاضة تتعرض لتهديد متزايد من حماس[٥١]. وأصدر آية الله خومينى " فتوى" بقتل سلمان

رشدى بسبب كتابه " آيات شيطانية"، ولقيت دعوته آذانا صاغية فى مختلف أنحاء العالم، لا سيما فى باكستان وبريطانيا. وأصبح الإسلاميون يمثلون حضوراً على المسرح العالمى.

إلا أنهم لم يصبحوا على الفور الأعداء الرئيسيين للولايات المتحدة. فقد كان معنى انهيار الاتحاد السوفييتى ونشوء عالم أحادى القطبية، أو بالأحرى " لحظة أحادية القطبية"، هو إعادة تشكيل الإمبريالية الأمريكية. وأصبح هناك قدر كبير من الطنطنة عن " عائد السلام" ونظام عالمى سمتُه المداهنة، لا المدافع. وقيل لنا إن الولايات المتحدة ستنشئ وتراقب " نظامًا عالميًا جديدًا" تظهر فيه فى أى مكان توجد حاجة إليها فيه، بحيث تكون أشبه بـ " رجل شرطة عالمى"، لتصحيح الأخطاء، وتعزيز الأهداف الإنسانية، وحل المشاكل. وقد أظهرت حرب الخليج فى عام ١٩٩١ للعالم أن نهاية " الشيوعية" لم يكن معناها نهاية المؤسسة العسكرية الأمريكية. فبدلاً من مكافحة الروس، استُخدمت تلك المؤسسة ضد تهديدات أخرى ظلت فى نظر الولايات المتحدة هامة بالنسبة للاستقرار الدولى، هى الدول المارقة، والدول الفاشلة، والإرهابيون، وطائفة من الجهات الأخرى التى رفضت الإذعان للسلام " على الطريقة الأمريكية".

وكان الهدف المحورى الذى يجمع ما بين إدارة جورج دابليو بوش وإدارة بيل كلينتون هو توسيع نطاق النفوذ الأمريكى ومنع نشوء أى منافس محتمل. فقد سعى القادة الأمريكيون فى تسعينيات القرن الماضى، مثل نظرائهم فى مرحلة ما قبل الحرب، إلى إدماج العالم فى نظام رأسمالى خاضع لسيطرتهم. وهذه المرة كان النموذج هو الليبرالية الجديدة، بدلاً من التحديث. وعملاً على كفالة ما وصفه بوش بأنه " النظام العالمى الجديد"، حاربت الولايات المتحدة ضد " النظم المارقة" التى رفضت أن تمتثل للقواعد الأمريكية، وحاولت أن تسيطر على مناطق يمكن أن يؤدى فيها انعدام الاستقرار إلى إبطال سلاسة عمل النظام الرأسمالى. ومن ثم كان يتعين القضاء على الجهات الفاعلة من غير الدول الخارجة عن نطاق السيطرة الأمريكية.

وفى تسعينيات القرن الماضى، مثل اليوم، ربما كان الشرق الأوسط هو أهم منطقة من الناحية الاستراتيجية، أساسًا لأنه يحوى أكبر احتياطيات نفطية فى العالم، مع كون النفط، بطبيعة الأمر هو شريان حياة الاقتصاد العالمى. وتدخلات الولايات المتحدة فى المنطقة ترتبط جميعها تقريبًا إما مباشرةً أو بطريقة غير مباشرة بمسألة السيطرة على تدفق النفط. وفى هذا السياق، كانت الجماعات والدول الإسلامية تصنَّف إما كحلفاء أو أعداء استنادًا إلى درجة إذعانها لأهداف الولايات المتحدة. فقد كانت النخبة السياسية أثناء عهد كلينتون، التى كانت ما زالت تشعر بالألم من جراء الثورة الإيرانية والانتفاضات التى شهدتها فترة أواخر السبعينيات والثمانينيات، تنظر إلى إيران نظرة سلبية على أنها مركز الإرهاب الدولى والتطرف الإسلامي؛ وحظرت التجارة مع إيران، وفرضت جزاءات عليها. إلا أن تركيا كانت تمثل مسألة أخرى. فعندما انتُخب حزب الرفاه الإسلامى وتولى مقاليد السلطة فى منتصف التسعينيات(٥٢). كانت الولايات المتحدة راغبة فى العمل معه، بشرط ألا يتدخل فى المصالح الأمريكية. وكما ذُكر أعلاه، تحالف مسؤولو إدارة كلينتون مع طالبان فيما يتعلق بصفقة مد خط أنابيب كان الأمل معقودًا على أن يتيح للشركات الأمريكية الحصول على احتياطيات النفط والغاز الطبيعى الموجودة فى بحر قزوين. والخلاصة هى أن الإسلاميين الذين تعاونوا مع رؤية الولايات المتحدة للعالم كانوا حلفاء فى نظرها، أما أولئك الذين لم يفعلوا ذلك فقد كان يُنظر إليهم على أنهم أعداء.

والتحول الذى حدث إبان تلك الفترة هو أن جهات فاعلة من غير الدول، كانت قد لجأت إلى أساليب إرهابية فى حربها ضد الغرب، أصبحت شوكة فى جنب الأمريكيين. فعدا عن القاعدة عاد كثيرون من المناضلين الذين حاربوا فى أفغانستان إلى أوطانهم أو انتقلوا إلى البوسنة وكشمير وأماكن أخرى لمواصلة الحرب المقدسة(٥٣). وكان ما تلقوه من تدريب ومن خبرة حربية مع وكالة المخابرات المركزية وجهاز المخابرات الباكستانى المشترك قد منحهم ما يحتاجون إليه من معرفة لاستخدام أساليب العنف لتعزيز أهدافهم. وكانت هذه نتيجة غير مريحة نوعًا ما بالنسبة للولايات المتحدة. وأدت

محاولة تفجير قنبلة فى مركز التجارة العالمى عام ١٩٩٣ إلى استيعاب فكرة أن القوات التى مكّنتها الولايات المتحدة خلال الحرب الأفغانية يمكن أن تسبب ضربة عكسية. وجاءت فى أعقاب ذلك عملية تفجير قنبلة فى الرياض عام ١٩٩٥، وعملية تفجير قنبلة فى الخُبر عام ١٩٩٦، وعمليتا تفجير قنبلتين فى السفارتين الأمريكية فى كينيا وتنزانيا عام ١٩٩٨، وعملية تفجير قنبلة فى السفينة الأمريكية " كول" عام ٢٠٠٠، وأدت هذه الاعتداءات على الوجود الدبلوماسى أو العسكرى للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط وأفريقيا إلى اتباع المؤسسة العسكرية الأمريكية ممارسة جديدة أطلقت عليها اسم " الحرب اللاتماثلية"، عاملت فيها هذه الجماعات الجديدة عديمة الجنسية وعابرة الجنسيات كتهديدات يلزم رصدها وتتبُّعها(٥٤). وسمّت إدارة كلينتون جماعات عديدة " إرهابية" ووضعت استراتيجية دفاعية لحماية منشآتها العسكرية والدبلوماسية الموجودة فى الخارج. ومع ذلك لم يستبعد كلينتون شن هجوم عرضى بالقذائف التيسيارية: فقد قذف بالقنابل أهدافًا " إرهابية" فى السودان وأفغانستان عام ١٩٩٨ ردًا على عمليتى تفجير قنبلتين فى السفارتين الأمريكيتين فى تنزانيا وكينيا.

ولكن حتى فى هذه المرحلة، لم يحل " الإرهابيون" محل الاتحاد السوفييتى فى صورة العدو العالمى الجديد للولايات المتحدة؛ وبدلاً من ذلك، كان الرأى السائد فى دوائر السياسة الأمريكية هو أن الإسلاميين الذين يتسمون بالعنف يشكلون قوة واحدة بين قوى كثيرة يمكن أن تُخل بالرؤية الأمريكية لما بعد الحرب الباردة. ومع ذلك بدأت جيوب من النخبة الحاكمة، لا سيما المحافظين الجدد، تكتب عن " الأصولية الإسلامية" كتهديد رئيسى محتمل لمصالح الولايات المتحدة. كذلك حاولت الطبقة السياسية الإسرائيلية أن تجعل الولايات المتحدة وأوروبا تنظران إلى التأسلم على أنه عدوهما الجديد الأكبر مما يُتصور(٥٥).

ويصف فواز جرجس هذا بأنه جدل بين " الميالين إلى المواجهة" و " الميالين إلى الاستيعاب". وكانت حجة الميالين إلى المواجهة هى أن التأسلم هو " الآخر" الجديد فى

مرحلة ما بعد الحرب الباردة وأن الولايات المتحدة بحاجة إلى مواجهة هذا الخصم وتحديه في " صدام الحضارات" الذى سيلى ذلك. وكان المنظّر الإيديولوجي الرئيسى الذى يقود ذلك هو برنارد لويس، الذى دبّج آراءه بشأن التأسلم في عام ١٩٩٠ في مقالة أصبحت شهيرة الآن عنوانها " جذور سخط المسلمين" دق فيها ناقوس الخطر بشأن " صدام حضارات" وشيك[٥٦]. ثم أضفى صمويل هنتنجتون شعبية على هذا المفهوم في مقالة بعنوان " صدام حضارات؟" في مجلة "Foreign Affaires"، أعقبها كتاب يحمل نفس العنوان بدون علامة الاستفهام. وقد طرح هنتنجتون نظرية أن الصراع، في الحقبة الجديدة بعد الحرب الباردة، سيتسم بالخلافات الثقافية بين حضارات شتى. وقد سمّى نحو سبع أو ثماني حضارات من هذا القبيل، قائلاً إن الحضارة الإسلامية كانت من بين أخطر التهديدات للغرب.

وقد انعكست هذه الحجة في مجموعة من المقالات الأخرى. فعلى سبيل المثال، قالت جوديث ميلر الصحفية، في مقالة لها نُشرت في مجلة "Foreign Affaires" عام ١٩٩١، إن واضعى السياسة الأمريكية ينبغى ألا يحاولوا التمييز بين الإسلاميين " الأخيار" والإسلاميين " الأشرار" وذلك لوجود توافق في الآراء بين جميع الإسلاميين على إلحاق الهزيمة بالغرب. وكما صوّرت الأمر: " في حرب الإسلام على الغرب والصراع من أجل بناء دول إسلامية في الداخل، كانت الغايات تبرر الوسائل"[٥٧]، والمواجهة، بدلاً من التعاون أو الحوار، كانت هى السبيل الوحيد لإحباط هذا العدو الجديد. وإضافة إلى لويس وهنتنتجون، ضم دانييل بايبس بن ريتشارد بايبس الذى شارك في الحرب الباردة وينتمى إلى المحافظين الجدد)، ومارتن إندايك (الذى عمل في مجلس الأمن القومى في إدارة بيل كلينتون)، وجين كيركباتريك (التى كانت يومًا ما تنتمى إلى الحزب الديمقراطى وأصبحت من أتباع الحزب الجمهورى العتيدين الذين شاركوا في الحرب الباردة) وغيرهم، أصواتهم إلى هذه الجوقة[٥٨]، وفكرة "الصدام" ليست موقفًا حزبيًا، إذ كان دعاة المواجهة ينتمون إلى كلا الحزبين السياسيين. ولم يكن الخلاف بين دعاة الاستيعاب ودعاة المواجهة يدور حول هدف

هيمنة الولايات المتحدة، بل كان يدور حول الاستراتيجية والطنطنة الخطابية، كما سنرى فى الفصل السابع. فعلى سبيل المثال، لا يرى دعاة الاستيعاب التأسلم على أنه العدو الأحادى الخواص الجديد؛ بل يميزون بدلا من ذلك بين الجماعات الإسلامية المعتدلة (التى يمكن العمل معها) والأقلية المتطرفة. وقد اتبع جورج دابليو بوش، قرب نهاية مدة ولايته الثانية، نهجًا استيعابيًا تجاه طالبان بدعوتها إلى المشاركة فى محادثات مع الولايات المتحدة. وبينما اتبع أوباما نهجًا قائمًا على المواجهة بإصداره أوامر باغتيال أسامة بن لادن فى عام ٢٠١١، فإن إدارته قامت أيضًا بتقديم عروض إلى طالبان.

وأثناء التسعينيات، كان الاتجاه الاستيعابى هو السائد فى واشنطن. وأعلنت إدارة بوش فى مدة ولايته الأولى أن " حكومة الولايات المتحدة لا تعتبر الإسلام 'العدو' المقبل الذى يواجه الغرب ويهدد السلام العالمى"[٥٩]، وواصلت إدارة كلينتون العمل فى هذا الإطار. وكما صوَّر أنتونى ليك، مستشار الأمن القومى لكلينتون، الأمر:

> **فى الشرق الأوسط والعالم قاطبةً يوجد بالفعل انقسام جوهرى. ولكن الخط الفاصل ليس بين الحضارات أو الديانات؛ بل هو فى حقيقة الأمر بين القمع والحكم المستجيب، بين العزلة والانفتاح، بين الاعتدال والتطرف[٦٠].**

وقد سعت إدارتا بوش وكلينتون إلى كسب البلدان التى يمثل فيها المسلمون أغلبية بالدعوة إلى القيم العالمية المتمثلة فى الحرية والتسامح والحكم المستجيب. ولكنهما فى الممارسة العملية لم تفعلا شيئًا، بطبيعة الأمر، للضغط على حلفائهما السلطويين فى الشرق الأوسط أو شمال أفريقيا لتحقيق انفتاح نظمهم السياسية أو لتشجيع الديمقراطية. وبدلاً من ذلك، فإنهما كانتا تريان أن " الانفتاح" و " الاعتدال" سيتحققان من خلال إصلاحات الليبراليين الجدد. وفى تسعينيات القرن الماضى، كانت الإمبريالية الليبرالية هى المتحكّمة فى الأمور.

ومع ذلك فى لحظات شتى كان دعاة المواجهة يؤكدون حضورهم. وكان ممثلو التيار المتشدد يشيرون إلى تفجير قنبلة فى مركز التجارة العالمى عام ١٩٩٣ ويقولون

إن شبكة دولية من الإرهابيين المسلمين عاقدة العزم على تدمير الغرب. واستطاع اليمين، معززًا الصور المقولبة مسبقًا للإرهابى العربى، أن يثير الخوف وجنون الشك. وقد حقق نجاحًا كبيرًا فى هذه الجهود حتى أن وسائط الإعلام الأمريكية سارعت، عندما فُجرت قنبلة فى مبنى فيدرالى فى مدينة أوكلاهما عام ١٩٩٥، إلى استنتاج أن مسلمين هم المسؤولون عن الحادث.

وكانت إحدى نتائج هذا الحادث هى " قانون مكافحة الإرهاب" الشامل، الذى أجازه كلا مجلسى الكونجرس ووقّع عليه الرئيس كلينتون ليصبح قانونًا. وقد وُضع هذا القانون كوسيلة لحماية الأمريكيين من الإرهاب وأضفى شرعية، بين جملة أمور أخرى، على ترحيل غير المواطنين المشتبه فى وجود روابط لهم بإرهابيين، استنادًا إلى أدلة سرية لا يتعين الإفصاح عنها. وأصبح من الممكن أيضًا ترحيل " الأجنبى" لتقديمه تبرعات لمبرّات دولية كانت حكومة الولايات المتحدة تعتبرها مصادر تمويل للإرهاب. ومن ثم، حتى على الرغم من أن عملية تفجير مبنى أوكلاهما بقنبلة قام بها تيموثى ماكفى، الأمريكى الأصولى المسيحى الأبيض، فإن العرب والمسلمين كانوا مستهدفين باللوم وبالعنف من جانب حرّاس الأمن. ولم يكد يمضى وقت طويل حتى وقع هجوم آخر على الأرض الأمريكية جعل بندول الساعة يتجه صوب دعاة المواجهة، مما فتح الباب على مصراعيه أمام " صراع الحضارات" و " القانون الوطنى للولايات المتحدة الأمريكية".

* * *

والعامل الثابت الوحيد فى التقلبات المختلفة فى المواقف فى صفوف الطبقة الحاكمة فى الولايات المتحدة هو تصنيف الإسلاميين كحلفاء أو كأعداء استنادًا إلى مصالح الولايات المتحدة وهيمنتها السياسية. والجدل بين دعاة المواجهة ودعاة الاستيعاب داخل مؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية لا يطعن فى حق الولايات

المتحدة فى تأكيد نفوذها فى مختلف أنحاء العالم. ومن ثم، فإن هذا الجدل من الأجدر أن يوصف بأنه خلاف تكتيكى بين الإمبرياليين المحافظين (أو المحافظين الجدد، كوصف أنسب لهم) والإمبرياليين الليبراليين بشأن أفضل سبيل لتحقيق أهداف بناء الإمبراطورية.

وفى الفصل السابع، سندرس منطق هاتين الرؤيتين للإمبراطورية فى حقبة ما بعد الحرب الباردة حتى العقد الأول من الألفية الجديدة. ولكن ماذا عن الإسلام السياسى كشىء قائم بذاته؟ وما الذى يفسّر صعود التأسلم خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين؟ هل يمثل هذا ببساطة النتيجة الحتمية فى الأراضى التى يسودها الإسلام؟ ونحن نتطرق فيما يلى إلى هذه التساؤلات. ويعرض الفصلان التاليان تحليلاً تاريخيًا للظاهرة الإسلامية يمكن عندئذ أن نستخدمه لدراسة المجادلات داخل مؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية.

الفصل الخامس

الفصل بين المسجد والدولة

يبدأ تاريخ الإسلام بالنبى مُحمَّد وينتهى بـ ١١ سبتمبر وعمليات تفجير القنابل فى لندن ومدريد: أى، بأى مقياس، بالإطار الزمنى المبيَّن فى كتاب استهلالى بشأن ديانات العالم نشرته جامعة أكسفورد عام ٢٠٠٧.[١] والمنطق الذى يقوم عليه ذلك منطق مباشر، وهو أن الإسلام يؤدى إلى الإرهاب بطريقة بسيطة وغير جدلية. وكون مرور هذا الإطار الزمنى عبر وسائل الترشيح فى جامعة أكسفورد، التى يُستشهد بكثير من منشوراتها عن الإسلام استشهاداً إيجابياً فى هذا الكتاب، هو انعكاس لمدى تحول هذا المنطق إلى شىء بديهى فى عالم ما بعد ١١ سبتمبر. والافتراض الأساسى هنا هو أن الإسلام كان سياسياً دائماً، وأن أحزاب الإسلام السياسى هى نمو طبيعى للدين نفسه.

وينبرى هذا الفصل لتفنيد ذلك المفهوم فى جزأين. فهو، أولاً، يبين الفصل التاريخى بين المجالين الدينى والسياسى فى الإسلام. ويبين، ثانياً، الاتجاه نحو العلمانية فى البلدان التى يمثل فيها المسلمون أغلبية على مدى القرنين المنصرمين. وما يبينه هذا التاريخ هو أن بروز الإسلام السياسى لم يكن أمراً غير حتمى. ثم يعرض الفصل السادس الأوضاع التاريخية المعينة التى مكّنت أحزاب الإسلام السياسى من النمو.

أكاذيب المستشرقين

إن مَنْ وضعا أساسًا فكرة أن الدين والسياسة كانا متلازمين دومًا في " عالم المسلمين" هما المنظّران الإيديولوجيان اليمينيان صمويل هنتنجتون وبرنارد لويس. فلويس، في المقالة المذكورة في الفصل الأخير من هذا الكتاب، " جذور سخط المسلمين"، يعرض حجته على النحو التالي. إنه يبدأ بالإشارة إلى الفصل التاريخي بين الدين والسياسة في المسيحية ثم يذكر أن هذا الفصل لم يحدث في مجتمعات المسلمين التي لم تشهد، كما يقول، ما يعادل عصر التنوير. وهو يؤكد أنه بينما أجبرت النزاعات التاريخية المسيحيين والغرب على أن يتعلموا الفصل بين الدين والسياسة، فإن " المسلمين لم يشعروا قط بهذه الحاجة ولم يستنبطوا مبدأً من هذا القبيل"[٢]. وكما يقول، " يمكن العثور على جذور العلمانية في الغرب في ظرفين اثنين، في التعاليم المسيحية الأولى، وفي التجربة المسيحية بدرجة أكبر، التي أوجدت مؤسستين، الكنيسة والدولة؛ وفي النزاعات المسيحية اللاحقة التي باعدت بين الاثنتين." وعلى العكس من ذلك، لم تكن هناك " حاجة إلى العلمانية في الإسلام"[٣]. ويطور لويس في كتابه " ما الخطأ الذي حدث؟"، الذي نُشر بعد ١١ سبتمبر بفترة وجيزة، هذه الحجج تطويرًا إضافيًا ويؤكد أن " مفهوم المجتمع غير الديني كشيء مرغوب أو حتى مسموح به كان مفهومًا غريبًا تمامًا على الإسلام" [٤].

أما هنتنجتون، الذي أضفى شعبية على نظرية " صدام الحضارات" التي وضعها لويس، فقد ذهب بذلك إلى مدى أبعد وقال إن " المشكلة الأساسية أمام الغرب ليست الأصولية الإسلامية. بل هي الإسلام، الذي يمثل حضارة مختلفة يقتنع أهلها بتفوق ثقافتهم، ولديهم حواز بشأن دونية نفوذهم"[٥]. وما يستتبعه هذا المنطق هو أنه بينما تتفهم " حضارات" معينة الدور السليم للدين في المجتمع، ثمة حضارات أخرى لا تفهم هذا الدور. ولذا، فإن الجماعات الإسلامية في المجتمع المعاصر تمثل نموًا طبيعيًا لميل ثقافي مناهض للعلمانية في " الحضارة الإسلامية".

وينبرى هذا القسم من الكتاب للتدليل على السبب الذى يجعل هذا قراءة خاطئة لتاريخ الإسلام. فبينما تحوّل الإسلام إلى إيديولوجيا سياسية ودينية على حد سواء، كان هناك منذ القرن الثامن على الأقل فصل فيه بحكم الواقع بين السلطة السياسية والسلطة الدينية[٦]. وعلاوة على ذلك، لا يوجد أى شيء فريد فى إمكانات الإسلام السياسية. فعندما سعت البابوية إلى توحيد أوروبا تحت راية المسيحية، فإنها أطلقت العنان للحروب الصليبية باسم الله. وكانت المسيحية سياسية أيضًا على الأقل منذ القرن الرابع (عندما تبنّت روما المسيحية بوصفها ديانتها الرسمية)، إن لم يكن منذ تأسيسها.

ومع ذلك، من اللازم التمييز بين إمكانية استخدام أى دين لتحقيق أغراض سياسية وبين الدور الفعلى لذلك الدين فى مجتمعات شتى فى لحظات تاريخية محددة. وقد حدث تحوّل فى الإسلام، وهو لا يختلف فى ذلك عن المسيحية، بطرائق شتى لكى يتكيف مع احتياجات المجتمعات التى كان يُمارَس فيها. ويكشف عرض عام موجز لمولد الإسلام ونشوء حركات إحيائه عن نقطة بسيطة: يمكن فهم الإسلام السياسى على أنه ظاهرة " معاصرة" مماثلة لنشوء الأصولية المسيحية والأصولية اليهودية والأصولية الهندوسية فى الماضى القريب فهمًا أفضل من فهمه على أنه النمو الطبيعى للإسلام.

الفصل بين الدين والسياسة بحكم الأمر الواقع

لقد كان النبى مُحمَّد، التاجر الذى كان كثير الأسفار، يدرك أنه إذا كان للقبائل التى تقطن مدينته أن تكتسب نفوذًا سياسيًا واقتصاديًا أكبر فى المنطقة فمن اللازم أن تتحد تحت راية مشتركة. وكما يقول طارق على،

> لقد كانت وراء الدافع الروحى لُمحمَّد مشاعر اجتماعية - اقتصادية، والرغبة فى تعزيز الوضع التجارى للعرب، والحاجة إلى فرض مجموعة من القواعد المشتركة. وقد شملت رؤيته اتحادًا قَبليًا

تجمع بينه أهداف مشتركة ويدين بالولاء لعقيدة واحدة. ... وأصبح الإسلام الوسيلة التى استخدمها مُحمَّد لتوحيد القبائل العربية واعتبر، من البداية، التجارة المهنة النبيلة الوحيدة [٧].

وكانت رؤية مُحمَّد للإسلام فى أنه يجمع ما بين الروحية والسياسة والاقتصاد مع أعراف اجتماعية. وقد تصرّف كزعيم سياسى وكزعيم دينى على حد سواء، وكانت سلطته فى كلا المجالين ليست محل خلاف[٨]. إلا أن الحال لم يكن كذلك بالنسبة لخلفائه. فبعد وفاته بفترة وجيزة كانت هناك نزاعات بشأن مَن الذى يجب أن يخلف مُحمَّدًا (ويسمى الخليفة). وقد عارضت الخليفة الرابع عليًا قوى متعددة من بينها إحدى زوجات النبى. ويُعرف أتباع معاوية (مؤسس الأسرة الأموية) باسم المسلمين السّنة، بينما يُعرف أتباع على باسم المسلمين الشيعة. وكان صراع على النفوذ السياسى هو الذى أدى إلى أول انقسام دينى بين الشيعة والسُنّة[٩].

وفى غضون قرن من وفاة مُحمَّد، واصلت جيوش المسلمين فتح مناطق شاسعة وإقامة إمبراطورية قوية. وفى هذا السياق بدأ يتشكل فصل بحكم الأمر الواقع بين السلطة الدينية والسلطة السياسية. فبينما كان ورثة النبى، أو الخلفاء، يملكون سلطة دينية، كان الملوك والسلاطين والأمراء يملكون سلطة سياسية [١٠]، وإنى أستخدم مصطلح " بحكم الأمر الواقع" لأنه لم يكن هناك فصل رسمى أو قانونى بين الدين والسياسة، بل كان هناك بالأحرى فصل بين مجالى النشاط والسلطة، بحيث كان المجال الدينى خاضعًا للمجال السياسى. ومع أن الخليفة العباسى كان الزعيم الدينى المعترف به لهذه الإمبراطورية الإسلامية المبكرة، فإنه كان مجرد رمز لم يمارس السلطة بأى معنى حقيقى للكلمة. وكان الحكام الأتراك المحاربون هم الذين تولوا السلطة السياسية بدءًا من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر. ولم يكن أمام "العلماء"، أى فئة فقهاء الدين، من خيار سوى أن يقبلوا هذا الترتيب. ومع ذلك فإنهم كانوا يدركون أنهم إذا كان لهم أن يكتسبوا سلطة فى سياق لا يملك فيه الخليفة زمام السلطة السياسية فمن اللازم أن يجدوا طرائق لتفسير هذه الممارسة استنادًا إلى أسس دينية مما يضفى شرعية على الخليفة ويصادق على سلطتهم[١١]، ويتتبع محمد

أيوب استمرارية هذه الممارسة على مدى قرون كثيرة ويشير إلى أن " التمييز بين الشؤون الدنيوية والشؤون الدينية وأولوية السلطة الدنيوية بحكم الأمر الواقع على المؤسسة الدينية استمر طيلة حكم الأسر السنيّة العظيمة الثلاث، الأمويين والعباسيين والعثمانيين"[١٢].

وقد سعت الإمبراطورية الإسلامية الأولى، التى جمعت بين أعداد كبيرة من البشر من مناطق شتى، إلى وضع مجموعة من القوانين التى يمكن تطبيقها تطبيقًا موحدًا على جميع الرعايا المسلمين. وكانت هذه الحاجة إلى نظام للتنظيم هى الدافع وراء وضع الشريعة، وهى مجموعة من القواعد المدونة فى صورة قوانين. وكان " العلماء" مكلفين بمهمة صياغة الشريعة. وقد حاولت النظم المختلفة للشريعة التى انبثقت من هذا المسعى أن تصف جميع الأفعال والأنشطة البشرية وأن تصنّفها حسب مبدأ الإباحة: كأفعال وأنشطة محظورة، أو مرفوضة، أو موصى بها، وما إلى ذلك. وشملت هذه القواعد جميع مجالات الحياة تقريبًا، بدءًا من التجارة والجريمة وانتهاءً بالزواج والطلاق والملكية والنظافة الصحية والعلاقات بين الأشخاص[١٣]، وكانت تقع على عاتق المؤسسة الدينية المسؤولية عن الدعوة إلى التقيّد بقانون الشريعة الجديد.

وكان هذا الدور المتمثل فى كفالة الانضباط الاجتماعى من خلال القوانين الدينية واسع النطاق، وفى هذا المجال كان " العلماء"يملكون سلطة بالفعل. ولكن، فى عالم السياسة كانت سيطرتهم ضئيلة. وبدلا من ذلك، فيما يتعلق بالمجتمعات الإسلامية ككل، لعب " العلماء" دورًا ثانويًا وخاضعًا بالنسبة للقيادة السياسية. ومن ثم، حتى وإن كانت المعاهدات الإسلامية التى انبثقت أثناء هذه الفترة ولاحقًا لديها الكثير الذى تقوله عن طبيعة الحكام الراشدين والحكومات الرشيدة، وكونها محمّلة بالمقترحات والمشورة الموجهة إلى الحكام، فإنها لم تحدد دورًا سياسيًا لرجال الدين. وبينما أصر رجال الدين على أن ذا النفوذ ينبغى أن يحكم المجتمع على نحو مطابق للشريعة، فقد رأوا أن دورهم هو انتقاد الحكام السيئين لا العمل كحكام هم أنفسهم[١٤]، وكما يقول أيوب، كان " هناك توافق آراء على أنه ما دام الحاكم باستطاعته أن يدافع عن أراضى

الإسلام (دار الإسلام) ولم يمنع رعاياه المسلمين من ممارسة شعائر دينهم، فإن الثورة عليه محظورة، لأن " الفتنة" (الفوضى) أسوأ من الطغيان. ... وكانت التهدئة السياسية هي القاعدة في معظم سياسة المسلمين أغلب الوقت لمدة ألف عام، بدءًا من القرن الثامن حتى القرن الثامن عشر"(١٥).

ونشأ تقسيم للعمل بين " رجال القلم" و " رجال السيف". وبينما كانت الفئة الأولى، التي لم تكن تضم " العلماء" فقط بل تضم أيضًا البيروقراطيين (الذين كانوا يعملون تحت قيادة الحاكم السياسي)، مكلفة بمهمة أداء الوظائف الإدارية والقضائية للحكومة، كانت الفئة الأخيرة تدافع عن الإمبراطورية وتقوم بتوسيعها وتملك زمام السلطة السياسية(١٦)، وبينما كان النبي مُحمَّد زعيمًا سياسيًا ودينيا على حد سواء، اقتضت احتياجات الإمبراطورية الفصل بين السياسة والدين بحكم الأمر الواقع.

وبينما كان هذا هو واقع العلاقة بين الدين والسياسة، بذل كبار علماء اللاهوت جهدًا شاقًا للتدليل على عكس ذلك كسبيل لدعم مصداقيتهم. وقد فعلوا ذلك باستمرار على مر التاريخ، مما أوجد انطباعًا بأن الدين والسياسة كانا أكثر تلازمًا مما هما في حقيقة الأمر. وليس مما يدعو إلى الدهشة أن المستشرقين - الذين توجِّه النصوص نظرتهم إلى العالم - يقعون بسهولة في فخ عدم الفصل بين المزاعم الدينية والواقع الفعلي. ومع ذلك، ثمة أمثلة لعلماء لاهوت ذوي تفكير عملي بدرجة أكبر، من قبيل الغزالي (١٠٥٨-١١١١)، الذي نادى صراحة بتقسيم العمل بين الخليفة والسلطات (١٧).

ومن ثم، خلافًا لمزاعم لويس عن عدم إمكانية الفصل بين الدين والسياسة في الإسلام، يقول أيوب إن " المسار التاريخي للعلاقات بين الدين والدولة في الإسلام ... لم يكن مختلفًا اختلافًا كبيرًا عن المسار التاريخي الخاص بالمسيحية الغربية"(١٨). ووجه الاختلاف هو أن الإسلام لم يشهد أنماط الصدامات بين الدولة والمؤسسة الدينية التي حدثت أثناء جزء كبير من تاريخ المسيحية. وتوجد أسباب متعددة لذلك، تتجاوز

مناقشتها نطاق هذا الفصل. ويوضح أيوب الاختلافات بين التجربة المسيحية والتجربة الإسلامية على النحو التالي:

> لم تكن الطبقة الدينية تمثل [فى الإسلام] نوع التحدى للسلطة الدنيوية الذى كان التراتب الدينى برئاسة البابا يمثله بالنسبة للأباطرة والملوك فى أوروبا فى العصور الوسطى وفى أوائل العصر الحديث. ولذا فإن تفرُّق السلطة الدينية فى الإسلام حال عادة دون حدوث صدام مباشر بين السلطة الدنيوية والسلطة الدينية، مثلما حدث فى المسيحية فى القرون الوسطى. ... وساعد أيضًا على منع نشوء تشددية منفردة يمكنها، فى تحالف مع الدولة، أن تخمد جميع ميول الانشقاق وأن تقمع أصحاب تلك الميول، مثلما حدث فى أوروبا المسيحية أثناء القرون الوسطى وأوائل العصر الحديث. ولذا فإن الحروب الدينية واضطهاد طوائف " غير المؤمنين" كانت غير شائعة فى الإسلام على العكس من المسيحية. وفى الوقت ذاته، أدى ذلك إلى وجود مجالين متميزين أحدهما دينى والآخر سياسى يحترم كل منهما استقلال الآخر بوجه عام(١٩).

ونلقي فى القسم التالى نظرة على الطرائق التى استطاعت بها العلمانية الحديثة أن تسود فى المجتمعات التى يمثل فيها المسلمون أغلبية. وقد كان هذا أيضًا نتاج عوامل متعددة؛ وسنستكشف أثر الاستعمار والرأسمالية، الذى أدى إلى إصلاحات علمانية وتحديثية من أعلى وكذلك إلى ضروب كفاح فى سبيل التحرر الوطنى من أدنى، قادتها قوى قومية علمانية. وستلعب هذه العوامل وغيرها دورًا فى قيادة عملية التحول صوب العلمانية فى البلدان التى يمثل فيها المسلمون أغلبية.

التحديث والعلمانية

لقد كان ما حفز على التحول صوب العلمانية والتحديث هو انتشار الرأسمالية وزحف الاستعمار على إمبراطوريات إسلامية شتى. ففى حقيقة الأمر، لم يتوقف الإسلام نهائيًا عن القيام بدور محورى فى التنظيم الاجتماعى إلا إبان فترة نمو

الرأسمالية. فالحكّام المسلمون للإمبراطوريات العثمانية والمصرية والفارسية بدأوا فى تطبيق برنامج للتحديث، وإصلاحات رأسمالية، والأخذ بأسلوب الغرب، ردًا على فقدان أراضيهم التى سيطرت عليها الدول الاستعمارية الأوروبية. وكان الهدف المشترك بين مختلف أولئك الحكام من إدخال هذه التغييرات هو إيجاد وسائل لتنمية قوتهم العسكرية؛ وفى أثناء هذه العملية أحدثوا أيضًا تحولاً فى نظمهم الاقتصادية والسياسية. وكانت نتيجة ذلك هى سلسلة من الإصلاحات العسكرية والإدارية والتعليمية والاقتصادية والقانونية والاجتماعية التى كانت متأثرة تأثرًا شديدًا بالتحولات فى أوروبا التى أفضت إلى صعودها. وكانت الأعمال الفكرية للإمبراطوريات الإسلامية الأكثر تقدمًا أثناء العصور الوسطى هى التى أرست أساس نهضة أوروبا؛ والآن تبنّى الشرق تحرك أوروبا صوب الرأسمالية. وهذه الإصلاحات التحديثية أزاحت تدريجيًا الإسلام كأساس للمجتمع الإسلامى ووضعت العلمانية محله(٢٠)، وإضافة إلى ذلك، نشأت طبقة وسطى علمانية جديدة تلقت تعليمها فى الغرب وتبوأت مواقع هامة فى الحكم والتعليم والقانون، مما أدى إلى تآكل الأساس التقليدى لنفوذ علماء الدين. ولا يمكننا أن نفهم " العودة إلى الإسلام" أو حركات الإحياء الإسلامى المختلفة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، التى سنتطرق إليها بعد برهة، إلا فى هذا السياق.

وقد بدأت من أعلى الجهود الأولى للتحديث. فالملوك الذين تولوا حكم تركيا ومصر وإيران كانوا يتطلعون إلى الغرب للعثور على وسائل لتنمية قدرات مؤسساتهم العسكرية لكى يصدوا عن أنفسهم الغزو الاستعمارى على نحو أفضل. فمحمد على، الذى حكم مصر فى القرن التاسع عشر، على سبيل المثال، حقق دفعة نحو التنمية الصناعية والعسكرية. وكما يقول المؤرخان جولد شميت وديفيدسون، " كان محمد على أول حاكم غير غربى يدرك أهمية الثورة الصناعية. فقد أدرك أن تحديث الجيش سيستلزم وجود مصانع نسيج لكى تصنع الخيام والملابس العسكرية الخاصة بذلك الجيش، وأحواض سفن لبناء سفنه، ومصانع ذخيرة لإنتاج المدافع والسناكى"(٢١)، وأسفر هذا الإدراك عن إعادة تحويل كاملة للمجتمع المصرى وتحديثه.

وأجرى العثمانيون فى تركيا أيضًا سلسلة من الإصلاحات، إذ قاموا ببناء المدارس والطرق والقنوات، وكبحوا فرض ضرائب باهظة، وأقاموا نظامًا ماليًا حديثا. وحاول الحكام الكاجار فى بلاد فارس إدخال إصلاحات مماثلة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ولكن النجاح الذى حققوه كان أقل من النجاح الذى حققه نظراؤهم المصريون والعثمانيون. وفى هذه الحالات الثلاث جميعها، كان هناك أيضًا تحرك صوب إقامة دولة حديثة[٢٢].

وكانت إحدى نتائج هذه الإصلاحات التحديثية المبكرة نشوء طبقة جديدة: هى الطبقة الوسطى العلمانية. فقد أدت المدارس الجديدة المستندة إلى النماذج التعليمية الأوروبية إلى نشوء نخبة ثقافية جديدة كانت غربية فى توجهها. فقد تبوأت هذه الطبقة الوسطى الجديدة ذات العقلية العلمانية مواقع السلطة فى مؤسسات الحكومة والقانون وبدأت تحل محل " علماء الدين". وهذه الطبقة مضت فى نهاية الأمر لتقود حركات النضال المبكرة فى سبيل التحرر الوطنى فى بلدان شتى.

ومع ذلك فإن حركات النضال المبكرة هذه، رغم جاذبيتها الشعبية، كانت النجاحات التى حققتها قليلة فيما يتجاوز تركيا. بيد أن تركيا هامة: ففى عام ١٩٢٣، أصبحت الجمهورية الأولى فى الشرق الأوسط الحديث[٢٣]، وقد أدخل مصطفى كمال أتاتورك سلسلة من الإصلاحات، كان من بينها فصل الدين عن السياسة رسميًا، وقام بتنفيذ ما يشير إليه الماركسيون بأنه " المهام الديمقراطية البورجوازية" - أى بعبارة أخرى، الإصلاحات اللازمة لإحداث التحوّل من نظام ملكى إقطاعى إلى نظام ديمقراطى رأسمالى. وكانت معركته الأساسية هى معركة ضد النظام القديم القائم على القانون الإسلامى والممارسات الإسلامية. وكان عليه، لكى يوطد حكمه السلطوى، أن يدمّر نفوذ وسلطة الطبقات الحاكمة القديمة، التى كانت مرتبطة بالإسلام. وفى عام ١٩٢٤، ألغى الخلافة، وأغلق المدارس الدينية، واستعاض عن الشريعة بالقانون المدنى السويسرى، وحذف من الدستور التركى أى إشارة إلى الإسلام بوصفه دين الدولة. وكان أتاتورك علمانيًا بضراوة، وواصل الجيش التركى تنفيذ تركته بعد وفاته.

بيد أن هذه العلمانية لم تحدث فى بلدان أخرى إلا بعد الحرب العالمية الثانية. فقبل تلك الحرب، حيثما تولت أحزاب قومية السلطة لفترات وجيزة فإنها لم تتخاذل فحسب عن تنفيذ إصلاحات هامة تخفف من الظروف التى كان غالبية السكان يعيشون فيها، بل إنها لم تخلّص أيضا بلدانها من السيطرة الاستعمارية بشكل حاسم، لاكتفائها بدلا من ذلك باتفاقات لتقاسم السلطة. وكانت القيادات القومية المبكرة تتذبذب ما بين التعاون مع الدول الإمبريالية والاحتجاج على السيطرة الإمبريالية، وهى أوضاع أتاحت الفرصة لظهور القومية العلمانية الراديكالية[٢٤]، وسنعود إلى التحول اللاحق للحرب صوب القومية الراديكالية بعد برهة.

أوجه فشل الإحياء الإسلامى

لقد كان الرد على الاستعمار بالنسبة لمن يوجدون على قمة المجتمع هو التحرك صوب التحديث والعلمانية، بينما اتجه آخرون إلى أسس الإسلام – وهى القرآن، وحياة النبى وأتباعه، ومثال المجتمع الإسلامى فى عصور الإسلام الأولى – بحثًا عن حلول ونماذج للإصلاح الإسلامى. وكان أقطاب حركة الإحياء أولئك يعتبرون الاستعمار الأوروبى والإمبريالية الأوروبية – لا سيما فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، عندما بدأت الدول الأوروبية تقوم بعمليات غزو كبيرة فى أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط – تهديدين حيويين لهوية المسلمين السياسية والدينية[٢٥]، وكان أقطاب هذا التحول الإحيائى عادةً أفرادًا ينتمون إلى الطبقة الوسطى لديهم عقلية دينية ويسعون إلى الحد من سيطرة وسلطة " علماء الدين" على النصوص الإسلامية وكانوا يصرون على حق التفسير الفردى " أى الاجتهاد" للقرآن والسنّة[٢٦].

وكان جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، ورشيد رضا هم أبرز ممثلى هذا التيار الجديد. وقد أرسوا معًا الأساس للمذهب السلفى فى التفكير[٢٧]، والسلفيون ينادون، من حيث الجوهر،

بالعودة إلى تقاليد المجتمع الدينى الأصلى التى تدور حول النبى مُحمَّد (السلف). ولكن، حتى فى هذه المرحلة، لم يصدر الكثير عن الإحياء الإسلامى والفكر السلفى بوجه خاص بشأن الدولة، فيما يتجاوز دورها فى تطبيق الشريعة. ولم تصدر عنهما إدانة كلية للحكومات الإسلامية ومن ثم لم تصدر عنهما أية دعوة إلى الإطاحة بهذه الحكومات، فهذا التحوّل داخل السلفية لم يحدث إلا لاحقًا فى القرن العشرين[٢٨].

وقد قام حسن البنّا، مستلهمًا كتابات رشيد رضا، بتأسيس جماعة الإخوان المسلمين فى مصر عام ١٩٢٨ وفى حوالى الوقت ذاته، نشر مولانا المودودى عقيدته الإسلامية فى شبه القارة الهندية[٢٩]، وقد دعا المودودى، وهو إسلامى من المحْدثين، إلى تشكيل دولة إسلامية فى جميع أنحاء الهند التاريخية. وكان هذا الموقف يتناقض مع موقف الزعماء القوميين المسلمين الذين دعوا إلى " دولة مسلمين"، أى دولة قد تشمل مجالات علمانية. وكان المودودى يرفض القومية والعلمانية كفكرتين غربيتين لا تتسمان بالورع ومن ثم غير مقبولتين. وقد دعا فى كتابه " الجهاد فى الإسلام"، الذى نُشر فى عشرينيات القرن الماضى، إلى دولة إسلامية يُحكم فيها المجتمع كله على أساس الشريعة. ورأى أيضًا أن النضال السياسى (الجهاد) حيوى لتحقيق ذلك. وقام بتأسيس حزب جماعة الإسلام فى عام ١٩٤١ للاضطلاع بهذا الجهاد[٣٠]، وما زال ذلك الحزب موجوداً فى حزب سياسى للطبقات الوسطى المتدينة فى باكستان.

وكان حسن البنا هو مصدر إلهام المودودى[٣١]، وانخرط كلا حزبيهما فى نضال فى سبيل التحرر الوطنى ولكنهما كانا يرفضان القومية العلمانية. وكانت جماعة الأخوان المسلمين فى مصر ترفض، مثل " الجماعة الإسلامية"، مطالب القوميين الذين كانوا يدعون إلى إنهاء الحكم البريطانى وإقامة دولة حديثة لديها دستور. وحاجج الإخوان المسلمون بأنه لا توجد حاجة إلى التطلع إلى النماذج الغربية للنظام الاجتماعى. وناصروا بدلا من ذلك الشعار الذى ما زال يُستخدم حتى الآن وهو: "القرآن دستورنا". وأقام الإخوان المسلمون المصريون المؤسسون فروعًا فى بلدان متعددة، من بينها لبنان والأردن وفلسطين والسودان.

وكانت حركات وجماعات الإحياء التى نوقشت أعلاه بمثابة جهات فاعلة قليلة الشأن على المسرح السياسى فى القرن التاسع عشر وفى النصف الأول من القرن العشرين. إذ كان الاتجاه السائد فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وجنوب آسيا أثناء تلك الفترة هو الاتجاه صوب العلمانية والتحديث. ومن ثم، فإن جمال الدين الأفغانى – " أب" الفكر الإسلامى الحديث – فشل، رغم أفضل جهوده، فى بناء تحالف إسلامى عام. كذلك، كان القوميون العلمانيون فى الهند ومصر يحظون بتأييد الغالبية العظمى من السكان؛ ومن ثم كانت التيارات الإسلامية هامشية.

وإبان حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية حلّ جيل جديد من القوميين العلمانيين الراديكاليين المناهضين للاستعمار محل أسلافهم. وكان الجيل السابق لهم قد فشل فى إنهاء الاستعمار، وأصبحت الظروف الاستعمارية لا تُحتمل بالنسبة للغالبية العظمى. وحتى على الرغم من أن بلدانًا كثيرة فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا كانت قد مُنحت الاستقلال الرسمى بحلول عام ١٩٤٥، فإنها لم تكن حرة فى حقيقة الأمر. وكانت جامعة الدول العربية، التى تأسست عام ١٩٤٥، مكونة من مصر وسوريا والعراق واليمن ولبنان والأردن والمملكة العربية السعودية، ولكن هذه البلدان كانت جميعها فى حقيقة الأمر واقعة تحت سيطرة البريطانيين. وكانت الغالبية العظمى من الناس العاديين قد أصبحت تشعر بخيبة أملها فى قيادة بلدانها. وكانت ترى أن الطبقتين العليا والوسطى المواليتين للغرب غير قادرتين على إجراء إصلاح داخلى وكانت تحتقر الأرستقراطية الإقطاعية لتواطئها مع القوى الإمبريالية ولدعايتها لنفسها بلا خجل[٣٢]. وأدى ضياع فلسطين فى عام ١٩٤٨، وفشل الدول العربية فى وقف نشوء دولة إسرائيل، إلى تفاقم الأمور. وكانت نتيجة ذلك هى أن الاستياء الشعبى، المقرون بالضغط اليسارى الذى مارسته أحزاب شيوعية شتى فى المنطقة، دفع الحركات القومية فى اتجاه أكثر راديكالية. وشهدت هذه المرحلة الجديدة مولد القومية العربية الراديكالية فى الشرق الأوسط، مع وصف قادتها الرئيسيين (من قبيل جمال عبد الناصر فى مصر) لأنفسهم ولبرامجهم بأنهم يمثلون "الاشتراكية العربية".

القومية العلمانية الراديكالية

كانت القومية العلمانية الراديكالية أثناء حقبة ما بعد الحرب هي الفلسفة السياسية السائدة في الدول المستعمرة بدءًا من إندونيسيا إلى الجزائر. وكان العديد من المستشرقين يؤكدون، في تجاهل لهذه الحقيقة (كما شاهدنا في الفصل الأخير)، أن البلدان الإسلامية - التي كانوا ينظرون إليها على أنها منغمسة تمامًا في معتقداتها الدينية - سترفض إيديولوجيات سياسية من قبيل القومية والشيوعية. وقد كانوا على خطأ. فكما يقول جون إسبوزيتو وجون فول، مع أن " الحركات القومية الناشئة كانت تنطوي على مكونات إسلامية هامة فإن القومية لم تكن تلقى تعبيراً عنها بعبارات لها مغزاها الإسلامي". وكان هذا صحيحًا بالذات في حقبة ما بعد الحرب، عندما شكّلت المنظورات الديمقراطية والاشتراكية والماركسية الغربية إيديولوجيتيْ الاحتجاج والإصلاح الراديكالي الرئيستين"[٣٣]، ثم أدت هذه القوى إلى نضالات ناجحة في سبيل التحرر الوطني وأدخلت إصلاحات علمانية في مجتمعاتها.

فعلى سبيل المثال، اتخذ ناصر تدابير شتى في شكل إصلاحات سياسية واجتماعية واقتصادية تحت شعار " الاشتراكية العربية". وكان المقصود بأحد هذه التدابير قمع نفوذ رجال الدينْ ومنعهم من التدخل في شؤون الدولة. وأدى تدبير آخر إلى سجن أعضاء جماعة الإخوان المسلمين واعتبارها منظمة خارجة على القانون. ونحن نرى هنا فصلاً إضافيًا بين الدولة والسياسة. ومع أن ناصراً زعم أن بعض تعاليم الإسلام تتسق مع رؤيته " للاشتراكية"[٣٤]، فإن الإيديولوجيا الناصرية كانت علمانية في جوهرها.

* * *

إجمالا، كان من الممكن أن يكون مصير الإحياء الإسلامي هو مزبلة التاريخ لولا انهيار وهزيمة القومية العلمانية في أواخر ستينيات وأوائل سبعينيات القرن الماضي.

ونحن نتطرق لاحقًا إلى هذا الفشل كى نفهم الظروف التى أتاحت للإسلام السياسى أن يتطور وينمو.

وإيجازًا، إن ما يوضحه هذا التاريخ الموجز للإسلام والإحياء الإسلامى هو عدم وجود صلة مباشرة بين إسلام القرن السابع ونشوء جماعات الإسلاميين فى الجزء الأخير من القرن العشرين. وقد بيّنت الفصل بحكم الأمر الواقع الذى حدث فى الإسلام بين المجالين الدينى والسياسى والعقائد التصوفية التى نادت بتجنّب السلطة السياسية. وقد كانت تقاليد العلمانية والتحديث سائدة خلال آخر قرنين على الأقل فى مناطق شتى يمثل فيها المسلمون أغلبية، بدءًا بالإصلاحات التحديثية التى أدخلها ملوك مسلمون شتى، والتى أعقبتها بعد ذلك تغييرات إضافية نفذتها قيادات قومية علمانية بعد النضالات المظفرة ضد الاستعمار. ومن ثم، يُفهم الإسلام السياسى فهمًا أفضل على ضوء التطورات السياسية والاقتصادية التى حدثت مؤخرًا، وهى تطورات أدت إلى نشوء حركات دينية فى مجتمعات أخرى أيضًا.

الفصل السادس

الإسلام السياسى: تحليل تاريخى

فى الربع الأخير من القرن العشرين بدأت حركات أصولية دينية مختلفة الأشكال عملية صعود. ففى الهند، مثلا، بدأ المتطرفون الهندوس يكسبون أرضًا فى ظل الفراغ السياسى الذى أوجدته إخفاقات حزب المؤتمر القومى العلمانى. فهذه الثغرة السياسية، المقرونة بويلات التحرر، أتاحت لليمين الهندوسى أن يتولى مقاليد السلطة، وأن يحقق نتيجة لذلك دفعة من خلال برنامج "Hindutva"، أى إضفاء الطابع الهندوسى على المجتمع. وفى الولايات المتحدة، بدأت الأصولية المسيحية فى شكل اليمين الجديد تؤثر على السياسة فى أواخر سبعينيات القرن المنصرم. وباكتساب الأصوليين زخمًا كقوة ارتجاعية ضد الحركات التقدمية التى شهدتها ستينيات القرن العشرين، فإنهم نجحوا خلال العقود القليلة التالية فى تحويل النقاش بشأن معظم القضايا الاجتماعية إلى الوجهة اليمينية. ويصدق الشىء نفسه على المنظمات المغالية فى النعرة القومية والأصولية اليهودية فى إسرائيل. وإيجازًا، فإن دخول الدين معترك السياسة لا يقتصر على البلدان التى يمثل فيها الإسلام الديانة السائدة.

ويبيّن هذا الفصل الأوضاع المعينة التى مكّنت الأصولية الإسلامية. ولكن يجب، أولا، التشديد على أن الدول الإمبريالية، ولا سيما الولايات المتحدة، لعبت دورًا نشطًا فى تشجيع صعود التأسلم. وحيث إن هذا التاريخ قد تناوله الفصل الرابع فإننى لن

أناقشه هنا مرة أخرى. ويركز هذا الفصل على الأوضاع الداخلية بالنسبة لبلدان شتى يمثل فيها المسلمون أغلبية أفسحت مجالاً للتأسلم. وتشمل هذه الأوضاع أفول القومية العلمانية، الذى أسفر عن فراغ إيديولوجى؛ وفشل أحزاب شيوعية شتى فى عرض بديل تقدمى، مما أفسح بذلك المجال أمام الإسلاميين؛ والأزمات الاقتصادية وتفاقمها فى ظل الليبرالية الجديدة، مما أوجد ثغرة للإسلاميين ولشبكاتهم الخيرية. ثم يعرض الفصل طريقة عامة يمكن بها للتقدميين واليساريين أن ينظروا إلى الإسلام السياسى. وينبغى، من حيث الجوهر، ألا نؤيد الإسلاميين دون أن ننقدهم ولا أن نرفضهم رفضًا مطلقا؛ بل ينبغى بالأحرى الحكم على هذه الجماعات وعلى أفعالها على أساس كل حالة على حدة فى إطار تحليل تاريخى ملموس. ولكن علينا أن نبدأ بفهم ما يعنيه " الإسلام السياسى".

ما الإسلام السياسى ؟

إن الظاهرة التى يتناولها هذا الفصل بالدراسة كان يشار إليها باسم " التأسلم"، أو " الأصولية الإسلامية"، أو " الأصولية الجديدة الإسلامية"، بين أسماء أخرى. وسوف أستخدم هذه الأسماء على أساس أن كلاً منها يعنى الآخر، مع إدراك أن وقْعها يختلف فى البلدان المختلفة. ولكنى أعتقد أن مصطلح " الإسلام السياسى" هو الأنسب، لأنه يشير إلى إعادة تفسير الإسلام من قِبَل أفراد وجماعات شتى لخدمة أهداف سياسية معينة. ومن ثم، لا تندرج الجماعات المجتمعية والمنظمات الطلابية الإسلامية ضمن هذه الفئة، تمامًا مثلما لا ينطبق عنوان " الأصولية المسيحية" على جمعية الشبان المسيحيين.

دعونا ننظر إلى بضعة أمثلة للكيفية التى أعيد بها تفسير الإسلام لخدمة أهداف سياسية صريحة. فقد قام آية الله خومينى فى إيران بتكييف الإسلام الشيعى ليكون وسيلة لتعبئة رجال الدين ولقيادة ثورة شعبية ضد الشاه. وحتى تلك المرحلة، كان توجُّه الإسلام الشيعى، فى معظمه، سلبيًا أو صوفيًا من الناحية السياسية. وبينما

كانت فصائل من رجال الدين تنخرط أحيانًا فى نشاط سياسى، كان هناك توافق فى الآراء دام نحو أحد عشر قرنًا على أن رجال الدين ينبغى ألا يسيطروا على الدولة. وبدلا من ذلك، وكما يقول إرفاند أبراهاميان، فإن معظمهم " كانوا يرون أن المسؤوليات الرئيسية لرجال الدين، التى كانوا يشيرون إليها باسم " ولاية الفقيه "، لاسياسية بدرجة مهيمنة"[1]، وقد خرج خومينى بشكل جذرى على هذا الموقف الشيعى الصوفى فى سياق الانتفاضات الاجتماعية التى حدثت فى أواخر ستينيات وسبعينيات القرن العشرين؛ ودعا المسلمين إلى الإطاحة بالشاه باسم الإسلام وإلى إقامة دولة إسلامية تقوم على الشريعة[2]، وقال كذلك إن القضاة الدينيين لهم حق إلهى فى أن يحكموا، مبتعدين بذلك عن الميول التصوفية السابقة[3]. وكانت إعادة قراءة خومينى للإسلام هى بمثابة وسيلة لتحريك شرائح شتى من المجتمع، لا سيما رجال الدين المتصوفين، كى يساندوا برنامجًا للثورة السياسية.

أما فى التراث السنى، فإننا يمكن أن نأخذ مثال الإخوان المسلمين فى فلسطين. فقد تحاشوا منذ حوالى عام ١٩٦٧ تنظيم قواهم صراحة ضد دولة إسرائيل أو مواجهتهم لها، وهذا هو سبب تفضيل سلطات الاحتلال لهم. وتاريخيًا، كان هذا الاتجاه يبرره علماء دين مسلمون باستخدام حجتين: أولاً، أن وجود الطغيان أفضل من وجود فوضى، لأن الفوضى من شأنها أن تؤدى إلى تفكك " الأمة"؛ وثانيا، أن الحاكم المسلم، حتى ولو كان فاسدًا وظالمًا، لا غنى عنه من أجل الدفاع عن أرض الإسلام ضد الكفار. وقد استُخدم هذا المنطق مرة تلو الأخرى على مر التاريخ لتبرير حكم الحكام الفاسدين والقساة[4].

وفى فلسطين، حتى مع أن الحكام كانوا صهاينة، فإن الإخوان المسلمين كانوا يتجنبون المواجهة السافرة بعد عام ١٩٦٧ ويسعون إلى " إعداد أجيال" من أجل دولة إسلامية. وكما يقول خالد خرّوب، كان الإخوان المسلمون الفلسطينيون يستخدمون هذا المنطق لتبرير سياستهم القائمة على عدم المواجهة مع إسرائيل حتى عام ١٩٨٧ ورغم " تصاعد اتهامات المنظمات القومية واليسارية الفلسطينية الأخرى للإسلاميين

الفلسطينيين بالجبن أو حتى بالعمل بشكل غير مباشر فى خدمة الاحتلال الإسرائيلى، فإنهم تمسكوا باستراتيجيتهم المتمثلة فى "إعداد أجيال" لمدة طويلة" [٥]، بيد أن فصائل من الإخوان المسلمين الفلسطينيين انشقت على اتجاه التهدئة هذا وسعت إلى إعادة تفسير الإسلام على نحو يخدم أهداف التحرر الوطنى. وكانت تنظر إلى الكفاح فى سبيل تحرير فلسطين على أنه كفاح دينى (جهاد)، مُلزم للمسلمين لأنه يحدث فى ظل ظروف دفاعية (الاحتلال، والتجريد من الممتلكات، والاستعمار). وعلاوة على ذلك، رأت هذه الفصائل أن من الضرورى بالنسبة للمسلمين أن يحاربوا فى سبيل أرض الوطن، التى كانوا يعتبرونها " وقفًا دينيًا ثابتًا".

وفى عام ١٩٨٧، وفى سياق الانتفاضة الأولى، انفجر على الملأ الجدل بين أنصار التهدئة وأنصار المواجهة وأدى ذلك إلى تأسيس حركة حماس، وهى جماعة مكرّسة لتحرير فلسطين[٦]، وكما يصوّر أحد الإسلاميين الأمر: " لماذا ينبغى أن يُنظر إلى الإسلام ككيان منفصل عما يجرى فى المنطقة، كيان محصور فى المساجد ومنقطع عن الحياة الاجتماعية والسياسية؟ إن هذا التساؤل يوجد فى أذهان مئات من الشباب الفلسطينى فى قطاع غزة، الشباب المتفانين فى الإسلام الذين يشاركون أيضًا فى مقاومة الاحتلال الإسرائيلى. وإجابتهم عن هذا التساؤل هى: دعونا ننخرط فى مقاومة فاعلة ضد الاحتلال لأن الاحتلال لا يؤثر فحسب على الأراضى بل يرمى أيضًا إلى استئصال الإسلام"[٧].

وإيجازًا، فإن ثمة تيارات نشأت فى إطار التراث السنى والتراث الشيعى على حد سواء كيّفت الإسلام لخدمة أهداف سياسية معينة. وهذا يشمل فى التراث الشيعى، فى جملة أمور أخرى، جماعات من قبيل المجلس الأعلى الإسلامى فى العراق، وحزب الدعوة الإسلامى، والصدريين (أتباع مقتدى الصدر) فى العراق؛ وحزب الله وحزب أمل فى لبنان، والحزب الجمهورى الإسلامى فى إيران. إلا أن الجماعات الإسلامية الأكثر تعددًا منبثقة من الفرع السنى للإسلام، بالنظر إلى أن الإسلام السنى يمارسه نحو ٨٥ فى المائة من جميع المسلمين فى مختلف أنحاء العالم.

وتشمل هذه الجماعات مختلف جماعات الإخوان المسلمين التى انبثقت من الجماعة الأصلية التى تأسست فى مصر، وجماعة طالبان الأفغانية، والقاعدة، والقاعدة فى شبه الجزيرة العربية، وحركة " الشباب " الصومالية، وهلم جرا. وبينما تنبثق كل جماعة من هذه الجماعات من سياقات وطنية وإقليمية معينة وتتأثر وتتشكل بهذه الظروف التاريخية، فإن ما يجمع بينها هو تأييدها لإقامة دولة إسلامية قائمة على الشريعة. وحتى مع هذا الهدف المشترك، توجد تفسيرات شتى للشريعة، بعضها أكثر صرامة من الأخرى. وتوجد أيضًا اختلافات بين الجماعات بشأن طرق إقامة دولة إسلامية: ومن ذلك على سبيل المثال ما إذا كان ينبغى أن تستند إلى تصويت الأغلبية (حزب الله) أو تُفرض من أعلى (طالبان). وأخيراً، تختلف منظمات الإسلاميين فى أساليبها. فبعضها يفضّل اتباع نهج أكثر راديكالية وعنفًا (من قبيل جماعة الجهاد الإسلامى فى مصر أو جماعة عسكر طيبة الباكستانية)؛ أما الجماعات الأخرى، التى تمثل الأغلبية عادة، فهى تتبع نهجًا إصلاحيًا وفى بعض الأحيان برلمانيًا.

ومن الواضح أن أحزاب الإسلام السياسى تتباين تباينًا واسعًا من حيث منشؤها وسياستها وأساليبها. ومن ثم، على العكس من الآراء التى ينشرها المحافظون الجدد والإمبرياليون المحافظون الآخرون، مثلما سنرى فى الفصل التالى، لا يمكن أن يقال إن هناك مؤامرة عالمية للإسلاميين ترمى إلى الإطاحة بالغرب. فكيف، إذاً، نفهم صعود الأحزاب والجماعات المذكورة آنفا؟ وقد ناقشت فى الفصل الرابع الدور الذى تلعبه الولايات المتحدة. وأتطرق الآن إلى الأوضاع الداخلية التى مكّنت أحزاب الإسلام السياسى من النمو.

نمو الإسلام السياسى

بوجه عام، ساعد التلاقى بين ثلاثة عوامل على تمهيد الطريق لصعود التأسلم هى: فشل القومية العلمانية، وضعف اليسار، واندلاع أزمات اقتصادية.

وأتناول بالفحص فيما يلى كل عامل من هذه العوامل بتفصيل أكبر. ومع أن هذه هى الظروف الشاملة التى تمكّن الإسلاميين من السعى إلى الهيمنة، ثمة عوامل محلية وإقليمية محددة تلعب دورًا. ولكن التحدث عن هذه الظروف المحلية يتجاوز نطاق هذا الفصل.

فشل القومية العلمانية

لقد كان صعود القومية العلمانية الراديكالية فى حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية، كما نوقش فى الفصل السابق، إيذانًا بتحول تقدمى فى السياسة المناهضة للإمبريالية فى الدول المستعمَرة. فمن إندونيسيا إلى الجزائر، أزاح جيل جديد من الزعماء السياسيين ذوى العقلية العلمانية، كان على رأس حركات شعبية مناهضة للاستعمار، النظام القديم وأدخل سلسلة من الإصلاحات. إلا أن هذه التطورات لم تكن عامةً فى جميع البلدان التى يشكل فيها المسلمون أغلبية. فنحن نرى هذا الاتجاه فى تركيا ومصر وإندونيسيا والجزائر وباكستان، ولكننا لا نراه فى المملكة العربية السعودية أو فى النظم الملكية الموجودة فى منطقة الخليج، على سبيل المثال. ففى تلك النظم الأخيرة، عمل الملوك بدعم من الغرب على تراجع القوى القومية واليسارية العلمانية، بقدر وجودها (كما هو الحال فى اليمن وكما هو الحال بدرجة أقل فى المملكة العربية السعودية). ومع ذلك، من المهم إبراز أن العلمانية تم التوصل إليها وتطويرها فى كثير من البلدان التى يشكل فيها المسلمون أغلبية، وإن يكن بطرائق مختلفة عن التجربة الأوروبية. ونتطرق الآن إلى فشل هذه الحركات واضمحلالها.

وبإيجاز، كانت القومية العلمانية غير قادرة على تحقيق الوعود الاقتصادية والسياسية الراديكالية التى قدمتها لدولها. وتصور حالة مصر هذه النقطة تصويرًا حيًا. ففى عام ١٩٥٢ قاد ناصر وجماعة سرية تعرف باسم " الضباط الأحرار" تمردًا

على الملك فاروق، فى أعقاب إضرابات عمالية وانتفاضات طلابية (فضلاً عن وجود غضب على نطاق المنطقة بشأن قضية فلسطين)، وقام بخلعه. وبدؤوا، عندما أصبحوا فى السلطة، سلسلة من الإصلاحات التى دمّرت من حيث الجوهر النظام القديم الذى كان يسيطر عليه الإقطاع والتجارة البورجوازية[٨]، وقاموا بتنفيذ برنامج إصلاح زراعي، وتصنيع، وتأميم قطاعات اقتصادية شتى؛ وألغوا الملكية الدستورية وأقاموا جمهورية، ولكنهم ركّزوا السلطة فى أيديهم. وأصدروا أيضًا قوانين فى صالح العمال استجابة للإضرابات وللمظاهرات التى حدثت فى أوائل خمسينيات القرن العشرين. وربما كان الأهم هو أن الناصريين استطاعوا أن يخلّصوا المجتمع المصرى من السيطرة البريطانية فى نهاية الأمر. وكانت ذروة هذه الحركة هى تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦، وعندما هزم ناصر المعارضة البريطانية والفرنسية والإسرائيلية لتأميم قناة السويس (بدعم من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي)، فإنه أصبح بطلاً إقليميًا، وأصبح يُنظر إلى الناصرية منذ ذلك الحين فصاعدًا كنموذج يُحاكى فى بقية العالم العربى.

وفى عام ١٩٥٧ دعا ناصر إلى إقامة نظام " اشتراكى" فى مصر. ولم يكن ما يقصده بالاشتراكية واضحًا؛ وقد تباين تبعًا للسياق الذى تحدث عنها فيه[٩]، وفى الممارسة العملية، قاد ناصر، الذى نشأ من الطبقة الوسطى، برنامجًا كَبَحَ قوة رأس المال الكبير من خلال التأميم وركّز التخطيط الاقتصادى فى أيدى الدولة[١٠]، وكانت " الاشتراكية العربية" فى الممارسة العملية هى رأسمالية الدولة؛ فقد كانت تنطوى على التخطيط الحكومى المقرون بالسيطرة الشمولية واستخدام القمع لإخماد المعارضة. وسياسيًا، سعت الناصرية إلى توحيد الأقاليم العربية وإعادة تجميعها فى دولة واحدة وإزالة الانقسامات التعسفية التى فرضتها القوى المتحالفة بعد الحرب العالمية الأولى. وكان العدو الرئيسى هو الإمبريالية، لا سيما إمبريالية الولايات المتحدة، التى برزت كقوة مهيمنة فى الشرق الأوسط بعد الحرب. وبينما سعى ناصر إلى الحصول على دعم عسكرى ومالى من الاتحاد السوفييتى، فإنه لم يكن بأى حال

أداة للمصالح السوفييتية. وكان النظير الرئيسى لناصر فى الشرق هو حزب البعث الاشتراكى العربى السورى وفروعه فى الأردن ولبنان والعراق. فقد كان لهذه الأحزاب توجُّه مماثل وقاعدة طبقية مماثلة، ولكنها لم تحقق قط نفس البروز الذى حققته الناصرية. ومن الأمثلة الأخرى للقومية العلمانية في شمال أفريقيا وجنوب أسيا جبهة التحرير الوطنى فى الجزائر، وسوكارنو فى إندونيسيا، وذو الفقار على بوتو فى باكستان.

بيد أن القومية العلمانية فى أعقاب الحرب كانت فى نهاية المطاف، رغم وعودها الراديكالية، عقيدة طبقة وسطى تخدم مصالح طبقتها. ولم تكن التدابير الرأسمالية الحكومية، رغم نجاحها المعتدل لفترة من الوقت، قادرة على التصدى بجدية للتفاوتات الطبقية وإنتاج تغيير اقتصادى حقيقى. وعلاوة على ذلك، فى سبعينيات القرن الماضى شهدت كثرة من هذه البلدان أزمات لم تتمكن الوسائل الرأسمالية الحكومية من حلها. وكانت النتيجة هى زيادة البطالة وتنامى التفاوت الطبقى، وهى أوضاع تفاقمت فحسب بإدخال إصلاحات الليبراليين الجدد.

وعلى الجبهة السياسية، سددت حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، التى هزمت فيها إسرائيل البلدان المجاورة لها وضمّت بعض أراضيها إليها فى غضون ستة أيام فقط، ضربة قاتلة للمشروعية السياسية للقومية العربية. وكما يصوّر مكسيم رودنسون الأمر،

> **لقد فشلت الناصرية والبعثية على حد سواء فى تحقيق الوحدة العربية وفى حل مشكلة إسرائيل والفلسطينيين. ولم يكن الأداء الاقتصادى متميزًا فى أى مكان، وسقطت مصر فى عهد ناصر على وجه الخصوص فى هوّة العوز والتدنى الثقافى. وكثيرًا ما كانت الطبقات الجديدة التى تُمسك بزمام السلطة تذكّر بالطبقات القديمة بشكل أليم. وأثار الفشل فى يونيو ١٩٦٧ مسألة ملاءمة الأفكار القديمة لحل مشاكل الحاضر الضاغطة. وأدت كل مشكلة كبرى، وكل فشل، وكل أزمة نشأت ... إلى الإحساس بوجود افتقار إلى شىء ما فى الإيديولوجيا القومية، وبوجوب التطلع إلى إيديولوجيات هامة أخرى كمصدر لأفكار جديدة (١١).**

وقد أدى الفراغ الإيديولوجى الناجم عن انهيار القومية العلمانية والبحث عن " أفكار جديدة" إلى نشوء فرصة بالنسبة للإسلاميين. وبينما كان من الممكن أن يملأ أقصى اليسار هذا الفراغ فإنه، كما سيبيّن القسم التالى، بدّد مصداقيته وترك بذلك أرضًا للإسلاميين.

وتصوّر مصر مرة أخرى هذا العامل الدينامى تصويرًا جيدًا. ففى نفس الوقت تقريبًا الذى بدأ فيه الاقتصاد فى التراجع، بدأت رابطات إسلامية، تسمى الجماعات الإسلامية، تظهر فى صفوف الطلاب فى المدن الرئيسية. وساعد نظام أنور السادات على دعم نمو هذه الجماعات فى محاولة منه للابتعاد تمامًا عن السياسات العلمانية والجامدة التى اتسمت بها الحقبة السابقة. وقامت تلك الجماعات بتجنيد طلبة كانوا يشعرون بخيبة أمل متزايدة فى السياسة التى يتعبها اليسار وقامت بتدريبهم على " الحياة الإسلامية التامة" فى معسكرات صيفية. وعرضت، كى تنال دعمًا واسع النطاق فى مناخ كان اليسار لا يزال لديه فيه قدر كبير من التأثير، ما أسمته " الحلول الإسلامية" للأزمة التى كانت تواجه الجامعات المصرية.

فعلى سبيل المثال، كان على الطلاب أن يتعاملوا يوميًا مع نظام للنقل يفتقر إلى الكفاءة ويتسم بتكدس مفرط. وبالنسبة للمرأة، كان هذا أمرًا صعبًا على وجه الخصوص، لأنها كثيرًا ما كانت تتعرض للتحرش فى الحافلات المزدحمة. وكان الحلّ " الإسلامى" هو نقل النساء فى حافلات صغيرة مجلوبة صراحة لهذا الغرض. ولكن عندما أصبحت وسيلة النقل البديلة هذه شعبية، قام الإسلاميون بقصر هذه الخدمة على النساء اللائى يرتدين الحجاب. ومن ثم كانت خصخصة النقل وسيلة للتصدى " إسلاميًا" لمشكلة اجتماعية، ووسيلة لجعل الطالبات يرين عدم وجود خيارات قليلة أمامهن سوى ارتداء الحجاب. واتُّبع نهج مماثل فيما يتعلق بالفصل على أساس الملبس والجنس (١٢). وكان هذا النهج هو مزيج من الخدمات الاجتماعية والتعاليم الأخلاقية التى عززت أجندة الجماعات الإسلامية. وسرعان ما بدأت تتصادم هتافات " الديمقراطية" مع " الله أكبر" فى المظاهرات الطلابية. وفى غضون بضع

سنوات فقط، أصبح الإسلاميون هم المسيطرون فى الحرم الجامعى واضطر اليسار إلى الاختباء (١٣).

ويمكن مشاهدة عامل دينامى مماثل فى دول أخرى فقدت فيها القومية العلمانية وفقد فيها اليسار المصداقية السياسية، وإن يكن فى مراحل مختلفة. ففى أواخر ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضى فقط استطاعت حماس أن تتحدى بنجاح سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية فى فلسطين. ولكن هذا لم يكن معناه أن الإسلاميين سيشغلون الفراغ الذى أوجده انهيار القومية العلمانية. ولو كان هناك بديل سياسى لليسار قادر على أن يقود نضال الطبقة العاملة فإنه كان الأحزاب الشيوعية المختلفة الموجودة فى المنطقة.

فشل الأحزاب الشيوعية

فى السنوات العشرين اللاحقة للحرب العالمية الثانية، اجتاحت حركات جماهيرية الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. ففى ثلاثة بلدان - مصر وإيران والعراق - لعبت الطبقات العاملة دوراً هاماً فى التعبئة الجماهيرية. وفى سياق تصاعد النضال الطبقى، نُحيت جانباً الانقسامات الدينية والطائفية، وشهدت أحزاب الإسلام السياسى تضاؤل نفوذها (١٤). وإضافة إلى ذلك، فى بلدان مثل لبنان وسوريا والسودان، لعبت الأحزاب الشيوعية دوراً هاماً فى قيادة كفاح الطلبة والفلاحين والعمال (١٥).

ورغم هذه النجاحات، كان تقيّد الأحزاب الشيوعية بالسياسة الستالينية يشكل عائقاً شديداً لها (١٦). فقد تذبذبت بشأن مسائل هامة. فعندما أعلن الاتحاد السوفييتى تأييده لخطة الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين، أيدت الأحزاب الشيوعية تلك الخطة رغم المعارضة الشعبية الهائلة لها فى العالم العربى. وعندما غيّر الاتحاد السوفييتى موقفه وانقلب ضد إسرائيل، حذت الأحزاب الشيوعية حذوه ببساطة.

وتقلبت تلك الأحزاب أيضًا ما بين تأييد الأحزاب القومية ومعارضتها مع تقلّب السياسات السوفييتية فى هذا الصدد. وبعد الحرب العالمية الثانية، ومع بدء الحرب الباردة، نصح الاتحاد السوفييتى الأحزاب الشيوعية العربية بقطع تحالفات الجبهة الشعبية مع الجماعات القومية البورجوازية وبتأكيد استقلاليتها. وفى الممارسة العملية، كان هذا معناه معارضة القومية العربية الراديكالية، التى كانت تحظى بشعبية هائلة. واتخذت الأحزاب الشيوعية موقفًا ضد الناصرية والبعثية [١٧]. ففى الجزائر، أيد الحزب الشيوعى إدماج الجموع الجزائرية فى الحياة الفرنسية، مما جعله على الجانب المعاكس للنضال فى سبيل التحرر الوطنى الذى قادته جبهة التحرير الوطنى[١٨].

وفى ستينيات القرن الماضى، غيّرت الأحزاب الشيوعية موقفها مرة أخرى كى تتوافق مع التوجيهات السوفييتية. وأصدرت الأحزاب الشيوعية فى سوريا ولبنان والعراق والأردن بيانًا مشتركًا فى عام ١٩٦٤ يدعو إلى " توثيق عُرى الوحدة والتعاون بين جميع الاتجاهات الوطنية والديمقراطية و ... جميع القوى الوطنية لحركة التحرير العربية"[١٩]. وفى الممارسة العملية، كان هذا معناه إعلان الحزب الشيوعى السورى أن حزب البعث هو إحدى " القوى الثورية الأساسية". ثم انضم الشيوعيون السوريون للنظام وتخلوا عن كل استقلالهم السياسى. كذلك، انضم الحزب الشيوعى العراقى إلى حزب البعث، وانضم، بالتبعية، إلى الحرب ضد الأكراد وقمع المسلمين الشيعة[٢٠]. وأدت هذه التحولات الكارثية جميعها إلى إنهاء مشروعية الأحزاب الشيوعية فى أعين الناس الذين اتجهوا يومًا ما إليها التماسًا للقيادة. وإضافة إلى ذلك، فإن دعم تلك الأحزاب غير الانتقادى لمختلف الأحزاب والأنظمة القومية " الثورية" كان معناه أن القومية الراديكالية عندما تراجعت فإن الأحزاب الشيوعية تعرضت أيضًا لفقدان مصداقيتها. وكما يقول فيل مارشال، " بحلول أواخر ستينيات القرن الماضى أدت الاستراتيجية الشيوعية إلى إخلاء الشرق الأوسط من أى بديل علمانى متسق للقومية، وفعلت ذلك فى وقت كانت فيه المنطقة توشك أن تدخل فى

مـرحلة عـدم اسـتـقـرار مـتـزايـد. وقـد تـرك هـذا السـكان فى حـالـة خـيـبـة أمـل متزايـدة ولا يجدون أى مرجعيـة للتغيير، وأوجد حيّزًا سياسيًا سرعان ما بدأ النشطاء الدينيون يشغلونه " (٢١).

الأزمة الاقتصادية والأساس الطبقى للتأسلم

إضافة إلى الأزمة السياسية للقومية العلمانية، شهدت سبعينيات القرن العشرين نشوء أزمـات اقتصـادية كـانت النظم الاقتصـادية الرأسمـالية الحكومـية عـاجزة عن التعامل معها بفعالية. وعلاوة على ذلك، كان التحول إلى الليبرالية الجديدة ووضع برامج صندوق النقد الدولى بشأن التكيف الهيكلى فى دول شتى معناهما تدهور برامج الرعاية الاجتماعية. وهنا استطاعت منظمات الإسلاميين بشبكاتها الخيرية الهائلة أن تحقق توغلات. ويمكن فهم العوامل الدينامية هنا على النحو التالى:

نتيجة للتكيف الهيكلى، تراجعت قدرة الدولة على أن تمثل البديل لحركات المعارضة، وتزايد اقتصار الخدمات على المناطق التى تعيش فيها الطبقة الوسطى الحضرية والتى تعيش فيها النخبة. وحدث استقطاب فى توزيعات الدخل. وكان التكيف الهيكلى معناه أن الدول غير قادرة على توفير مستويات الخدمات التى كانت راسخة فى السابق أو على كفالة إمدادات كافية من السلع. ... وأتاح الفراغ السياسى والأخلاقى فرصًا كبيرة اغتنمها الإسلاميون، الذين أقاموا قاعدة اجتماعية لهم بعرض الخدمات التى فشلت الدول المختلفة فى تقديمها(٢٢).

وكانت العناصر الرئيسية التى انضمت إلى التيار الإسلامى فى أوائل سبعينيات القرن الماضى هى الشباب الحضرى المتعلم. ففى خلال الفترة ما بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٧٠ بلغ معدل النمو السكانى فى البلدان التى يمثل فيها المسلمون أغلبية ٥٠ فى المائة(٢٣)، وبحلول عام ١٩٧٥، ومع نمو الزحف الحضرى ومعرفة القراءة والكتابة باطراد، كانت نسبة قدرها ٦٠ فى المائة من السكان دون سن الرابعة والعشرين. وبينما كان هؤلاء الشباب، ومعظمهم ينحدرون من أسر كانت قد انتقلت حديثًا إلى

المدن، قد أتيح لهم الحصول على تعليم بفضل الإصلاحات التى أدخلها القوميون العلمانيون، فإن الفرص المتاحة لهم للتقدم اقتصاديا كانت قليلة. وفى بعض الحالات، كانت الدول تعرض فرص عمل على الخريجين الجدد وكانت قادرة على استيعاب عدد منهم فى أدوار كبيروقراطيين حكوميين. بيد أن هذا السبيل أصبح هو نفسه واهيًا لأن سياسات صندوق النقد الدولى الخاصة بتحرير الاقتصاد وإجراء تخفيضات فى الدعم الحكومى فى بلدان من قبيل مصر والجزائر أدت إلى تخفيض مرتبات البيروقراطيين المثقفين، الذين أصبح لزامًا عليهم عندئذ العثور على فرص عمل إضافية كسائقى سيارات أجرة أو كحرّاس ليليين كى يبقوا على قيد الحياة[٢٤].

وأدى الإحساس بالإحباط والاستياء السياسى الذى نجم عن هذا الوضع إلى دفع الطلاب صوب إيديولوجيات الإسلاميين. وبينما كان بعضهم قد انجذب سابقًا إلى القومية والشيوعية، فإن فشل هاتين الإيديولوجيتين، إلى جانب المحنة الاقتصادية، دفعهم فى اتجاه التأسلم. وكان عدد كبير من هؤلاء المثقفين الشباب، الذين تلقوا تعليمهم فى مدارس حكومية تدرِّس منهجًا غربيًا، يمثلون التخصصات العلمية (وبالذات الهندسة) أو تلقوا تعليمهم فى مدارس تدريب المعلمين[٢٥]، وكان الإسلامى النمطى فى تلك الحقبة هو المهندس المولود فى وقت ما من خمسينيات القرن العشرين الذى كان والداه من الريف[٢٦]، فقد تلقى قلب الدين حكمتيار، وهو زعيم فصيل من المجاهدين الأفغان محافظ بدرجة مغالية، تدريبه كمهندس؛ وكان حسين حاشانى، الناطق باسم جبهة الإنقاذ الإسلامية الجزائرية فى عام ١٩٩١، مهندس بترول؛ وكان أيمن الظواهرى الذى ينتمى إلى القاعدة قد تلقى تدريبه كطبيب.

وكانت هذه القيادة الفكرية لديها، لهذا السبب، نظرة حديثة وحضرية للعالم. ومن ثم، فإن صعود الإسلام السياسى المعاصر لا يمثل عودة نشوء حرب صليبية لرجال الدين تنتمى إلى القرون الوسطى ضد الحداثة بل كان ظاهرة حضرية حديثة وُلدت من رحم الأزمات التى أوجدتها الرأسمالية[٢٧]، وكما يصور كريس هيرمان الأمر، " لقد نشأ التأسلم فى مجتمعات كانت مصدومة بفعل أثر

الرأسمالية، أولاً فى شكل غزو خارجى من الإمبريالية ثم، بدرجة متزايدة، بفعل التحول الذى حدث فى العلاقات الاجتماعية الداخلية المصحوب بنشوء طبقة رأسمالية محلية وتكوُّن دولة مستقلة"[٢٨].

وبينما أصبح الشباب الحضرى المتعلم هم كوادر الحركة الإسلامية المنبثقة حديثًا، اتجهت أيضًا الطبقات الأخرى التى كانت مهددة بالتحديث الرأسمالى صوب التأسلم. وكان من أبرز تلك الطبقات شرائح الطبقة الوسطى المتدينة، التى تمثل ركيزة أخرى من ركائز الحركة الإسلامية. وكان قسم من كتلة الطبقة الوسطى هذه يتكون من أبناء طبقات تجّار الأسواق؛ وكان قسم آخر يتكون من المهنيين محدثى النعمة، الذين أصبحوا متخمين بالثروة من عملهم فى البلدان المنتجة للنفط[٢٩]. وقد موّل النظام المصرفى والمالى الإسلامى الدولى، برئاسة المملكة العربية السعودية، على النحو الذى وردت مناقشته فى الفصل الرابع، مصالح قاعدة الطبقة الوسطى هذه وعززها.

وإذا كان الشباب الحضرى المتعلم وأفراد الطبقة الوسطى المتدينون هم القوى الرئيسية التى تقف وراء التأسلم، فإن طبقات أخرى تدعمهم أيضًا. وفى بعض الأحيان، فى بلدان من قبيل مصر وإيران وتركيا وباكستان، كانت هاتان الطبقتان تتلقيان دعمًا وتمويلاً من الطبقات التى تملك أرضًا والتى تناقص نفوذها على يد القوميين [٣٠]. وفى بعض الأحيان كانتا تتلقيان أيضا مساندة من الطبقة البورجوازية الكبيرة.

وفى ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضى، حقق الإسلاميون تقدمًا فى صفوف طبقة أخرى، هى طبقة الفقراء فقرًا شديداً. وتشمل هذه الفئة اللاجئين الذين انخفضت منزلتهم وسكان الأحياء الفقيرة الحضرية، وكذلك أولئك الذين تعرضوا للقمع والاستغلال على مر التاريخ بسبب دينهم. فعلى سبيل المثال، جنّدت حركة حماس بإفراط عناصر من مخيمات اللاجئين التى أوجدتها إسرائيل، وبينما تحظى بدعم رجال الأعمال، والطبقة الوسطى، والتجار، والأثرياء، فإن قيادتها وكوادرها

مستمدة إلى حد كبير من مخيمات اللاجئين [٣١]. وهذا يصدق أيضًا على حزب الله، الذى يمثل عماده الرئيسى فقراء الشيعة فى ضواحى المدن الكبرى مثل بيروت، فى ما يُعرف باسم " حزام البؤس". كذلك، يستمد أنصار مقتدى الصدر فى العراق، الآن وفى تسعينيات القرن الماضى أيضًا، قدرًا كبيرًا من دعمهم وقوتهم من ضواحى مدينة الصدر الفقيرة.

والطبقة الوسطى المتدينة، التى تحظى أحيانًا بمساندة شرائح أخرى فى المجتمع، تكون عادةً أكثر محافظة فى توجهها وتشكل الجناح الإسلامى " المعتدل". وبينما يتشاطر أفراد هذه الطبقة الرؤية المتعلقة بإقامة دولة إسلامية، فإنهم يفضلون القيام بذلك فى ظل ظروف الاستقرار الاجتماعى التى تعزز مصالحهم الاقتصادية. ومن الناحية الأخرى، يكون الشباب الحضريون الذين أُزيحوا من الطبقة الوسطى بسبب انعدام الفرص أمامهم منفتحين عادة للأساليب القائمة على المواجهة والعنف بدرجة أكبر؛ وهم يشكلون الجناح " الراديكالي" للحركة الإسلامية. وفى بعض الأحيان تعاونت هاتان المجموعتان فيما بينهما؛ وفى أحيان أخرى شقت كل منهما طريقًا خاصًا بها.

وعادةً، ينادى المعتدلون بأسلمة المجتمع من أسفل إلى أعلى عن طريق استخدام استراتيجيات من قبيل الوعظ والشبكات الاجتماعية والخيرية. وهم يسعون أيضًا إلى الضغط على القادة السياسيين ولديهم استعداد للدخول فى تحالفات سياسية للترويج للأسلمة من أعلى. وهم مستعدون فى بعض الأحيان للتمرد، ولكن فقط عندما تُستنفد جميع أساليب الاحتجاج السلمية. أما الراديكاليون فهم يدعون إلى مفهوم للثورة، يتمثل فى الإطاحة بالقوة بالنظام السياسى القائم وإحلال نظام مختلف محله اختلافًا جذريًا [٣٢]. وفى بعض الأحيان يتحول أولئك الذين يبدؤون كمعتدلين إلى راديكاليين فى سياق الاضطهاد السياسى. وهكذا، اتجه سيد قطب، المنظِّر الإسلامى الواسع النفوذ الذى كان ينتمى إلى حركة الإخوان المسلمين المعتدلين، اتجاهًا راديكاليًا فى عام ١٩٥٤ بعد سجنه وتعذيبه على يد حكومة ناصر.

وهذه التقلبات تتسم بها عادة الحركات التى تقودها البورجوازية الصغيرة لأن تلك البورجوازية، كطبقة، تفتقر إلى الثقل الاجتماعى اللازم لإحداث تغييرات سياسية واقتصادية فعالة. وكثيراً ما يوجه الإسلاميون، فى سياق أزمة اقتصادية، نداءات غامضة مناهضة للرأسمالية ومضادة للفقر والجشع ويمزجونها بهجمات على " القيم الغربية" والإمبريالية. إلا أن هذه ليست، فى حقيقة الأمر، عقيدة مناهضة للرأسمالية. فالإسلاميون هم عملياً، مع استثناءات قليلة، دعاة للرأسمالية والليبرالية الجديدة بقوة ولذا لا يمكنهم تقديم حلول حقيقية للناس الذين يتجهون إليهم كبديل سياسى.

وإيجازاً، فقد أرسى تلاقى عدة تطورات سياسية واقتصادية فى أواخر ستينيات وأوائل سبعينيات القرن المنصرم الأساس لنمو الإسلام السياسى.

الإسلام السياسى: مآلات متفاوتة

لقد استطاعت أحزاب الإسلام السياسى على مدى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين وفى أوائل الألفية الجديدة أن تتقدم وأن تفرض نفسها كجهات فاعلة على الساحة السياسية. وشهد كل من الجناح المعتدل والجناح الراديكالى نجاحات وشهد أيضاً نكسات وهزائم. فعلى سبيل المثال، بعد أن هزم المجاهدون الأفغان السوفييت فى أواخر عام ١٩٨٩، اكتسبت سياسة الإسلام الراديكالى العنيف مشروعية. ومع ذلك، عندما عاد " العرب الأفغان"، كما يُطلق عليهم، إلى أوطانهم ونفذوا برنامجاً يتسم بالعنف، مثلما حدث فى الجزائر ومصر فى تسعينيات القرن الماضى، فإن مصداقيتهم تراجعت تراجعا كبيراً فى كلا السياقين.

كذلك، تعرّض النهج الانتخابى لنكسة فى عام ١٩٩٢، عندما لم يُسمح لجبهة الإنقاذ الإسلامية فى الجزائر بأن تحكم بعد فوزها فى الانتخابات. وقد استمر هذا النمط فى تركيا عام ١٩٩٧، عندما أزاح الجيش الإسلاميين من السلطة. ولكن فى عام ٢٠٠٢ استطاع حزب العدالة والتنمية أن يفوز فى الانتخابات وأن يبقى فى

السلطة، وهو أمر لا يدعو إلى الدهشة بالنظر إلى أنه موالٍ لحلف شمال الأطلنطى (الناتو)، وموالٍ للولايات المتحدة، وموالٍ لليبراليين الجدد [٣٣]. ولهذه الأسباب، قيل إن ذلك الحزب يمثل نموذجًا يمكن أن يحاكيه الإسلاميون الآخرون. وفى عام ٢٠٠٦، حققت حركة حماس نصرا انتخابيا.

ومن المرجح أن يستمر هذا النمط من الصعود والتراجع إلى أن يثبت بديل يسارى نفسه ويوقف هذا الحراك الدينامى. وباستطاعة الإسلاميين أن يستغلوا أوجه القلق الحقيقية وأوجه انعدام الأمن الاقتصادى التى تواجهها الأغلبية الساحقة من الناس. فشبكاتهم الخيرية، الممولة بالدولارات النفطية، تتيح غوثًا حقيقيًا ما لأولئك الذين دمّرت الليبرالية الجديدة والإمبريالية حياتهم. إلا أنهم لا توجد لديهم حلول حقيقية للأزمات المتوطنة فى الرأسمالية. فهم يتخبطون حالما يصبحون فى مواقع السلطة، ويجدون أنفسهم عاجزين عن منع اندلاع العنف والفوضى على يد عناصر أكثر راديكالية عاقدة العزم على تخليص مجتمعاتها من التأثيرات " غير الورعة". فقوانينهم وتعاليمهم الطهرانية تُبعد نفس الأشخاص الذين كانوا يساندونهم يوما ما، مما يمهد الطريق لتراجعهم.

والحركات السياسية التى تقودها الطبقات الوسطى لا يمكن أن تقدم حلولاً حقيقية للمشاكل التى تواجهها الأغلبية الساحقة. فكما يقول هيرمان،

> **إن التأسلم، من ثم، يحشد المرارة الشعبية ويشلها على حد سواء؛ ويعزز إحساس الناس بوجوب القيام بشىء ما ثم يوجه تلك المشاعر إلى ممرات مظلمة؛ ويزعزع استقرار الدولة ويقيد فى الوقت نفسه النضال الحقيقى ضد الدولة. وطابع التناقض الذى يتسم به التأسلم ينبع من القاعدة الطبقية لكوادره الأساسية. فالبورجوازية الصغيرة لا يمكن، كطبقة، أن تتبع سياسة متسقة ومستقلة خاصة بها. وكان هذا يصدق دومًا على البورجوازية الصغيرة التقليدية – أى صغار أصحاب المتاجر والتجار والحرفيين الذين يعملون لحسابهم الخاص. فهذه الطبقات كانت ممزقة دائمًا ما بين توق محافظ إلى الأمن يتطلع إلى الماضى وأمل فى أنها ستستفيد قريبا من تغيير جذرى. وهذا يصدق أيضًا على الطبقة الوسطى الجديدة التى أصبحت فقيرة**

– أو حتى الطبقة الوسطى الجديدة التى ستصبح أكثر فقرًا المكونة من الطلبة سابقًا غير العاملين – فى البلدان التى أصبحت الآن أقل تقدمًا من الناحية الاقتصادية (٢٤).

وقد كان لهذه التناقضات أثرها فى مصر والجزائر وإيران والسودان وفى أماكن أخرى، بحيث كشفت عن إفلاس سياسة الإسلاميين. ولكن حتى بينما بدأ الإسلاميون فى هذه البلدان يفقدون مصداقيتهم، بدأ أقرانهم فى لبنان وفلسطين المحتلة والعراق عملية صعود. وإيجازًا، من تسعينيات القرن الماضى إلى أوائل العقد الأول من القرن الحادى والعشرين، كان هناك حراك دينامى تناقضى يتمثل فى التراجع والصعود. وهذا الحراك الدينامى من المرجح أن يستمر فى المستقبل إلى أن يُقام بديل سياسى حقيقى يمثله الجناح اليسارى.

والانتفاضات وحركات التعبئة الجماهيرية التى اجتاحت الشرق الأوسط وشمال أفريقيا فى عام ٢٠١١ عززت اليسار الموجود حاليًا وأتاحت حيزًا يمكن أن يولد منه يسار جديد يملك مقومات البقاء على هذا النحو. فهذه النضالات سددت ضربة لحجة الإسلاميين الراديكاليين القائلة بأن أعمال الإرهاب التى يقوم بها أفراد وتقوم بها خلايا صغيرة ضرورية لتخليص مجتمعات المسلمين من القادة الموالين للإمبريالية، وأن تفرض بدلا من ذلك على الخريطة نموذجا مختلفًا للتغيير الاجتماعى. وقد أظهرت مصر وتونس أن التجمعات والمظاهرات الجماهيرية غير الطائفية يمكن أن تنجح فى الإطاحة بالديكتاتوريين. وفى الوقت نفسه، فضحت تصرفات الإخوان المسلمين الانتهازية والمضادة للثورة منذ سقوط مبارك فى مصر أوجه قصور الجناح المعتدل نفسه من الإسلام السياسى.

وفى السنوات المقبلة، لا شك فى أن يسارًا جديدًا سيبدأ فى الظهور. ولكن الإسلاميين سيظلون عناصر فاعلة على المسرح السياسى لفترة من الوقت؛ ولذا من الضرورى بالنسبة للتقدميين أن تكون لديهم وسيلة لتقييم هذه الأحزاب وتقييم أفعالها. وهذا معناه أن من الضرورى ومن المهم، قبل أن نتطرق إلى جناحى

الإمبريالية فى الولايات المتحدة وتقييمهما للإسلام السياسى، أن نبيّن إطارًا بديلاً مناهضًا للإمبريالية.

الإسلام السياسى في إطار مناهض للإمبريالية

تواصل الولايات المتحدة تأكيد سيطرتها فى مختلف أنحاء العالم على الرغم من النكسات التى تعرضت لها فى العراق وأفغانستان وعلى الرغم من نشوء منافسين لها من قبيل الصين فى عالم تتزايد فيه تعددية القطبية. وهى تفعل ذلك اقتصاديًا من خلال مؤسسات مثل صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى، ومنظمة التجارة العالمية، وتفعل ذلك سياسيًا من خلال الحكّام المحليين الطيعين، وتفعل ذلك عسكريًا من خلال الحروب الجوية، وشن الهجمات بواسطة طائرات بدون طيار، والعمليات الخاصة. وفى هذا السياق، يجب أن يتخذ مناهضو الإمبريالية موقفًا قائمًا على مبدأ مضاد للإمبريالية وأن يدعموا حق الشعوب المقموعة فى تقرير المصير.

ومن الناحية الملموسة، يعنى هذا التضامن مع القوى المناهضة للإمبريالية تقديم دعم هام فى بعض الأحيان للأطراف التى تتزعم هذا النضال: أى للإسلاميين. فالإسلاميون، عندما ينظمون قواهم ضد الإمبريالية والقمع، يستحقون فى بعض الأحيان دعمًا بالغ الأهمية ومشروطًا من اليسار. وقد كانت مقاومة حزب الله لغزو إسرائيل للبنان فى عام ٢٠٠٦ بدعم من الولايات المتحدة هى لحظة من هذا القبيل. فهذه المقاومة ينبغى الدفاع عنها على أساس حق الشعوب فى تقرير المصير. فغزو لبنان كان عملاً من أعمال العدوان الإمبريالى من شأنه أن يعزز مآرب الولايات المتحدة وإسرائيل. وقد سدد حزب الله، مدعومًا على نطاق واسع من اللبنانيين من كافة الخلفيات الدينية، ضربة لهذه المآرب عندما أجبر قوات جيش الدفاع الإسرائيلى على الانسحاب عسكريًا. وهذا يمثل خطوة إلى الإمام ليس فحسب لأنه يعزز حق تقرير المصير بل أيضًا لأن أى كفاح يُضعف المشروع الاستعمارى الصهيونى ويضعف بالتالى الولايات المتحدة – كبرى قوى العالم الإمبريالية وأفضلها تسلحًا

وأكثرها عنفًا - يمثل نصرًا للناس العاديين فى المنطقة وفى مختلف أنحاء العالم. إلا أن هذا لا يعنى أن اليسار ملزم بأن يؤيد حزب الله فى سعيه من أجل السلطة السياسية، من قبيل عمليته العسكرية فى بيروت فى مايو ٢٠٠٨، وبينما ينبغى أن ندافع عن حق حزب الله فى التمسك بأسلحته ضد نظام عميل تسانده الولايات المتحدة وضد إسرائيل، وحقه فى الاعتراض على الانتخابات والمطالبة بإدخال تعديلات على نظام لبنان السياسى الطائفى؛ ليس علينا التزام بأن نؤيد الأساليب المعينة التى يستخدمها لتحقيق هذه الأهداف، وينبغى ألا نتغاضى عن آرائه الرجعية بشأن المرأة والمثليين والمثليات، وبشأن مسائل هامة أخرى.

كذلك، يستحق كفاح حماس ضد الصهيونية دعمًا، وبخاصة عندما تحظى بمساندة الشعب الفلسطينى. وهذا ينبع من إدراك أن مقاومة شعب مستعمَر، أيًا كان شكل تلك المقاومة، ينبغى تأييدها، وبخاصة عندما تكون بدائل اليسار قد فقدت مصداقيتها. (لم ينشأ الدعم الشعبى لحماس إلا اقترانًا بخيانات اليسار العلمانى.) وعلاوة على ذلك، فإن حماس الموجودة الآن ليست هى نفس المنظمة التى كانت موجودة فى عام ١٩٨٧، فقد مرت بتحولات كثيرة استجابة للتحديات المعاصرة المتمثلة فى مكافحة العنصرية والإمبريالية. ومن بين هذه التحولات التخفيف من غلواء طموحاتها الإسلامية وتشديدها فى مقابل ذلك على سياستها القومية. وقد قال خالد خروب، أحد أوثق مراقبى الحركة السياسيين، فى عام ٢٠٠٠:

> **لقد تضاءلت كثافة خطاب حماس المذهبى منذ منتصف تسعينيات القرن الماضى. وأصبحت إشارات زعمائها إلى ميثاقها [وثيقتها التأسيسية الصادرة عام ١٩٨٧] نادرة، إن وُجدت على الإطلاق. وأصبحت أدبيات حماس وبياناتها والرموز التى تستخدمها تركز أكثر فأكثر على فكرة أن المشكلة الأساسية هى القضية المتعددة الأبعاد المتمثلة فى اغتصاب الأرض الفلسطينية وأن المسألة الأساسية هى كيفية وضع نهاية للاحتلال. واكتسبت فكرة تحرير فلسطين أهمية أكبر من أهمية الجانب الإسلامى العام (٣٥).**

وبحلول عام ٢٠٠٦، وبانتصار حماس فى انتخابات يناير، بلغ هذا المسار مستوى جعل خروب وغيره من المعلقين يتساءلون عن حق عما إذا كانت الحركة هى نفس تلك التى بدأت فى أواخر ثمانينيات القرن الماضى. إلا أن هذا ليس معناه أن حماسًا قد تخلت عن سياستها الرجعية. فهى ما زالت، مع أنها رشحت إناثًا فى انتخابات عام ٢٠٠٦، تنادى بالفصل بين الجنسين فضلاً عن أفكار عتيقة من قبيل أن المرأة مكانها البيت. وينبغى ألا يقلل اليسار من شأن هذه الفروق. وإيجازًا، من الضرورى إجراء تحليل ملموس لسياسة واستراتيجيات منظمات الإسلاميين قبل الإعلان عن موقف تأييد أو شجب لها (٣٦).

وإضافة إلى ذلك، ينبغى أن يتمسك اليسار بالحقوق الديمقراطية الأساسية وأن يدعم حق حماس فى الاستيلاء على السلطة السياسية بعد انتخابها من قبَل الشعب الفلسطينى فى انتخابات حرة ونزيهة. وبناء على ذلك، ينبغى أن نعارض محاولات الولايات المتحدة وإسرائيل عزل حماس ومعاقبة شعب غزة معاقبة جماعية. وثمة جانب فى المعادلة هو أيضًا الاعتبار المتمثل فى أن السماح لحماس بأن تحكم دون عائق من شأنه أن يبيّن أنها، مثل الأحزاب الإسلامية الأخرى فى السلطة، لا تملك حقًا حلاً للمشاكل التى يواجهها الشعب الفلسطينى. ومن الممكن عندئذ أن يملأ هذا الفراغ يسار علمانى ملتزم باستراتيجيات أكثر فعالية من أجل التحرر يمكن أن تربط النضال الفلسطينى بنضال العمال العرب والمقموعين فى مختلف أنحاء المنطقة، بصرف النظر عن الانتماء الدينى.

وقد تغيّر الوضع فى العراق وهو تحت الاحتلال الأمريكى بمرور الوقت. فإبان المراحل الأولى من المقاومة، كان الشيعة والسنة على حد سواء ضالعين فى الكفاح، وكان احتمال وجود حركة تحرير وطنى متحدة هو احتمال ينطوى على إمكانات. وكانت ذروة هذا الكفاح المتحد هى التضامن الذى أبداه الشيعة عندما هوجم المقاتلون السنّة فى الفلوجة. وحتى عام ٢٠٠٥، كان مقتدى الصدر يحظى بدعم قطاعات من السكان السنة، وكانت توجد فى العراق بدايات كفاح غير طائفى حقيقى فى سبيل

التحرر الوطنى [٣٧]، ولكن بعد ذلك تدهور الوضع وتفشّت الطائفية. وقامت جميع القوى الضالعة فى حركة المقاومة بذبح وتشريد مدنيين أبرياء بلا رحمة. وبدأت أيضًا القوى السنية تتعاون مع الولايات المتحدة من خلال ما يسمى مجالس الصحوة. وفى هذه الحالات، التى تتحول فيها المقاومة إلى عنف طائفى وإلى عقد صفقات مع الإمبريالية، من الخطأ تقديم الدعم لهذه القوى. ومع أنه من المهم اتخاذ موقف الدفاع عن الحق فى تقرير المصير، لا يعنى هذا تلقائيًا دعم القوى والجماعات التى تقاتل ميدانيًا فى جميع الأوقات.

ويصدق الشىء نفسه على أفغانستان. إذ يجب على اليساريين أن يدعموا حق الشعب الأفغانى فى تقرير المصير وأن يعارضوا بالتالى الاحتلال الأمريكى. ولكن طالبان، التى تقود النضال ضد احتلال الولايات المتحدة/الناتو، ليست حركة تحرير وطنى حقيقية ولا هى قوة مناهضة للإمبريالية. فطالبان التى يمثل قاعدتها الباشتون، الذين يشكلون نحو ٤٠ فى المائة من الشعب الأفغانى، هى منظمة طائفية لا تحظى بشعبية كبيرة تتجاوز هذه الفئة العرقية. وتفسيرها الضيّق والمتشدد للإسلام، وهو تفسير يحبّذ الممارسات الثقافية الخاصة بالباشتون، ليس لديه الكثير الذى يمكن أن يقدمه للطاجيك والهزار والأوزبك، والأقليات العرقية الأخرى. وفى حقيقة الأمر، يبدو أن غير الباشتون يفضلون الولايات المتحدة على طالبان [٣٨]. ومن ثم، فإن احتمال بناء طالبان نضالاً حقيقيًا فى سبيل التحرر الوطنى يجمع كل شعب أفغانستان هو احتمال ليس من المرجح إلى حد شديد أن يتحقق.

وحتى فى أوساط الباشتون أنفسهم كان هناك استياء عام من سياسة طالبان الرجعية، حتى أن هذه الشريحة من المجتمع الأفغانى رحبت أيضًا بالولايات المتحدة فى بداية الحرب فى عام ٢٠٠١، بيد أن الدمار وحالة الخروج على القانون التى أوجدها المحتلون وحليفهم، الحلف الشمالى، دفعا المزارعين الباشتون والعمال الريفيين الذين نزحوا إلى البدء فى التحول نحو طالبان. وأصبحت لدى طالبان الآن تشكيلة من

القوات مختلفة عن القوات التى انبثقت من الحرب الأفغانية - السوفييتية. إلا أن سياستها ما زالت رجعية.

وطالبان ليست أيضا قوة مناهضة للإمبريالية ذات مبدأ. فإضافة إلى استعدادها للتفاوض مع الولايات المتحدة فى تسعينيات القرن الماضى، توجد لطالبان أيضًا روابط وثيقة مع باكستان وتعمل فى بعض الأحيان كقناة للنفوذ الباكستانى فى أفغانستان. وكما نوقش من قبل، دعمت باكستان طالبان وأمدتها بأسباب البقاء، وحتى الآن يُبقى جهاز المخابرات العسكرية الباكستانى، وهو وكالة المخابرات المشتركة بين الأجهزة (ISI)، على روابط قوية مع طالبان الأفغانية [٣٩]. وفى منطقة دمرتها ثلاثة عقود من الحرب، واقتصادها يسيطر عليه إنتاج الأفيون وبيعه ويفتقر إلى الصناعة، لا بد حتما أن تفرض القوى السياسية التى تظهر على الساحة أجندات القوى الكبرى. والحلف الشمالى تسانده الهند والولايات المتحدة، وكانت طالبان وما زالت منفذ باكستان إلى السياسة الأفغانية. وإيجازًا، لا تمثل طالبان آمال الشعب الأفغانى فى التحرر الوطنى. ولهذه الأسباب جميعها، لا يوجد لدى التقدميين ما يدعوهم إلى تقديم دعمهم، حتى من النوع البالغ الأهمية، لطالبان.

وبوجه عام، قد يكافح الإسلاميون ضد الإمبريالية، ولكنهم ليسوا مناهضين للامبريالية عن مبدأ. فإذا تطلعنا إلى الأمثلة التاريخية، بوسعنا أن نجد حالات نظَّم فيها الإسلاميون قواهم ضد الإمبريالية وحالات أخرى تعاونوا فيها مع القوى الإمبريالية. فعلى سبيل المثال، كان رجل الدين السنى الراديكالى عز الدين القسام شخصية قيادية فى ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩ ضد السيطرة البريطانية على فلسطين، وأعطت تلك الثورة زخمًا للإسلاميين الراديكاليين [٤٠]، واتخذت جماعة الإخوان المسلمين فى مصر، رغم هدفها الأصلى أن تكون جماعة غير سياسية، موقفًا مناهضًا للإمبريالية ونظّمت قواها ضد البريطانيين. كذلك، فى إيران بعد عام ١٩٧٩، سدد خومينى، وهو على رأس الثورة التى عزلت الشاه المدعوم من الولايات المتحدة، ضربة لنفوذ الولايات المتحدة فى المنطقة. وبعبارة أخرى، يجد الأصوليون

الإسلاميون أنفسهم فى بعض الأحيان فى حالات يتعين عليهم فيها أن ينظموا قواهم ضد القوى الإمبريالية.

ولكننا نجد فى الوقت نفسه أمثلة لتعاونهم وتآزرهم مع القوى الاستعمارية. ففى خمسينيات القرن الماضى، شارك خومينى، الذى اشتهر عنه استنكاره للولايات المتحدة بوصفها " الشيطان الأكبر"، فى مظاهرات ضد محمد مصدق نسقتها وكالة المخابرات المركزية؛ وأقام أستاذه علاقات وثيقة مع وكالة المخابرات المركزية وحصل على مبالغ كبيرة منها [٤١]. وعندما أرسلت الولايات المتحدة جنوداً إلى لبنان فى عام ١٩٥٨، وأرسلت بريطانيا جنوداً إلى الأردن، انضم الإخوان المسلمون الأردنيون إلى جانب الولايات المتحدة وبريطانيا للمساعدة على إخماد الانتفاضة القومية فى كلا البلدين. وإيجازاً، كثيراً ما تكون الجماعات الإسلامية كيانات تخدم أغراضها بدلا من أن تكون قوى مناهضة للإمبريالية عن مبدأ. ولذا ينبغى ألا نخطئ بتقديم تأييدنا لجميع الإسلاميين فى جميع الأوقات. وبدلا من ذلك، من اللازم إجراء تحليل تاريخى ملموس وإجراء تقييمات لكل حالة على حدة لتحديد متى يجب تقديم الدعم البالغ الأهمية لأحزاب الإسلام السياسى.

* * *

لقد أوضحت فى هذا الفصل الظروف التى أتاحت لأحزاب الإسلام السياسى أن تنجح. وما رأيناه هو أن الإسلام السياسى هو، على النقيض من التصوير الكاريكاتيرى للإسلاميين كرجال دين تنتمى عقليتهم إلى القرون الوسطى ويحتشدون ضد العالم الحديث، نتاج ظروف تاريخية محددة. وتشمل هذه الظروف فشل الحركات القومية العلمانية نتيجة لأوجه ضعفها الداخلي؛ وعجز الأحزاب الستالينية عن تقديم بديل فعال؛ ووجود أزمات اقتصادية فى بلدان شتى لم يكن من الممكن حلها من خلال الأساليب الرأسمالية الحكومية، وتفاقم الليبرالية الجديدة. ولكن يجب التشديد هنا مرة أخرى على أن الدول الإمبريالية، ولا سيما الولايات المتحدة، لعبت دوراً أساسياً فى

تعزيز أحزاب الإسلام السياسى وبالتالى فى إضعاف القوميين العلمانيين واليسار (على النحو الذى نوقش فى الفصل الرابع). وقد تآلفت هذه العوامل جميعها فى مراحل شتى لدفع التأسلم إلى المسرح العالمى.

واليوم، من السهل رؤية ويلات الإمبريالية والليبرالية الجديدة. فبينما فقد عشرات الآلاف من الأشخاص حياتهم فى احتلال العراق وأفغانستان بقيادة الولايات المتحدة، يعانى عدد إضافى من الأشخاص يقدر بالملايين من الحرمان اليومى فى ظل حرية السوق. ولكن ثمة إعادة تشكيل رئيسية للقوى تحدث فى المنطقة. فالقومية العلمانية، بجاذبيتها الجماهيرية الكبيرة، كانت قوة التغيير الدافعة الرئيسية فى المنطقة فى خمسينيات وستينيات القرن الماضى. وفى السبعينيات، بذلت الأنظمة العربية جهداً متضافراً لتحقيق استقرار المنطقة، وشمل ذلك دعم القوى " الإسلامية" ضد القوميين العلمانيين واليسار.

ويبدو أن الانتفاضات العربية التى حدثت فى عام ٢٠١١ تشير إلى خروج على الوضع الذى كان قائماً لمدة عقدين أو ثلاثة عقود. فالحركات الجماهيرية التى نشأت فى مختلف أنحاء المنطقة موجهة ضد الطغاة الذين حكموا مع إفلاتهم من العقاب. وهى أيضاً ثورات على النظم السياسية والاقتصادية التى تُعرف باسم الليبرالية الجديدة. وقد أثارت هذه الثورات تساؤلات جوهرية بشأن طابع توزيع الثروة، أى بشأن من يحكم، ولصالح من. ولا يمكن إيجاد حل حقيقى يجمع ما بين ضروب الكفاح ضد ويلات الرأسمالية والإمبريالية على حد سواء فى الشرق الأوسط وفى أماكن أخرى إلا بإعادة بناء اليسار. فكما يتضح من شتى أشكال النضال، بدءاً من باكستان وإيران ووصولا إلى سوريا وتونس ومصر، يجبر النظام الناس العاديين على الكفاح كرد فعل. وفى هذا السياق يمكن لليسار الموجود حالياً أن ينمو ويعزز قواعده ويمكن أن ينبثق يسار جديد. وهذا اليسار لا يمكنه فحسب أن يقدم نوعا مختلفا من القيادة ضد الإمبريالية بل يمكن أيضا أن ينظم قواه ضد أولويات الرأسمالية الليبرالية الجديدة والطبقات الحاكمة المحلية التى تستفيد منها. وهذا هو التحدى الذى تنطوى عليه الألفية الجديدة.

الفصل السابع

مؤسسة السياسة الخارجية و "التهديد الإسلامي"

فى سبتمبر ٢٠٠٠، أصدر مشروع مركز بحوث المحافظين الجدد من أجل قرن أمريكى جديد وثيقة تبيّن رؤيته للسياسة الخارجية. وقد دعت الوثيقة الولايات المتحدة إلى استخدام القوة العسكرية الساحقة للسيطرة على منطقة الخليج الفارسى ومن أجل " الحفاظ على هيمنة الولايات المتحدة على العالم ... وتشكيل النظام الأمنى الدولى على نحو يتماشى مع المبادئ والمصالح الأمريكية"(١)، وأضاف التقرير أن هذا الهدف سيستغرق تحقيقه بعض الوقت " فى حالة عدم وقوع حدث كارثى، حدث من قبيل بيرل هاربر جديد"(٢)، وفى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وقع ذلك الحدث، فى وقت كان فيه جناح المحافظين الجدد من أجنحة مؤسسة السياسة الخارجية يشغل مواقع ذات نفوذ فى رئاسة جورج دابليو بوش.

إلا أن ١١ سبتمبر أفرز اتفاقًا بالإجماع فى مؤسسة السياسة الخارجية على أن الحرب على الإرهاب ستشكل من ذلك الحين فصاعداً السياسة الخارجية للولايات المتحدة. إذ لم يكن رماد البرجين التوأم قد انطفأ حتى بدأت تصريحات مدوية، مفادها أن " الإرهابيين الإسلاميين" يمثلون تهديدات لوجود الولايات المتحدة، تتردد أصداؤها فى المجال العام. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، أصبحت سياسة الولايات المتحدة موجهة نحو " الإبقاء على أمان الأمريكيين" من " الأشرار" المسلمين. وهذه المزاعم تتبدد فى مواجهة الواقع، كما بيّن الفصل السابق، لأن منظمات الإسلاميين تنبثق عادةً من

الظروف المحلية وتركز على تلك الظروف. فما هو الذى يكمن إذًا وراء هذه الطنطنة النابعة من فوبيا الإسلام؟ والأجندة الكامنة وراء هذا التركيز على " التهديد الإسلامى" هى موضوع هذا الفصل.

ونبدأ برؤية المحافظين الجدد لعالم ما بعد الحرب الباردة، لأن هذا المنطق هو الذى كانت تهتدى به استجابة الولايات المتحدة لأحداث ١١ سبتمبر. وحتى على الرغم من أن الرئيس أوباما حذف عبارة " الحرب على الإرهاب" فى محاولة منه لإعادة تأهيل الإمبريالية الأمريكية بعد إخفاقات بوش، فإنه واصل مع ذلك سياسات حقبة بوش. ولذا نبدأ بقصة المحافظين الجدد وصعودهم إلى السلطة، مع التركيز على تحديد موضع هذا الاتجاه فى التفكير داخل مؤسسة السياسة الخارجية الأوسع نطاقًا. وبوجه عام، يوجد فصيلان فى مؤسسة تلك السياسة: فصيل المحافظين الجدد والمعسكر " الواقعى الذى يدعو إلى توازن القوى". وفى بعض الأحيان، كان هناك جدل بين هذين المعسكرين، وفى أحيان أخرى كانا يتعاونان. ولئن كانت توجد اختلافات فى الطنطنة وأحيانا فى الاستراتيجية، فإن فصيلى المحافظين الجدد والليبراليين/الواقعيين فى مؤسسة السياسة الخارجية متحدان فى التزامهما بمشروع الإمبريالية الأمريكية. ويوفر التهديد الشامل المتمثل فى " الإرهاب الإسلامى" غطاءً مفيدًا لهذه الطموحات الإمبريالية.

المحافظون الجُدد

لقد نُحت مصطلح " المحافظين الجدد" فى أوائل سبعينيات القرن الماضى على يد مايكل هارينجتون، المرتبط بالتراث الاشتراكى الديمقراطى فى الولايات المتحدة، كوسيلة لإبعاد الحلفاء السابقين (وبعضهم ليبراليون وغيرهم اشتراكيون) الذين بدؤوا ينجذبون إلى اليمين[٣]، وكانت من بين هؤلاء المحافظين الجدد شخصيات مثل إيرفنج كريستول، ونورمان بودهوريتز، وجين كيركباتريك، ومايكل نوفاك، وناثان جليزر،

ودانييل باتريك موينهان. ومعظم المنتمين إلى الجيل الأول من المحافظين الجدد كانوا يؤيدون حرب الولايات المتحدة مع فييتنام ويستنكرون الحركة المناهضة لتلك الحرب. وكانوا يعتبرون أنفسهم ليبراليين يؤمنون بفكرة أن أمريكا تمثل قوة من قوى الخير في العالم وأنها ينبغي أن تحافظ على الاستقرار العالمي وتتدخل عسكريا عند الحاجة. وكانوا يعارضون " الليبراليين الأشرار" الذين كانوا يناصرون سعي جورج ماكجوفيرن إلى الحصول على الرئاسة في عام ١٩٧٢، معتبرين أنهم يعملون وفقًا لسياسة " التهدئة" والإحساس بالذنب الليبرالي[٤]، وكان كثيرون منهم يعارضون أيضًا برنامج ليندون جونسون المسمى " المجتمع الكبير" للإصلاح الداخلي.

وترتكز رؤية المحافظين الجدد للامبريالية على فكرة الاستثنائية الأمريكية: "الإيمان السائد بفرادة المبادئ الليبرالية المؤسسة للبلد وبعدم إمكانية محاكاتها وبتفوقها، المصحوب بقناعة بأن الولايات المتحدة كُتب عليها مصير خاص بين الأمم"[٥]. وهذه الرؤية للولايات المتحدة " كمنارة فريدة للأمم الأخرى" بسبب قيمها الليبرالية مسلّم بها داخل مؤسسة السياسة الأمريكية ككل[٦]، ولكن الشيء المختلف فيما يتعلق بالمحافظين الجدد هو التزامهم المنفرد بالقطبية الأحادية وبالنزعة العسكرية: فكما يقول داني كوبر، المحافظون الجدد " لم يكن سيصبح لهم شأن لولا استمرار إيمانهم بأن الهيمنة العسكرية الأمريكية الساحقة هي وحدها التي يمكن أن تحول دون اندلاع حرب بين الدول الكبرى ... [و] أن الحدود الدولية المتعددة الأقطاب تفضي إلى حرب بين الدول الكبرى." وإيجازًا، ما يحدد معالم المحافظين الجدد هو فكرة عالم أحادي القطبية تسيطر عليه الولايات المتحدة، وهو أمر يعتقدون أنه في صالح الجميع؛ و"الهيمنة العسكرية الأمريكية هي في صالح أمريكا، وهي في صالح العالم" [٧].

ويترتب على ذلك بالتبعية أنهم توصلوا إلى استنتاجات مختلفة عن الليبراليين بشأن دور الولايات المتحدة في العالم بعد هزيمتها في فييتنام. فكما يقول جاري دورين، الإمبريالية الليبرالية التي كانت سائدة في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي " جمعت ما بين التزام دولي ليبرالي إزاء الأمم المتحدة والقانون الدولي

وواقعية توازن القوى فى الدبلوماسية وبُغض إيديولوجى للشيوعية"[٨]، فبعد فييتنام تراجع الليبراليون فى عهد الحرب الباردة عن المواجهة والتدخل، وهو موقف رأى المحافظون الجدد أنه ضعيف. فبالنسبة لهم، كان أى استيعاب للمعسكر السوفييتى يمثل استسلامًا للعدو باسم الواقعية. وكانوا ينادون، بدلا من ذلك، باستراتيجية تدخلية مع زيادات ضخمة فى الإنفاق العسكرى.

وكان العديد من المحافظين الجدد يشغلون مناصب عليا أثناء عهد ريجان، من قبيل بيل كريستول (بن إيرفينج كريستول)، وريتشارد بيرل، وريتشارد بايبس، وبول وولفوويتز. وقد احتفظوا بصفة " الجدد" لكى يميزوا أنفسهم عن الجناح المحافظ الانعزالى (غير التدخلي). وبعضهم كان يقف حتى إلى يمين ريجان، من أمثال بودهوريتز، محرر مجلة المحافظين الجدد "Commentary"، الذى كان يقول إن الليبراليين حمقى وإن المثليين كانوا يعارضون الحرب لأنهم كانوا يشتهون " الفتيان من ذوى الشكل الجميل الذين لا حول لهم ولا قوة"[٩]، وكان فرانك جافني، الذى أسس مركز بحوث السياسة الاستراتيجية، يقول إن الزعيم السوفييتى جورباتشوف أغوى ريجان بوعود زائفة[١٠].

وعندما انهار الاتحاد السوفييتى فى نهاية الأمر، كوّن الجيل التالى من المحافظين الجدد رؤية لعالم ما بعد الحرب الباردة ترتكز على فكرة السيطرة الأمريكية فى عالم أحادى القطبية. وقد عبّر تشارلز كراوتهامر، وهو صحفى تُنشر مقالاته فى عدة صحف قومية ويشتهر بما يكتبه فى صحيفة " واشنطن بوست"، عن هذا الموقف فى مقالة له نُشرت عام ١٩٩٠ بعنوان " اللحظة الأحادية القطبية" فى مجلة السياسة الخارجية البارزة "Foreign Affairs" [١١]، وقد قال كراوتهامر إن انتهاء الحرب الباردة قد أوجد " قطبًا واحدًا للقوى فى العالم". ولذا بإمكان هذه القوة الفائقة الوحيدة، أى الولايات المتحدة، أن تتدخل فى أى مكان تريده فى مختلف أنحاء العالم وتحدد شروط السياسة العالمية. وواصل كراوتهامر قائلاً إن من الضرورى تهميش

حجج الواقعيين والانعزاليين فى مؤسسة السياسة الأمريكية، الذين لا يدركون مدى أهمية أن تسود قوة مهيمنة واحدة كى يكون هناك استقرار عالمى.

وجاء فى أعقاب هذه المقالة تقرير أعده بول وولفوويتز للبنتاجون (بناء على طلب ديك تشينى) بمساعدة من سكوتر ليبى، وريتشارد بيرل، وزلماى خالد زاد، وغيرهم. ولم يكن التقرير، وعنوانه " توجيهات للتخطيط الدفاعي"، مخصصًا للاستهلاك العام، ولكن جرى تسريبه إلى صحيفة " نيويورك تايمز" وصحيفة " واشنطن بوست". وقد جاء فيه أن الهدف الأول للولايات المتحدة ينبغى أن يكون " الحيلولة دون معاودة نشوء خصم جديد"[١٢]، وأكد أن الولايات المتحدة يجب " أن تنشئ نظامًا جديدًا وتحميه" وأن المنافسين المحتملين ينبغى إقناعهم بأنهم " من اللازم ألا يطمحوا إلى دور أكبر أو يتخذوا موقفًا أكثر عدوانية لحماية مصالحهم المشروعة"[١٣]، وخلاصة القول، ينبغى إقامة " سلام على الطريقة الأمريكية" على الجبهات العسكرية والسياسية والاقتصادية. وحتى الدول الصناعية المتقدمة ستثنى عن السعى إلى " الإطاحة بالنظام السياسى والاقتصادى الذى ترسيه [الولايات المتحدة][١٤]، وكان هذا يستتبع أن تتصرف الولايات المتحدة بمفردها إذا احتاجت إلى ذلك، من جانب واحد، بدون توجيه أى أسئلة. وذكر التقرير أن هذا من شأنه أن يضمن استقرار العالم على نحو لا يمكن أن تحققه الأمم المتحدة ولا أية ائتلافات أخرى متعددة الأطراف.

وتابع التقرير قائلاً إن الولايات المتحدة من حقها، كى تحافظ على استقرار العالم، أن تشن حربًا إجهاضية على أى معتدٍ. وسمى التقرير بالاسم عددا من الجهات الفاعلة من الدول بوصفها جهات معتدية، بدءا من العراق وكوريا الشمالية إلى الهند واليابان. وكان يُنظر أيضا إلى روسيا فى حقبة ما بعد الاتحاد السوفييتى كقوة يمكن أن تكون مزعزعة للاستقرار. وإضافة إلى ذلك، بُررت الضربات الإجهاضية ضد أى تهديد لمصالح الولايات المتحدة. ووقتئذ، انتقدت مؤسسة السياسة الأمريكية هذه الأفكار انتقاداً لاذعا؛ واصفة التقرير بأنه يمثل حرجًا سياسيا لبوش الأب. وكان رد الفعل قويا لدرجة أن وولفوويتز اعتقد أن حياته المهنية السياسية قد انتهت. وجرت

عملية مراجعة التقرير، وحلّت صيغة أخف محل الصيغة الأصلية. ولم يكن هذا هو عصر المحافظين الجدد، فكما سنرى بعد فترة وجيزة كانت تسعينيات القرن الماضى هى حقبة "الإمبريالية الإنسانية"، بقيادة كلينتون والإمبرياليين الليبراليين.

ولكن ما هو جدير بالملاحظة بشأن الوثيقة هو أن الأعداء الذين سمّتهم كانوا متباينين وأن قائمة المصالح الوطنية كانت واسعة النطاق؛ وشملت هذه المصالح " الوصول إلى المواد الخام الحيوية، وإلى نفط الخليج الفارسى فى المقام الأول؛ ومنع انتشار أسلحة الدمار الشامل والقذائف الباليستية، ومنع التهديدات للمواطنين الأمريكيين من الإرهاب أو النزاع الإقليمى أو المحلى، ومنع التهديدات للمجتمع الأمريكى من تهريب المخدرات"[١٥]، ومن ثم، سُمى "الإرهاب" كواحد بين عدة تهديدات تواجهها الولايات المتحدة. وفى حقيقة الأمر، لم تذكر حتى مقالة كراوتهامر الإرهاب،[١٦]. وهو إغفال ندم عليه لاحقا فى مقالة ذكر فيها أن " التهديد الجديد [التأسلم] لا يقل شرا عن إمبراطورية الشر القديمة." وبدأ العديد من المحافظين الجدد والمتعاطفين معهم يدفعون قُدما بهذه الفكرة التى مفادها أن من اللازم اعتبار "الإرهاب الإسلامي" العدو الجديد فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة، على النحو الذى وردت مناقشته فى الفصل الرابع. وقد ردد دانييل بايبس (بن ريتشارد بايبس الذى ينتمى إلى الجيل الأول من المحافظين الجدد) هذه النقطة، بحيث كتب يقول " إن الإسلام، مثله مثل الشيوعية إبان الحرب الباردة، يشكل تهديداً للغرب." وإيجازاً، حتى قبل أحداث ١١ سبتمبر، كان المحافظون الجدد يحاولون إحلال عدو رئيسى جديد محل الاتحاد السوفييتى[١٧]، بيد أن هذه الفكرة لم تثمر إلا بعد ١١ سبتمبر وقد ساوى نورمان بودهوريتز، فى كتابه الصادر عام ٢٠٠٧ بعنوان " الحرب العالمية الرابعة: الكفاح الطويل ضد الفاشية الإسلامية"، بين التأسلم والفاشية قائلاً إن الكفاح ضد "الفاشية الإسلامية" لا يقل أهمية عن الحروب العالمية السابقة. وجزئياً، نبع هذا الخط فى المحاججة، بربطه بين الفاشية والإسلام، من الجناح اليمينى للمحافظين الجدد، أى الصهيونية على طريقة الليكود، وهو موضوع نتطرق إليه فيما يلى.

الصلة الإسرائيلية

فى مقالة نُشرت فى صحيفة " وول استريت" بعنوان " ما هو بحق السماء "المحافظ الجديد"؟"، ذكر المحافظ الجديد القيادى ماكس بوت بشكل قاطع أن " تقديم الدعم لإسرائيل" كان ويظل " عقيدة أساسية للمحافظين الجدد"[١٨]، وكان كثيرون من الجيل الأول من المحافظين الجدد يهوداً ووجدوا أنفسهم مبعدين بسبب تعاطف اليسار الجديد مع الكفاح الفلسطينى ومع قضايا العالم الثالث بوجه أعم. إلا أن تجربة اليهود لا تتحول تلقائيًا إلى سياسة يمينية متشددة على غرار سياسة حزب الليكود. وكما يلاحظ ريتشارد سيمور، " من الواضح أن الهوية اليهودية بالنسبة لكثيرين من المحافظين الجدد اليهود كانت مهمة؛ ولكنَّ هناك بالتأكيد تنوعًا فى تجربة العيش كمهاجر يهودى فى الولايات المتحدة، وتنوعًا أكبر فى الإحساس بالارتباط بتلك التجربة"[١٩].

ومن ثم، فإن جذور الصهيونية المتشددة التى يعتنقها المحافظون الجدد لا تكمن فى هويتها العرقية المتمسكة باليهودية بقدر ما تكمن فى سياستها وفى رؤية معينة للعالم تعتبر إسرائيل أداة لتعزيز النفوذ الأمريكى[٢٠]، فإذا كان للولايات المتحدة أن تحافظ على سيطرتها فى الشرق الأوسط، فإن ما يستتبع ذلك هو أن تكون إسرائيل، أكثر بلدان المنطقة موالاة لأمريكا، هى حليفها الرئيسى. وكما يلاحظ دوريين، كان معظم " زعماء القطبية الأحادية يهوداً من المحافظين الجدد يسلّمون بأن اتباع سياسة موالية لإسرائيل إلى أقصى حد هو أمر فى صالح أمريكا. وينطبق هذا الوصف على وولفويتز وبيرل، وبودهيرتز، وكراوتهامر و [بن] واتنبرج، و [جوشوا] موارفيتشيك، وكريستول الابن والأب، وكاجان، وبوت، وكابلان" [٢١]، إلا أن هذا الموقف كانت تتخذه أيضًا شخصيات بارزة غير يهودية من أمثال جين كيركباتريك، ودانييل باتريك موينهان، وجيمس وولسى، وفرانسيس فوكوياما، وزلماى خليل زاد، وليندا شافيز، وغيرهم.

وبأى حال، كانت إسرائيل محورية دائمًا بالنسبة لتفكير المحافظين الجدد، حتى أن المحافظين الجدد ظلوا لعدة سنوات يتهمون مسؤولى وزارة الخارجية " المستعربين" بالترويج لسياسات " مناهضة لإسرائيل" كى ينالوا رضا القادة العرب الديكتاتوريين فى البلدان الغنية بالنفط [٢٢]، وتركز ثلاث فقط من جماعات الضغط ومراكز البحوث المرتبطة بالمحافظين الجدد على الشرق الأوسط، هى المعهد اليهودى لشؤون الأمن القومى (JINSA)، ومعهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى (WINEP)، ومنتدى الشرق الأوسط (MEF) . وهذه المجموعات الثلاث هى كلها مؤسسات موالية للصهيونية تنفق وقتًا وموارد فى تحليل استراتيجية الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط وتمارس الضغط من أجل تبنى مواقف صهيونية. وإضافة إلى ذلك، كان المحافظون الجدد يشغلون مناصب فى مجالس إدارة مراكز بحوث أخرى من قبيل معهد إنتربرايز الأمريكى (AEI) المحافظ الموالى للصهيونية، الذى لهم ارتباط وثيق به، فضلاً عن معهد هدسون اليمينى. وقد أنشأ أحد المحافظين الجدد والزميل الأعلى لمعهد هدسون، ميراف وورمسر المولود فى إسرائيل، معهد بحوث وسائط إعلام الشرق الأوسط (MEMRI) فى عام ١٩٩٨، وذلك المعهد يسعى بصفة رئيسية إلى الحصول على مقالات من وسائط الإعلام الإخبارية من مصادر فى الشرق الأوسط تصور المنطقة وسياستها تصويرًا سلبيًا ويترجمها لأغراض استهلاك وسائط الإعلام المحلية. (وقد يكون معادل هذا المعهد فى الشرق الأوسط من ترجم انتقائيًا النشرات التى تبثها محطة فوكس الإخبارية أو تبجحات الوعاظ التليفزيونيين على شبكة البث المسيحية كعدسة رئيسية تُفهم من خلالها الولايات المتحدة.) وكان المؤسس الآخر هو عقيد سابق فى جهاز المخابرات العسكرية الإسرائيلى[٢٣]، وقبل إنشاء صحيفة "Weekly Standard " فى عام ١٩٩٧ (الكائنة فى نفس المبنى الذى يوجد فيه مكتب معهد إنتربرايز الأمريكى)، كانت الصحيفة الرئيسية للمحافظين الجدد هى "Commentary"، التى ظل بودهوريتز يتولى رئاسة تحريرها لمدة ٣٥ عامًا. وكان من ينشر الصحيفة هو اللجنة اليهودية الأمريكية، التى تتمثل رسالتها المعلنة فى " حماية سلامة وأمن اليهود فى الولايات المتحدة، وفى إسرائيل، وفى مختلف أنحاء العالم"[٢٤].

وإذا تحدثنا بشكل محدد وملموس، فإن مواقف المحافظين الجدد بشأن إسرائيل تتماشى مع السياسة الصهيونية اليمينية أو السياسة على طريقة الليكود، المقرونة بمقت لأى مفاوضات تنم عن التنازل والضعف. ولذا يستتبع ذلك أن المحافظين الجدد كانوا يعارضون بشدة اتفاقات أوسلو، التى استندت إلى مبدأ الاعتراف المتبادل من خلال عملية " الأرض مقابل السلام". وعندما وقّع ياسر عرفات الاتفاق على مرج البيت الأبيض فى عام ١٩٩٣، أخبره الرئيس كلينتون أن بإمكانه أن يعلن " دولة" فى الأراضى المحتلة وأن يصبح رئيسها. وطُلب إلى عرفات، فى مقابل اعتراف الولايات المتحدة وإسرائيل بهذه " الدولة"، أن يتخلى عن المطالبات الفلسطينية الطويلة الأمد – والعادلة تاريخيًا – بشأن ثلاث قضايا رئيسية هى: وضع القدس، واللاجئون الفلسطينيون وحق العودة، والسيادة على أرضهم. وكان المحافظون الجدد يعتبرون هذا غلطة. وحتى على الرغم من أن إسرائيل لم تكن لديها نية التمسك بأى من تعهداتها وأن الولايات المتحدة لم تكن لديها أى نية لإجبار إسرائيل على الامتثال، كان المحافظون الجدد يعارضون بصخب اتفاقات أوسلو، ويعتبرونها تهديدا لإسرائيل، وتهديدا لأمريكا بالتبعية. واتساقًا مع معارضتهم للاتفاقات التى أبرمها ريجان مع الاتحاد السوفييتى، حاجج المحافظون الجدد بأن اتفاقات أوسلو ستؤدى إلى تفكك القوة الإسرائيلية. وذكر فرانك جافنى ومركز السياسة الأمنية (CSB) أن صيغة "الأرض مقابل السلام" لا تعدو أن تكون سلسلة من " التراجعات" من قبل إسرائيل، أى من التنازلات الأحادية الجانب والمستمرة من جانب إسرائيل عن الأراضى الحيوية لها من الناحية الاستراتيجية" لصالح العرب " الملتزمين بتدميرها " (التشديد موجود فى الأصل)(٢٥).

وفى عام ١٩٩٦، نصح المحافظون الجدد بنيامين نيتنياهو رئيس الوزراء الإسرائيلى، الذى يواصلون روابطهم الوثيقة معه، بأن ما تحتاج إليه إسرائيل لتأمين نفسها هو زعزعة استقرار الحكومات العربية والإطاحة بها. ونشروا وثيقة بعنوان " مخرج نظيف: استراتيجية جديدة لتأمين العالم"، تقول إن إسرائيل ينبغى أن تهاجم الأهداف العسكرية السورية فى لبنان وحتى فى سوريا إذا اقتضى

الأمر ذلك[٢٦]. ووقتئذ، كان الرأى التقليدى هو أن العراق يشكل تهديدا رئيسيا لإسرائيل، وحث المحافظون الجدد نيتنياهو على دعم تحدى المملكة الأردنية الهاشمية لحدود العراق.

وكانت هذه الحجة مماثلة لموقف اتخذه حزب الليكود اليمينى فى إسرائيل فى ثمانينيات القرن الماضى[٢٧]، ومضت الحجة قائلة إن إسرائيل ينبغى أن تعمل على تجزئة الدول العربية المجاورة لها، أو على تفكيكها أو على إضعافها بشكل آخر، كسبيل لضمان أمانها. وكان المنطق هو أنه بالنظر إلى أن معظم التأييد للقضية الفلسطينية يأتى من الدول العربية، فإن إضعاف تلك الدول من شأنه أن يساعد على تدمير الحركة الفلسطينية. وكما صوَّر نعوم تشومسكى الأمر، " من الطبيعى فحسب توقّع أن تسعى إسرائيل إلى زعزعة استقرار الدول المجاورة، أساسًا للأسباب التى دفعت جنوب أفريقيا إلى اتباع مسار مماثل فى المنطقة. وفى حقيقة الأمر، بالنظر إلى استمرار التوترات العسكرية، قد يُنظر إلى ذلك على أنه ضرورة أمنية تقريبًا"[٢٨]، وعندما قامت إسرائيل بغزو لبنان فى عام ١٩٨٢، فإنها كانت تتبع تلك الرؤية. بيد أنها ستدرك على مر السنين أن هذه الاستراتيجية الأحادية الجانب وذات الوجهة الحربية لن تنجح.

ومع ذلك، استمر هذا التفكير على كلا جانبى المحيط الأطلنطى وكان، كما يقول ستيفن سنيجوسكى، هو الأساس الذى استند إليه غزو العراق فى عام ٢٠٠٣ وخطة بوش لزعزعة استقرار الشرق الأوسط من أجل إعادة بنائه على أساس رؤية المحافظين الجدد. فهو يقول إن

المحافظين الجدد دعوا، على النقيض من هدف الاستقرار التقليدى [الخاص بالولايات المتحدة] [كسبيل لتأمين الحصول على النفط]، إلى زعزعة استقرار الأنظمة القائمة. وبطبيعة الأمر، صاغ المحافظون الجدد سياستهم من حيث " إعادة استقرار" المنطقة فى نهاية المطاف على أساس ديمقراطى. ... ورأت الاستراتيجية المماثلة لاستراتيجية حزب الليكود فوائد زعزعة الاستقرار الإقليمى فى حد ذاتها، لأنها ستهيئ بيئة تتسم بوجود دول أو دويلات ضعيفة وغير

موحدة منغمسة فى صراعات داخلية وخارجية بحيث يتسنى بسهولة لإسرائيل أن تسيطر عليها ... [و] ومن شأن الفلسطينيين، بدون وجود دعم خارجى لهم، أن يضطروا إلى القبول بأى حل سلمى تعرضه إسرائيل[٢٩].

هذه هى العلاقة وترابط المصالح بين اليمين الليكودى فى إسرائيل والمحافظين الجدد فى الولايات المتحدة.

وكان هناك سبيل آخر للتعاون يتمثل فى استحداث فكرة " التهديد الإرهابى". فقد حضر ريتشارد بايبس وبودهوريتز وواتينبيرج، بل وحتى السيناتور هنرى "Scoop" جاكسون معبود المحافظين الجدد، مؤتمراً هاما بشأن الإرهاب الدولى عُقد فى إسرائيل عام ١٩٧٩، وإضافة إلى هذه الشخصيات، حضر المؤتمر عدة ساسة إسرائيليين من أمثال مناحم بيجين زعيم حزب الليكود، فضلا عن جورج بوش الأب ومسؤولين رفيعى المستوى من بلدان أوروبية[٣٠]، وقد قام بتنظيم المؤتمر، الذى عُقد فى القدس، معهد جوناثان، الذى كان يرأسه وقتئذ بنيامين نيتنياهو. وقد أسس نيتنياهو المعهد فى عام ١٩٧٧ وأطلق عليه اسم شقيقه الأصغر جوناثان، الذى " سقط ضحية المعركة ضد الإرهاب" حسب ما قاله نيتنياهو[٣١]، وسعى بنزيون والد نيتنياهو، فى كلمته الافتتاحية فى المؤتمر، إلى تصوير أعداء إسرائيل – الفلسطينيين الذين لجؤوا إلى الكفاح المسلح فى سبيل تقرير مصيرهم – فى صورة " إرهابيين" وإلى حشد بقية العالم حول الكفاح ضد " الإرهاب". وواصل بنزيون كلامه قائلاً إن الإرهابى " يتحدث عن قضايا 'إنسانية' ووطنية، ويدّعى أنه يكافح فى سبيل 'الحرية' ضد القمع، ويواصل التحدث عن 'الحقوق المشروعة'[٣٢]". وقال، ردا على ذلك، إن هذا الإرهابى ليست لديه فى حقيقة الأمر " أية كوابح أخلاقية" و " لا يحترم أى قاعدة من قواعد القانون". وهو ينتمى، بدلا من ذلك، إلى نفس المعسكر الذى ينتمى إليه النازيون؛ ويمثل " فى موقفه القائم على الإبادة تجاه المجتمعات التى يهاجمها، سواء كانت أيرلندا أو لبنان أو إسرائيل، نبتًا نابعا من الفلسفة النازية" [٣٣]، ولذا دُعى المؤتمر

إلى " أن يكون بداية عملية جديدة، عملية حشد للنظم الديمقراطية فى العالم لمكافحة الإرهاب والأخطار التى يمثلها" (٣٤).

وقال أحد الحاضرين إن منظمة التحرير الفلسطينية عملت كوسيط بين موسكو وآية الله خومينى فى إيران فى مخطط الإطاحة بالشاه الذى كانت الولايات المتحدة تسانده(٣٥). وفى هذه المرحلة كان التشديد على منظمة التحرير الفلسطينية والربط بين العرب والإرهاب. ولم يتحدث سوى واحد فقط من الحاضرين عن " الإرهاب الإسلامى" (٣٦). وكان الإسلام، بوجه عام، هامشياً بالنسبة لهذا المؤتمر.

وقد تغيّر هذا فى المؤتمر الدولى الثانى بشأن الإرهاب، الذى عُقد عام ١٩٨٤، فى واشنطن العاصمة. فقد ذكر نيتنياهو أثناء كلمته الافتتاحية أن " الإرهاب الحديث يضرب بجذوره فى حركتين اكتسبتا بروزا دوليا فى النصف الثانى من القرن العشرين، هما الشمولية الشيوعية والراديكالية الإسلامية (والعربية)"(٣٧). وفى تلك المرحلة كانت إيران قد أصبحت شوكة فى جانب إسرائيل بتأييدها لحزب الله فى لبنان، وكانت الراديكالية العربية قد حوصرت بينما احتل التأسلم بؤرة المسرح. وكان يُنظر إلى الجهات الفاعلة من الدول – وبخاصة الاتحاد السوفييتى وإيران – على أنها تمنح الحياة للإرهاب الدولى. ولم تُسقَط منظمة التحرير الفلسطينية من الحسبان؛ بل صوِّرت " دولتها الصغيرة الإرهابية فى لبنان" فى صورة " مركز تدريب وجماعة انطلاق لما أصبح تنظيما إرهابيا دوليا من نوع ما"(٣٨). وكان من بين الحاضرين فى المؤتمر محافظون جدد من قبيل موينهان وكيركباتريك وكراوتهامر، فضلاً عن زعماء إسرائيليين من أمثال إسحق رابين وساسة أمريكيين من أمثال جورج شولتز. وكانت هناك إضافة جديدة لهذا المؤتمر تمثلت فى عقد جلسة بشأن "الإرهاب والعالم الإسلامي"، ضمّت المستشرقين برنارد لويس وإيلى كيدورى وبانيوتيديس فاتيكيوتيس.

وقال لويس فى المؤتمر إن مصطلح " الإرهاب الإسلامي" مناسب لأن " الإسلام دين سياسى وإن مُحمَّداً، على العكس من الزعماء الدينيين الآخرين، " أسس دولة

وحكمَها " (٣٩)، وبعبارة أخرى، على الرغم من أن الإرهاب الذى مارسه مسيحيون أو يهود لا يشار إليه عادةً على أنه " إرهاب مسيحي" أو " إرهاب يهودي"، فإن ربط الإسلام بعنف المسلمين كان يُعتبر أمرًا ملائما. وأوضح لويس أنه " من الحتمى أن العالم الإسلامى عندما يواجه مشكلة الإرهاب فإن تلك المشكلة تكتسب، أيضًا، جانبا دينيا، وإسلاميا بمعنى ما" (٤٠)، وبدأ إيلى كيدورى خطابه بقوله إن هناك " انطباعا شائعا – وله ما يبرره – بأن جانبا كبيرا من الأنشطة الإرهابية الموجودة الآن ينبع، وغالبا ما يحدث، فى عالم الإسلام، وبخاصة فى جزئه العربى" (٤١)، ثم اختار أمثلة تاريخية من ممالك إسلامية شتى، بدءا باغتيال على، وصولا إلى الحشاشين فى القرن العاشر، ثم إلى إيران فى عهد خومينى، الذى يعتبر، كما وصفه، " مثالا لفكرة " دولة إرهابية" (٤٢)، وذلك ليجدل معا خيوط حكاية عن " الإرهاب الإسلامي" عبر التاريخ. وانتهى بدق ناقوس الخطر من أن " الإرهاب فى الإسلام الحديث ليس من المرجح أن يثبُت أنه جُهْدٌ فاشل" (٤٣).

ولئن كان المؤتمر الدولى بشأن الإرهاب عام ١٩٨٤ قد عُقد فى واشنطن العاصمة، مما يشير إلى أن الولايات المتحدة ستقود العالم فى حرب على الإرهابيين، ينبغى ألا تغيب عن البال جذوره فى إسرائيل. فقد كانت إسرائيل تمر بسلسلة من التغيرات فى ثمانينيات القرن الماضى. وفى منتصف سبعينيات ذلك القرن، بدأت أحزاب اليمين الدينى (الحريديم) تلعب دورا أكبر فى السياسة الداخلية. وكانت تلك الأحزاب مسؤولة عن رفع مستوى الطنطنة المقيتة ضد غير اليهود. وقال أحد الحاخامات إن " العرب سرطان، سرطان، سرطان فى وسطنا. ... ولا يوجد سوى حل واحد، ولا حل غيره، ولا يوجد حل جزئى، وذلك الحل هو: أن يخرج العرب! فليخرجوا! ... دعونى أصبح وزيرا للدفاع لمدة شهرين ولن يكون هناك صرصار واحد حولنا هنا" (٤٤)، وكما يلاحظ فريد هاليداى، كان هذا هو السياق الذى أصبحت فيه الطنطنة المناهضة للعرب والمناهضة للمسلمين متآلفة إلى حد أكبر بكثير، لا سيما فى أوساط المستوطنين وكذلك فى أوساط الأحزاب القومية والدينية. ومع ذلك لم تمنع هذه المشاعر حزب الليكود من استخدام المنظمة السلف لحماس، وهى المجمّع، لخدمة

أغراضها. وعندما اعترفت الدولة الإسرائيلية بالمجمع وأصدرت لها ترخيصا رسميا في عام ١٩٧٨، كان المنطق بسيطًا، هو أن عداء الإسلاميين لليسار العلماني يجعلهم مفيدين. وقال البعض إن إسرائيل كانت تموِّل هذه القوى [٤٥].

ولكن مع مضى الثمانينيات قُدمًا، أدت الثورة الإيرانية وتأييدها لحركة الشيعة في لبنان، المقرون بنشوء حماس، إلى حدوث تحول في الاستراتيجية. فكما يقول هاليداي، " بدا بحلول أواخر ثمانينيات القرن الماضي وأوائل تسعينياته، لهذا السبب، وكأن إسرائيل محصورة في معركة شاملة مع العالم الإسلامي" [٤٦]، ومن هنا بدأت تتجذّر أوجه الربط بين التأسلم والفاشية، وهو ما كان نتاج التفاعل بين المستشرقين الغربيين ومفكري الليكود السياسيين في إسرائيل. وقد عملت هذه القوى على إقناع الساسة بأن " الإرهاب الإسلامي" هو التهديد الكبير المقبل. وأبدى دانييل بايبس، في مقالة له كتبها نيابة عن منتدى الشرق الأوسط (MEF) في تسعينيات القرن الماضي، معارضته لاتفاقات أوسلو بتشكيكه في نوايا القادة العرب وتحذيره من " خطر الإسلام المناضل ضد أمريكا والغرب" [٤٧]، ولكن على الرغم من جهود المحافظين الجدد وجماعات الضغط الإسرائيلية، فإن هذا الموقف تجاه " الإرهاب الإسلامي" لم يؤثر تأثيرا كبيرا على خطاب أو سياسة إدارتي بوش وكلينتون الأوليين، على النحو الذي وردت مناقشته في الفصل الرابع. فقد كانت تسعينيات القرن الماضي هي حقبة الإمبريالية الليبرالية، وكان على المحافظين الجدد أن ينتظروا دورهم.

ولكن قبل أن نتطرق إلى كلينتون والإمبريالية الإنسانية تجدر الإشارة إلى أن العديد من مراكز البحوث وجماعات الضغط المستشهد بها آنفًا لا تمثل مراكز للمحافظين الجدد حصريا. فمعهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى (WINEP)، مثلا، لديه " مزيج من آراء المحافظين الجدد وآراء كلينتون"، وفقا لما تقوله ماريا ريان [٤٨]، فذلك المعهد أسسه مارتن إندايك، الذي عمل سابقًا كمدير بحوث في لجنة الشؤون العامة الأمريكية المتعلقة بإسرائيل (AIPAC) وهي جماعة ضغط موالية لإسرائيل. وكان جيمس وولسي، وبيرل، وولفويتز في مجلس إدارة المعهد، وكان مورافتشيك وبايبس

باحثيْن ملتحقيْن بالمعهد. ومع ذلك إبان تسعينيات القرن الماضى كان المعهد يؤيد إلى حد كبير سياسات كلينتون وانضم كثيرون من أبرز قياداته، ومن بينهم إندايك، إلى إدارة كلينتون. ودعم الصهيونية دون قيد أو شرط هو مطلب للحزبين فى مؤسسة السياسة الأمريكية. كذلك، كان مجلس مستشارى المعهد اليهودى لشؤون الأمن القومى (JINSA) المكون من خمسة وخمسين مستشارًا لا يضم فى عام ٢٠٠٧ سوى أربعة من المحافظين الجدد. وكما سنرى فى القسم التالى، يوجد تمثيل للمحافظين الجدد فى مراكز بحوث واقعية/ليبرالية وإمبريالية شتى. وإيجازا، يشكل المحافظون الجدد جزءا لا يتجزأ من مؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية الموالية لإسرائيل والموالية للإمبريالية الأمريكية. أما الاختلافات فهى تنشأ فيما يتعلق بالأساليب والاستراتيجية والطنطنة.

الإمبريالية الإنسانية

لقد استُخدمت الطنطنة الليبرالية طويلا فى صالح أهداف إمبريالية. ويبين ريتشارد سيمور، فى كتابه " الدفاع الليبرالى عن القتل"، هذا التاريخ الخسيس قائلا إن " تقاليد الليبرالية الإمبريالية قديمة قِدم الليبرالية نفسها ومحيِّرة مثلها تماما. فعلى السطح، يتعين أن تكون عقيدة يبدو أنها تشدد على المساواة بين البشر وعلى العالمية وألا يكون هناك ما يربطها بنظام عنف قائم على السيطرة والاستغلال. ومع ذلك، بالنسبة لليبراليين كثيرين، كانت فضائل الإمبراطورية وقتئذ مماثلة إلى حد كبير لتلك الموجودة الآن بالنسبة لـ "التدخليين الليبراليين": فهى تعِد بالتعليم، والعلاج الثقافى، والتنمية الاقتصادية، وسيادة القانون، والحرية، بل وأحيانا قضية المرأة" [٤٩]، (التشديد مضاف).

وعلى نفس المنوال، يقول جان بريكمونت فى كتابه " الإمبريالية الإنسانية: استخدام حقوق الإنسان لبيع الحروب" إن " إيديولوجيا عصرنا، على الأقل فيما يتعلق

بإضفاء المشروعية على الحرب، لم تعد المسيحية، ولا 'عبء الرجل الأبيض' الذى تحدث عنه كيبلنج أو 'مهمة الحضرنة' الخاصة بالجمهورية الفرنسية، بل هى خطاب معين عن حقوق الإنسان والديمقراطية، ممزوج بتصوير معين للحرب العالمية الثانية. وهذا الخطاب يبرر التدخلات الغربية فى العالم الثالث باسم الدفاع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان أو ضد 'الطغاة الجدد الأشبه بهتلر" [٥٠]، وبينما قد يكون بريكمونت متسرعا إلى حد كبير فى استبعاد استخدامات منطق " عبء الرجل الأبيض"، فإنه، بالنظر إلى انبعاث الاستشراق فى حقبة ما بعد ١١ سبتمبر (على النحو الذى نوقش فى الفصل الثالث)، على حق فى إشارته إلى الديمقراطية وحقوق الإنسان كأساسين منطقيين رئيسيين للحرب. إلا أن هذه الحجج الليبرالية ليست فحسب أدوات الإمبرياليين الليبراليين، فهى تشكل أيضا جزءا من ترسانة المحافظين الجدد كذلك. فبعد كل شيء، استخدمت إدارة بوش حقوق المرأة كمبرر للحرب على أفغانستان واعتبرت " بناء الديمقراطية" هدفا فى العراق. والاختلاف بين جناحى المحافظين الجدد والإمبرياليين الليبراليين فى مؤسسة السياسة الأمريكية يكمن فى لجوء الجناح الأخير إلى تعددية الأطراف وإقامة ائتلافات متى أمكن ذلك (ولكن ليس دائما)، فضلا عن الرغبة فى استخدام الدبلوماسية. وكما يقول ستيفين وولت:

> إن الاختلاف الفكرى الهام الوحيد بين المحافظين الجدد والتدخليين الليبراليين هو أن المحافظين الجدد يحتقرون المؤسسات الدولية (التى يعتبرونها بمثابة معوقات لنفوذ الولايات المتحدة)، وأن الأخيرين يعتبرون تلك المؤسسات وسيلة مفيدة لإضفاء المشروعية على السيطرة الأمريكية. وتمجّد كلتا المجموعتين فضائل الديمقراطية، وتعتقد كلتا المجموعتين أن قوة الولايات المتحدة، لا سيما قوتها العسكرية - يمكن أن تكون أداة بالغة الفعالية للحنكة السياسية. وكلتا المجموعتين تشعر بقلق بالغ لاحتمال أن تسقط أسلحة الدمار الشامل فى أيدى أحد غير الولايات المتحدة وأقرب حلفائها إليها، وتؤمن كلتا المجموعتين بحق أمريكا فى معالجة الكثير من المشاكل فى مختلف أنحاء العالم، وبمسؤوليتها عن ذلك. بيد أن كلتا المجموعتين تبالغ دوما فى تقدير مدى سهولة تحقيق ذلك، ولذا فإن كلاً منهما لديها نزوع إلى توريطنا فى

صراعات لا تنطوى على مصالحنا الحيوية وتنتهى بأن تكون تكلفتها أكثر كثيرًا مما كان متوقعا فى البداية [٥١].

ويضيف قائلا على سبيل الفكاهة " إن التدخليين الليبراليين هم فحسب محافظون جدد 'أرحم وأرق'، والمحافظون الجدد هم فحسب تدخليون ليبراليون يتعاطون منشطات" [٥٢]، بيد أن كلتا الاستراتيجيتين استخدمهما الجمهوريون واستخدمهما الديمقراطيون. فقد دعا جورج دابليو بوش إلى سيطرة الولايات المتحدة على العالم من خلال استخدام الائتلافات وهيئات من قبيل الأمم المتحدة والتماس مشورة من دوائر المحافظين الجدد، كما شاهدنا فى الفصل الرابع. ولكن كان على إدارة كلينتون أن تعيد تشكيل الصورة العالمية للولايات المتحدة من خلال استخدام لغة " التدخل الإنسانى".

وحاجج أنتونى ليك، مستشار كلينتون للأمن القومى، بأنه إبان حقبة " الحرب الباردة نجحنا فى احتواء تهديد عالمى للنظم الديمقراطية القائمة على السوق." والآن، بعد انهيار التهديد السوفييتى، أصبح من الممكن " توطيد انتصار الديمقراطية والأسواق المفتوحة" [٥٣]، وبناء على ذلك، فإن رؤية كلينتون كانت تتعلق بتعزيز الديمقراطية من خلال إصلاحات الليبراليين الجدد. وكان من اللازم جعل العالم آمنا لرأسمالية الليبراليين الجدد، وأخذ كلينتون على عاتقه مهمة اختراق مناطق العالم التى كانت تحت السيطرة السوفييتية سابقا. وكما يصوّر جان - مارك كويكود الأمر، " جعل كلينتون النجاح الاقتصادى الأمريكى والتجارة الحرة هما الجانب المحدِّد لرئاسته" [٥٤]، وحيثما كان يلزم التدخل العسكرى، لجأ كلينتون إلى مؤسسات متعددة الأطراف من قبيل الأمم المتحدة وحلف شمال الأطلنطى (الناتو). وكانت الأصوات الرئيسية فى فريق سياسته الخارجية هى أصوات ليك، ومادلين أولبرايت، ووارين كريستوفر، وصديقه الحميم ومستشاره ستروب تالبوت (الذى يعمل فى معهد بروكينجز الذى يمثل جناح الوسط). وكان هذا الفريق يدعو إلى استخدام القوة العسكرية لتحقيق أهداف إنسانية أكثر مما كان يحدث من قبل ويشدد على أولويات

الديمقراطية وحقوق الإنسان. وكان الفريق يعارض أيضًا أسلوب الانفراد بالتصرف" ويدعو إلى اتباع الولايات المتحدة، قدر الإمكان، استراتيجية متعددة الأطراف [٥٥]، وكان رأى كلينتون " الذى يمكن أن يوصف بأنه رأى ويلسون جديد"، والذى كان يتعارض مع واقعية بوش الأب القائمة على توازن القوة، يستند إلى فكرة أن سياسة الولايات المتحدة دخلت، كما يصوّر نعوم تشومسكى الأمر، "مرحلة نبيلة" ذات " ألق مقدس"[٥٦].

وأهم مركز بحوث ارتبط بمعسكر تعددية الأطراف من معسكرى مؤسسة السياسة الخارجية هو مجلس العلاقات الخارجية (CFR)، الذى ينشر مجلة "Foreign Affairs" . وكان مجلس إدارته يضم ريتشارد هاس (الذى يرأس مجلس العلاقات الخارجية منذ عام ٢٠٠٣، وزبيجنيو بريزينسكى (مستشار الأمن القومى السابق لجيمى كارتر)، وجوزيف ناى (صاحب نظرية " القوة الناعمة")، ومادلين أولبرايت، وكولين باول وريتشارد هولبروك، وستروب تالبوت، وفؤاد عجمى (الذى كان أحد أفراد دائرة بوش الداخلية التى شكلت إطار الاستجابة لأحداث ١١ سبتمبر) [٥٧]، وآخرين من قبيل إليوت آبرامز وهو من المحافظين الجدد وزميل أعلى بالمعهد. وبينما يتجه مجلس العلاقات الخارجية نحو الجانب الواقعى، فإن آراء المحافظين الجدد ممثلة داخله. كذلك، يضم مركز بحوث آخر ذو نفوذ، هو مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية (CSIS)، شخصيات واقعية من أمثال سام نان، وديفيد أبشاير، وريتشارد آرميتاج، وهنرى كيسنجر، وبرينت سكاوكروفت، وجوزيف ناى فضلاً عن محافظين جدد من أمثال زلماى خليل زاد.

ولذا لا ينبغى أن يكون مفاجئًا أن هؤلاء الأفراد يتحدثون مع بعضهم البعض ويسعون إلى النفوذ داخل الساحة السياسية الأوسع نطاقا. وعندما يختلفون فإنهم يختلفون عادة حول الاستراتيجية أو الطنطنة، لا حول الهدف العام المتمثل فى الحفاظ على هيمنة الولايات المتحدة. فعلى سبيل المثال، فى خمسينيات القرن الماضى، عندما كان المستشرقون يقولون إن الإسلام والشيوعية يوجد تعارض بينهما (على النحو الذى

وردت مناقشته فى الفصل الرابع)، اتخذ مجلس العلاقات الخارجية المشكّل حديثًا (والذى تأسس فى عام ١٩٥٤) موقفا ضد هذه النظرية. وكتب الأخصائى فى وضع الاستراتيجية المتعلقة بالشرق الأوسط وقتئذ يقول إن " الإسلام لا يمكن الاعتماد عليه ليكون حاجزًا من هذا القبيل بالنسبة لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية. ولم تثبت نظرية أن الشيوعية والنفوذ السوفييتى لا يمكن أبدًا أن يحققا توغلات فى العالم الإسلامى لأنهما ماديان وملحدان . فالدين له مكانة هامة فى مجتمع الشرق الأوسط، وهو ينعكس على المواقف الشعبية والمواقف الرسمية على حد سواء. ولكنه لا ينم عن حصانة مطلقة فى مواجهة فيروس سياسى من قبيل الفاشية أو الشيوعية"[٥٨]، وإيجازًا، كان مجلس العلاقات الخارجية يعرض وجهة نظر واقعية بشأن الكيفية التى يمكن بها للولايات المتحدة أن تحافظ على قوتها فى الشرق الأوسط. وهذا يمثل اختلافا فى الاستراتيجية، لا فى الأهداف والنتائج.

وكانت المهمة " الإنسانية" الأولى لتسعينيات القرن الماضى هى مواصلة كلينتون لعملية جورج دابليو بوش المسماة "إعادة الأمل" فى الصومال فى عام ١٩٩٣، فقد أُرسلت قوات من الأمم المتحدة، تحت قيادة الولايات المتحدة، للتصدى للأزمة الغذائية ولإطعام الجياع، إلا أن تلك القوات وصلت بعد أن كان أولئك الأكثر تعرضًا للجوع قد لقوا حتفهم بالفعل جوعًا بعدة أشهر. وبينما بررت الولايات المتحدة والأمم المتحدة الغزو على أسس إنسانية، لعبت مصالح الولايات المتحدة المتمثلة فى موقع الصومال الجيواستراتيجى ومصالحها فى موارد النفط دورًا أهم فى القرار الأمريكى الخاص بالتدخل. وعندما قُتل ثمانية عشر جنديا أمريكيًا فى حادث إسقاط طائرة بلاك هوك الذى أصبح الآن حادثا شهيرًا، غادرت قوات الولايات المتحدة تاركة دول شرق أفريقيا أسوأ حالا مما كانت عند وصول تلك القوات[٥٩]، وقد أنبأ هذا التدخل بما سيأتى. ورغم هذا، قدم الليبراليون غطاءً " لإنسانية" كلينتون. فقد هلل يساريون سابقون من أمثال كريستوفر هيتشينز وبول بيرمان ومايكل إجناتييف لهذه الإمبريالية الجديدة، مثلما فعل أقطاب اليسار الجديد من قبيل دانييل كوهن – بينديت.

وفى العراق فرضت الولايات المتحدة (عن طريق الأمم المتحدة) نظام عقوبات شديد القسوة أبقى اقتصاد العراق أقرب إلى حالة ما قبل عصر الصناعة التى خلفتها عمليات قصف القوات المتحالفة فى عام ١٩٩١ وقد أعلنت إدارة كلينتون مرارا أن العقوبات يُقصد بها استهداف نظام صدام حسين لا الشعب العراقى. إلا أن الواقع هو أن العراقيين العاديين هم الذين عانوا أشد المعاناة. ولقى أكثر من مليون عراقى مصرعهم. وعندما سألت ليزلى ستول مادلين أولبرايت فى برنامج ٦٠ " دقيقة" الذى بثته شبكة CBS فى عام ١٩٩٦ عن الأطفال العراقيين الذين قُتلوا ويبلغ عددهم نحو مليون طفل، أجابت قائلة " إننا نعتقد أن هذا الثمن كان هناك ما يستحقه" (٦٠)، ومن ثم، فإن الإنسانيين كانوا راضين تماماً عن تنفيذ مآرب سياستهم الخارجية على جثث الأطفال القتلى.

وبطبيعة الأمر، لم تتدخل الولايات المتحدة فى كل أزمة إنسانية، وأشهر حالة لذلك هى حالة الإبادة الجماعية فى رواندا. ولم تتبن إدارة كلينتون تعددية الأطراف تبنيًا حقيقيًا. فعلى سبيل المثال، رفضت الولايات المتحدة التوقيع على اتفاق أيدته غالبية بلدان العالم لحظر استخدام الألغام الأرضية المضادة للأفراد. ولم تسع إدارة كلينتون دوما للحصول على موافقة مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة قبل شن حرب، فالحرب التى شُنت بقيادة الناتو على صربيا فى عام ١٩٩٩ جرت بدون الحصول على إذن بذلك من الأمم المتحدة. كذلك، لم يمر كلينتون من خلال قنوات الأمم المتحدة قبل أن يقذف العراق بالقنابل (بمساعدة بريطانية) فى عام ١٩٩٨، وتبيّن فيليس بينيس بشكل مقنع أن كلينتون حتى عندما استخدم طنطنة " تعددية الأطراف الجازمة"، فإنه استخدم أحادية الأطراف على طراز بوش قبل أحداث ١١ سبتمبر. وتضيف قائلة إنه مما يدعو للسخرية أنه استخدم الأمم المتحدة لتوفير " غطاء متعدد الأطراف" لأهداف الولايات المتحدة، وإن " التدخلات الإنسانية" من جانب كلينتون كانت فى حقيقة الأمر ستارا لـ" النزعة العسكرية الأحادية الجانب"(٦١).

وعلى الرغم من هذا، ظل المحافظون الجدد يواصلون خلافاتهم الإيديولوجية مع كلينتون، بحيث كانوا يكتبون انتقادات متعددة لسياسته الخارجية. وفى عام ١٩٩٦ نشر بيل كريستول وروبرت كاجان مقالة هامة فى مجالة "Foreign Affairs" بعنوان " نحو سياسة خارجية ريجانية جديدة". وحاجج فى تلك المقالة، رافضًا واقعية توازن القوة، بأنه " فى عالم يتوقف فيه السلام وأمن أمريكا على القوة الأمريكية وإرادة استخدامها، فإن التهديد الرئيسى الذى تواجهه الولايات المتحدة الآن وفى المستقبل هو ضعفها هى. فالهيمنة الأمريكية هى الدفاع الموثوق الوحيد ضد انهيار السلام والنظام الدولى. والهدف الصحيح للسياسة الخارجية وللسياسة الدفاعية الأمريكية هو، لذلك، الحفاظ على تلك الهيمنة أطول مدة ممكنة فى المستقبل"[٦٢]، وكانت هذه السياسة " الريجانية الجديدة" تسمى " الهيمنة العالمية الخيِّرة" لأنها كانت تجزم بأن ما هو خير للولايات المتحدة هو خير عمومًا للعالم أيضًا. ويمكن أن نشير، على انفراد، إلى أن هذا لم يكن بالفكرة الجديدة تمامًا، بالنظر إلى مفهوم " التفوق الخيِّر" أو "القرن الأمريكي" فى حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية الذى وصفه لوك، وهو ما وردت مناقشته فى الفصل الرابع. أما ما كان جديدًا فى أواخر تسعينيات القرن الماضى فهو وجود استعداد لدى المتمسكين بهذه السياسة لاستخدام كلمة " إمبراطورية" بشكل أكثر صراحة[٦٣]، فقد تلاشى فى النهاية الصمت الخطابى الذى اتسمت به حقبة ما بعد الحرب.

وبينما قد يقول المرء إن رؤية كلينتون لم تكن شديدة الاختلاف عن رؤية المحافظين الجدد، فإنها كانت، على الأقل، مغلّفة بلغة أكثر تطورًا. وكما تقول ماريا ريان، كان هناك

تلاقٍ كبير بين أهداف المحافظين الجدد وأهداف إدارة كلينتون. ومن المؤكد أن اللغة التى كان بعض المحافظين الجدد يستخدمونها كانت أكثر صراحة. فقد كانوا يعطون أولوية علنا لمصداقية الناتو وكانوا صرحاء بشأن السبب الذى يجعل انتصار الولايات المتحدة والناتو مهمًا. أما كلينتون فقد عرض صورة أكثر نعومة، زاعمًا أن ما يدفعه هو اعتبارات

إنسانية أيضا – وربما كان هذا صحيحا – ولكن حتى إنسانية كلينتون وحدها لم تكن كافية لفرض التدخل[٦٤].

وقرب نهاية تسعينيات القرن الماضى، أعلنت إدارته أن الولايات المتحدة " دولة لا يمكن الاستغناء عنها" وأن بإمكانها، بسبب قوتها التى لا منازع لها هذه وبسبب قيَمها، أن " تكون قامتها أطول وأن ترى أبعد" مقارنةً بغيرها. ولذا فإن سيطرتها على العالم كانت سيطرة حميدة بالضرورة: وهى لا تستند إلى الإكراه بل تستند إلى جاذبية القيَم والسلع والثقافة الشعبية الأمريكية[٦٥]، وهذا هو ما يشير إليه جوزيف ناى بأنه " القوة الناعمة". (وقد عمل ناى فى إدارة كلينتون وهو الآن عضو فى مجلس إدارة مجلس العلاقات الخارجية). وهذه الرؤية لسيطرة الولايات المتحدة تتشاطرها جميع قطاعات مؤسسة السياسة الأمريكية، بينما قد تختلف تلك القطاعات حول التفاصيل.

١١ سبتمبر وعقيدة بوش

بدأت إدارة بوش بعد أحداث ١١ سبتمبر مباشرة تقريبا تبحث عن سُبل لمهاجمة العراق. وكما يكشف ريتشارد كلارك، الذى كان وقتئذ " من أباطرة مناهضة الإرهاب" فى كتابه " ضد جميع الأعداء"، انتحى الرئيس بوش جانبًا ببضعة أشخاص وقال لهم: " أعرف أن لديكم الكثير الذى يجب أن تفعلوه ... ولكنى أريدكم أن تراجعوا كل شيء، فى أقرب وقت يمكنكم. ولتروا ما إذا كان صدَّام قد فعل هذا. فلتروا ما إذا كان له ارتباط بذلك بأى حال" [٦٦]، وكانت هذه المحاولة لاستهداف العراق جزءا من استراتيجية المحافظين الجدد الأوسع نطاقا المتمثلة فى زعزعة الشرق الأوسط. وقد كرّست عقيدة بوش، كما أصبحت تُسمى، المبينة فى وثيقة استراتيجية الأمن القومى التى صدرت فى عام ٢٠٠٢، السياسة الخارجية للمحافظين الجدد.

وكان العنصر الأساسى فى عقيدة بوش هو أنها أعلنت حق الولايات المتحدة الانفرادى فى شن حرب وقائية، أى حقها فى مهاجمة أى دولة أخرى ذات سيادة لا لأنها تهدد الولايات المتحدة مباشرة بل لأنها يمكن كاحتمال أن تشكل تهديداً. وأعطت تلك العقيدة الرئيس السلطة الاستنسابية لتحديد ما يشكل تهديدا. ومن ثم، فإن أى دولة " قامت بإيواء إرهابيين"، أو استحدثت أسلحة دمار شامل، أو تصرفت على نحو آخر يتعارض مع مصالح الولايات المتحدة، تصبح هدفا للهجوم والغزو. وكان جانب أساسى آخر من جوانب عقيدة بوش هو ضرورة الحيلولة دون نشوء أى خصم قد يتحدى هيمنة الولايات المتحدة. وتذكر وثيقة استراتيجية الأمن القومى أن: " قواتنا ستكون قوية بدرجة تكفى لثنى الخصوم المحتملين عن القيام بعملية تعزيز عسكرى بأمل التفوق على قوة الولايات المتحدة، أو حتى مضاهاتها" [٦٧]، وكان معنى ذلك هو وجود الولايات المتحدة العسكرى فى منطقتى الشرق الأوسط ووسط آسيا، اللتين كانتا تعتبران " موقعين هامين" لما يوجد فيهما من موارد نفطية وموارد من الغاز الطبيعى فضلا عن قربهما من خصوم محتملين من أمثال الصين والهند وروسيا. وكان المقصود بحربى الولايات المتحدة فى أفغانستان والعراق هو تحقيق كلا الهدفين المذكورين آنفا وهما: إخماد التهديدات المحتملة وثنى الخصوم المحتملين. وكان نظام بوش يعقد الأمل على أن يقوم بعد العراق بتنفيذ تغيير فى النظامين القائمين فى إيران وسوريا. ويكون بإمكان الولايات المتحدة بعد إخضاع المنطقة لسيطرتها أن تملى شروطها على الدول الأخرى التى تعتمد على نفط الشرق الأوسط، لا سيما الصين.

وأصبح يجرى تنفيذ تقرير وولفويتز عن توجيهات التخطيط الدفاعى الذى جرى تسريبه والذى يرجع إلى أوائل تسعينيات القرن الماضى – وهو تقرير لقى استهجانا بوجه عام من مؤسسة السياسة الأمريكية – على خلفية مأساة ١١ سبتمبر. فقد أدرك المحافظون الجدد، فضلا عن آخرين يتعاطفون مع رؤيتهم، الفرصة التاريخية التى أتاحتها هجمات ١١ سبتمبر. وقد عرضتها بإيجاز كوندوليزا رايس، مستشارة بوش للأمن القومى التى أصبحت بعد ذلك وزيرة للخارجية، عندما قالت: " أعتقد أن هذه

الفترة مضاهية للفترة الممتدة من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٤٧ من حيث إن الأحداث ... بدأت تُحدث تحولاً فى طبقات أديم السياسة الدولية. ومن المهم أن نغتنم ذلك وأن نهيئ المصالح والمؤسسات الأمريكية قبل أن تتصلب تلك الطبقات مرة أخرى"س[٦٨]، إلا أن اغتنام هذه الفرصة لتحقيق رؤية المحافظين الجدد كان معناه أيضًا تنسيق حملة علاقات عامة مفصلة ترمى إلى الحصول على التأييد العام وإخماد الانتقاد. وكان معناه دخول الحرب على الإرهاب وبدء لغة فوبيا الإسلام.

ويشير ستيفن شيهى إلى أن الرد الطنان على أحداث ١١ سبتمبر قامت بصياغته مجموعة من الأكاديميين والصحفيين وواضعى السياسة والخبراء الذين دُعُوا إلى حضور جلسات بشأن الاستراتيجية فى البيت الأبيض. وكما أوضح وولفويتز، " لا تستطيع حكومة الولايات المتحدة، لا سيما وزارة الدفاع، إنتاج أنواع الأفكار والاستراتيجية اللازمة للتعامل مع أزمة بحجم أزمة ١١ سبتمبر" [٦٩]، وكان من بين منْ وُجهت لهم الدعوة للمساعدة فى توليد الاستجابة العامة المناسبة برنارد لويس الصحفى، وفريد زكريا رئيس تحرير مجلة نيوزويك سابقًا، وفؤاد عجمى الأستاذ بجامعة جونز هوبكنز، فضلاً عن عدة محافظين جدد.

ويشير شيهى إلى النهجين المختلفين اللذين اتبعهما لويس وزكريا. فهو يقول " إذا كان لويس يرى إخفاقات الإسلام فى بربرية 'العقل العربي'، فإن زكريا يرى الكراهية للغرب فى فشل الثقافة السياسية العربية والتنظيم الاقتصادى العربى" [٧٠]، وقد دعا زكريا، وهو من تلاميذ صمويل هنتنجتون، إلى قيام الولايات المتحدة بالعمل على تحقيق حرية الأسواق والديمقراطية فى الشرق الأوسط معبِّرًا فى ذلك عن نزوع أستاذه إلى التحديث. وهو يقول إن العرب قد شهدوا " انقلابًا للعملية التاريخية التى شهدها العالم الغربى، والذى أدت فيه الليبرالية إلى إفراز الديمقراطية وأصبحت فيه الديمقراطية تغذى الليبرالية. فالمسار العربى أفرز ديكتاتورية، تولد عنها الإرهاب" [٧١]، ووفقًا لهذا الرأى، يتعين على الولايات المتحدة لهذا السبب أن تحمل "عبء الرجل الأبيض"، وأن تحقق الديمقراطية والليبرالية الجديدة. وهذه هى الإمبريالية

الليبرالية على طريقة كلينتون. أما لويس، من الناحية الأخرى، فقد اتخذ دوما خطا أكثر تشددا ومن ثم فهو بهذا المعنى أقرب إلى المحافظين الجدد. ولذا ليس من الغريب اتجاه المحافظين الجدد إلى لويس ليزودهم بالذخيرة الفكرية اللازمة لتبرير سياستهم الخارجية؛ فكما يصور دانى كوبر الأمر، فإن المحافظين الجدد " يحتفون بلويس" (٧٢)، وأيضا، وفقا لبوب وودوارد، كان لويس " أثيرا لدى تشيني"، واستخدم تشينى مؤهلات لويس الأكاديمية ومصداقيته مرارا لتبرير مواقفه هو السياسية" (٧٣).

ولذا فإن الطنطنة عن " صدام الحضارات" أصبحت سائدة فى أعقاب أحداث ١١ سبتمبر وكانت هى الأساس الإيديولوجى للحربين فى أفغانستان والعراق فضلا عن الهجمات المحلية على المسلمين والعرب. وبدا لفترة أن المحافظين الجدد لم يكن من الممكن وقفهم، ولكنهم أفرطوا فى استخدام نفوذهم. ففى خلال مدة الولاية الأولى لبوش أقامت إدارته " إئتلافا للراغبين" من أجل غزو العراق، رافضة الانتقادات من حلفاء وصفتهم بطريقة انتقاصية بأنهم " أوروبا القديمة". بيد أن الحرب على العراق لم تمض على النحو الذى أراده المحافظون الجدد. وقاوم الشعب العراقى هيمنة الولايات المتحدة ورَفَضَها، بدلاً من أن يهلل لقدوم القوات الأمريكية كمحررة له. وتوقفت خطة إحداث تغيير فى النظام الحاكم فى كل من إيران وسوريا؛ بل إن أفعال الولايات المتحدة عززت فحسب قوة إيران. ولم تصبح رؤية المحافظين الجدد لشرق أوسط جديد معرّضة للخطر فحسب بل إن تلك الأفعال أبعدت عن الولايات المتحدة حلفاءها السابقين فى أوروبا وعززت الصين (وكذلك روسيا وفنزويلا). وقد حفز هذا على تغيير مفاجئ فى سياسات إدارة بوش، بحيث اتجهت نحو استخدام أساليب متعددة الأطراف بدرجة أكبر. وإضافة إلى ذلك، ابتعدت الإدارة عن القوة " الصلبة" (من قبيل استخدام الإكراه والرشوة) واتجهت نحو كسب " الأفئدة والعقول"، على النحو الذى صوّرته استراتيجية مناهضة التمرد التى ناصرها قائدها العسكرى فى أفغانستان، الجنرال ديفيد بترايوس. وقد بيّن " دليل مناهضة التمرد" العسكرى الصادر عام ٢٠٠٦ الكيفية التى ستُستخدم بها القوة الناعمة فى ميدان المعركة. وفى تصدير الدليل، أوضح بترايوس، مشيرا إلى انقضاء ٢٠ عاما على إصدار المؤسسة

العسكرية الأمريكية دليلا ميدانيا يتناول بالتحديد مناهضة التمرد، هذه العقيدة الجديدة على النحو التالى:

إن حملة مناهضة التمرد هى، على النحو الموصوف فى هذا الدليل، مزيج من العمليات الهجومية والدفاعية وعمليات تحقيق الاستقرار التى يجرى القيام بها وفقا لخطوط متعددة من العمليات. وهى تتطلب جنودا ومشاة بحرية لاستخدام مزيج من المهام القتالية ومن المهارات المرتبطة فى الأغلب بوكالات غير عسكرية. ويتوقف التوازن بين تلك المهام والمهارات على الوضع المحلى. وليس من السهل تحقيق هذا التوازن. فهو يتطلب وجود قادة على جميع المستويات لتعديل هذا النهج باستمرار. ويجب أن يكفلوا جاهزية الجنود ومشاة البحرية لأن يُستقبلوا إما بمصافحة اليدين أو بقنبلة يدوية. ... ومن المتوقع من الجنود ومشاة البحرية أن يكونوا بناة دولة فضلا عن كونهم محاربين. ويجب أن يكونوا على استعداد للمساعدة على إعادة بناء المؤسسات وقوات الأمن المحلية والمساعدة فى إعادة إقامة البنية التحتية والخدمات الأساسية. ويجب أن يكونوا قادرين على تيسير إرساء الحكم المحلى وسيادة القانون. وقائمة هذه المهام طويلة؛ وينطوى القيام بها على تنسيق وتعاون مستفيضين مع كثير من الوكالات الحكومية الدولية وأجهزة الدول المضيفة والوكالات الدولية"(٧٤). [التشديد مضاف].

وإيجازًا، لم يكن كافيا قتل العدو وإلحاق الهزيمة العسكرية به فحسب؛ بل كان من اللازم أن يشارك الجنود فى إقامة البنية التحتية، وتوفير الخدمات الأساسية، وأن يكونوا " بناة دولة ومحاربين" على حد سواء. ودعما لهذا المسعى، جندت وزارة الدفاع الأمريكية فى العام التالى أخصائيين فى الأنثروبولوجيا من خلال برنامج بلغت تكلفته ٤٠ مليونا من الدولارات أُطلق عليه اسم " نظام المجال الإنساني". وقد أوفدت هؤلاء الأخصائيين إلى العراق وأفغانستان لجمع معلومات ثقافية من أجل تحسين عملية تنفيذ الحرب على الإرهاب. وأعلن الأخصائيون عن هدفهم بوضوح: " سيصبح التعاطف سلاحا"(٧٥). وهكذا، كانت الولايات المتحدة تتبع خطى اتبعها نابليون منذ

أمد طويل فى محاولة لتجميع معرفة كى تُستخدم فى السيطرة إيديولوجيًا على الشعوب المستعمَرة.

ولكن مع انتهاء مدة الولاية الثانية لبوش، كان معنى فشل الاحتلال فى أفغانستان والعراق - فضلا عن نشوء أزمة اقتصادية ذات أبعاد لم تُشاهد منذ الكساد الكبير - أن الوقت قد حان لتغيير الحرس. وقد جاء أوباما إلى الحكم بواسطة ناخبين كانوا يشعرون بالاشمئزاز من صلافة نظام بوش. ومنحته أيضا النخبة الحاكمة بركاتها، أملا منها فى إكساب الإمبريالية الأمريكية وجها وديًا بدرجة أكبر. أما فريق الإمبرياليين الآخر فقد كان مستعدا بخطة لإصلاح الصورة العالمية للإمبراطورية الأمريكية.

أوباما والإمبريالية الليبرالية

فى يناير ٢٠٠٧، أعدت مجموعة قيادية معنية بالعلاقات بين الولايات المتحدة والمسلمين ترأسها مادلين أولبرايت، وريتشارد أرميتاج (النائب السابق لوزير الخارجية فى عهد جورج دابليو بوش)، وعدة أكاديميين من أمثال والى نصر وجيسكا ستيرن، وأمريكيين مسلمين من أمثال ديزى خان وإمام فيصل عبد الرؤوف (المشتهر بمشروع دار قرطبة)، وثيقة بعنوان " تغيير المسار: اتجاه جديد لعلاقات الولايات المتحدة مع العالم الإسلامى." وقد نالت تلك الوثيقة مديحا شديدا من شخصيات سياسية من أمثال السيناتور ديك لوجار، وهوارد بيرمان عضو الكونجرس، وليون بانيتا (الذى سرعان ما أصبح مدير وكالة المخابرات المركزية ثم أصبح وزيرا للدفاع)، وكذلك من جنرالات سابقين من أمثال أنتونى زينى [٧٦]، وقد ذكرت تلك الوثيقة فى صفحاتها الاستهلالية أن عدم الثقة بالولايات المتحدة فى البلدان التى يمثل فيها المسلمون أغلبية هو نتاج " سياسات وأفعال، لا نتاج صراع حضارات." ومضت الوثيقة لتقول إن إلحاق الهزيمة " بالتطرف العنيف" يقتضى القوة العسكرية ولكن تلك القوة ليست كافية، وإن الولايات المتحدة من اللازم أن تصوغ " مبادرات دبلوماسية وسياسية

واقتصادية وثقافية". وحث التقرير قيادة الولايات المتحدة على تحسين " الاحترام والتفاهم المتبادل بين الأمريكيين والمسلمين"، والعمل على تحسين " الحُكم وتحسين المشاركة المدنية"، والمساعدة على " تحفيز النمو الذى يؤدى إلى وجود فرص عمل" فى بلدان المسلمين. وكان هذا بمثابة عودة إلى الإمبريالية الليبرالية على طريقة كلينتون، بتشديدها على الدبلوماسية والأسواق. وجاء فى سياق دعوة التقرير إلى اتخاذ إجراءات أنه سيكون من الحيوى بالنسبة للرئيس المقبل أن يتحدث عن تحسين العلاقات مع البلدان التى يمثل فيها المسلمون أغلبية فى خطابه الافتتاحى وأن يعيد تأكيد " التزام الولايات المتحدة بحظر جميع أشكال التعذيب."

ومَنْ ذا الذى كان أفضل من باراك أوباما لبيع هذا الموقف الخطابى الجديد؟ ففى حقيقة الأمر، فعل أوباما فى خطاب تنصيبه ما اقترحته وثيقة تلك المجموعة على وجه الدقة. وفى إحدى أوائل خطبه، فى القاهرة، رفض أوباما حتى مقولة " صدام الحضارات"، مشددا على التاريخ المشترك للشرق والغرب وتطلعاتهما المشتركة. وبينما كان خطاب " الصدام" يرى أن الغرب والعالم الإسلامى يستبعد كل منهما الآخر وأنهما يمثلان نقيضين قطبيين، أكد أوباما على " المبادئ المشتركة". وتحدث عن " ما تدين به الحضارة للإسلام"، واصفًا الإسلام بأنه " مهّد الطريق لنهضة أوروبا وعصر التنوير فيها"، واعترف بمساهمات المسلمين فى تقدم العِلْم والطب والملاحة والهندسة المعمارية والخط والموسيقى. ولا ريب فى أن ذلك كان يمثل اعترافا ملحوظا من قِبَل رئيس أمريكى، ولكن من الواضح أنه كان اعترافا رأى أوباما أنه حيوى لتعزيز صورة الولايات المتحدة فى " عالم المسلمين" التى كانت قد لحقت بها أضرار شديدة" (٧٧)، بل إن هذا الخطاب كان يمثل تحولاً خطابيا مهمًا عن عهد بوش.

إلا أنه كان يتسق مع الخط الذى كان يدعو إليه إمبرياليون ليبراليون. فكما صوَّر جورج ناى الأمر فى مجلة "Foreign Affairs".

إن الكفاح الحالى ضد الإرهاب الإسلامى ليس صدام حضارات بقدر ما هو كفاح إيديولوجى فى إطار الإسلام. وليس بإمكان الولايات المتحدة أن تنتصر إلا إذا انتصر التيار السائد بين

المسلمين. واحتمال الانتصار على أفراد من قبيل أسامة بن لادن بواسطة القوة الناعمة هو احتمال ضئيل إلى حد كبير: فالقوة الصلبة لازمة للتعامل مع هذه الحالات. ولكن يوجد تنوع هائل في الرأى في العالم الإسلامي. ويوجد مسلمون كثيرون لا يوافقون على القيّم الأمريكية فضلا عن السياسات الأمريكية، ولكن هذا ليس معناه أنهم يتفقون مع بن لادن. وليس بوسع الولايات المتحدة وحلفائها هزيمة الإرهاب الإسلامى إذا كان عدد الأفراد الذين يجندهم المتطرفون أكبر من عدد المتطرفين الذين يُقتلون أو يُردعون. وتلزم القوة الناعمة لخفض أعداد المتطرفين وكسب أفئدة وعقول من يمثلون التيار السائد(٧٨).

ولذا اتسمت حقبة أوباما بتحول نحو الإمبريالية الليبرالية وفوبيا الإسلام الليبرالية. والخصائص الرئيسية لفوبيا الإسلام الليبرالية هى رفض نظرية " صدام الحضارات"، والاعتراف بوجود "مسلمين أخيار" يمكن إقامة علاقات دبلوماسية معهم، واستعداد مصاحب لذلك للعمل مع الإسلاميين المعتدلين. وقد تكون فوبيا الإسلام الليبرالية أكثر نعومة من الناحية الخطابية مقارنة بفوبيا الإسلام لدى المحافظين وكذلك (كما سنرى فى الفصل العاشر) لغة " المحاربين دعاة فوبيا الإسلام"، إلا أنها عنصرية وإمبريالية من حيث إنها تسلّم بـ " عبء الرجل الأبيض" كشيء بديهى. ولا يطرأ على بال أمثال ناى وأولبرايت وهاس أن الأشخاص العاديين فى الشرق الأوسط هم الذين يجب أن يتخذوا القرارات المتعلقة بمجتمعاتهم. ولا يندرج الحق فى تقرير المصير ضمن إطارهم، ويظل " التفوق الخيري" قائماً بلا نقاش.

وتمثل سياسة أوباما تحولا نحو التقاليد الواقعية الخاصة بالسياسة الجغرافية للدول العظمى. فكما يصوّر هو نفسه الأمر، " الحقيقة هى أن سياستى الخارجية هى فعلياً عودة إلى السياسة الواقعية التقليدية المشتركة بين الحزبين التى اتبعها جورج بوش الأب، واتبعها جون ف. كنيدى، واتبعها بطرائق ما رونالد ريجان" (٧٩). ومن ثم، بدلاً من الخروج على توافق الآراء الإمبريالى أو على سياسات بوش فى مدة ولايته الثانية، فإن أوباما اعتمد توافق الآراء هذا واعتمد تلك السياسات. وقد أرسل، منذ أن تولى منصبه حتى وقت إعداد هذا الكتاب، ثلاثين ألف جندى إضافى إلى أفغانستان،

وقام بتوسيع نطاق الحرب داخل باكستان (عن طريق استراتيجية " أفغانستان - باكستان")، وحاول أن يُجبر العراق على منح تمديد لاحتلال الولايات المتحدة، (وفشل فى تلك المحاولة)، وشن هجمات باستخدام طائرات بدون طيار و " عملاء" فى اليمن والصومال، وشارك فى حرب حلف شمال الأطلنطى على حليف سابق فى ليبيا، هو معمّر القذافى. وينبغى ألا يكون هذا بمثابة مفاجأة، بالنظر إلى أن موظفيه فى بداية عهده كان من بينهم شخصيات من عهد بوش من أمثال وزير الدفاع بوب جيتس والجنرال ديفيد بترايوس، فضلا عن صقور من الحزب الديمقراطى من أمثال هيلارى كلينتون وجوزيف بايدن. وكانت استراتيجية أوباما تتكون من العودة إلى تعددية الأطراف، باستخدام مؤسسات متعددة الأطراف لضم وإخضاع الخصوم الدوليين والإقليميين. وقد قال فى وثيقة استراتيجيته للأمن القومى التى أعدها فى عام ٢٠١٠: إن الولايات المتحدة ينبغى أن تركز " تدخلها على تعزيز المؤسسات الدولية واستحثاث العمل الجماعى الذى يمكن أن يخدم المصالح المشتركة من قبيل مكافحة التطرف العنيف؛ ووقف انتشار الأسلحة النووية وتأمين المواد النووية؛ وتحقيق نمو اقتصادى متوازن ومستدام؛ وإيجاد حلول تعاونية لخطر تغيّر المناخ، وللصراعات، والأوبئة" (٨٠)، ومع ذلك على الرغم من هذه الاستراتيجية المتعددة الأطراف، لجأت إدارة أوباما إلى اتخاذ إجراءات انفرادية عند الحاجة - منها مثلا اغتيال أسامة بن لادن - وكذلك إلى اتفاقات ثنائية. وكانت رؤية أوباما تتمثل فى القيام، من خلال استراتيجية التدخل هذه، بتأمين نظام عالمى يكون تحت إدارة الولايات المتحدة ويعمل فى صالحها.

وفى الممارسة العملية، لم يتحقق هذا بسلاسة كبيرة. فتدخُّل حلف شمال الأطلنطى فى أفغانستان بدأ يفقد طابعه المتعدد الأطراف، لأن دولاً أوروبية شتى بدأت تسحب قواتها استجابة للمعارضة المحلية. وبحلول نهاية العقد الأول من الألفية الجديدة، كان نهج " الأفئدة والعقول" واستراتيجية مناهضة التمرد قد فشلا تقريباً. ولذا كان على أوباما أن يعود إلى مناهضة الإرهاب ويقول " وداعًا لعمليات بناء الدول ومناهضة التمرد" (٨١)، وكان فشل سياسات بوش التى كان أوباما يتبعها هو إيذان بمرحلة جديدة فى استراتيجية أوباما الإمبريالية.

ففى عام ٢٠١٢، أعادت وثيقة أوباما الخاصة بالتوجيهات الاستراتيجية الدفاعية، وعنوانها " إدامة قيادة الولايات المتحدة للعالم: أولويات من أجل الدفاع فى القرن الحادى والعشرين"، تحديد تركيز السياسة الخارجية للولايات المتحدة وهيكلها العسكرى[٨٢]، فقد أوضحت أن الولايات المتحدة ستواصل مكافحة " المتطرفين العنيفين"، حتى على الرغم من أن اغتيال بن لادن قد أضعف القاعدة. فكما يذكر التقرير، " فإن أتباعها ما زالوا نشطين فى باكستان وأفغانستان واليمن والصومال وفى أماكن أخرى"؛ وسوف " ترصد" المؤسسة العسكرية الأمريكية هذه الجماعات وتوجه ضربة إلى " أخطر الجماعات والأفراد عند الضرورة" [٨٣]، وإيجازاً، كان المقصود هو أن أوباما سيواصل الحرب على الإرهاب ضد عناصر فاعلة من غير الدول عن طريق الرقابة، ولكن أيضا من خلال الهجمات بواسطة الطيارات بدون طيار واستخدام قوات العمليات الخاصة.

بيد أن وثيقة التوجيهات أعادت تركيز الاهتمام على منطقة آسيا والمحيط الهادى واعتبرت الصين وإيران دولتين فاعلتين من اللازم احتواؤهما. وجاء فى الوثيقة أن الولايات المتحدة ستعمل، من أجل ردع الصين واحتوائها، مع " شبكة حلفائها وشركائها"[٨٤]، واعتبرت الوثيقة الهند مصدر تعزيز لأهداف الولايات المتحدة فى آسيا، متجاوزة بذلك باكستان التى كانت حليفة لها لأجل طويل. وعلى نفس المنوال، اتجهت الوثيقة أيضا إلى حلفاء فى الشرق الأوسط، لا سيما دول مجلس التعاون الخليجى، من أجل " منع اكتساب إيران قدرة على صنع أسلحة نووية ومن أجل مناهضة سياساتها المزعزعة للاستقرار"[٨٥]، وغنى عن البيان أنها تؤكد التزام الإدارة الأمريكية بـ " أمن إسرائيل وإيجاد سلام شامل فى الشرق الأوسط." وأخيراً تتجه الوثيقة إلى حلفاء الولايات المتحدة الأوروبيين وإلى حلف شمال الأطلنطى ليقوموا بتحمّل نصيب أكبر من عبء الحفاظ على الأمن العالمى، بحيث يتسنى للولايات المتحدة ليس فحسب أن تنقل بعض قواتها من أوروبا بل أيضًا أن تخفّض حجم قواتها العسكرية.

وقد أدركت إدارة أوباما أن التدخلات من قبيل تلك التى قامت بها فى العراق وأفغانستان هى طريقة خاطئة للتعبير عن قوة الولايات المتحدة. فكما يقول أوباما فى تصديره لوثيقة التوجيهات، إننا سنتذكر " دروس التاريخ ونتجنب تكرار أخطاء الماضى التى حدثت عندما تُركت مؤسستنا العسكرية غير مستعدة للمستقبل. وسوف نكفل، ونحن ننهى حروب الوقت الحاضر ونعيد تشكيل قواتنا المسلحة، أن تكون قواتنا العسكرية خفيفة الحركة ومرنة وجاهزة للمجموعة الكاملة من حالات الطوارئ" [٨٦]، وتمضى الوثيقة قائلة إن " قوات الولايات المتحدة لن يظل حجمها متوافقا مع القيام بعمليات مطولة وعلى نطاق كبير لتحقيق الاستقرار" [٨٧]، وبدلا من ذلك، يبدو أن الطبقة السياسية استخلصت الدرس المتمثل فى أن السبيل لتحقيق أهدافها هو من خلال مهام على شاكلة تدخل حلف شمال الأطلنطى فى ليبيا، الذى انطوى على استخدام القوة الجوية واعتمد على حلفاء محليين ميدانيين. وإيجازاً، فإن المرحلة الجديدة لموقف أوباما الإمبريالى تنطوى على إعادة إرساء هيمنة الولايات المتحدة فى آسيا (منع صعود الصين)، وفى الشرق الأوسط (احتواء إيران) من خلال تحالفات متعددة الأطراف واستخدام الضربات الجوية، والهجمات بواسطة الطائرات بدون طيار، وقوات مكافحة الإرهاب والعمليات الخاصة، فضلاً عن الحرب السيبرانية (الإلكترونية). وعلى الرغم من اتهام اليمين لأوباما بأنه " عميل سرى للمسلمين" يعمل لصالح حكومات أجنبية، فإنه فى حقيقة الأمر إمبريالى ليبرالى على رأس دولة تحاول أن تعيد تأكيد سيطرتها فى عالم يتزايد فيه تعدد الأقطاب.

* * *

لقد تناولت فى هذا الفصل السياسة الخارجية للولايات المتحدة منذ نهاية الحرب الباردة وتتبّعت تطور " التهديد الإسلامى". وكما رأينا، حتى وإن كانت لغة "الإرهاب الإسلامى" قد أخذت تتطور من خلال تفاعل تعاونى بين المحافظين الجدد (ولويس) ونظرائهم فى حزب الليكود فى إسرائيل منذ أواخر سبعينيات القرن

الماضى، فإن هذه الطنطنة لم تصبح الوسيلة السائدة لدى الولايات المتحدة لتبرير إمبرياليتها إلا بعد أحداث ١١ سبتمبر. ثم شهد الوجود الضمنى لنظام بوش تسليم العصا إلى الإمبرياليين الليبراليين، الذين أوجدوا تحولا خطابيا وواصلوا الاستراتيجيات المتعددة الأطراف التى كانت متبعة فى مدة ولاية بوش الثانية للتعبير عن هيمنة الولايات المتحدة ولمواصلتها. وفى مقابل ذلك، حلّت فوبيا الإسلام الليبرالية محل فوبيا الإسلام الخاصة بالمحافظين. إلا أن هذا لم يغيِّر واقع حياة الناس فى "عالم المسلمين"، التى أصبحت أسوأ من بعض النواحى فى عهد أوباما. وهذا يصدق، أيضًا، على البيئة المحلية بالنسبة للمسلمين فى الولايات المتحدة، وهو موضوع نتطرق إليه فى الفصل التالى.

الباب الثالث

فوبيا الإسلام والسياسة الداخلية

الفصل الثامن

شرعنة العنصرية:
المسلمون والتعدى على الحريات المدنية

إن الدولة عندما تكون فى حالة حرب تنقلب عادة على منْ تعتبرهم يمثلون محلياً " العدو الخارجى". وهذا يصدق تحديداً على الولايات المتحدة. فإبان الحرب العالمية الأولى، تعرّض الألمان لغارات على المناطق التى يقيمون فيها. وحظرت عدة ولايات تدريس اللغة الألمانية على أساس أنها تروّج لقيم غير أمريكية. وحتى الكرنب الذى كان يُتناول يوميا أعيد وصفه، رغم تواضعه، بأنه " كرنب الحرية"[1]، وفى أربعينيات القرن الماضى، بعد الهجوم على بيرل هاربر، جرى تجميع ١١٠٠٠٠ شخص من أصل يابانى وزُج بهم فى معسكرات اعتقال. وكان الشباب والمسنون يُسجنون لمجرد وجود سلف لهم يابانى ويُجبرون على العيش فى ظل ظروف قاسية فى معسكرات مرتجلة، تفتقر فى كثير من الأحيان لمرافق الطهى أو حتى الصرف الصحى. وكان قرابة ثلاثة أرباع أولئك الذين يُسجنون يحملون جنسية الولايات المتحدة[2]، وبطبيعة الأمر، لم يكن الأصل القومى ولم يكن العرق هما المصدران الوحيدان للشيطنة. ففى سياق الحرب الباردة، بدأت المكارثية عهدا من التعديات على اليسار وعلى الإيديولوجيات المنشقة. ولم يكن أعضاء الحزب الشيوعى فقط هم ضحايا هذا "الرعب الأحمر"، بل تعرّض أيضًا لرقابة الدولة وترويعها فى ستينيات القرن المنصرم اليسار الجديد، بما يشمل أعضاء الحركة المناهضة للحرب الفييتنامية، وحركة الحقوق المدنية، وغيرهما.

وحاليًا، استُخدمت أحداث ١١ سبتمبر لتبرير شن اعتداءات على المواطنين والمقيمين المسلمين. وفي هذا السياق، استُهدف أيضًا الحق في الانشقاق. وكما يقول الصحفي ستيفان ساليسبيري في كتابه " أشباح محمَّد " تبدأ دائما عمليات المراقبة وجمع المعلومات باستهداف مجموعة داكنة البشرة من الغرباء - الأمريكيين السود، والمهاجرين الإيطاليين، واليهود، والعرب. وتُمزج الإثنية والعِرق بـ 'إيديولوجيا خارجية، من قبيل الفوضوية، أو الاشتراكية، أو الشيوعية، أو القومية السوداء، أو الجهاد'. ويغذي الخوف التربة العامة، وتدفع السلطة الحكومية المحراث"[٣]، وهو يضيف قائلا إن ما يبدأ بـ " غرباء داكني البشرة" يتطور ليشمل جميع أولئك الذين لا يوافقون على أجندات الحكومة. فعلى سبيل المثال، لا يستهدف برنامج المراقبة الخاص بإدارة شرطة نيويورك، الذي ترد مناقشته لاحقا في هذا الفصل، الأمريكيين المسلمين فحسب بل يستهدف أيضًا الجماعات السياسية الليبرالية[٤]. كذلك، استخدم مكتب التحقيقات الفيدرالي 'العملاء المحرضين' للإيقاع بالنشطاء في حركة "احتلوا وول ستريت"[٥].

أما الفرع التنفيذي لحكومة الولايات المتحدة فمنوطة به مهمة مراقبة العدو الداخلي وذلك من خلال جهازه المختص بإنفاذ القانون. وهذا يشمل طائفة واسعة من المؤسسات من قبيل مكتب التحقيقات الفيدرالي، وإدارة أمن الوطن، والمركز القومي لمكافحة الإرهاب، وإدارة العدل، وإدارات شتى تابعة للشرطة في المدن، ومنظومة المحاكم. ومنذ أحداث ١١ سبتمبر، أعيد تشكيل الجهاز القانوني ليخدم أهداف الحرب على الإرهاب، وهي عملية أفضت إلى انتهاكات ممنهجة لحقوق المسلمين. وكانت النتيجة هي كابوس بالنسبة للمسلمين، لا سيما بالنسبة للعرب ومنْ ينتمون إلى جنوب آسيا في الولايات المتحدة. وكل أسرة تقريبًا من أسر المسلمين تعرف شخصا ما وقع في براثن هذا. وفي بداية العقد، كانت بروكلين تؤوي نحو رُبع مليون شخص من أصل باكستاني. وبحلول عام ٢٠٠٣، قيل إن ما يتراوح من ٥٠ إلى ٦٠ ألفًا منهم قد رحلوا؛ أو سُجنوا أو جرى ترحيلهم، أو فروا هاربين من عقلية المطاردة التي تسود المدينة[٦].

ويقدم هذا الفصل عرضا عاما للطرائق التى استهدفت بها أوساط إنفاذ القانون المسلمين (سواء كانوا مواطنين أو مهاجرين) منذ عام ٢٠٠١، ولكن تقديم تفاصيل جميع الطرائق التى جرى بها ليّ عنق القانون لإتاحة المراقبة وإلقاء القبض والاعتقال إلى أجل غير مسمى والتعذيب والإبعاد هو أمر يتجاوز نطاق هذا الفصل. وبدلا من ذلك، يقدم الفصل لمحة عامة خاطفة عن الكيفية التى شارك بها جهاز إنفاذ القانون فى تلفيق وجود " الإرهابى الإسلامي" داخل الولايات المتحدة واضطهاده. وبينما تشرف مؤسسة السياسة الخارجية على الحرب على العدو فى الخارج، يستهدف جهاز إنفاذ القانون العدو فى الداخل. وخلاصة ذلك هى مشهد إرهاب يُبقّى عليه باستمرار حيًا فى الخيال الأمريكى.

ترويع العرب والمسلمين

بينما يوجد للعنصرية ضد العرب والمسلمين تاريخ طويل فى الولايات المتحدة، اتخذ الاضطهاد القانونى لهم شكلا مؤسسيا فى أوائل سبعينيات القرن الماضى. وكان السياق العام هو الصراع العربى - الإسرائيلى، ونمو منظمة التحرير الفلسطينية، واستغلال الكفاح المسلح فى سبيل التحرر الوطنى. وكما رأينا فى الفصول السابقة، بدأ ربط أعداء إسرائيل بـ " الإرهاب" فى ذلك الوقت تقريبا. وحدث أحد المظاهر القانونية الأولى لهذا المنطق فى الولايات المتحدة بعد حادث شائن وقع فى دورة ميونيخ الأوليمبية عام ١٩٧٢ أخذت فيه مجموعة من الفلسطينيين رياضيين إسرائيليين كرهائن وقتلتهم. وردا على ذلك، أطلقت إدارة نيكسون " عملية بولدر"، التى منحت وكالات إنفاذ القانون " تفويضًا مطلقًا للتحقيق مع الأفراد ذوى الأصل العربى، سواء كانوا مواطنين أم لم يكونوا، بدعوى تحديد علاقتهم الممكنة و/أو المحتملة بأنشطة " إرهابية" تتعلق بالصراع العربى - الإسرائيلى" (٧)، ومن ثم، أصبح عمل من أعمال العنف ارتكبته حفنة من الفلسطينيين فى ميونيخ هو أساس اعتبار جميع العرب موضع شبهة ويجدر التحقيق معهم لهذا السبب.

وتقول إيلين هاجوبيان إن مصادر المخابرات الصهيونية كانت مرتبطة بالعملية. ولذا لم يكن مفاجئنا استهداف العرب، رغم أن رابطة الدفاع اليهودية هى التى كانت قد ارتكبت أعمال إرهاب معروفة وجرى التحقق منها فى الولايات المتحدة. بل إن تلك الرابطة كانت، وفقًا لدراسة أجرتها مؤسسة راند، إحدى أنشط الجماعات الإرهابية (حسب تصنيف مكتب التحقيقات الفيدرالي) لأكثر من عقد من الزمان[٨].

وبعد أزمة الرهائن الإيرانية، اتخذ الرئيس كارتر إجراءات مماثلة ضد الإيرانيين فى الولايات المتحدة. وقد استمرت أنشطة مكافحة " الإرهاب" هذه فى عهد ريجان. وأطلق بوش الأب برنامجا لمراقبة الأمريكيين العرب فى عام ١٩٩١، فى سياق حرب الخليج الأولى. وقام مكتب التحقيقات الفيدرالى باستجواب زعماء المسلمين والناشطين، ومن بينهم المتظاهرون ضد الحرب. واقتضت وزارة العدل الأمريكية من المقيمين والمهاجرين العرب أن تؤخذ بصماتهم، ووضعت إدارة الطيران الفيدرالية نظامًا للتصنيف العنصرى[٩]. ومما لا شك فيه أن المؤتمرين الدوليين لمكافحة الإرهاب اللذين عقدا فى عامى ١٩٧٩ و ١٩٨٤، واللذين نوقشا فى الفصل السابق، قد أسهما فى إيجاد مناخ تزايد فيه تصنيف العرب على أنهم إرهابيون فى ثمانينيات القرن الماضى وحتى تسعينياته.

وفى عهد بيل كلينتون فى عام ١٩٩٦، أصدر الكونجرس قانون مكافحة الإرهاب وفرْض عقوبة الإعدام فعليا، وهو قانون أضفى الطابع القانونى، بين جملة أمور أخرى، على ترحيل المهاجرين – أو، منْ يسمون بلغة القانون البشعة " الإرهابيين الأجانب" – استنادا إلى أدلة سرية. وفى عام ١٩٩٥، عندما قام الإرهابى المسيحى اليمينى الأبيض تيموثى ماكفى بتفجير قنبلة فى مبنى فيدرالى فى مدينة أوكلاهما، فقتل ١٦٨ شخصا، ضمنت هستيريا (الإرهاب) القائمة التى تولدت بعد محاولة تفجير قنبلة فى مركز التجارة العالمى فى سنة ١٩٩٣ إلقاء اللوم فورا على العرب والمسلمين. فقد قال ستيف إميرسون، وهو محارب من دعاة فوبيا الإسلام (ويرد المزيد عنه فى الفصل العاشر)، لنشرة أنباء سى بى إس (CBS) إن التفجير " حدث بنية التسبب فى

أكبر قدر ممكن من الخسائر فى الأرواح ومن الإصابات." وهو ما زعم أنه " سمة من سمات الشرق الأوسط"[10]، وإيجازًا، حتى قبل أحداث ١١ سبتمبر، كان قد أرسى الأساس للاستهداف القانونى للمسلمين والعرب. وكما يوضح إيان ف. هانى لوبين، المنظّر ذو الأهمية البالغة فى مجال العنصرية، فإن النظام القانونى ليس كيانا محايدا يعمل فوق المجتمع وخارجه. بل إن " القانون يعمل ليس فحسب على انعكاس التحيز الاجتماعى بل يعمل أيضًا على ترسيخ ذلك التحيز، بحيث يجعل القانون أداة أساسية فى بناء وتعزيز الإخضاع العنصرى"[11].

وقد أدت أحداث ١١ سبتمبر إلى اقتران الجهاز القانونى بمؤسسة السياسة الخارجية. والآن، أصبح العدو الإرهابى سيكافَح فى الخارج وأيضا فى الداخل. فبعد تلك الأحداث مباشرة، جُمع نحو ١٢٠٠ مواطن وغير مواطن مسلم، معظمهم من العرب ومن جنوب آسيا، وألقى القبض عليهم باتباع إجراءات موجزة، واستجوبهم مكتب التحقيقات الفيدرالى، ودائرة الهجرة والتجنّس(INS)، التى تعرف الآن باسم (ICE) أى (دائرة الهجرة والإنفاذ الجمركي)، ووكالات شتى على صعيد الدولة وعلى الصعيد المحلى لإنفاذ القانون. وقد احتُجزوا لفترات زمنية متباينة، فى حبس انفرادى فى كثير من الحالات، ومع إحاطة العملية بأكملها بالسرية. ولم يتبين أن أيا من هؤلاء الأشخاص " إرهابى" أو تربطه أى صلة بالهجمات التى حدثت فى ١١ سبتمبر [12]، وبعد انقضاء بضعة أشهر، أعلنت وزارة العدل أنها أعدت قائمة تضم نحو ثمانية آلاف شخص تتراوح أعمارهم من الثامنة عشرة إلى الثالثة والثلاثين من بلدان محددة (ولكنها لم تذكر اسم تلك البلدان) كانوا قد دخلوا الولايات المتحدة بعد يناير ٢٠٠٠ ويجب " استجوابهم" من قِبل موظفى إنفاذ القانون. ومن هذه القائمة، ألقى القبض على أقل من ٢٠ شخصا بتهم تتعلق بالهجرة وألقى القبض على ثلاثة بتهم جنائية، ولكن لم يتضح وجود أى صلات لأى منهم بالإرهاب[13]، وحتى عندما أكد جورج دابليو بوش مرارا للعالم أن الولايات المتحدة ليست فى حرب مع الإسلام أو مع المسلمين، كان يجرى جمع المسلمين العاديين وترويعهم (بكلا معنيى الكلمة) من خلال منطق الذنب بحكم الارتباط.

واقتضى برنامج آخر بدأ تطبيقه فى عام ٢٠٠٢، هو نظام الأمن القومى لتسجيل الدخول والخروج، الذى يرجع فى أصوله إلى قانون مكافحة الإرهاب وفرْض عقوبة الإعدام فعليًا (AEDPA) الذى صدر عام ١٩٩٦ وعدّله قانون "USA PATRIOT"، من المهاجرين الذكور، البالغين من العمر ستة عشر عاما فأكثر، القادمين من خمسة وعشرين بلدا أن يتقدموا إلى مكاتب دائرة الهجرة والتجنس من أجل " أخذ بصماتهم، وتصويرهم فوتوغرافيًا، واستجوابهم، ونسخ معلوماتهم المالية، أو أن يسجلوا أنفسهم عند دخولهم البلد ثم يعيدوا تسجيل أنفسهم بعد ثلاثين يوما"، كما تقول الباحثة القانونية نانسى موراى(١٤)، (وقد سُميت البلدان هذه المرة، وكان من بينها بلدان يمثل فيها المسلمون أغلبية وبلدان من الشرق الأوسط فضلا عن كوريا الشمالية.) وبحلول خريف عام ٢٠٠٣، كان أكثر من ثلاثة وثمانين ألفًا من المقيمين المهاجرين قد سجلوا أنفسهم فى إطار البرنامج. وكمكافأة على مبادرتهم، وجد ١٣ ٧٩٩ منهم أنفسهم يواجهون إجراءات الترحيل. أما فيما يتعلق بما إذا كان " إرهابيون" قد جرى إلقاء القبض عليهم فى إطار هذا البرنامج، فإن أحد عشر شخصا تبين أن لهم " صلات" بالإرهاب. ولم يسفر البرنامج عن إدانة واحدة بتهمة الإرهاب(١٥). وقد أوقف العمل به فى نهاية المطاف عام ٢٠١١، ولكن تداعياته ما زالت باقية.

وفى عام ٢٠٠٣، ألقى القبض على ١ ٠٠٠ شخص آخرين كجزء من برنامج للإمساك " بالمتخفين" من دول الشرق الأوسط الذين بقوا فى الولايات المتحدة بعد انتهاء تأشيراتهم والذين قد تكون لديهم معرفة بـ " نشاط إرهابى"(١٦)، وقد وُضع كثيرون من هؤلاء الأشخاص" على طائرات متجهة إلى جهات لا يعرفون فيها أحدًا. وتركوا وراءهم أعمالهم وبيوتهم وأسرهم، ومن بينهم أطفالهم المولودون فى أمريكا"(١٧)، وهذه الأفعال ليست سوى عملية شيطنة جماعية للمسلمين، الذين أصبحوا الآن " مذنبين إلى أن تثبت براءتهم." وعواقب هذه الأفعال تتجاوز بكثير جماعات المسلمين العرب الذين ينحدرون من جنوب آسيا. فسرعان ما أصبح

الناشطون من أجل السلام ومنظمو القوى المناهضة للحرب من غير المسلمين هدفا للمراقبة والاستجواب أيضا.

وهذا القمع للآراء المخالفة ليس جديدا؛ ففى ستينيات القرن الماضى شن مكتب التحقيقات الفيدرالى برنامجه للاستخبارات المضادة، المعروف باسم COINTELPRO، لتتبع أعضاء حركة اليسار الجديد، لا سيما حركة القوة السوداء، ولاختراقهم وتهديدهم وتجريدهم من المصداقية والتحرش بهم. وكما يقول المحامى ستيف داونز، "نشر مكتب التحقيقات الفيدرالى تقارير كاذبة فى وسائط الإعلام، ولطخ سمعة أولئك الأفراد من خلال رسائل وشائعات مزيفة، واستخدم عملاء محرضين لإحداث حالة خلل فى المنظمات والتسبب فى عمليات اعتقال بناء على أسانيد مزيفة، ومارس أعمال العنف، وتعدّى بطرائق أخرى كثيرة على قدرة المنظمات المستهدفة على العمل وعلى تحقيق أهدافها السياسية ... بدعوى حماية الأمن القومى، ومنع العنف، والحفاظ على النظام الاجتماعى والسياسى القائم". وقد لقى البرنامج انتقادا عاما فى سبعينيات القرن الماضى وتم وقفه؛ وأعلن النائب العام إدوارد هـ. ليفى أن " هذا النشاط لا يمكن السماح به فى مجتمعنا"[١٨]، ومع ذلك رئى فى خضم حالة الخوف التى سادت بعد أحداث ١١ سبتمبر أن الانتهاكات المنهجة للحريات المدنية ليست فحسب من الممكن السماح بها بل هى ضرورية " للحفاظ على أمن الأمة".

ونتيجة لذلك، باستطاعة مكتب التحقيقات الفيدرالى الآن أن يجمع معلومات عن "الجماعات العرقية المركّزة"، بدعوى أن هذه المعلومات يمكن أن تساعد فى تحليل "التهديدات وأوجه الضعف المحتملة" وتساعد فى " الوعى العام"[١٩]، فببسيط العبارة، مسموح قانونا لمكتب التحقيقات الفيدرالى بأن يصنّف الجماعات المسلمة تصنيفا عِرقيا، وإن كان لا يستخدم هذا المصطلح. فالقانون الفيدرالى يحظر التصنيف على أساس العنصر أو الأصل العرقى، ولكنه لا يحظر صراحة التصنيف على أساس الديانة أو الأصل القومى. ومن القانونى تماما افتراض أن يكون المسلم الورع من بلدان الشرق الأوسط مرتبطا بالإرهاب[٢٠]، وهذه الممارسات العنصرية من الناحية

الثقافية يجرى تبريرها من خلال النظريات العلمية الزائفة المتعلقة بفكرة " الراديكالية" التي سيرد بحثها لاحقا في هذا الفصل. وإيجازا، ما نراه هنا هو التطبيق العملي من جانب مكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالات إنفاذ القانون الأخرى لإحدى الأكاذيب التي وردت مناقشتها في الفصل الثالث – وكنهها هو أن " الإسلام عنيف بطبيعته" – في أنشطتها اليومية.

المراقبة والاحتجاز والترحيل

في أغسطس ٢٠١١ بدأت وكالة اسوشيتدبريس في إصدار سلسلة من التقارير التي توثّق مراقبة إدارة شرطة مدينة نيويورك لجماعات العرب والمسلمين في شمال شرق الولايات المتحدة. فقد قامت تلك الإدارة، بعد أن تلقت تدريبا من وكالة المخابرات المركزية، بالتجسس على المساجد (بالاستعانة في الغالب بمخبرين يُطلق عليهم اسم "mosque crawlers")، والمراكز المجتمعية، ومؤسسات الأعمال المملوكة للمسلمين، والمكتبات الدينية، وطائفة من " البؤر" الأخرى"[٢١]، وتوغل عملاء " الوحدة الديمغرافية" في إدارة شرطة مدينة نيويورك سراً في أحياء الأقليات في منطقة الولايات الثلاث (نيويورك، ونيوجيرسي، وكنيتيكيت) من أجل الحصول على معلومات في إطار ما يسمى " برنامج التصنيف البشري"[٢٢].

ولقيت التقارير اهتماما كبيرا من وسائط الإعلام السائدة ووجِّه انتقاد لاذع لها. فقد أصدر رؤساء الكثير من الجماعات المستهدفة بيانات تدين تجسس إدارة شرطة الولايات المتحدة. وكتب ريتشارد لفين، رئيس جامعة ييل، يقول إن " المراقبة البوليسية المستندة إلى الديانة أو القومية أو الآراء السياسية المعرب عنها بشكل سلمي تتعارض مع قيَم جامعة ييل، والأوساط الأكاديمية، والولايات المتحدة"[٢٣]، وأعلن كذلك كوري بوكر عمدة نيوآرك أن التصنيف على أساس الديانة يشكل " تعديا واضحا على حريات مواطنينا الأساسية"[٢٤].

وكانت هذه الحقائق التى تكشفت هى أول مناقشة عامة، بعد انقضاء عقد كامل على أحداث ١١ سبتمبر، بشأن الانتهاكات المنهجة لحريات المسلمين والعرب المدنية. فقد أتاحت التقارير لأمريكيين كثيرين أول لمحة لهم بشأن الكابوس الذى يعانيه المواطنون والمهاجرون المسلمون. ولكن برنامج المراقبة الخاص بإدارة شرطة مدينة نيويورك هو مجرد قمة جبل الجليد. فبرامج المراقبة من هذا القبيل ليست واسعة الانتشار فحسب فى أوساط إنفاذ القانون، بل إن جرائم أسوأ ضد حقوق الإنسان ما زالت طى الكتمان. فوسائط الإعلام لم تهتم اهتماما كبيرا بالسجناء الذين تساء معاملتهم من خلال احتجازهم إلى أجل غير محدد بدون أن يكون لهم الحق فى الحصول على محاكمة، ومن خلال الحبس الانفرادى، والتعذيب. فبينما نال تعذيب السجناء المسلمين فى أماكن من أمثال سجن أبو غريب وخليج جوانتانامو اهتماما بحيث تصدّر الصفحات الأولى فى الصحف بعد بث صور فوتوغرافية مخزية، ما زالت المناقشة العامة لتلك المسألة تعكس إيمانا ساذجًا بأن العدالة هى التى تسود فى "أرض الأحرار". غير أن جين ثيوهاريس تقول فى مقالة لها بعنوان " جوانتانامو فى الداخل"، إن " مشكلة التعذيب والانتهاكات الأخرى لحقوق الإنسان فى 'الحرب على الإرهاب' التى تشنها أمريكا جرى تصويرها على أنها مشكلة تحدث خارج شواطئنا إلى حد كبير. والافتراض الأساسى هو أنه إذا جرت محاكمة معتقلى جوانتانامو على أرض الولايات المتحدة وفى محاكم فيدرالية (كما تطالب جماعات كثيرة)، لما حدثت تجاوزات شائنة من هذا القبيل" [٢٥]، ولكن فى حقيقة الأمر، وكما تقول ثيوهاريس، هذا الافتراض غير حقيقى.

فثمة تقرير صدر عام ٢٠١١ ويحمل عنوانا مناسبا هو " تحت الرادار: المسلمون يجرى ترحيلهم واحتجازهم وحرمانهم من حقوقهم بناء على ادعاءات الإرهاب غير المدعومة بأسانيد "، أصدره مركز حقوق الإنسان والعدالة العالمية فى كلية الحقوق بجامعة نيويورك، يوثّق الطرائق التى استُخدم بها القانون " لتصوير المسلمين على أنهم يشكلون تهديدات خطيرة للأمن القومى" [٢٦]، ويقول التقرير إن " الانتماءات

الدينية والثقافية والسياسية للمسلمين وأنشطتهم المشروعة يجرى تأويلها على أنها عوامل خطرة ذات صلة بالإرهاب وذلك لتبرير الاحتجاز والترحيل والحرمان من استحقاقات الهجرة" (٢٧)، ومن طرائق ذلك تصوير المسلمين على أنهم إرهابيون فى الحالات التى تتعلق فى حقيقة الأمر بانتهاكات قوانين الهجرة. ويذكر التقرير أن التُّهم التى تساق ضد المهاجرين المسلمين " تتعلق دوما تقريبا بانتهاكات عادية لقوانين الهجرة"، ومع ذلك فإن الحكومة كانت توحى دائما بوجود صلات لهم بالإرهاب بدون أن تقدم أى دليل على هذه الادعاءات(٢٨).

وتصور قصة فؤاد فرحى هذا الاتجاه. ففرحى، وهو إمام ينحدر من أصول إيرانية، جاء إلى الولايات المتحدة عام ١٩٩٤ حاملا تأشيرة طالب ثم قدّم لاحقا طلبا للحصول على اللجوء السياسى. وبعد أحداث ١١ سبتمبر، فاتحه مكتب التحقيقات الفيدرالى عدة مرات فى أن يصبح مخبرا وأن يتجسس على جماعته. وقد دأب على الرفض. وفى جلسة النظر فى طلبه الحصول على اللجوء، التقى به وكلاء إنفاذ القانون فى المحكمة وأخبروه أن لديهم دليلا على أنه سبق له أن أيّد جماعة إرهابية. وخيّروه بين أن يتنازل عن قضيته ويترك الولايات المتحدة طوعا أو توجّه إليه تهمة أنه إرهابى. وفى البداية اختار فرحى الرحيل طوعا، خوفا بلا ريب من احتمال أن " يختفي" مثله مثل رجال مسلمين آخرين كثيرين. ولاحقا، عندما أدرك أن الدولة لا تملك أى مسوغات ضده، فإنه قرر أن يناضل. ورغم طلباته المتكررة، رفضت الدولة أن تطلعه أو تطلع محاميه على أى معلومات تتعلق بالإرهاب كى يتسنى لفرحى أو لمحاميه تقديم مرافعة دفاع. وفى نهاية المطاف، رُفض أمر ترحيل فرحى طوعًا وتقررت إعادة فتح قضية طلبه اللجوء(٢٩)، أما الآخرون الذين لم يكونوا بقدر شجاعة فرحى – أو الذين ربما كانوا سيخسرون أكثر منه – فقد أذعنوا لهذا الضغط. ويستخدم العاملون فى مجال إنفاذ القانون عادة التهديدات المستندة إلى أدلة واهية أو التى لا تستند إلى أى أدلة لإكراه الأشخاص على التعاون فى الحرب على الإرهاب وعلى أن يصبحوا وشاةً، أو يواجهوا انتقام الدولة.

والكابوس الآخر الذى كان على المواطنين والمهاجرين المسلمين أن يتحملوه هو الاعتقال والاحتجاز لفترات زمنية طويلة. فقد جرى لىّ عنق القانون لإتاحة عمليات الاحتجاز هذه باسم الأمن القومى. وتسلط مقالة " تحت الرادار " الضوء على الاتجاه المتمثل فى تصوير المهاجرين المسلمين على أنهم يشكلون تهديدات واحتجازهم لارتكابهم مخالفات طفيفة لقانون الهجرة لا تبرر عادة هذا الاحتجاز. وحتى أولئك الذين لم يخرقوا القانون يجدون أنفسهم فى مراكز الاحتجاز أحيانًا. وتروى الصحفية عليّة مالك، فى كتابها " قوانين الوطنية "، قصة مراهقة جرى احتجازها بتهمة كونها إرهابية:

فى ٢٤ مارس ٢٠٠٥ استيقظت أداما باه، وهى فتاة مسلمة فى السادسة عشرة من عمرها، فى الفجر لتكتشف وجود زهاء اثنى عشر شخصا من رجال مكتب التحقيقات الفيدرالى المسلحين داخل شقة أسرتها فى شرق حى هارلم. وقد ألقوا القبض عليها وعلى أبيها، محمدو باه، ونقلوهما إلى مركزى احتجاز منفصلين. وزعمت وثيقة حكومية جرى تسريبها إلى الصحافة أن أداما كانت قنبلة بشرية انتحارية محتملة ولكنها لم تقدم أى دليل لدعم هذا الادعاء. وأجبرت أداما، عندما أفرج عنها بعد أن قضت ستة أسابيع رهن الاحتجاز، على العيش تحت الإقامة الجبرية الجزئية فى منزلها وهى مقيدة بسلسلة من كاحلها، مع فرض حظر حكومى على تجوالها، وتقييد حريتها فى الكلام بموجب أمر صادر عن محكمة منعها من التحدث عن حالتها. وفى أغسطس ٢٠٠٦، أعيد والد أداما إلى غينيا، بأفريقيا. ووجدت أداما، التى كانت قد سافرت إلى الولايات المتحدة مع والديها من غينيا وهى طفلة، نفسها تواجه الترحيل أيضا. وقد قضت السنوات القليلة التالية وهى تكافح فى سبيل الحصول على اللجوء وتناضل لإعالة أسرتها فى الولايات المتحدة وغينيا(٣٠)، [التشديد مضاف].

وباه ليست المراهقة الوحيدة التى تعرضت لصدمة من هذا القبيل. فمصطفى بيومى يحكى، فى كتابه المؤثر " كيف يشعر المرء أنه يمثل مشكلة؟: لكونه شابا وعربيا فى أمريكا "، قصة مراهقة أخرى انتُزعت من حياتها فى بروكلين وأودعت رهن الاحتجاز. ويشير إليها بيومى باسم " رشا" لحماية هويتها. ففى إحدى الليالى توجه

رجال مكتب التحقيقات الفيدرالى إلى منزل رشا ووضعوها هى وأسرتها بأكملها فى مراكز احتجاز. وكانت أسرتها تنتظر الاستجابة لالتماسها الحصول على الهجرة قانونيًا، ولكنها كانت محتجزة على أية حال. ويصف بيومى تجربة رشا التى دامت عدة أشهر فى مركز الاحتجاز على النحو التالى:

لقد توقفت عن تناول الطعام لفترة ما. وكانت تستلقى على سريرها لمدة يومين أو ثلاثة أيام بصفة مستمرة فى بعض الأحيان، وفى النهاية تغادر سريرها يوما ما عندما ينفتح باب الزنزانة بحيث تتمكن من الانضمام إلى الأخريات وتناول الطعام. مثل فئران المختبرات، كما كانت تشعر.

وقد تخلصت ببطء من حالة اكتئابها، ولكنها لم تتمكن من الكف عن الشعور بالغضب. وحاولت أن تحوّل غضبها إلى درس حياتى، بحيث تؤمن بأن الله كان يحاول أن يبيّن لها طبيعة إنسانيتها. ولكنها كانت تشعر بأن ثمة خطأ قد ارتُكب فى حقها. فهى لم يسبق لها قط فى حياتها أن ظنت أن الأمر سينتهى بها فى السجن إلا إذا كانت قد ارتكبت جريمة. فلماذا إذًا كانت هنا؟ بأى جريرة؟ لأنها بقيت فى البلد بعد انتهاء تاريخ تأشيرتها وأصبحت الآن لا تملك الوثائق اللازمة؟ إنها لم ترتكب أى جريمة، وهى تعَاقب بجريرة تصرفات شخص آخر. بجريرة جريمة ارتكبها شخص آخر. ولم تصدر إدانة لها. ومن ثم فقد اختُطفت.

لم تكن هذه عدالة. بل كانت انتقاما [٢١].

وفى نهاية الأمر، أُطلق سراح أسرة رشا، وكانت هذه هى قصة آلاف من الرجال والنساء – الصغار والكبار، المواطنين وغير المواطنين – الذين أُلقى القبض عليهم واحتُجزوا وجرى ترحيلهم باسم الحرب على الإرهاب. وقد بررت الحكومة هذه المعاملة، حتى معاملة أولئك الذين لم يرتكبوا أى مخالفة، بقولها إن " المقاضاة الاستباقية" ضرورية لإبقاء أمريكا آمنة. والمقاضاة الاستباقية هى الشكل القانونى المحلى لمبدأ " الحرب الإجهاضية"، الذى وردت مناقشته فى الفصل السابق. فإذا كان الأساس المنطقى للحرب الإجهاضية هو الحيلولة دون ظهور خصم فى المستقبل

للولايات المتحدة على الساحة العالمية، فإن المقاضاة الاستباقية تتعلق باعتقال الإرهابيين " المحتملين".

المقاضاة الاستباقية

تنطوى المقاضاة الاستباقية على استهداف أناس أبرياء لم يرتكبوا فى حقيقة الأمر أى مخالفة. وهى تشمل طائفة متنوعة من الأساليب من قبيل استخدام ' العملاء المحرِّضين' لتحريض الناس على ارتكاب أفعال، لم يكونوا لولا ذلك التحريض ليرتكبوها، كىْ توجّه لهم تهمة " تقديم الدعم المادى" للإرهابيين، وهو ما يمكن أن ينطبق على أى شىء حميد من قبيل منح نقود لمؤسسة خيرية. والمنطق الذى تقوم عليه هذه الحالات هو أن المسلمين " مهيؤون مسبقًا " بطبيعتهم لارتكاب أعمال عنف ولذا ينبغى احتجازهم. ويفسر داونز ذلك قائلا إن " الحكومة تزعم، كى تثبت هذا التهيؤ المسبق، أن السلوك العادى الروتينى للمتهمين – ملبسهم وشعائرهم الدينية ومعاملاتهم المالية الإسلامية ومطبوعاتهم الأدبية وما إلى ذلك – تشير إلى 'تهيؤ مسبق' لممارسة الإرهاب، استنادا إلى الفكرة النمطية الزائفة المتمثلة فى أن جميع المسلمين مهيؤون سلفا لممارسة الإرهاب. فإذا كانوا 'مسلمين' بدرجة كافية، فإنهم 'مهيؤون سلفا' بدرجة كافية" [٣٢].

وهذا المنطق الغريب يذكرنا بفيلم ستيفن سبيلبيرج اللايوطوبى " تقرير الأقليات " الذى تقرأ فيه وحدة " ما قبل الجريمة" عقول الناس كى تلقى القبض عليهم قبل أن يرتكبوا فعلا أى جريمة وذلك بدعوى أنهم "مهيأون مسبقا" للقيام بذلك. وفى الفيلم تُغلق تلك الوحدة. أما فى الحياة الحقيقية فيواجه عشرات من الأشخاص السجن لمدة تبلغ ٢٠ عاما فى المتوسط بتهمة جرائم لم يرتكبوها؛ ومع عدم قتل أحد، ومع عدم تدمير أى ممتلكات [٣٣]، وأناقش هنا بضع حالات من المقاضاة الاستباقية.

« تقديم الدعم المادى » للإرهابيين

لقد استُخدمت تهمة " تقديم الدعم المادي" للإرهاب ضد أشخاص لأسباب شتى، تبدأ من التبرع لمنظمات خيرية وتنتهى بالمشاركة فى احتجاجات مضادة للحرب. والإحسان هو إحدى ركائز الإسلام الخمس، وهى واجب دينى على جميع المسلمين، ومع ذلك أغلقت إدارة بوش بعد أحداث ١١ سبتمبر المنظمات الخيرية الإسلامية جميعها تقريبا التى كانت تعمل فى الولايات المتحدة وجمّدت أصولها، زاعمة أن ذلك بهدف منع تدفق أموال لـ " إرهابيين". وقد ساوت، فى قيامها بذلك، بين هذا الجانب الأساسى من العقيدة الإسلامية وبين مساعدة " أعداء" الولايات المتحدة. وحوكم المسلمون الذين قدموا تبرعات لمنظمات خيرية، تبرعت بعد ذلك بتلك الأموال لجماعات اعتبرتها حكومة الولايات المتحدة " منظمات إرهابية أجنبية"، بتهمة تقديم الدعم المادى للإرهابيين. وكما يوضح مايكل راتنر، الذى يعمل فى مركز الحقوق الدستورية، يُعتبر حتى الاتصال المحدود، من قبيل تقديم بطانيات لمستشفى مرتبطة بمنظمة إرهابية أجنبية أو تدريس أشكال من تسوية النزاعات لا تتسم بالعنف لمنظمة من هذا القبيل، دعما ماديا[٣٤].

وقد ادُّعى أن أكبر منظمة خيرية إسلامية فى الولايات المتحدة، وهى مؤسسة الأراضى المقدسة، مرتبطة بمنظمة حماس وأُغلقت بمقتضى أمر تنفيذى صدر بعد أحداث ١١ سبتمبر بفترة وجيزة. وخلال المحاكمة التى أعقبت ذلك، تبيّن تمامًا أن قادة مؤسسة الأراضى المقدسة لم يرتكبوا أى شكل من أشكال العنف أو يقدموا الدعم له أو يشجعوه، وعلاوة على ذلك تبين أن الأموال التى أرسلت إلى الخارج استُخدمت فى توفير الاحتياجات والخدمات الأساسية للفقراء المعوزين، مثلا للفلسطينيين الذين يعانون فى ظل الأزمة الإنسانية فى غزة. ولم تُثبت الحكومة وجود أى روابط تمويلية مباشرة بـ " الإرهاب." وبدلا من ذلك، استندت القضية إلى حجة أن المؤسسة أرسلت نقودا إلى لجان الزكاة التى تسيطر عليها حماس. وحاجج الدفاع بأن هذه اللجان الخيرية هى السبيل الوحيد الذى يمكن أن تصل من خلاله

المعونة إلى الأشخاص الذين يحتاجون إليها، وأن وكالات الأمم المتحدة ووكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية استعانت أيضا بنفس اللجان. وأوضح الدفاع أن سبب سيطرة حماس على تلك اللجان هو أن حماس هي الحكومة الفلسطينية المنتخبة. ومع ذلك، استطاع ممثلو الادعاء، من خلال بث الخوف العنصري، أن يحصلوا على إدانات قاسية للمتهمين. إذ يقضي اثنان من المتهمين عقوبة السجن لمدة خمسة وستين عاما [٣٥].

وقد استُخدمت تُهم تقديم الدعم المادى لاستهداف طائفة واسعة التنوع من الأشخاص. فبينما كان المسلمون هم المستهدفون الرئيسيون، تعرّض غير المسلمين أيضًا لمعاملة مماثلة. ففي عام ٢٠١٠، داهم رجال مكتب التحقيقات الفيدرالى منازل ومكاتب نشطاء مناهضين للحرب (من بينهم مواطنون أمريكيون من البيض) في إلينوى ومينيسوتا ونورث كارولينا. وصدرت أوامر عن هيئة محلفين كبرى بإحضارهم للمثول أمام القضاء بدعوى أنهم قدموا دعمًا ماديا للإرهاب. ولم تقم الدولة فحسب بمساواة نشاطهم السلمى بتقديم الدعم المادى للإرهابيين بل اخترقت أيضًا جماعات يسارية شتى. وأصبح عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالى نشطاء في تلك الجماعات، وقاموا بتكوين صداقات، وسجلوا محادثات خاصة [٣٦].

وفي حالة مأساوية أخرى، أُلقى القبض على فهد هاشمى، وهو مواطن أمريكى نشأ في كوينز، بنيويورك، عام ٢٠٠٦ بتهمة تقديم الدعم المادى للإرهابيين. وكانت جريمة هاشمى هو أنه سمح لشخص يعرفه بأن يبقى في شقته بلندن، وهو رجل يسمى جنيد ببار، كان يحمل مواد ستُنقل فيما بعد إلى القاعدة. وقد يتساءل المرء ما هى أسلحة الدمار الشامل تلك؟ لقد كانت معاطف مطر، وبونشو، وجوارب واقية من الماء. وحسب منطق الحكومة، كان على هاشمى أن يفطن إلى مدى الدمار الذى تسببه الملابس الواقية من الماء وكيف كان يمكن أن تؤدى إلى رجحان توازن القوى في اتجاه القاعدة. ولهذه الجريمة، فقد أودع السجن لمدة أربع سنوات، قضى ثلاث سنوات منها في الحبس الانفرادى.

وقد غطت وسائط الإعلام هذه القصة وكأنما قد اكتُشفت " شبكة إرهاب في مدينة نيويورك، بحيث لم تبتعد بالكاد عن السيناريو الرسمي. وزعم ريموند كيلي، مدير شرطة نيويورك، أن " عملية إلقاء القبض هذه تعزز حقيقة أن أي إرهابي قد تكون له جذور في كوينز ومع ذلك يخدعنا" (٣٧)، وقد ألقي القبض على هاشمي، الذي كان طالبا من طلبة جين ثيوهاريس في كلية بروكلين، وهو ملتحق بكلية الاقتصاد في لندن حيث كان يسعى إلى الحصول على درجة الماجستير. وتصف ثيوهاريس هاشمي بأنه " مسلم ورع وناشط سياسي فصيح" يثير " استعداده الجرىء والعنيد للاعتراض على السلطة" إعجابها. وكان، باعتباره طالبا واعدا وشابا له قناعاته، ينبغي أن يكون أمامه مستقبل باهر ينتظره. وبدلا من ذلك، تصف ثيوهاريس معاملته البشعة في المركز الإصلاحي المتروبوليتاني في جنوب مانهاتن، حيث وُضع رهن إجراءات إدارية خاصة تمنعه من الاتصال بالعالم الخارجي:

> لم يكن مسموحا لفهد بالاتصال بأحد باستثناء محامييه، ووالديه بدرجة محدودة للغاية، إذ لم يكن مسموحا له بأي اتصالات أو رسائل أو بالتحدث من خلال الجدران، لأن زنزانته كانت تخضع للمراقبة الإلكترونية. وكان عليه أن يستحم ويقضي حاجته على مرأى من آلة التصوير. ولم يكن مسموحا له سوى أن يكتب رسالة واحدة أسبوعيا لفرد واحد من أفراد أسرته، باستخدام ما لا يتجاوز ثلاث ورقات. وكان مسموحا لأحد والديه فقط بأن يزوره مرة كل أسبوعين، ولكنه غالبا ما كان يُرد على أعقابه عند الباب لأسباب بيروقراطية. وكان ممنوعا على فهد أي اتصال - مباشر أو من خلال محامييه - بوسائط الإعلام. وكان مسموحا له بأن يقرأ أجزاء فقط من الصحف التي يوافق عليها سجانوه، ولكن ليس قبل انقضاء ٣٠ يوما على صدورها. وكان مسموحا له بالخروج من زنزانته ساعة واحدة فقط في اليوم، ولم يكن مسموحا له بأن يتعرض للهواء الطلق بل كان مجبرا على ممارسة الرياضة في قفص انفرادي(٣٨).

وبعد أربع سنوات من هذه المعاملة استطاعت الدولة أن تحطم معنويات هاشمي. وعبّأ الناشطون صفوفهم لمساندة هاشمي، ولكن ممثلي الادعاء حرصوا على عدم

السماح لهم بدخول قاعة المحكمة، ونالوا تأييدا لاقتراحهم أن تحكم على فهد هيئة محلفين مجهولى الهوية فى ظل إجراءات أمنية مشددة. وضمنت هذه التدابير احتمال أن تكون هيئة المحلفين متحاملة حتى قبل أن تبدأ المحاكمة. وقَبِلَ هاشمى، بعد أن وازن هذه العوامل، صفقة دفاع بشأن تهمة التآمر لتقديم دعم مادى للإرهاب. ورئى أنه تآمر دون قصد لإبقاء أعضاء القاعدة سالمين: ولهذا السبب كان لزاما تدمير حياته. وهو يقضى عقوبة السجن لمدة ١٥ عاما وكان ما زال رهن الحبس الانفرادى والتدابير الإدارية الخاصة فى سجن مشدد الحراسة فى كولورادو وقت تأليف هذا الكتاب.

أما الشخص الذى يعرفه والذى قام بتوريد ملابس المطر إلى القاعدة، ببار، فقد أُطلق سراحه بكفالة فى عام ٢٠٠٨، وفى عام ٢٠١٠ خُففت عقوبته بحيث اقتصرت على " المدة التى قضاها فى السجن". وأشار القاضى إلى أنه " بدأ يتعاون حتى قبل إلقاء القبض عليه" [٣٩]، وقد أدى هذا إلى التكهن بأن ببار أصبح عميلا محرضًا يعمل لحساب الحكومة قبل زيارته شقة هاشمى، وأنه ربما كان قد أُرسل " للإمساك" بهاشمى بسبب آرائه السياسية وانتقاده لسياسة الولايات المتحدة.

العملاء المحرضون والإيقاع فى الفخ

لقد أسفرت زيادة استعانة حكومة الولايات المتحدة بالعملاء المحرضين عن حالات متعددة لإيقاع أشخاص فى الفخ، بحيث جرى تحريض أفراد على تنفيذ مخططات إرهابية لم تكن لتحدث لولا ذلك. فمنذ أحداث ١١ سبتمبر، أدى وجود مخبرين فى المساجد وداخل جماعات المسلمين إلى مقاضاة أكثر من مائتى شخص[٤٠]، ويحدد تقرير مركز حقوق الإنسان والعدالة العالمية المعنون " الاستهداف والإيقاع فى الفخ " مشاكل شتى تكتنف الاستعانة بهؤلاء المخبرين، ليس أقلها أنهم يجرى تجنيدهم من خلال التهديدات، كما هو مذكور آنفا، وكذلك من خلال الرشاوى، من قبيل تخفيف

التهم الجنائية أو إحداث تغيير فى وضعهم القانونى من حيث الهجرة، مما يتسبب فى وجود ما يسميه التقرير " بنية حافزة خطرة" (٤١)، وقد تبين لمعدى التقرير أنه فى الحالات التى درسوها " أقحم مخبرو الحكومة أفكارا عن الجهاد العنيف ودفعوا بهذه الأفكار دفعا مستميتا وعلاوة على ذلك فإنهم ' شجعوا' بالفعل المتهمين على الاعتقاد بأن واجبهم هو اتخاذ إجراءات ضد الولايات المتحدة." وحث المخبرون أيضا المتهمين على اقتناء أشرطة فيديو وأسلحة عنيفة استُخدمت لاحقا لإدانتهم، بل وبلغ بهم الأمر أنهم اختاروا الأماكن التى تقررت مهاجمتها. وإيجازا، بدون القيادة النشطة للعملاء المحرضين، لم تكن " مخططات الإرهاب التى أجهضت" ستوجد إطلاقًا.

وتصور قضية أربعة نيوبيرج كيف يتحقق الإيقاع فى الفخ. وهذه هى قصة أربعة رجال أفريقيين أمريكيين ينتمون إلى أسر فقيرة، كان اثنان منهما لديهما مشاكل نفسية، وخالفوا جميعهم القانون فى مراحل زمنية مختلفة من أعمارهم. وعندما فاتح مخبر من مخبرى مكتب التحقيقات الفيدرالى ديفيد وليامز فى أن يتعاون معه، كان الأخ الأصغر لديفيد قد شُخِّص توًا بأنه مصاب بسرطان الكبد. وكانت الأسرة تحتاج أشد الاحتياج إلى نقود ووعد مخبر مكتب التحقيقات الفيدرالى، شاهد حسين، بتقديم تلك النقود وأكثر منها. وتقول أليسيا ماكويليامز، خالة ديفيد، التى أصبحت ناشطة بشأن قضيته، إن ديفيد " شاهد شقيقه وهو يموت تقريبًا ويُبعث حيا خمس مرات. وكان يدرك أن [شقيقه] لورد بحاجة إلى كبد. وهذه التجربة غيّرت مجرى حياته." فقد استغل المخبر حالة الضعف هذه وحرّض ديفيد وثلاثة آخرين على تنفيذ خطة لتفجير قنابل فى معبد يهودى فى برونكس. ولم يقم حسين باختيار الأماكن وباصطحاب الرجال الأربعة إلى هناك فى سيارته فحسب، بل إنه زودهم بالقنابل، وظل يضيّق الخناق على واحد من الرجال قال له إنه يرفض أن يقتل نساء وأطفالا، بحيث أقنعه فى نهاية الأمر بتنفيذ الخطة. وبدون حسين، لم تكن " خطة الإرهاب" ستوجد. ويتساءل تيد كونوفر، وهو أحد سكان منطقة برونكس المستهدفة، قائلا: "لماذا تصطاد شبكة الحكومة المضادة للإرهاب أشرارا لا يمكن الاقتناع بهم

هكذا: رجال سود على مقربة من مساجد يوافقون، فى مقابل وعود بالحصول على نقود، على مخططات معقّدة لم تكن ستوجد إطلاقًا لولا المخبرون الذين تلقوا أموالا وفيرة كى يحرضوهم؟"(٤٢).

ويلاحظ كونوفر، وهو كاتب مبرّز يعمل فى معهد آرثر ل. كارتر للصحافة بجامعة نيويورك، أن هذه كانت لحظة علاقات عامة متقنة بالنسبة للعاملين فى مجال إنفاذ القانون. فهو يقول إن عملية إلقاء القبض على أربعة نيوبيرج صُممت بشكل يتسم بالكمال. فقد صورت طائرة عمودية تابعة للشرطة شريط فيديو حيا أثناء قيادة حسين لسيارته ومعه هؤلاء الأربعة عبر طريق 'Saw mill river parkway". وبعد أن ترك حسين والأربعة الآخرون قنابل زائفة فى معبد ريفر ديل ومركز ريفر ديل اليهودى، اللذين لا يفصل بينهما سوى صف واحد من المبانى، كشفت وحدة شرطة ضخمة عن وجودها: فقد أغلقت نصف حفارة خاصة نهاية الشارع وأغلقت عربة مدرعة النهاية الأخرى؛ وهاجمت مجموعة من الضباط الذين يرتدون ملابس مدنية المشتبه فيهم، وأخرجت مسدساتها، وحطمت نوافذ مركبات المشتبه فيهم، وأخرجت الرجال منها. وفى غضون ساعة، كان العمدة مايكل بلومبيرج، وراى كيلى رئيس جهاز الشرطة، والمسؤولون المنتخبون المحليون، ومسؤولو الشرطة يقفون فى مكان الحادث وأمام آلات التصوير التلفزيونية، يمتدحون إلقاء القبض على المجرمين الخطرين وتجنّب ما وصفه العمدة بأنه شيء " كان يمكن أن يصبح حادثا رهيبا فى مدينتنا "(٤٣).

وهذا هو شبح " الإرهاب الإسلامى" المبقى عليه حيا.

مشهد الإرهاب

فى العالم الخيالى الذى صوره المسلسل التليفزيونى '٢٤'، يتدخل عميل الحكومة جاك باور (الذى أدى دوره كيفر سازرلاند) لإنقاذ مدنيين أبرياء من مخططات إرهابية شيطانية ومدمرة. وقد نال هذا المسلسل تقديرات عالية واستمر لمدة ثمانية مواسم،

بحيث أصبح أطول مسلسل درامي عن التجسس عرضه تليفزيون الولايات المتحدة (٤٤).
ورغم محاولات المسلسل أحيانا أن يصور مسلمين " أخيارا"، ويصور زعماء أمريكيين أشرارًا، فقد عزز مفهومه المحورى فكرة أن مخططات الإرهاب هى مخططات عميمة وأن عملاء مكافحة الإرهاب من أمثال باور ضروريون لإبقاء الأمريكيين سالمين. وهذا العالم الخيالى يعززه الواقع فى حالات من قبيل حالات أربعة نيوبيرج، التى لم تعزز فيها التغطية الإعلامية الخانعة إلا مخاوف المشاهدين والخوف الجنونى من عميمية " الإرهاب الإسلامى".

ويشير داونز إلى هذا التلاعب بالرأى العام بأنه " أوبرا ضخمة ساخرة " يصف آلياتها على النحو التالى:

تبدأ الدراما فى كثير من الأحيان عندما يبعث مكتب التحقيقات الفيدرالى بعشرات من عملائه لإلقاء القبض على المتهمين، وتفتيش المسجد، واستجواب مئات من الأصدقاء والجيران المذعورين بطريقة تهدف إلى تخويف المجتمع المحلى. ... وفى المحاكمة، كثيرا ما تنشر الحكومة عددا مبالغا فيه من أفراد الأمن لتخويف أفراد هيئة المحلفين ووسائط الإعلام كى يعتقدوا أن المتهمين خطرون فعلا. ويكون هناك وجود ضخم للشرطة حول المحكمة، مع وجود قناصة فوق الأسطح. (منْ هم أولئك الذين يُفترض أن يطلقوا الرصاص عليه؟) وكثيرا ما تطلب الحكومة محلفين وشهودا مجهولى الهوية، وتستدعى خبراء مزيفين، يكونون أساسا معبرين عن أصوات الحكومة، للشهادة بشأن " شبكة إرهابية" خيالية قد تشمل المتهمين. وتقدم الحكومة إلى القاضى أدلة " سرية"، حصلت عليها من المراقبة الإلكترونية غير القانونية، كى تؤثر على حكم المحكمة، وتحول دون اطلاع ممثل الدفاع على تلك المواد أو اعتراضه عليها، وتستخدم المواد التى حصلت عليها من هذه المصادر السرية للطعن فى شخصية المتهم، حتى عندما تكون تلك المواد لا صلة لها بالتهم الموجهة له. وبهذه الطريقة، تخلق الحكومة جوا من الهستيريا والبلبلة للتغطية على عدم وجود أى دليل جوهرى على ارتكاب جريمة حقيقية (٤٥).

ونادرًا ما يشكك الصحفيون الذين ينتمون إلى وسائط الإعلام العامة فى هذه " الأوبرا الضخمة "، ومن ثم يظل قائمًا وهْم أن العاملين فى مجال إنفاذ القانون

" يبقون على أمريكا آمنة" من حشود " الإرهابيين الإسلاميين" البرابرة. ولكن حتى بمساعدة هذا الخداع الدقيق ونظام عدالة بأكمله يُلوى عنقه لخدمة احتياجات الحرب على الإرهاب، لم تتمكن الحكومة إلا من إصدار نحو ٢٠ عريضة اتهام سنويا بشأن مخططات إرهابية عنيفة، وفقا لتقرير من المركز الثلاثى المعنى بالإرهاب وأمن الوطن[٤٦]، ولا يتضح من هذا التقرير عدد نواتج الإيقاع فى الفخ أو أساليب المقاضاة الاستباقية الأخرى. غير أن ما هو واضح هو وجود فجوة ضخمة بين التهديد كما يصوَّر وواقع " الإرهاب الإسلامى ". فمن الأمريكيين الذين قتلوا فى عام ٢٠١١ وعددهم ١٤ ألفا، لم تكن هناك حالة وفاة واحدة ناجمة عن " مخططات المسلمين الإرهابية"[٤٧].

وقد حددت دراسة شاملة للأمريكيين المسلمين الذين خططوا هجمات إما محليا أو دوليا أو الذين انضموا إلى جماعات مدرجة على القائمة الحكومية للمنظمات "الإرهابية" خلال الفترة ما بين سبتمبر ٢٠٠١ ومايو ٢٠١١ ما مجموعه ١٧٢ شخصا مشتبها فى أنهم إرهابيون أو ارتكبوا أعمال إرهاب[٤٨]، ومن أولئك، شن ١١ شخصا فقط بالفعل هجمات داخل الولايات المتحدة، وكانوا مسؤولين عن وفاة ثلاثة وثلاثين شخصا آخرين خلال عقد من الزمان. فماذا عن البقية؟ من الحالات المذكورة فى القائمة وعددها ١٧٢ حالة، كان تسعة وعشرون لا يزالون رهن المحاكمة وقت نشر الدراسة. وكانت ثلاث وستون حالة تنطوى على مخبر سرى، ويذكر التقرير أن الدفاع عن عملية الإيقاع بالمتهمين لم ينجح فى هذه الحالات. وقد حضر أربعة وستون من الأشخاص الوارد ذكرهم فى التقرير " معسكرات تدريب للإرهابيين" فى أفغانستان أو باكستان أو الصومال، وإن كان التقرير يوضح أن معظمهم " لم يتلقوا تدريبا ميدانيا" [٤٩]، ومن هؤلاء الأربعة والستين، عاد ثلاثون فقط إلى الولايات المتحدة. وأخيرا، يذكر التقرير أنه " ما من أمريكى مسلم صدرت ضده عريضة اتهام لمساعدته أو تحريضه عن عِلم على هجمات ١١ سبتمبر" [٥٠]، وإجمالا، قتل ١١ شخصا ترد أسماؤهم فى هذه القائمة ثلاثة وثلاثين شخصا خلال الفترة ما بين عام ٢٠٠١

وعام ٢٠١١. ولكى ننظر إلى هذا من المنظور الصحيح، خلال نفس الفترة حدثت مائة وخمسون ألف جريمة قتل فى الولايات المتحدة.

وقد يقول قائل إن سبب قلة الوفيات الناجمة عن " الإرهاب الإسلامي" هو أن العاملين فى مجال إنفاذ القانون قاموا بعمل رائع. ولكن كما شاهدنا من قبل، وكما يؤكد هذا التقرير، جرى الإيقاع بعدد كبير من " الإرهابيين المسلمين" فى الفخ أو اشتركوا فى معسكر تدريب فحسب. وعلاوة على ذلك، فى الساحات الدولية الخارجة عن اختصاص إنفاذ قوانين الولايات المتحدة، نجد أن الأرقام مماثلة لتلك المذكورة أعلاه. ففى عام ٢٠١٠، وهو آخر عام تتوافر عنه إحصاءات، كان عدد المدنيين الأمريكيين الذين قُتلوا على نطاق العالم من جراء أعمال مرتبطة بالإرهاب هو خمسة عشر، وفقا للتقارير القطرية عن الإرهاب [٥١]، الصادرة عن وزارة الخارجية؛ وقُتل جميعهم باستثناء اثنين فى أفغانستان فى ظل احتلال الولايات المتحدة/حلف شمال الأطلنطى لها [٥٢]، وفى حقيقة الأمر، كان عدد الأمريكيين الذين لقوا مصرعهم من جراء البرق وعقر الكلاب فى عام ٢٠١٠ أكبر من عدد الأمريكيين الذين لقوا مصرعهم من جراء الإرهاب [٥٣]، والأهم من ذلك أن دراسة لكلية الطب بجامعة هارفارد وجدت أن خمسة وأربعين ألفًا من الأمريكيين يموتون سنويًا نتيجة إلى حد كبير لعدم وجود تأمين صحى لهم [٥٤]، فعدد الأمريكيين الذين يموتون سنويًا نتيجة لعدم وجود تأمين صحى لهم يفوق خمس عشرة مرة عدد الأمريكيين الذين لقوا مصرعهم فى أحداث ١١ سبتمبر، ومع ذلك لا توجد حرب على صناعة الرعاية الصحية التى تستهدف الربح، ولا يُبذل أى جهد لإنقاذ أرواح هؤلاء الأشخاص بتقديم الرعاية الصحية المجانية والجيدة لهم.

فالحرب الداخلية على الإرهاب لا تتعلق حقًا، إذا نظرنا إليها من المنظور الصحيح، بإبقاء الأمريكيين سالمين بقدر ما تتعلق بإيجاد حالة خوف. فأثناء الحرب الباردة، كانت المدارس تُجرى بشكل روتينى عمليات تدريب على " الاحتماء والتستر "

كان الطلبة والمدرسون يختبئون فيها تحت المناضد، لحمايتهم فيما يُفترض من عصف في حالة شن هجوم نووى من الاتحاد السوفييتى. وأيا كانت الفوائد الهامشية للاحتماء تحت منضدة، فإن القدرة على النجاة من قنبلة نووية تتوقف على بُعد المرء عن العصف، ولا تتوقف على الأثاث. وكان الهدف الحقيقى من هذه الأنشطة هو إبقاء خطر الهجوم حيا وبث الخوف والهلع الجنونى. وفى عهد الحرب على الإرهاب، حققت غرضا مماثلا " مستويات خطر الإرهاب" ذات الرموز اللونية (التى أنهيت فى نهاية المطاف عام ٢٠١١) وإعلانات " إذا رأيت شيئا، قُل شيئا" الموجودة فى المطارات ومحطات مترو الأنفاق وذلك بإيجادها مشهدا إرهابيا. وتغطية وسائط الإعلام العامة لـ " خطط الإرهاب التى أجهضت" التى ينسقها العاملون فى مجال إنفاذ القانون تعمل فحسب على تعزيز هذا الجو.

ورغم ذلك المشهد والطابع المؤسسى لممارسات إنفاذ القانون العنصرية، هناك عناصر داخلية ترى أن هذه الممارسات تمثل إشكالية. فعندما طلبت وزارة العدل إلى وكالات إنفاذ القانون المحلية تجميع الرجال المهاجرين واستجوابهم، رفض رؤساء أجهزة الشرطة فى ديترويت وبورتلاند وتاسون أن يشاركوا فى ذلك، قائلين إن لديهم خطوطًا توجيهية صارمة تمنع هذا التصنيف العنصرى. وحاججوا أيضا بأن هؤلاء الرجال يجرى استهدافهم ليس للاشتباه فى ارتكابهم أى مخالفة بل بسبب بلدهم الأصلى(٥٥)، وللإبقاء على الخوف حيا، يتعين القضاء على هذه المقاومة، أيا كانت هزيلة. وأحد سبل القيام بذلك هو طرح نظريات علمية زائفة تزعم التنبؤ بالسلوك البشرى. فنظريات التحول إلى الراديكالية التى استخدمها العاملون فى مجال إنفاذ القانون بعد أحداث ١١ سبتمبر تستند إلى فكرة إمكانية فهم العملية التى يتحول بها الناس إلى العنف " باستخدام الإسلام كمبرر إيديولوجى أو دينى"(٥٦)، والأهم من ذلك أن نماذج التحول إلى الراديكالية تزعم قدرتها على التنبؤ بالسلوك فى المستقبل، مما ييسر تفعيل التصنيف العرقى والمقاضاة الاستباقية ويبررهما.

نظريات التحول إلى الراديكالية

فى عام ٢٠٠٧، أعدت إدارة شرطة مدينة نيويورك وثيقة بعنوان " التحول إلى الراديكالية فى الغرب: التهديد الداخلى المنشأ "، زعمت فيها أن هناك أربع مراحل للتحول إلى الراديكالية هى: ما قبل التحول إلى الراديكالية، والتحديد الذاتى للهوية، والتلقين العقائدى، والجهاد [٥٧]، ووفقا لهذا النموذج، يندرج جميع المسلمين الذكور الشباب الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى وأسر مهاجرة ضمن مرحلة ما قبل التحول إلى الراديكالية. وإيجازا، فإن مجرد الانتماء لهذه الفئة يضع المرء على سير ناقل موجه نحو " التحول إلى الراديكالية " فإذا عنّ لفرد من أفراد هذه الفئة أن يكف عن التدخين والشرب ولعب الميسر وأن يبدأ فى إطلاق لحيته وارتداء ملابس إسلامية تقليدية فإنه فى هذه الحالة يكون على المسار السريع نحو اكتساب "الإيديولوجيا السلفية الجهادية " التى تضعه فى المرحلة التالية: " التحديد الذاتى للهوية". ومن الخصائص الأخرى لـ " التحديد الذاتى للهوية" الوعى السياسى والنشاط المجتمعى. وتقول لنا إدارة شرطة مدينة نيويورك إن الشخص، عند بلوغه المرحلة الثالثة، وهى مرحلة " التلقين العقائدي"، يكون قد انسحب من المسجد وأصبح مُسيَّسا حول مجموعة من المعتقدات الجديدة التى تفضى به إلى المرحلة الرابعة، وهى "الجهاد"، التى يصبح عندها جاهزا للتخطيط لهجوم إرهابى. وتشمل الدلائل على بلوغ هذه المرحلة الرابعة إجراء بحوث على الإنترنت، والقيام بنشاط استطلاعى، وحيازة مواد. وبينما يذكر التقرير عدم وجود ملامح معينة للإرهابى المحتمل، فإن محور تحليله يدور تماما حول إيجاد ملامح من هذا القبيل والتنبؤ بنشاط الإرهابيين المحتملين. ويذكر التقرير، استنادا إلى بيانات من عشر حالات فقط، أن هناك " اتساقا ملحوظا فى سلوك ومسار كل خطة من الخطط عبر المراحل المختلفة" وأن " هذا الاتساق يوفر أداة للتنبؤ" [٥٨]، وهذه النظريات تُستخدم لتبرير نوع برنامج التنميط البشرى الذى نوقش من قبل، حيث يجرى إرسال مخترقين إلى المكتبات، والمراكز المجتمعية، والمساجد، و " البؤر الساخنة" الأخرى التى يقضى فيها المواطنون والمهاجرون المسلمون أوقاتهم.

ولا يلزم أن يكون لدى المرء شهادة دكتوراه فى علم الاجتماع أو علم النفس ليدرك أن هذا هو نموذج سلوك عنصرى متأصل مفعم بمعايير مزدوجة. فعلى سبيل المثال، لا يحدث نفس النوع من المراقبة فى أوساط المسيحيين البيض، حتى على الرغم من وجود منظمات إرهابية استعلائية للبيض فى الولايات المتحدة منذ أمد طويل. فقد حذّر تقرير صدر عن وزارة أمن الوطن فى عام ٢٠٠٩ من عنف جماعات البيض الاستعلائية: " إن الخطر الذى تمثله الجماعات المنعزلة والخلايا الإرهابية الصغيرة أوضح الآن مما كان فى السنوات السابقة. وإضافة إلى ذلك، يثبت أن الانتخاب التاريخى لرئيس أمريكى أفريقى واحتمال حدوث تغيرات فى السياسة هو قوة دافعة لتجنيد المتطرفين اليمينيين وجعلهم راديكاليين" [٥٩]، ويعتبر التقرير أيضا التراجع الاقتصادى وانعدام الأمن الاقتصادى عاملين يحفزان على نمو الإرهاب الداخلى. ومن الاختلافات الرئيسية بين تقرير وزارة أمن الوطن وتقارير إدارة شرطة مدينة نيويورك المذكورة آنفا كون العرق والجنس والديانة أمورا عرضية فى تحليل إدارة أمن الوطن. فبينما يتحدث ذلك التحليل عن سياسة جماعات البيض الاستعلائية المناهضة للسود والمناهضة للمهاجرين وكرهها للأجانب وتأييدها لحيازة السلاح، فإنه لا يقفز إلى استنتاج وجود عملية من أربع خطوات للتحول إلى الراديكالية تبدأ بكون الشخص ذكرًا مسيحيًا أبيض البشرة. وبطبيعة الأمر، لا يوجد برنامج لاختراق جماعات المسيحيين البيض للوقوف على الطريقة التى يأكل بها هؤلاء الرجال الخطرون، أو يمارسون العبادة، أو يلعبون، أو يتسوقون.

بل وحتى عدا عن عدم تصنيف جميع الرجال المسيحيين البيض، يحترم العاملون فى مجال إنفاذ القانون الحريات المدنية لجماعات أقصى اليمين. ولا توجد مقاضاة استباقية لهذه الجماعات، التى تشمل طائفة إيديولوجية واسعة النطاق تضم الاستعلائيين البيض، والمتعصبين المناهضين للحكومة، والكثير من ذوى الميول الأصولية المسيحية، حتى وإن كانت جماعات كثيرة من هذا القبيل تشكل " ميليشيات" وتقيم معسكرات تدريب شبه عسكرية بصفة منتظمة. وكما يلاحظ داونز، " لا أحد

يضايقهم لأن التلقين العقائدى والتدريب على استخدام الأسلحة يمثلان حرية الكلام التى يحميها الدستور وممارسةً للحق فى حمل السلاح الذى ينص عليه التعديل الدستورى الثانى. ولا يحدث اجتياز للخط الفاصل الجنائى إلا عندما تتآمر هذه الجماعات لارتكاب جريمة محددة. ومع ذلك، تمثل المقاضاة الاستباقية استثناء خاصاً بالمسلمين" (٦٠)، وإيجازًا، بينما يُسمح للاستعلائيين البيض بأن يتدربوا باستخدام أسلحة فى مواقع بمختلف أنحاء الولايات المتحدة، إذا امتلك مسلم أمريكى عادى بنفس القدر سلاحا، فإنه يُعتبر موضع شبهة وكما يشير تقرير " الاستهداف والإيقاع فى الفخ "، تشمل " الأدلة " التى تُستخدم بشكل روتينى فى قضايا المحاكم لإثبات التحول إلى الراديكالية والتهيؤ المسبق لارتكاب أعمال عنف من قبل المسلمين مواد من قبيل أشرطة الفيديو المتسمة بالعنف، أو الخطب الدينية الراديكالية، أو الأسلحة (٦١).

وازدواج المعايير والطابع المؤسسى للعنصرية إزاء المسلمين لا يمكن أن يكونا أكثر وضوحًا من ذلك. ومع هذا، فإننى سأستخلص، من أجل القارئ المتشكك، أدلة من تقرير بعنوان " إعادة التفكير فى الراديكالية " أعده مركز برينان للعدالة التابع لكلية الحقوق بجامعة نيويورك. فالتقرير مستمد من " دراسات لعلماء نفس، وعلماء اجتماع، ودوائر الأمن فى المملكة المتحدة، وخبراء الأمن" ليدلل على أن السلوك البشرى معقد وأنه لا يمكن أن يُختزل فى برنامج من أربع خطوات أو فى نظرية "السير الناقل الدينى" (٦٢)، فقد تبين من دراسة متعمقة أجرتها وكالة M15، وهى وكالة مخابرات بريطانية، عدم وجود " مسار وحيد للتطرف" وأن المسارات التى تدفع الناس إلى تبنى العنف معقدة (٦٣)، وذكرت دراسة لوزارة الدفاع الأمريكية صدرت فى عام ٢٠١٠ أن " تحديد الأشخاص الذين يُحتمل أن يشكلوا خطورة قبل أن يتصرفوا هو أمر صعب. ويتضح من الدراسات التى تجرى بعد وقوع الحدث أن الأشخاص الذين يرتكبون أعمال عنف يكون لديهم عادة عامل واحد أو أكثر من عوامل العنف. غير أن قلة من الأشخاص الذين لديهم عوامل خطر [يرتكبون أعمال

عنف] فعلا"[٦٤]، وخلصت دراسة أكاديمية أجريت برعاية وزارة أمن الوطن إلى أنه "لا يوجد مسار واحد، لا توجد "ملامح مسارات " للتحول إلى الراديكالية السياسية. بل توجد مسارات مختلفة كثيرة. ... ولا تشمل بعض هذه المسارات وجود الأفكار الراديكالية أو النشاط الراديكالى فى الطريق نحو ارتكاب عمل راديكالى، ومن ثم لا يمكن فهم تقدم التحول إلى الراديكالية على أنه مجموعة لا تتغير من الخطوات أو المراحل التى تبدأ من التعاطف إلى الراديكالية" [٦٥].

ويقول تقرير برينان إن هناك اختلافات داخل أوساط العاملين فى مجال الأمن والعاملين فى مجال إنفاذ القانون بشأن مسألة التحول إلى الراديكالية. فإدارة شرطة مدينة نيويورك (وكذلك غيرها من وكالات إنفاذ القانون المحلية) ومكتب التحقيقات الفيدرالى يروجان لنماذج للتحول إلى الراديكالية قائمة على مراحل تضع الإسلام فى "صدارة وبؤرة تحليلهما"[٦٦]، ومن الناحية الأخرى، نأت وزارة دفاع الوطن ونأى المركز القومى لمناهضة الإرهاب بنفسيهما عن هذا النهج المرحلى، مؤكدين تعقد العملية. وذكرا أيضا أنه بينما يمكن استخدام الإسلام لتبرير أعمال الإرهاب، فإن التحول إلى الراديكالية لا يسببه الإسلام. وبينما يتفق جميع الأطراف داخل مؤسسة الأمن القومى على نظرية التحول إلى الراديكالية وضرورة اعتقال "الإرهابيين المسلمين"، فإنهم يختلفون بشأن التنفيذ العملى. وهنا نرى انفصالا بين الجناح المحافظ فى جهاز إنفاذ القانون وما يمكن أن نسميه جناحا " واقعيا"، وهو انفصال مماثل لما يوجد فى مؤسسة السياسة الخارجية. ووجود آراء موازية من هذا القبيل داخل أوساط العاملين فى مجال إنفاذ القانون من الصعب أن يكون مدعاة للاندهاش، بالنظر إلى الروابط القائمة بين المؤسسة السياسية والمؤسسة العسكرية والنظام القانونى. إذ ينتقل الأفراد فى كثير من الأحيان من مجال إلى الآخر حاملين معهم خلفياتهم ووجهات نظرهم. فعلى سبيل المثال، سبق لنحو ثلث موظفى مكافحة الإرهاب الذين يعملون فى مكتب التحقيقات الفيدرالى أن خدموا عسكريا فى الشرق الأوسط[٦٧].

فى النظام الجديد للحرب على الإرهاب جرى تكييف وكالات إنفاذ القانون من أجل استهداف " الإرهابيين الإسلاميين" الموجودين وسطنا . وأثناء تدخل حلف شمال الأطلنطى فى ليبيا عام ٢٠١١، وضع مكتب التحقيقات الفيدرالى قوائم بالليبيين المقيمين فى الولايات المتحدة من أجل استجوابهم، مدللا بذلك مرة أخرى على الصلات بين مكافحة الإرهاب الداخلية فى الولايات المتحدة والتدخلات العسكرية فى الخارج(٦٨)، وعندما تخوض الولايات المتحدة حرباً ضد عدو أجنبى، فإنها تخوض حربا لا محالة على العدو المتصوَّر فى الداخل، وهو ما لا يشمل أفراد جماعات عرقية أو قومية معينة فحسب بل يشمل أيضاً منشقين من جميع الأجناس. فالغاية النهائية هى كسب الموافقة على أجندة إمبريالية من خلال عملية تنسق الخوف من العدو فى الداخل وتجهض انتقادات بناء إمبراطورية. وكما سنشاهد فى الفصل التالى، فإن الحملة العامة حول " الإرهاب الداخلى المنشأ" زادت أكثر أثناء رئاسة أوباما.

الفصل التاسع

الرعب الأخضر : صُنع العدو المسلم الداخلي

عندما أُلقي القبض على امرأة صغيرة الحجم وشقراء وذات عينين خضراوين من فيلادلفيا بتهمة تتعلق بالإرهاب في عام ٢٠١٠ بذلت وسائط الإعلام محاولة جبارة لشرح وفهم ما حدث، إذ إن كولين لاروز، التي أُطلق عليها اسم " جين الجهادية"، لم تكن تشبه على الإطلاق ما كانت تلك الوسائط تتوقع أن يكون عليه شكل المشتبه في كونهم إرهابيين. وانطوت لوثة وسائط الإعلام التي أعقبت ذلك على الكثير من هز اليدين والبحث النفسي المتعمق لتفسير سبب اعتناق امرأة أمريكية تماما مثلها الإسلام وتورطها في " خطط إرهابية ". وخلصت قناة " سي إن إن " (CNN) إلى أن "توجيه اتهام رسمي إلى جين الجهادية يبدد أي فكرة لدينا مفادها أننا نستطيع أن نتعرف على إرهابي بمجرد مظهره"[1]، والمنطق الذي يقوم عليه هذا التفكير هو أنه من الصحيح التعرف على الرجال ذوي البشرة السمراء كإرهابيين من خلال مظهرهم فحسب، على الرغم من أن الإرهابيين، الذين يبدو أنهم موجودون في كل مكان، تكون أشكالهم وأحجامهم وألوان بشرتهم متعددة.

وما يلقي هذا الحدث الضوء عليه هو أنه بحلول نهاية العقد الأول بعد أحداث ١١ سبتمبر حدث تحوُّل في لغة فوبيا الإسلام شدد على العدو الموجود في الداخل. فبينما كانت فوبيا الإسلام فور وقوع أحداث ١١ سبتمبر تركز إلى حد كبير على العدو " المتربص هناك "، الذي يتعين على الولايات المتحدة فيما يُفترض أن تخوض حرباً

ضده بدءًا من أفغانستان إلى العراق لحماية نفسها، أصبح العدو الآن داخل حدود البلد. وكانت نبرة الحقبة السابقة، التى حددها جورج بوش، هى " إننا نقاتلهم هناك حتى لا نضطر إلى مقاتلتهم هنا"(٢)، وقد ذكر بوش، فى خطاب ألقاه فى ويست بوينت عام ٢٠٠٢، " علينا أن ننقل المعركة إلى العدو، ونُحدث خللا فى خططه، ونجابه أسوأ التهديدات"(٣)، وكان " الإرهابيون" الموجودون وسطنا هم أولئك الذين جرى إرسالهم من الخارج " ويكرهون حرياتنا". ومن ثم، حتى على الرغم من أن آلافا من العرب والمسلمين الأبرياء جرى تصنيفهم تصنيفا عرقيا فى أعقاب أحداث ١١ سبتمبر، كما شاهدنا، فإن التشديد لم يكن منصبا على " الإرهاب الداخلى المنشأ".

فهذا التحول حدث حوالى عام ٢٠٠٩، عندما حدثت قفزة فى عدد الأمريكيين المسلمين الذين وُصفوا بأنهم " إرهابيون داخليو المنشأ". ففى ذلك العام، أُدرج ثمانية وأربعون أمريكيا مسلما (عُرِّفوا بأنهم أولئك الذين بقوا فى الولايات المتحدة مدة طويلة) ضمن إحصاءات الإرهاب، مقابل اثنين فقط فى عام ٢٠٠٨(٤)، ومصدر هذه القفزة فى العدد هو إدراج سبعة عشر أمريكيا صوماليا زُعم أنهم انضموا إلى حركة " الشباب " فى الصومال(٥)، وأدت هذه الأرقام إلى نشوء خطاب يدور حول " الإرهاب الداخلى المنشأ".

والحركة المضادة للإسلام وممارسته فى الولايات المتحدة لم تكن على نفس درجة الخشونة التى كانت تتسم بها تلك الحركة فى أوروبا. فاستنادا إلى تاريخ العنصرية ضد المسلمين الذى دام قرونًا والذى وردت مناقشته فى الفصل الأول، استغل المحافظون الأوروبيون الفرصة التى أتاحتها أحداث ١١ سبتمبر وشنوا حملتهم، قائلين إن المسلمين لم " يندمجوا" على النحو الصحيح فى المجتمع ولذا فإنهم عُرضة للدعاية الإسلامية. وبدأوا فى إدخال تدابير لنبذ المسلمين وحظر ارتداء الحجاب، والمآذن، ورموز الإسلام الأخرى. وردد الليبراليون والديمقراطيون الاجتماعيون هذه الحجج، مشددين على حدود التعددية الثقافية والحاجة إلى الحفاظ على مُثُل الاستنارة الأوروبية(٦).

وهذا البُعد من أبعاد فوبيا الإسلام لم يزدهر فى الولايات المتحدة إلا فى نهاية العقد، عندما تعرضت المساجد والمراكز المجتمعية الإسلامية للهجوم، بدءا من كاليفورنيا وانتهاء بنيويورك. وقد حاولت شبكة من دعاة فوبيا الإسلام اليمينيين إطلاق العنان للعنصرية المناهضة للمسلمين منذ أحداث ١١ سبتمبر تقريباً من خلال سلسلة من الحملات ضد الأساتذة الجامعيين العرب، والمراكز المجتمعية الإسلامية، والمدارس، ولكن نفاذهم إلى المجال العام لم يحدث إلا بعد أن مهّد دعاة فوبيا الإسلام الليبراليون السبيل لهم. فالرئيس أوباما كشف، مستغلا ثورة وسائط الإعلام حول " الإرهاب الداخلى المنشأ "، الستار عن " استراتيجيته بشأن أفغانستان – باكستان " وأعلن عن خطط لإرسال مزيد من الجنود إلى أفغانستان وزيادة هجمات الطائرات بدون طيار على باكستان. ودق الإمبرياليون الليبراليون ودقت وسائط الإعلام العامة ناقوس الخطر بشأن " الإرهابيين فى وسطنا "، مما أتاح لـ " المحاربين دعاة فوبيا الإسلام " الذين يمثلون أقصى اليمين الفرصة التى كانوا ينتظرونها. وفى صيف عام ٢٠١٠ نجحوا فى تضخيم الجدل بشأن " مسجد جراوند زيرو" (الذى ترد مناقشة له بالتفصيل أدناه) بدرجة أثارت الخوف والكراهية ضد الأمريكيين المسلمين ورموزهم الثقافية والدينية. وأعقبت ذلك حملة مضادة للشريعة، دفعت نحو ٢٠ ولاية إلى النظر فى حظر استخدامها فى نظام العدالة. وبحلول نهاية العقد، كان التحول إلى الداخل قد اكتمل، بمولد " رعب أخضر" جديد أشبه بالرعب الأحمر الذى ساد إبان الحرب الباردة.

ويبيِّن هذا الفصل تشريح هذا الرعب الأخضر.

صُنع الرعب الأخضر

فى عام ٢٠٠٩، أُلقى القبض على العديد من المواطنين أو المقيمين إقامة قانونية فى الولايات المتحدة بدعوى صلاتهم بنشاط " إرهابى". وفى الجزء الأخير من السنة أصبحت هذه قضايا بارزة لفتت انتباه وسائط الإعلام بصورة مستمرة [٧]. وفى أعقاب

لوثة وسائط الإعلام هذه مباشرة، أعلنت إدارة أوباما فى ديسمبر ٢٠٠٩ عن خطط لتصعيد الحرب فى أفغانستان بإرسال مزيد من الجنود وبشن مزيد من الهجمات بواسطة الطائرات بدون طيار على باكستان، فيما أصبح يسمى " استراتيجية أفغانستان - باكستان". وكان " رئيس السلام" قد فشل، بعد انقضاء عام كامل على رئاسته، فى الوفاء بما وعد به فى حملته الانتخابية من إغلاق معتقل خليج جوانتانامو ووقف انتهاكات الحريات المدنية التى أطلق لها بوش العنان. وساعد خطر " الإرهابى الداخلى المنشأ" الذى أججته وسائط الإعلام على الإبقاء على الوضع القائم.

وكانت الحالة البارزة الأولى هى حالة نجيب الله ظاظى، وهو مواطن أفغانى ومقيم فى الولايات المتحدة إقامة قانونية أُلقى القبض عليه فى سبتمبر ٢٠٠٩ بتهمة التآمر لاستخدام أسلحة دمار شامل. ثم جاءت بعد ذلك حالة ديفيد كولمان هيدلى، وهو مواطن أمريكى أُلقى القبض عليه فى أكتوبر بتهمة التخطيط لمهاجمة صحيفة دانمركية. وفى ديسمبر، تكشّف أن هيدلى ربما يكون قد تآمر مع وكلاء جماعة " عسكر طيبة "، وهى جماعة باكستانية، فى هجمات مومباى التى حدثت عام ٢٠٠٨، وفى مارس ٢٠١٠ اعترف بأنه مذنب فى جميع التهم الموجهة إليه فى محكمة هندية.

وفى ٥ نوفمبر، قتل الرائد نضال مالك حسن ثلاثة عشر شخصا وجرح ثلاثين فى فورت هود خارج مدينة كيلين، بولاية تكساس. وركّز السيرك الإعلامى الذى أعقب ذلك على ديانة حسن وواصل اتجاه الربط بين الإسلام والعنف(٨)، وفى وقت لاحق من ذلك الشهر، وجهت الحكومة الفيدرالية اتهاما رسميا إلى ثمانية أشخاص فى مينيسوتا بدعوى تجنيدهم زهاء ٢٠ شخصا من الأمريكيين الصوماليين (مواطنين ومقيمين إقامة قانونية) كى يقاتلوا مع جماعة متمردة فى الصومال. وفى شهر ديسمبر ذلك، أُلقى القبض على خمسة شبّان من شمال فيرجينيا فى سارجودها، بباكستان، بتهمة السفر إلى هناك للقتال إلى جانب مقاتلى طالبان فى أفغانستان.

ومع أن أيا من قضايا " الإرهاب الداخلى المنشأ" المذكورة أعلاه لم يفتقر إلى معاملة وسائط الإعلام له معاملة تنطوى على إثارة، فإن قضية " جين الجهادية" هى التى أثارت أكبر ضجة. فبينما حفزت قضية فيرجينيا على التكهن فى الصحافة بالسبب المحتمل لنقل خمسة شبان " عاديين" للقتال مع طالبان، لقيت فكرة احتمال ذلك بالنسبة للشبان المسلمين قبولا. فجنس لاروز وأصلها العرقى وخلفيتها " العادية" فى بنسلفانيا هى أمور كانت تعنى أن أى أحد يمكن أن يكون إرهابيا. وشجّع " الرعب الأخضر" الأمريكيين على أن يعتبروا ليس فحسب المسلمين بل أيضا أى أحد يعتنق الإسلام بمثابة تهديد، تماما كما كان الحال بالنسبة للرعب الأحمر فى الحقبة المكارثية الذى تخيّل أن الجواسيس الشيوعيين يتربصون فى كل حى.

وهذه القضايا، التى توالت بسرعة، حفزت على سرعة استحداث معجم إعلامى جديد يدور حول " الإرهاب الداخلى المنشأ". وكانت صحفية واشنطن بوست نموذجا لذلك: فقد كتبت تقول " إن الاعتقالات جاءت فى وقت يتزايد فيه القلق بشأن الإرهاب الداخلى المنشأ بعد عمليات إطلاق النار فى قاعدة فورت هود العسكرية بولاية تكساس [من قِبل حسن] وتوجيه اتهامات هذا الأسبوع ضد رجل من شيكاغو [هيدلى] بأداء دور فى الهجمات الإرهابية التى حدثت العام الماضى فى مومباى"(٩)، وحتى على الرغم من إلقاء القبض على عشرات من الأمريكيين المسلمين فى الماضى، مع وجود أساس هزيل أو عدم وجود أى أساس فى كثير من الأحيان، فإن هذا الاهتمام المستمر يصور المسلمين المواطنين والمقيمين إقامة قانونية على أنهم أعداء للدولة، مما يمثل منعطفا جديدا فى خطاب الحرب على الإرهاب. إذ كان يجرى تمهيد السبيل للرعب الأخضر الجديد.

وأسوأ تعبير عن هذا الرعب الأخضر صدر على لسان تنكو فراداراجان الأستاذ بجامعة نيويورك. فقد قال فاراداراجان، فى مقالة بعنوان " انتهاج سلوك المسلم"، نُشرت فى مجلة " فوربس " عام ٢٠٠٩، إن ما أدى إلى الفاجعة التى حدثت فى قاعدة فورت هود العسكرية لم يكن التحرش العنصرى الذى واجهه حسن فى الجيش أو

الضغط الذى يسبب شللا انفعاليا والناجم عن عمله كطبيب نفسى فى الجيش مثقل بالعمل، بل كان حالة يقول إنها متأصلة فى جميع المسلمين: وهى الميل نحو العنف[١٠]، وهو يقول إن حسنًا لم " ينتهج سلوك رجل البريد" – أى أنه لم يصب بانهيار ويصبح عنيفا (وهذا المصطلح أصبح شائعا بعد أن أطلق موظف بريد النار فى عام ١٩٨٦ على أشخاص). وقال فراداراجان إن حسنا كان ببساطة يطبق، بدم بارد وبطريقة محسوبة، تعاليم الإسلام. فكما صوّر فراداراجان الأمر، كان حسن "ينتهج سلوك المسلم". وكما قال فراداراجان، " هذه العبارة [انتهاج سلوك المسلم] تصف تطور الأحداث الذى انطوى على تخلى أمريكى مسلم مندمج ظاهريا – بائع دونات ودود فى نيويورك، مثلا، أو ضابط فى جيش الولايات المتحدة فى قاعدة فورت هود – عن اندماجه البادى فى المجتمع الأمريكى واختياره الدفاع عن ديانته فى عمل من أعمال العنف الاستشهادى ضد زملائه الأمريكيين."

وإيجازا، يرى فراداراجان أن الأمريكيين المسلمين جميعهم " ينطوون على عنف وشيك"، وبينما يبدو أنهم مندمجون فى المجتمع الأمريكى، فإنهم فى حقيقة الأمر قنابل زمنية ستنفجر حتما فى ثورة غضب عنيف وقاتل. ومنطق العنصرية البيولوجية يرتبط هنا بمنطق العنصرية الثقافية. فالإرهابى الناشئ داخليا، الذى يعرّف بأنه أسمر البشرة وذكر ومسلم، يتسم بالعنف بطبيعته على الرغم من جميع المظاهر التى تدل على العكس. وما يجعل " أولئك الأشخاص"، ومن بينهم شخص أبيض أحيانا مثل لاروز، يشكلون تهديدا هو ديانتهم؛ فالإسلام يبرمجهم على القيام بعمليات قتل وضرر متعمد، مثل المرشحين المنشوريين الجهاديين. وكان فاراداراجان يردد فحسب، عندما ساق هذه الحجة، منطق " المقاضاة الاستباقية" ونظريات التحول إلى الراديكالية التى طالما استخدمها جهاز إنفاذ القانون. وقد أتاحت قضيتا حسن وظاظى ("بائع الدونات الودود") والهستيريا العامة التى دارت حول الإرهاب " الداخلى المنشأ" حيزا للتعبير عن هذه الحجج فى المجال العام.

أما الرئيس أوباما – الذى لديه عدة أقارب مسلمين وعاش فترة من حياته فى إندونيسيا (وهو البلد الذى يوجد فيه أكبر عدد من المسلمين فى العالم) ويُفترض فيه أنه يعرف أفضل مما يظهره – فقد استخدم هذه القضايا التى سُلطت الأضواء عليها فى خطاب أماط فيه اللثام عن استراتيجيته لتصعيد الحرب فى أفغانستان، وذلك بدلا من أن يقوم بصد هذه العنصرية. وقد يتكهن المرء بأن البيت الأبيض الذى كان يتلهف على شحن الرأى العام تأييدا لزيادة عدد الجنود بمقدار ثلاثين ألفًا ربما كان قد شجع حتى وسائط الإعلام المطواعة على تكريس اهتمام لـ " الإرهاب الداخلى المنشأ". فقد ذكر أوباما فى خطاب ألقاه فى ويست بوينت: " إننى مقتنع بأن أمننا تتعرض للخطر فى أفغانستان وباكستان. فهذه هى بؤرة التطرف العنيف الذى تمارسه القاعدة. ومن هنا هوجمنا فى ١١ سبتمبر، ومن هنا يجرى التخطيط لشن هجمات جديدة بينما أتحدث الآن. وهذا ليس خطرا تافها؛ وليس تهديدا افتراضيا. ففى الأشهر القليلة الماضية وحدها، ألقينا القبض على متطرفين داخل حدودنا جرى إرسالهم إلى هنا من منطقة الحدود الأفغانية والباكستانية من أجل ارتكاب جرائم إرهابية"[١١]، ويستغل خطاب أوباما جو الخوف الذى تؤججه التغطية المتواصلة والمستمرة لقضايا ظاظى وهيدلى وفيرجينيا، التى جرى الربط بينها جميعها وبين أفغانستان وباكستان. ومن ثم فإن إشارة أوباما إلى " المتطرفين الموجودين داخل حدودنا" أضافت إلى الطنطنة بشأن الخطر الجسيم الذى يشكله الإرهاب و "التطرف العنيف" فيما يُفترض بالنسبة لمواطنى الولايات المتحدة، وهو تهديد أجوف بدرجة لا تبرر إرسال عدد إضافى من الجنود قدره ثلاثون ألفًا إلى أفغانستان.

إلا أن الواقع يتحدى هذه الطنطنة، مثلما يبيّن الفصل الأخير من هذا الكتاب. ومن المثير للاهتمام اعتراف مؤسسة راند هى نفسها، وهى مؤسسة يمينية، بأن الخطر الذى يمثله " الإرهاب " بالنسبة للأمريكيين محدود. فقد ذكر جريجورى تريفيرتون، فى صحيفة لوس أنجليس تايمز، إن عدد الأمريكيين الذين قتلوا فى هجمات إرهابية على نطاق العالم لم يتجاوز قط المائة فى السنوات الخمس التى انقضت منذ عام ٢٠٠١، وكان عددهم يتجاوز بالكاد العشرات فى بعض السنوات.

ولنقارن هذا العدد بعدد أولئك الذين قتلتهم الأعاصير وعددهم ٦٣، وأولئك الذين لقوا مصرعهم فى حوادث دراجات وعددهم ٦٩٢، وأولئك الذين لقوا مصرعهم فى حوادث مرتبطة بالمركبات وعددهم ٦١٦ , ٤١"[١٢].

وفى عام ٢٠٠٩، ذكرت وزارة الخارجية أن عدد الأمريكيين الذين قُتلوا فى ذلك العام فى مختلف أنحاء العالم نتيجة للإرهاب كان مجموعهم الكلى لا يتجاوز تسعة. وأصيب أربعة عشر شخصا، واختُطف أربعة أشخاص[١٣]، ولكى ننظر إلى تلك الأرقام من المنظور الصحيح، أفاد مكتب إحصاءات العمل بحدوث ٣٤٠ ٤ حالة وفاة فى عام ٢٠٠٩ نتيجة لأحداث تتعلق بمكان العمل أو للتعرض للخطر فى مكان العمل[١٤]، وبلغ عدد الوفيات الناجمة عن حوادث السيارات ٧٩٧ ٣٠ [١٥]، ومع ذلك لم يعلن أحد الحرب على مؤسسات العمل أو على الشركات التى تصنع السيارات. والأدهى من ذلك أن تقريرا عن الإرهاب أصدرته وزارة الخارجية فى أبريل ٢٠٠٩ يذكر أن " القاعدة ... والشبكات المرتبطة بها ظلت تخسر أرضًا، بنيويًا، وفى محكمة الرأى العام العالمى على السواء." ومع ذلك، أكد التقرير أن هذه المنظمات " ظلت تمثل أكبر تهديد إرهابى للولايات المتحدة وشركائها"[١٦]، وهذا كله لا يكشف الانفصام بين الطنطنة والواقع فحسب بل يكشف أيضا آليات تعبئة سياسة قائمة على الخوف. ويجدر التشديد على أن التهديد الذى يمثله الإرهاب هو أزمة مصطنعة، بمعنى أنها أزمة مفيدة لتبرير الحرب ومواصلة انتهاكات الحريات المدنية داخليا. والرعب الأخضر مفيد الآن بقدر ما كان الرعب الأحمر مفيدا أثناء الحرب الباردة.

والطابع الجوهرى الذى ينطوى عليه تصوير جميع المسلمين بفرشاة الجهاد العنيف يناسب تماما طنطنة المستشرقين بشأن " صدام الحضارات". وكان هذا بمثابة مشكلة بالنسبة لإدارة أوباما، التى كانت تبذل وقتئذ جهدا متضافرا لتحريف تلك الحجة فى صالح استراتيجية " مناهضة التمرد "، التى نوقشت فى الفصل السابع. وقد أصدر مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية تقريرا حدد فيه الخطوط العريضة لقضيتى ظاظى وهيدلى وقال إن على الولايات المتحدة، مع حاجتها إلى قمع " التحول

الراديكالى للإنترنت"، أن توازن هذا بجهود لـ " خرق" نظرية " صدام الحضارات" - ليس لأنها نظرية قابلة بطبيعتها للاعتراض عليها بل لأن القاعدة تستخدم نفس الحجة فى جهودها لتجنيد أفراد![١٧]، وهذا التوازن يتطلب قدرا من البراعة الخطابية، وهى خاصية من خواص الإمبرياليين الليبراليين فى إدارة أوباما، الذين كانوا قادرين بالفعل على استخدامها.

ومن ثم يشير التقرير مؤيدا إلى أن " مسؤولى البيت الأبيض قد نبذوا بالفعل عبارات من قبيل 'الحرب على الإسلام الراديكالي'." بيد أن معدّى التقرير يضيفون أن هذه اللفتات الخطابية غير كافية بالنظر إلى واقع الحرب. فالتحدى الرئيسى هو "كيفية موازنة الحاجة إلى مكافحة الإرهاب العالمى (والمعنى المقصود هنا هو توسيع نطاق الإمبراطورية) بتقهقرات فى التدخل العسكرى المباشر الواسع النطاق" (والمقصود هنا هو الخسائر الواسعة النطاق ومشاكل الاحتلال). وكان هذا هو التحدى الذى ورثته إدارة أوباما. وعلى الرغم من التخلى المتعمد عن استخدام عبارات من قبيل " الحرب على الإرهاب" والتخفيف من بعض أسوأ أشكال الطنطنة التى تنمّ عن فوبيا الإسلام من قِبل إدارة بوش، فإن التحديات الإمبريالية، وكذلك فشل استراتيجية مناهضة التمرد فى السنوات اللاحقة، قد أعاد فى نهاية المطاف إدارة أوباما إلى مكافحة الإرهاب وطنطنتها المقابلة.

الجدل بشأن «مسجد جراوند زيرو»

كانت النتيجة الفورية للهستريا بشأن " الإرهابى الداخلى المنشأ" هو أن دعاة الخوف من الإسلام الذين يمثلون أقصى اليمين (ويرد المزيد عنهم فى الفصل التالي) الذين عقدوا الأمل طويلا على السيطرة على النقاش القومى استطاعوا أن يحققوا ذلك. فقد احتلوا بؤرة المسرح فى أعقاب جدل تسببوا فيه يدور حول تشييد مركز مجتمعى إسلامى فى منطقة جنوب مانهاتن. ففى عام ٢٠٠٩، اقترح الإمام فيصل

عبد الرؤوف، الذى كان إماما فى منطقة جنوب مانهاتن منذ أكثر من ربع قرن، تشييد مركز على غرار مركز الشبان المسيحيين الكائن فى الشارع رقم ٩٢ والمركز المجتمعى اليهودى فى مانهاتن. وكان الهدف من المركز المقترح هو العمل على زيادة فهم طائفة المسلمين. ويشير اسم المركز، وهو دار قرطبة، إلى مدينة قرطبة، بإسبانيا، التى كانت مركزا ثقافيا رئيسيا تابعا للإمبراطورية الإسلامية التى حكمت شبه جزيرة أيبيريا (انظر الفصل الأول). ولم تكن قرطبة تمثل أوج تطور فكرى فقط بل كانت تمثل أيضا حقبة تعايش سلمى فيما بين المسلمين والمسيحيين واليهود.

وكان الإمام رؤوف، الذى يصف نفسه بأنه " مسلم معتدل"، يتصور وجود مركز مجتمعى يضم مرافق ترويحية من قبيل حمام سباحة، وملعب لكرة السلة، وجيمانزيوم، ومدرسة لتعليم فن الطهى، واستوديوهات فنية، ومركز لرعاية الطفل، فضلاً عن مكان للصلاة تشتد الحاجة إليه من أجل المسلمين المقيمين فى الحى. وكانت خطته هى تمكين الناس الذين ينتمون إلى جميع الأديان من التفاعل. ورؤوف شخصية من شخصيات المؤسسة أجرى تمارين لصالح مكتب التحقيقات الفيدرالى ووزارة الخارجية منذ أحداث ١١ سبتمبر؛ وقد أشرنا إليه فى الفصل السابع فيما يتعلق بالمشورة التى قدمتها فى عام ٢٠٠٧ المجموعة التى تضع السياسة بشأن تحسين علاقات الولايات المتحدة مع " العالم الإسلامى".

وكان المعتقد هو أن عهد أوباما سيكون عهدا يمكن أن يعيد فيه " المسلمون الأخيار" تشكيل الأجندة السياسية. وعندما نشرت صحيفة نيويورك تايمز تحقيقا إخباريا فى صفحتها الأولى بشأن دار قرطبة فى ديسمبر ٢٠٠٩، كانت النبرة العامة إيجابية، حتى وإن كانت قد أشارت بقدر من القلق إلى ما قد يعنيه بناء مركز مجتمعى إسلامى على مقربة شديدة من جراوند زيرو. فقد صرح رؤوف لصحيفة نيويورك تايمز بقوله " إننا نريد درء المتطرفين "[١٨]، وأعربت أم أحد ضحايا أحداث ١١ سبتمبر أيضا على الملأ عن تأييدها للمركز الإسلامى[١٩]، وأعرب مايكل بلومبيرج عمدة مدينة نيويورك عن تأييده للمشروع، وكذلك مسؤولو المدينة. وحتى لورا إنجراهام، مذيعة

نشرة الأخبار فى محطة فوكس التليفزيونية اليمينية، بدت غير مضطربة: ففى مقابلة مع ديزى خان الشريكة فى تأسيس دار قرطبة أجريت فى ديسمبر ٢٠٠٩، أعربت إنجراهام عن تأييدها للمشروع. وذكرت لخان، حتى مع قولها إن بلدانا غالبية سكانها من المسلمين، بدءا من المملكة العربية السعودية إلى لبنان، متعصبة ضد المسيحيين، "لست أجد أشخاصا كثيرين لديهم اعتراض حقا على المشروع. ... ويروق لى ما تحاولين القيام به"[٢٠].

وفى ٦ مايو ٢٠١٠ صوّت المجلس المجتمعى لمدينة نيويورك مؤيدا بالإجماع للمشروع. وكما وثّق جاستين إيليوت، مندوب صحيفة SALON، المسألة، لم يصبح مشروع دار قرطبة مشروعا جدليا حتى[٢١]. مايو , ٢٠١٠ ٢١ فاستجابة لقرار المجلس المجتمعى، نشرت باميلا جيلير، وهى من المدونين اليمينيين، مقالة بعنوان " مسجد وحشى يشق طريقه فى ظل الموت والدمار الإسلاميين اللذين حدثا فى مركز التجارة العالمى". وكتبت تقول فى تعليقها " هذه هى السيطرة والتوسع الإسلاميان. فالموقع لم يُحدَّد بمحض الصدفة. تماما مثلما أقيم مسجد الأقصى فوق قمة المعبد فى القدس." وفى اليوم التالى، شنت جماعتها ' أوقفوا أسلمة أمريكا SIOA، حملة شعارها: " أوقفوا بناء المسجد ٩١١! "[٢٢]. وبينما لم تكن هذه هى المرة الأولى التى نُشرت فيها مدونات جماعات دعاة الخوف من الإسلام المنظمة عن المركز المجتمعى، فإن اللحظة التى تنتظرها تلك الجماعات جاءت فى نهاية الأمر فى أعقاب الهستيريا بشأن " الإرهاب الداخلى المنشأ"، التى أفسحت مجالا لمن يمثلون أقصى اليمين لتأجيج نيران العنصرية.

ودعت حركة " أوقفوا أسلمة أمريكا "، التى يستند اسمها إلى فكرة أن المسلمين يتآمرون من أجل السيطرة على الولايات المتحدة، إلى احتجاج فى ٢٩ مايو ضد ما أسمته جيلير " المسجد الوحشى ٩١١". وجيلير من المعجبين بجيرت ويلدرز، السياسى الهولندى الذى يمثل أقصى اليمين (ويبادلها هو نفس الشعور، بالنظر إلى دعايته الزاعقة للكتاب التى اشتركت فى تأليفه بشأن رئاسة أوباما) ومن المعجبين بالفاشيين

الصرحاء وعصابات الشوارع من قبيل رابطة الدفاع الإنجليزية التى تهاجم المسلمين والمهاجرين بشكل روتينى. وقد زعمت يوما ما أن السود فى جنوب أفريقيا يشنون " إبادة جماعية" ضد البيض[٢٣]، وقد كتبت، باعتبارها صهيونية عتيدة، عمودا فى صحيفة إسرائيلية أشارت فيه إلى مصطلح " فلسطينى " قائلة إنه مصطلح " زائف " وحضّت الإسرائيليين على " تعلية صوتكم والصمود بفخر. وعدم التخلى عن أى شيء. وعدم تحريك قطعة حجر. ومقابل كل صاروخ يُطلق، ألقوا قنبلة تفريغ هوائى. واستردوا غزة، وقوموا بتأمين يهودا والسامرة"[٢٤].

ولاحقا، بدأت صحيفة نيويورك بوست تنشر مقالات نقلت باستفاضة ما قالته جيلير وطنطنتها اللاذعة. وزعمت إحدى المقالات كذبا أن الموعد المحدد لافتتاح دار قرطبة هو ١١ سبتمبر ٢٠١١، ويقول إليوت إن هذه هى اللحظة التى انتشر فيها هذا الخبر انتشار الحريق الجامح، بحيث نال اهتماما إعلاميا ليس فحسب فى 'فوكس نيوز' وغيرها من المنافذ المحافظة بل أيضا فى وسائط الإعلام العامة. ومع ذلك، حتى فى هذه المرحلة، كان المركز المجتمعى لا يزال بعيدا عن أن يصبح رمزا " لعدم حساسية" المسلمين. فعندما هاجم مارك ويليامز، وهو أحد زعماء حركة 'حزب الشاى'، الإمام رؤوف، انتقد ساسة مدينة نيويورك ويليامز وأكدوا تأييدهم للمركز[٢٥]، وكانت المقالات التى نشرها ويليامز فى مدونته خسيسة. فقد كتب يقول: " إن حيوانات الله الذين يُعتبر أى يوم بالنسبة لهم يوما عظيما لارتكاب مذبحة يسيل روالهم على الاستجابة الإيجابية التى يحصلون عليها من مسؤولى مدينة نيويورك بشأن اقتراح بناء صرح مكون من ١٣ طابقا لمسلمى ١١ سبتمبر الذين اختطفوا ٤ طائرات. وسيتكون الصرح من مسجد من أجل عبادة إله الإرهابيين القرد و 'مركز ثقافى' للدعاية لإبادة جميع الأشياء التى لا توافق عليها جماعتهم" [٢٦].

وواصل أقصى اليمين حملته الممولة تمويلا جيدا ضد المركز المجتمعى الإسلامى. واستغلت المدونة المحافظة "Pajamas Media"، التى حصلت على ٣.٥ ملايين دولار من أوبرى تشيرنيك، وهو من دعاة الخوف من الإسلام سيئى السمعة وصهيونى

يمينى، موقعها لمعارضة إقامة المركز المجتمعى[٢٧]، وكتب فرانك جافنى، وهو من المحافظين الجدد، فى يونيو يقول إن " مسجد جرواند زيرو مصمم لأن يكون رأس جسر دائمة للشريعة فى وجهنا، ومنصة لبثٍّ الإلهام بطموحات المؤمنين الظافرة"[٢٨]، وردد نيوت جينجريتش هذه النقطة على شاشات " فوكس نيوز "، قائلا إن المركز يمثل " انتصار" المسلمين[٢٩]، وكان هناك تنسيق جيد لنقاط الحديث؛ فقد استخدم دانييل بايبس، وهو من المحافظين الجدد، نفس الصيغة اللغوية، قائلا إن المبنى " يفوح منه الانتصار الإسلامى"[٣٠]، ولكن هذا النمط الهجومى لم يقتصر على عالم "فوكس نيوز" و " واشنطن تايمز " و " نيويورك بوست " الإعلامى اليمينى فعندما ضم نيوت جينجريتش وسارة بالين أصواتهما، امتد " الجدل" إلى المجال العام. فقد تبجح جينجريتش قائلا " إن النازيين لا يملكون حق وضع لافتة على مقربة من متحف محرقة اليهود فى واشنطن. ولن نقبل أبدا أن يقيم اليابانيون موقعا على مقربة من بيرل هاربر" [٣١]، وإيجازًا، استغلت الشخصيات السياسية مصداقيتها لإضفاء الشرعية على تبجحات أقصى اليمين.

وبعد مايو، بدأ يتزايد أكثر فأكثر عدد الأصوات الناقدة للمشروع التى تجد مأوى لها فى وسائط الإعلام العامة. ودخلت رابطة مناهضة التشهير الموالية لإسرائيل بثقلها، قائلة إن بناء المركز " فى ظل" مركز التجارة العالمى أمر ينم عن عدم الحساسية لأنه سيسبب ألما لضحايا أحداث ١١ سبتمبر[٣٢]، ووصف رودى جوليانى المسجد بأنه " تدنيس" [٣٣]، ومن المؤكد أن بعض وسائط الإعلام العامة دافعت عن المسلمين والمركز، وعن صورة الولايات المتحدة بالتالى كمجتمع متسامح متعدد الأعراق. فقد دافع العمدة بلومبيرج عن المركز فى خطاب ألقاه بينما بدا تمثال الحرية فى الخلفية أثناء إلقائه له[٣٤]، واتخذت شخصيات ليبرالية عامة من أمثال كيث أولبرمان وجون ستيوارت وستيفين كولبرت موقفا صارما أيضا ضد المتعصبين وفضحت العنصرية الكامنة فى لب مشروع أولئك المتعصبين.

ونشرت صحيفة " نيويورك تايمز " تحقيقا إخباريا فى صفحتها الأولى بعنوان "عندما انتعش جيب عربى فى منطقة جنوب المدينة"، ساقت فيه فكرة أن العرب (والمسلمين) يشكلون جزءا لا يتجزأ من المجتمع الأمريكى[٣٥]، ونشرت مجلة " تايم " تحقيقا أشارت إليه على غلافها وتساءلت فيه قائلة " هل أمريكا لديها رهاب من الإسلام؟"[٣٦]، وتحت هذا التساؤل الذى نُشر على الغلاف كان هناك رمز الإسلام، وهو الهلال والنجمة، مملوءا بعلم الولايات المتحدة. بيد أن هذه التغطية كانت متناقضة. فبينما دافعت مجلة " تايم " عن المسلمين ضد الهجمات العنصرية، لم تبيّن مقالتها الصلات بين رهاب الإسلام والحرب على الإرهاب. وعلاوة على ذلك، نشرت المجلة قبل بضعة أسابيع فحسب من صدور هذا العدد صورة على غلافها لامرأة أفغانية مجدوعة الأنف، بعنوان " ما يحدث إذا انسحبنا من أفغانستان"، معززة بذلك الصلة بين الإسلام والعنف ضد المرأة ومرددة فى الوقت ذاته حجة " العبء الواقع على عاتق الرجل الأبيض" القديمة[٣٧].

وقد نجحت محاولة أقصى اليمين وصْم المركز بأنه " مسجد الانتصار" لأنها استندت إلى الهستيريا الإعلامية التى أججتها إدارة أوباما فى الأشهر السابقة. فنوبة الهياج التى دارت حول " الإرهاب الداخلى المنشأ" فتحت الباب، وكانت المسألة مسألة وقت فقط قبل أن يتدخل أقصى اليمين راقصا (أو ربما بخطوة الأوزة). وهذه القوى، إلى جانب قطاعات من الحزب الجمهورى، حققت نجاحا كبيرا فى تحديد شروط الجدل لدرجة أن نسبة تتراوح من ٥٤ إلى ٦٨ فى المائة من الأمريكيين أعربت عن معارضتها لتنفيذ المشروع فى موقعه المقترح[٣٨]

وهذه المعارضة نشأت إلى حد لا يستهان به نتيجة للدور الذى لعبه ساسة الحزب الديمقراطى، الذين كانت مواقفهم بشأن المركز المجتمعى تتراوح من الحياد إلى العداء على طول الخط. وكانت استجابة نانسى بيلوسى، رئيسة مجلس النواب، هى التساؤل عمن يمول المعارضة للمشروع. وفى اليوم التالى أضافت قائلة إن موقع المشروع هو

" قرار محلي" وإن حرية الديانة هى حق دستورى[٣٩]. بيد أن هذا الدفاع الفاتر نوعا ما بدا شاحبا مقارنةً بالطنطنة التى لجأ إليها الجانب الآخر.

فقد قرر هارى ريد، زعيم الأغلبية ونظير بيلوسى فى مجلس الشيوخ، أن يعلن معارضته للمشروع، قائلا إنه يعتقد، على الرغم من أن التعديل الدستورى الأول يحمى حرية الديانة، أن " المسجد ينبغى بناؤه فى مكان ما آخر" [٤٠]، وقال جيف جرين، الذى كان يخوض الانتخابات الأولية لمجلس الشيوخ، إن " المنطق البديهى واحترام أولئك الذين فقدوا أرواحهم وأحباءهم يوفران سببا معقولا يدعو إلى بناء المسجد فى مكان ما آخر" [٤١]، ثم جاء هوارد دين، الديمقراطى الليبرالى، الذى قال إن هذا المشروع " يمثل إهانة حقيقية لأولئك الذين فقدوا أرواحهم" فى هجمات ١١ سبتمبر. وقال، فى مقابلة أجرتها معه محطة إذاعة نيويورك، إنه يود أن يرى المركز وقد بُنى فى موقع آخر أقل إثارة للجدل[٤٢].

ومع تكشّف أبعاد هذا النقاش غير المتوازن، أدخل الرئيس أوباما تحفظا على أقواله السابقة المؤيدة للمشروع بقوله إنه بينما يؤكد حقوق جميع الناس الدينية فإنه لا يعلق بقوله هذا على " حكمة اتخاذ قرار بناء مسجد هناك" [٤٣]، وسرعان ما تكيّف أوباما مع الضغط اليمينى؛ فعندما أعلن تيرى جونز، القس الذى يقيم فى فلوريدا، عن خطته لحرق القرآن فى ١١ سبتمبر لم يقل أوباما إن هذا عمل كريه، وإنه يشكل تعديا على الحرية الدينية، أو إنه يعيد إلى الأذهان عمليات حرق الصلبان التى قامت بها جماعة الكلوكلاكس كلان فى الجنوب، بل قال إنه يعرِّض للخطر " الأمن القومى وسيضع جنود الولايات المتحدة الموجودين فى العراق وأفغانستان " فى طريق الأذى": " وهذا يمكن أن يؤدى إلى زيادة تجنيد أفراد سيكونون على استعداد لنسف أنفسهم فى مدن أمريكية أو مدن أوروبية" [٤٤]، وأجج فحسب استدعاء أوباما لشبح القنابل البشرية فى مدن أمريكا مرجل الكراهية النابعة من رهاب الإسلام.

فقد أظهرت استطلاعات للرأى العام أجريت فى منتصف عام ٢٠١٠ أن ما يقرب من ٢٠ فى المائة من الأمريكيين كانوا يعتقدون أن أوباما " مسلم سرا" وأن هذا يجعله

غير صالح كرئيس. واختار أوباما، بدلا من الطعن فى افتراضات متهميه العنصرية، أن يؤكد أوراق اعتماده كمسيحى. ولم يؤد هذا الموقف سوى إلى إضفاء مصداقية على فكرة وجود خطأ ما فى أن يكون المرء مسلما. وإيجازًا، ومع بضعة استثناءات (من قبيل كيث إليسون، وهو أول مسلم يُنتخب فى الكونجرس)، تحوَّل الإمبرياليون الليبراليون فى الحزب الديمقراطى إلى أقصى اليمين بشأن هذه المسألة. ولذا، ليْس مما يدعو للدهشة أن اليمين استطاع أن يحدد شروط النقاش.

تصاعد شبكة فوبيا الإسلام

إن الجدل بشأن دار قرطبة لم يكن، بطبيعة الأمر، أول هجوم لأقصى اليمين على المسلمين. فكما يقول ماكس بلومينتال، إن الجدل بشأن " مسجد جراوند زيرو" هو " ثمرة حملة منظمة طويلة الأجل من جانب اتحاد كونفيدرالى محكم يضم النشطاء والعناصر الفاعلة التابعة للجناح اليمينى الذين ركزوا فى البداية على فوبيا الإسلام بعد هجمات ١١ سبتمبر مباشرة، ولكنه لم يكتسب كتلة حرجة إلا أثناء عهد أوباما"[٤٥]، وهو يفسر ذلك قائلا إن الجهود بدأت فى أوائل العقد الأول من القرن الحادى والعشرين، عندما تكوَّن ائتلاف مكون من جماعات يهودية تتراوح من رابطة مناهضة التشهير إلى اللجنة اليهودية الأمريكية وإلى لجنة الشؤون العامة الإسرائيلية الأمريكية للتصدى لما اعتبرته زيادة مفاجئة فى النشاط الموالى للفلسطينيين فى الجامعات. وكان المستهدفون الرئيسيون فى الجامعات هم المتخصصون فى شؤون الشرق الأوسط الذين طعنت أعمالهم فى السرد اليمينى للسياسة المتعلقة بالشرق الأوسط بوجه عام وللنزاع العربى - الإسرائيلى بوجه خاص.

ووفَّر كتاب مارتن كريمر " الأبراج العاجية المقامة على الرمال: فشل دراسات الشرق الأوسط فى أمريكا " (الذى نُشر عام ٢٠٠١) الذخيرة الفكرية اللازمة لسوْق حجة مفادها أن باحثى شؤون الشرق الأوسط لا أمريكيون بسبب انتقاداتهم لإسرائيل

وللسياسة الخارجية للولايات المتحدة[٤٦]، فقد أصدر كريمر، الذى درس على يد برنارد لويس، كتابا أجج محاولة لاستهداف الفكر الانتقادى وقمعه. وكما يقول جويل بينين، " إن ما يضفى عليهم جسارة هو صلاتهم بالمسؤولين فى المستويات العليا والمتوسطة فى إدارة بوش "، ولا سيما صلاتهم بالمحافظين الجدد الذين يتشاطرون معهم رؤيتهم العالمية[٤٧]. وهو يضيف قائلا إن " المحافظين الجدد لديهم صلات سياسية أقوى كثيرا من الصلات السياسية التى أستطاعت اللجنة اليهودية الأمريكية ورابطة مناهضة التشهير ولجنة الشؤون العامة الإسرائيلية الأمريكية أن تعبئها." ولكن هذه الوحدة لم تكن من قبيل المصادفة. بل إذا كان لويس وزكريا وغيرهما هم الأساس الفكرى الذى جرى حشده لصياغة الحرب الدعائية بعد أحداث ١١ سبتمبر (على النحو الذى جرت مناقشته فى الفصل السابع)، فإن كريمر ودانييل بايبس وديفيد هوروويتز وغيرهم عملوا كنشطاء فى العالم يحاصرون الفكر الانتقادى. وكانت مهمتهم هى كفالة أن تظل صفة الحرب على الإرهاب لا جدال فيها وعدم تشكيك الباحثين الذين توجد لديهم المعرفة والقدرة اللازمتان لفضح الأكاذيب فى دعايتهم. بل إن بوش رشح بايبس لشغل مقعد فى مجلس إدارة معهد السلام التابع للولايات المتحدة والممول فيدراليا، الذى كان يُفترض فيه أن ينتج معرفة من أجل المساعدة فى تسوية النزاعات. غير أن ترشيح بايبس أُحبط، ولكن هذه الخطوة تمثل ولع المحافظين الجدد بالتحكم فى الفكر.

وقد قام بايبس بعد ذلك بتأسيس الموقع الشبكى "Campus Watch"، الذى يُجزم بأن باحثى شؤون الشرق الأوسط لا أمريكيون. ويفسر الموقع الشبكى، مستخدما عبارات تكاد لا تخفى عنصريته، سبب احتمال ذلك؛ فقد ذكرت إحدى الصفحات التى نُشرت على الموقع، وأزيلت منذ ذلك الحين، أن " دراسات الشرق الأوسط فى الولايات المتحدة أصبحت حكرا على عرب الشرق الأوسط" الذين " جلبوا آراءهم معهم[٤٨]". ٤٨ وكانت الخطوة المنطقية التالية هى استهداف العرب. وفى حقيقة الأمر، حدث أول هجوم بارز شنه الموقع الشبكى على جوزيف مسعد الأستاذ بجامعة كولومبيا. وأعد

مشروع ديفيد، وهو جماعة ممولة من مؤسسة "Hillel" تأسست للتأثير صراحة على المناقشات الجامعية بشأن إسرائيل، فيلما وثائقيا بعنوان "Columbia Unbecoming" زعم أن الطلبة اليهود يتعرضون للترويع من قِبل الأساتذة العرب وأن الجو السائد فى حرم جامعة كولومبيا مفعم بمعاداة السامية. وأسهم ديفيد هورووبتز فى هذا الهجوم بأن وصف مسعدا بأنه " خطير" فى كتابه " أساتذة الجامعة: أخطر ١٠١ من أساتذة الجامعة فى أمريكا ". وانهالت الأموال من شبكة من المصادر (ترد مناقشتها بمزيد من التعمق فى الفصل التالى)، وازداد الضغط على إدارة جامعة كولومبيا. وزاد من تأجيج الحريق أنتونى وينر، عضو الكونجرس الديمقراطى، بدعوته إلى طرد مسعد. ولكن فى نهاية الأمر شن طلبة جامعة كولومبيا وهيئة التدريس فيها حملة دفاعا عن مسعد هزمت دعاة الخوف من الإسلام. ولم يفز مسعد بكرسى الأستاذية فقط بل فاز أيضا بجائزة Lionel Trilling ذات المكانة الرفيعة لامتيازه فى الدراسة البحثية.

وبالنظر إلى أن مشروع ديفيد لم تردعه هذه الهزيمة فإنه حوّل اهتمامه إلى جمعية بوسطن الإسلامية، التى كانت تحاول بناء مركز لخدمة المسلمين فى روكسبيرى. فقد شن مشروع ديفيد حملة دعاوى قضائية ودعاية، زاعما أن المركز يحصل على أموال من مصادر من قبيل جماعة الإخوان المسلمين والوهابيين فى المملكة العربية السعودية. وتحركت وسائط الإعلام اليمينية، بدءا من صحيفة 'بوسطن هيرالد' التى يصدرها ميردوخ وانتهاءً بالقنوات المحلية التابعة لمحطة فوكس التليفزيونية. ورددت صحيفة 'بوسطن جلوب' هذه الحجة أيضا فى سلسلة من التقارير الصحفية التى ساقت فكرة أن المركز سيصبح مكانا لتدريب خلايا إرهابية سرية[٤٩].

ومع ذلك فشلت مرة أخرى شبكة دعاة الخوف من الإسلام. وهذه المرة هزمها جُهد متعدد الأديان شنه اليهود الليبراليون، الذين نجحوا فى درء المتاجرين بالخوف. ففى عام ٢٠٠٨، أقيم المركز المجتمعي؛ ولم يتحقق قط أى من توقعات مشروع ديفيد الرهيبة. ومع ذلك، يقول بلومينتال، " إن الحرب الصليبية المحلية أوجدت مخططا فعالا

لإثارة حالة هستيرية مضادة لإنشاء مراكز إسلامية ومساجد فى مختلف أنحاء البلد، مع استقطاب نوعية من الشخصيات التى ستشكل فى السنوات المقبلة شبكة مناهضة للمسلمين تلقى اهتماما وتحقق نجاحا"[٥٠].

وفى حقيقة الأمر كان أول نجاح لتلك الشبكة هو حملة ضد ديبى المنتصر، التى كانت ستتولى منصب مديرة أكاديمية خليل جبران الدولية. وقد اقتُرح بناء هذه الأكاديمية، وهى مدرسة ابتدائية عامة علمانية منهجها إنجليزى – عربى، فى بروكلين كإحدى سبع وستين مدرسة ثنائية اللغة فى منظومة مدينة نيويورك التعليمية. فقد اتُّهمت ديبى المنتصر، وهى معلمة تنحدر من أصول يمنية وتعمل منذ أمد طويل، بأنها جهادية وأنها أنكرت أحداث ١١ سبتمبر، وكان ذلك الاتهام موجهًا إليها من قبل ائتلاف "أوقفوا بناء المدرسة"، وهو ائتلاف شنته شبكة دعاة فوبيا الإسلام. فقد وصفت باميلا جيلير، التى كانت تسن أسنانها كمحاربة من دعاة رهاب الإسلام، ديبى المنتصر فى مدونتها بأنها "عارضت الحرب على الإرهاب"، وبأنها كانت مرتبطة بمجلس العلاقات الأمريكية – الإسلامية، بل وواتتها الجرأة لقبول جائزة من هذه الجماعة "الراديكالية". وتمادت باميلا جيلير، كأنما لم يكن ذلك كافيا، بحيث اتهمت ديبى المنتصر بـ "إنكار جريمة الإبادة التى ارتُكبت ضد اليهود"[٥١]، وزعم دانييل بايبس، الذى شارك أيضا فى الحملة ضد مسعد ومركز بوسطن الإسلامى، أنه ينبغى وقف بناء المدرسة لأن "التعليم باللغة العربية محمَّل حتما بمضامين القومية العربية والإسلام"[٥٢]، وبلغت الحملة حد نبرة الحمى عندما وجد دعاة الخوف من الإسلام صورة لقميص (تى – شيرت) عليها شعار "انتفاضة مدينة نيويورك" أنتجته جماعة "النساء العربيات الناشطات فى مجال الفنون ووسائط الإعلام"، وهى منظمة نسائية عربية محلية. والصلة الضعيفة بين تلك المنظمة وديبى المنتصر هى تقاسمهما مكتبا مع رابطة الأمريكيين اليمنيين التى كانت ديبى المنتصر عضوا فى مجلسها. وكان هذا هو كل ما يحتاج إليه دعاة الخوف من الإسلام لوصف ديبى المنتصر بأنها جهادية.

وقد نشرت صحيفة " نيويورك بوست " خبرا ذكر أن القميص (التى - شيرت) كان " فيما يبدو دعوة إلى انتفاضة على طريقة غزة فى مدينة نيويورك"[٥٣]، وقد رد على محاولات ديبى المنتصر شرح معنى وأهمية مصطلح " انتفاضة " ناطق باسم رابطة مناهضة التشهير وَصَفَ منظمة النساء العربيات الناشطات فى مجال الفنون ووسائط الإعلام بأنها " مؤيدة نشطة لجماعتى حزب الله وحماس الإرهابيتين." وتآلف جميع المشتبه فيهم المعتادون وتصاعد الضغط. واضطرت ديبى المنتصر، بعد أن تعرضت لحملة تحرش وترويع شخصيين مكثفة، إلى الاستقالة عندما تراجع مؤيدها السابق العمدة بلومبيرج. وفى نهاية الأمر أنشئت أكاديمية خليل جبران الدولية، وأقامت ديبى المنتصر دعوى قضائية على المدينة، وتعلمت شبكة دعاة الخوف من الإسلام دروسا قيّمة بشأن كيفية شن حملة ناجحة وممارسة الضغط على المسؤولين المنتخبين. ولم يمض وقت طويل حتى واتتهم فرصة أخرى فى شكل مشروع دار قرطبة، حتى وإن كان انتصارهم فى هذه الحالة جزئيا فقط. فقد استطاعوا أن يسيطروا على الرأى العام. وتصاعدت الاعتداءات على المساجد والمراكز المجتمعية فى مختلف أنحاء البلد، وغيّر مؤسسو دار قرطبة اسم الدار إلى "Park51" الأكثر محايدة. ومع ذلك، استمرت خطط تشييد المركز وافتتح فى نهاية المطاف عام ٢٠١٢.

* * *

لقد ركّز هذا الفصل على التحول الداخلى عن العدو المسلم " المتربص هناك " إلى " الإرهابيين " فى أذهاننا. وبينما أدى المحاربون دعاة الخوف من الإسلام دورا رئيسيا فى تكثيف الهجمات على المسلمين، فإنهم لم يكن بوسعهم أن ينجحوا لولا أن دعاة الخوف من الإسلام الليبراليين مهدوا لهم السبيل. فاستراتيجية أوباما المتمثلة فى تصعيد الحرب على أفغانستان اعتمدت على وسائط الإعلام العامة لإثارة حالة هستيريا بشأن " الإرهابيين ذوى النشأة الداخلية". وفور رفع الستار، استغل

المحاربون دعاة الخوف من الإسلام (الذين كانوا ينتظرون بشغف في المقصورات، ويقومون ببروفات لاستراتيجيات حملتهم الهجومية ويقومون بضبطها) الفرصة التى حانت لهم بوجود جدل بشأن " مسجد جراوند زيرو ". وأتناول فى الفصل التالى شبكة دعاة الخوف من الإسلام تلك بمزيد من التفصيل، مبيّنة مصادر تمويلها وصلاتها بمراكز الفكر وبمؤسسة السياسة الخارجية.

الفصل العاشر

فوبيا الإسلام
والمكارثية الجديدة

بينما كان الجدل الذى أحاط ببناء " مسجد جراوند زيرو" هو الذى وضع أشد دعاة الخوف من الإسلام تطرفا فى بؤرة الضوء، فإن الإرهابى اليمينى النرويجى آندرس بهرينج بريفيك هو الذى يدينون له بالفضل فى جعلهم من الصعب تجاهلهم. فبريفيك، الذى قتل سبعة وسبعين شخصا فى حادث تفجير قنبلة وإطلاق النار جماعيا فى عام ٢٠١١، استشهد فى بيانه بعدة شخصيات بارزة من دعاة رهاب الإسلام. وقد تصدّر القائمة روبرت سبنسر (الذى اشترك مع جيلير فى تأسيس حركة " أوقفوا أسلمة أمريكا ")، بحيث ذكره بريفيك ١٦٢ مرة فى نقده الساخر العنيف المفعم بالكراهية[١]. وفى هذا السياق، نُشرت فى عام ٢٠١١ سلسلة من المقالات والتقارير الصحفية التى سعت إلى إلقاء الضوء على الطابع المنظّم لشبكة رهاب الإسلام، ومصادر تمويلها، ونطاقها الدولى. فعلى سبيل المثال، ظهر ديفيد ييروشالمى فى تقرير صحفى مطول نشرته صحيفة "نيويورك تايمز" بوصفه العقل المدبر للحملة الصليبية الرامية إلى حظر استخدام الشريعة فى محاكم الولايات المتحدة[٢]. ونوقشت توجهات ستيفين إمرسون وفرانك جافنى وبيل فرينش فى تقرير صحفى تحقيقى بشأن مصادر تمويل دعاة رهاب الإسلام [٣]. ونشر مركز التقدم الأمريكى تقريرا مفصلا بعنوان "شركة الخوف: جذور شبكة فوبيا الإسلام فى أمريكا [٤]، قامت بتغطيته قطاعات من وسائط الإعلام العامة.

وكان هذا تطورا محمودا من حيث إن هذه التقارير وغيرها ساعدت على إلقاء ضوء تشتد الحاجة إليه على شبكة دعاة فوبيا الإسلام المتطرفين. بيد أنها لم تصل إلى المدى الكافى. فعلى سبيل المثال، شدد تقرير "شركة الخوف"، بصورة مستمرة ومتكررة على أن شبكة فوبيا الإسلام تتكون من مجموعة صغيرة محكمة من أفراد لديهم نفوذ يتجاوز أعدادهم. وحتى على الرغم من أن التقرير متعمق إلى حد كبير من حيث إظهاره الصلات بين المتطرفين والمحافظين الجدد، فضلا عن شخصيات سياسية أخرى ومؤسسات محافظة ووسائط إعلام عامة، فإنه أصر مع ذلك على أن دعاة فوبيا الإسلام هم جماعة هامشية خارج نطاق السياسة العامة. وفى نهاية الأمر، حتى وإن كانت هذه التقارير وغيرها مفيدة من حيث فضح آليات دعاة فوبيا الإسلام المتشددين، فإنها قاصرة لأنها لا تبيِّن الطابع المؤسسى للعنصرية المناهضة للمسلمين.

وينبرى هذا الفصل لوضع المتعصبين اليمينيين فى السياق الأوسع نطاقا الذى يعملون فيه. وسأدعى، تشبها بديفيد كوت، أن المتطرفين يعملون على إشاعة جو من الخوف يعزز أهداف الإمبراطورية. فقد أظهر كوت فى كتابه "الخوف الكبير" أن المكارثية لا تتعلق فحسب بعضو واحد خارج عن السيطرة فى مجلس الشيوخ بل تتعلق بنظام سياسى (يشمل الديمقراطيين والجمهوريين على حد سواء) أتاح لشخصية مثل جوزيف مكارثى أن يحدد الأجندة السياسية. فقد كان مكارثى أداة مفيدة فى الملاحقة القضائية الخاصة بالحرب الباردة، لا سيما فى إشاعة جو من الخوف يمكن فيه المعاقبة على الانشقاق وتحييده. ويؤدى دعاة فوبيا الإسلام اليمينيون دورا مماثلا أثناء حقبة الحرب على الإرهاب. فهم ليسوا " عناصر خارجية أجنبية" بل يظهرون من داخل المؤسسة السياسية، وجهاز الأمن، والأوساط الأكاديمية، ومراكز الفكر، ووسائط الإعلام العامة. ومن ثم، فإن المكارثيين الجدد هم نتاج هياكل الإمبراطورية الأمريكية ويصلحون تماما داخلها ويتمثل دورهم فى تجاوز الحدود، وليسوا على الإطلاق " متسللين" إلى نظام جيد لولا ذلك.

المكارثيون الجدد

توجد أربع مجموعات مترابطة من الأشخاص الذين تكاتفوا لإعطاء صورة شريرة ومخيفة " للعدو المسلم" ولإشاعة الخوف والكراهية. وتضم هذه المجموعات أفرادا من معسكر المحافظين الجدد كرسوا أنفسهم لمطاردة " الإرهابى المسلم"؛ وصهاينة ينسجم هدفهم المتمثل فى قمع توجيه النقد لإسرائيل مع منطق فوبيا الإسلام؛ واليمين المسيحى، الذى انضم إلى صفوف المحاربين دعاة فوبيا الإسلام؛ ومجموعة مسلمين (ومسيحيين) سابقين من الشرق الأوسط وجنوب آسيا استفادوا من مهاجمة الإسلام بعنف.

المحافظون الجدد والصهاينة

كان فرانك جافنى ودانييل بايبس اثنين من المحافظين الجدد القياديين الذين ركزوا على سياسة فوبيا الإسلام. فقد كان جافنى، كما ذُكر من قبل، نائبا لمساعد وزير الدفاع فى عهد ريجان عمل تحت رئاسة ريتشارد بيرل خلال الفترة من عام ١٩٨٣ حتى عام ١٩٨٧ وبالنسبة لجافنى، كان من السهل عليه أن يتحول من محارب فى الحرب الباردة إلى محارب من دعاة فوبيا الإسلام. فهو أحد كبار مستشارى مجموعة 'أمريكيون من أجل الانتصار على الإرهاب' (AVOT)، وهى مجموعة تابعة لمشروع 'القرن الأمريكى الجديد' (PNAC) [٥]. وتذكر مجموعة 'أمريكيون من أجل الانتصار على الإرهاب'، التى يرأسها ويليام بينيت، وهو من المحافظين، على موقعها الشبكى أنها " مكرسة للانتصار فى الحرب على الإرهاب" من خلال " تشكيل الرأى العام، والتشجيع على اتباع سياسة خارجية تستند إلى المبادئ التى تأسست أمريكا عليها، وزيادة البحوث بشأن الإسلام والتأسلم، والالتزام الراسخ بالمبادأة بمهاجمة أولئك الذين سيلقون اللوم على أمريكا" [٦].

ويصور هذا البيان الاستراتيجية التى يتبعها المحافظون الجدد من أجل " كسب" الحرب على الإرهاب. ويتمثل جانب جوهرى من هذه الاستراتيجية فى معركة كسب الرأى العام. فقد عرض المحافظون الجدد بقوة، فى جرائد مؤسسة السياسة الخارجية، رؤيتهم وجادلوا ضد النماذج الأخرى من قبيل النماذج التى يدعو إليها الواقعيون (انظر الفصل السابع). فمقالة كريستول – كاجان المحورية التى نُشرت عام ١٩٩٦ بشأن " الهيمنة العالمية الخيِّرة"[٧]. لم تحاجج فحسب ضد الواقعية وشددت على أن السيطرة الأمريكية على العالم ستكون خيِّرة وفى صالح جميع الأمم، بل شددت أيضا على ضرورة كسب تأييد الرأى العام الأمريكى لهذه الفكرة؛ قائلة إن الأمريكيين يجب " توعيتهم"، و " إلهامهم" ليتقبلوا مسؤولياتهم الخاصة باعتبارهم من مواطنى الإمبراطورية [٨]. ولم يكن معنى هذا الخدمة العسكرية فقط بل أيضا إيجاد إحساس إيديولوجى " بوجود رسالة " فى التدخلات الإمبريالية، استنادا إلى الإيمان بـ " العظمة الأمريكية"[٩].

وما الذى كان يمثل سبيلا للترويج لهذه الإيديولوجيا أفضل من خلق عدو يعلو على ما عداه من الأعداء، وهو " الأشرار المسلمون" – و " الفاشيون الإسلاميون" لاحقا – الذين ينبغى لأمريكا، العظيمة والخيِّرة، أن تشن الحرب عليهم؟ وقد وفرت أحداث ١١ سبتمبر للمحافظين الجدد العدو الذى كانوا يحتاجون إليه للترويج لرؤيتهم. فكما يقول كوبر، المحافظون الجدد " يشعرون بأقصى درجات الراحة عندما يتوافر لهم ... منافس إيديولوجى يمكن أن يحددوا موقفهم ضده" [١٠]، وبينما احتفل المحافظون الجدد من أمثال بودهوريتز بانهيار الاتحاد السوفييتى، يقول كوبر إنه "كان من الواضح أنه أحس بالضياع" لافتقاره إلى غريم جديد [١١]، وهذا الإحساس ينطبق بوجه عام. فدوريين يلاحظ أيضا أثناء إجرائه مقابلات مع شخصيات بارزة من المحافظين الجدد من أجل كتابه ' المخططات الإمبريالية ' أن " معظمهم كانوا يتلهفون على إيجاد بديل للدور المنشط والموحِّد الذى لعبته الحرب الباردة بالنسبة لهم" [١٢]. وقد اتخذ هذا العدو الجديد شكل الإسلام. فكما يوضح بيان جماعة 'أمريكيون من

أجل الانتصار على الإرهاب' ليس الفصيل العنيف من الحركة الإسلامية فحسب هو الذى ترغب الجماعة فى " إجراء بحوث بشأنه"، بل أيضًا " الإسلام والتأسلم " ككل. ومن ثم ينبغى ألا يكون من دواعى الاستغراب أن يصبح كون المرء مسلما فحسب أمرا جديرا بالتشكك، وفقا لهذا المنطق. فقد كان جافنى، تشبهًا بممارسات المكارثيين، واحدا من كثيرين زعموا أن أوباما ربما كان " مسلما فى السر"[١٣]. والمعنى الضمنى هنا هو، بطبيعة الأمر، أن كونه مسلما هو سبب كافٍ لعدم الثقة فيه.

وينطوى الجانب الأخير من جوانب استراتيجية مجموعة 'أمريكيون من أجل الانتصار على الإرهاب' على إسكات الآراء المنشقة. فتلك المجموعة لديها، كما يُعلن موقعها الشبكى بفخر، " التزام راسخ بالمبادأة بمهاجمة أولئك الذين سيلقون اللوم على أمريكا." وهذا بمثابة إعلان حرب صريح على المسلمين واليسار. فمن يستهدفهم هم أشخاص فى البلدان التى تقطنها أغلبية من المسلمين، لا سيما العرب، واليسار فى الغرب، لا سيما اليسار الأمريكى. وقد حاجج المحافظون الجدد محاججة شديدة بأن الولايات المتحدة كانت قوة من قوى الخير فى الشرق الأوسط وأن الناس فى تلك المنطقة هم لذلك الذين يجب أن يلوموا أنفسهم على حالة بلدانهم. وهذه الحجة لا ينشرها أمثال بايبس ولويس فحسب بل تنشرها أيضا شخصيات عامة من أمثال فريد زكريا وتوماس فريدمان[١٤]. فأيان حرسى على، وهى من المرتبطين ارتباطا وثيقا بالمحافظين الجدد، تضفى شرعية على هذه الحجة من خلال وضعها كـ " مخبرة من أهل البلد". فهى، التى تنحى باللائمة على الإسلام لطفولتها الصعبة فى الصومال (وكل شيء آخر تقريبا)، تقول " لماذا توجد حساسية مفرطة لدى المسلمين إزاء الانتقاد ولماذا لا يفعلون أى شيء بشأنه سوى الاستجابة بنفى مضمونه أو ادعاء أنهم ضحية؟"[١٥]. وإيجازًا، فإن المسلمين الذين يحاولون أن يلقوا باللوم المشروع عند باب الولايات المتحدة يتظاهرون بأنهم الضحية. وتصوِّر ذلك بطريقة تنم عن مزيد من الإحساس بالاستعلاء إرشاد مانجى، وهى متعاونة إيديولوجية أخرى مع الإمبراطورية، عندما تطلب إلى " رفاقها المسلمين" أن " ينضجوا"، مصرة بشدة على

أن الولايات المتحدة كانت نصيرة لحقوق الإنسان وأن " لا إسرائيل ولا أمريكا هما السبب في بؤس المسلمين" (١٦).

وقد تصدرت الجماعات التي نوقشت في الفصل السابق مهاجمة اليسار، لا سيما اليسار الأكاديمي، من قبيل مشروع ديفيد وحركة "Campus Watch" فبعد كتاب كريمر ' الأبراج العاجية المقامة على الرمال' صدر كتاب ' التحالف غير المقدس: الإسلام الراديكالي واليسار الأمريكي ' (٢٠٠٤) لليساري السابق ديفيد هورووتيز، ثم كتاب أندرو مكارثي ' الجهاد العظيم: كيف يخرّب الإسلام واليسار أمريكا ' (٢٠١٠). فهذان الكتابان يحاولان، استنادا إلى حجة كريمر الجدلية السابقة التي مفادها أن أقسام دراسات الشرق الأوسط في الجامعات ليست محقة بشأن سياسة الولايات المتحدة، إلقاء الشبكة على نطاق أوسع، بحيث أدانا اليسار ككل وصوّرا وجود تحالف تآمري بين المسلمين واليسار. وكما شاهدنا في الفصل السابع، يرجع منشأ هذه الحجة إلى ثمانينيات القرن العشرين والمؤتمرات ذات التأثير التي نظمها معهد جوناثان الصهيوني.

وقد مضى بريفيك بهذه الحجة إلى استنتاجها المنطقي عندما قام باغتيال مراهقين في معسكر يديره حزب العمل النرويجي الاجتماعي - الديمقراطي. ومع أن المحافظين الجدد تنصلوا من المسؤولية عن أفعال بريفيك، فإن الهدف الصريح لهجماتهم الإيديولوجية هو إسكات الآراء المنشقة وترويع النشطاء. وعملية الترويع هذه يجري القيام بها من خلال حملات تشويه السمعة والتحرش من جانب دعاة فوبيا الإسلام، ولكن الجهاز القانوني يقوم بها أيضا. فكما ذكر الفصل الثامن، لم يستهدف العاملون في مجال إنفاذ القانون المسلمين والنشطاء المسلمين فحسب بل استهدفوا أيضا الجماعات التقدمية. وهذه الممارسات، التي بدأت أثناء عهد بوش، وسّعت إدارة أوباما نطاقها وعززتها. وهذا ينبغي ألا يثير دهشتنا. فبعد كل شيء، صدر قانون سميث، الذي استُخدم لاضطهاد اليسار أثناء الحرب الباردة، في عهد الرئيس الديمقراطي فرانكلين ديلانو روزفلت.

وإضافة إلى جماعة " أمريكيون من أجل الانتصار على الإرهاب "، كان مركز جافنى للسياسة الأمنية فعالا فى الترويج للدعاية المناهضة للمسلمين. فكما يقول مؤلفو كتاب "شركة الخوف"، مركز السياسة الأمنية هو " مصدر رئيسى للسياسة والدهاقنة الذين ينتمون إلى الجناح اليمينى وللمنظمات الشعبية التى تنتمى إلى ذلك الجناح، بحيث يزودهم ويزودها بسلسلة منتظمة من التقارير التى تشوه صورة الإسلام وتحذر من أخطار الإسلام والمسلمين الأمريكيين"(١٧). وإضافة إلى ذلك المركز، فإن المصادر الرئيسية الأخرى للعنصرية المناهضة للمسلمين هى منتدى الشرق الأوسط الذى يعمل فيه بايبس، وحركة 'Jihad Watch' التى يعمل فيها روبرت سبنسر، وحركة " أوقفوا أسلمة أمريكا " التى يتزعمها كل من باميلا جيلير وروبرت سبنسر، والمشروع التحقيقى بشأن الإرهاب الذى يتزعمه ستيفن إمرسون، و "جمعية أمريكيين من أجل الوجود القومى " التى يتزعمها ديفيد بيروشالمى. فقد نشرت هذه الجماعات، معًا، فكرة وجود مؤامرة من المسلمين للسيطرة على الولايات المتحدة وأن الإسلاميين قد " اخترقوا" جميع مستويات المجتمع. وهى لا تميز بين المسلمين العاديين والإسلاميين، زاعمة أن الأمريكيين المسلمين لديهم روابط مع منظمات إرهابية ويريدون إحلال الشريعة محل دستور الولايات المتحدة. وتتشبث هذه الجماعات بالدفاع عن أمريكا بقدر تشبثها بالتزامها بالدفاع عن إسرائيل ضد المسلمين والعرب.

ومع أن هذه الحجج لم تتمكن من اقتحام المجال العام إلا بعد أحداث ١١ سبتمبر، فإن تاريخها أطول من ذلك. ففى عام ١٩٩٤، عرضت محطة الإذاعة العامة "PBS" فيلم ستيفن إمرسون " الجهاد فى أمريكا "، الذى ادعى أن جماعات إرهابية سرية تعمل فى الولايات المتحدة تشكل خطرا جسيما على الأمن القومى. وقد صنع إمرسون اسمه كصحفى عامل فى صحيفة "US News and World Report"، حيث تدرَّج فى المناصب إلى أن أصبح كبيرا للمحررين فى مجال قضايا الأمن القومى، ثم أصبح يكتب عن الإرهاب لحساب محطة "CNN" ولم يُعرض فيلم "الجهاد" على شاشة محطة التليفزيون العامة فحسب بل إنه فاز أيضا بجائزة جورج بولك الرفيعة المكانة

كأفضل فيلم وثائقي تليفزيوني. ثم قام إمرسون بعد ذلك بتكوين 'المشروع التحقيقي بشأن الإرهاب' في عام ١٩٩٥ كي يتقيأ باستمرار أكبر نظريات التآمر التي تدور حول " التهديد الإسلامي". وكان من بين كتبه ' الجهاد الأمريكي: الإرهابيون الذين يعيشون بيننا ' (٢٠٠٢)، و 'شركة الجهاد: دليل للإسلام المناضل في الولايات المتحدة' (٢٠٠٦). وبالنسبة لهذه الزمرة، لا يوجد " مسلمون أخيار". فعندما عيّن كريس كريستي أحد المسلمين قاضيا في ولاية نيوجيرسي، اتهم إمرسون كريستي بأن " له علاقة غريبة مع الإسلام الراديكالي" [١٨]. وتبجحت المدوّنة ديبي سكلاسل، حتى لا يتفوق عليها أحد، قائلة إن كريستي " خنزير حلال" وإن القاضي سهيل محمد من مؤيدي حماس [١٩].

وقد كان الجهاز القانوني ساحة هامة لدعاة رهاب الإسلام الذين ينتمون إلى الجناح اليميني. فد يفيد ييروشالمي يعمل مستشارا قانونيا لمركز السياسة الأمنية (CSB). وكان ضالعا بنشاط أيضا في الجدل حول دار قرطبة بوصفه مستشارا قانونيا لمنظمة ' أوقفوا أسلمة أمريكا ' (SIOA). ففي يونيو ٢٠١١، كتب ييروشالمي تقريرا في صحيفة منتدى الشرق الأوسط التي يصدرها دانييل بايبس 'Middle East Quarterly'، استُشهد به على نطاق واسع، وزعم فيه أن ٨٠ في المائة من المساجد الموجودة في الولايات المتحدة تروّج للعنف أو تؤيده [٢٠]. بيد أن أهم مساهمة له في شبكة فوبيا الإسلام ربما كانت إرساءه الأساس القانوني للحملة المناهضة للشريعة. وقد اشترك ييروشالمي مع فرانك جافني في إعداد تقرير بعنوان ' الشريعة: التهديد الماثل أمام أمريكا ' [٢١]. حفز ما يناهز ٢٠ ولاية على النظر في حظر استخدام الشريعة. وبينما لعب ييروشالمي دورا هاما في الموجة المناهضة للشريعة، كما يبين الفصل الثامن، فإن الجهاز القانوني ليس معاديا لهذه المواقف. فييروشالمي ليس عنصرا خارجيا بالنسبة لذلك الجهاز يحاول إفساد نظام عادل لولا ذلك باعتباره عنصرا داخليا ومكارثيا جديدا يدفع النظام نحو اليمين بدرجة أكبر.

وقد ساعد ديفيد جوباتز بيروشالمى على جمع معلومات مبكرة بقيادته حملته "عملية مسح الشريعة فى أمريكا: معرفة العدو " [٢٢]. وكان جوباتز، قبل أن يصبح من المحاربين دعاة الخوف من الإسلام، يعمل فى الشرق الأوسط فى مكتب التحقيقات الخاصة التابع للسلاح الجوى الأمريكى. وقد بنى حياته المهنية بعد أحداث ١١ سبتمبر بزعمه أن الجماعات الداعية إلى الحقوق المدنية للمسلمين من قبيل مركز العلاقات الأمريكية – الإسلامية هى فى حقيقة الأمر واجهات لمنظمات إرهابية. وقد اشترك فى تأليف كتاب 'مافيا المسلمين: داخل العالم السفلى السرى الذى يتآمر من أجل أسلمة أمريكا' (٢٠٠٩)، الذى استخدمه الساسة اليمينيون لاستهداف مركز العلاقات الأمريكية – الإسلامية وجماعات أخرى.

وضم ديفيد هوروويتز صوته الحاد إلى هذه الحملة الصليبية بمهاجمته لرابطة الطلبة المسلمين (MSA)، وهى جماعة جامعية لها عشرات الفروع فى الجامعات الموجودة فى مختلف أنحاء البلد. فهوروويتز يزعم أن تلك الرابطة " تكذب بشأن مهمتها الأساسية، وهى الدفع بالجهاد الإسلامى ضد يهود الشرق الأوسط ومسيحييه، وضد الولايات المتحدة فى نهاية المطاف. ... ومن دواعى الأسف أن أكاذيب الرابطة (مثل المنظمتين الشقيقتين لها ' مركز العلاقات الأمريكية – الإسلامية ' و ' جمعية الأمريكيين المسلمين ') تنجح فى دفع المتواطئين الراغبين الذين ينتمون إلى اليسار السياسى والمتواطئين عن غير قصد الذين ينتمون إلى الوسط الغافل إلى تأييد تلك الجماعات وحمايتها"[٢٣]. وإيجازًا، فإن منطق دعاة الخوف من الإسلام أولئك الذين يمثلون أقصى اليمين هو أنه لا يوجد " مسلمون أخيار" وأن منظمات المسلمين هى فى حقيقة الأمر، رغم نواياها المعلنة، واجهات للإخوان المسلمين أو للوهابيين، قصدها هو مهاجمة اليهود والمسيحيين. ومع أن هذه الطنطنة تمثل تطرفا، فإن هذه الآراء لا تختلف كثيرًا عن نظريات " التحول إلى الراديكالية " التى يسوقها مكتب التحقيقات الفيدرالى وإدارة شرطة مدينة نيويورك ونوقشت فى الفصل الثامن. فشريط الفيديو الدعائى ' الجهاد الثالث '، الذى عُرض على ضباط شرطة مدينة نيويورك كجزء

من تدريبهم، يدلل على هذا التداخل بين المكارثيين الجدد والمؤسسة الأمنية. فقائمة الشخصيات التى أجريت مقابلات معها من أجل هذا الفيلم الوثائقى الزائف لا تضم دعاة الخوف من الإسلام اليمينيين فقط بل تضم أيضا شخصيات من قبيل مأمور شرطة مدينة نيويورك راى كيلى، وعمدة مدينة نيويورك السابق رودلف جوليانى، ومدير وكالة المخابرات المركزية السابق جيمس وولزى، ورئيس أمن الوطن السابق توم ريدج، وعضو مجلس الشيوخ عن ولاية كينتيكيت جور ليبرمان، وآخرين [٢٤]. ويتمثل دور أشخاص من أمثال هوروويتز، فى إطار تقسيمهم للعمل، فى كسب الرأى العام من خلال الدعاية، وقد نظم هوروويتز " أسبوع الوعى بالفاشية الإسلامية "، الذى جلب شخصيات بارزة متعصبة ضد المسلمين إلى الجامعات فى عام ٢٠٠٧، وينتسب مركز الحرية التابع له إلى منظمة روبرت سبنسر 'Jihad Watch'، وتُنشر مقالات سبنسر عن الجهاد بصفة منتظمة فى مجلة 'Front Page' التى يصدرها هوروويتز.

ويبين كتاب 'شركة الخوف' الصلات المتبادلة بين مختلف المحاربين دعاة الخوف من الإسلام ومدى تنسيقهم لأنشطتهم. فحملة رهاب الإسلام هذه جمعت بين المحافظين الجدد وشخصيات أخرى من نفس العشيرة من قبيل الصهاينة اليمينيين، والمسيحيين الذين يمثلون أقصى اليمين، والمسلمين والمسلمين سابقا المحافظين. وإيجازا، وكما سنرى بعد هنيهة، اتحد المنتمون إلى الجناح اليمينى بمختلف أنماطهم تحت راية العنصرية المناهضة للمسلمين. وقد تلقوا موارد كبيرة من المنظمات اليمينية لشن هجماتهم على المسلمين، الإيديولوجية والجسدية على حد سواء. فقد ساهمت سبع مؤسسات بما يقرب من ٤٣ مليون دولار لهؤلاء المكارثيين الجدد خلال الفترة ما بين عامى ٢٠٠١ و ٢٠٠٩ والممولون الرئيسيون هم الصندوق الرأسمالى للجهات المانحة، ومؤسسة ريتشارد ميلون سكايف، ومؤسسة ليند وهارى برادلى، ومؤسسات نيوتون د. ورشيل ف. بيكر والصندوق الاستئمانى الخيرى التابع لهما، ومؤسسة راسل بيرى، وصندوق 'Anchorage" الخيرى، وصندوق أسرة ويليام روزنوالد، ومؤسسة فيربروك [٢٥].

واثنتان من هذه المؤسسات (هما مؤسستا بيكر وبيري) ملتزمتان صراحة بالترويج لما تريان أنه مصالح اليهود (لا سيما الصهيونية)، وثمة مؤسسة ثالثة، هى مؤسسة فيربروك، أكثر تطرفا حتى منهما فى توجهها الصهيونى. فهذه المؤسسة، التى يديرها أوبرى وجويس تشرنيك " قدمت تمويلا لجماعات تتراوح من رابطة مناهضة التشهير (ADL) ولجنة تحرى الدقة فى تقديم التقارير عن الشرق الأوسط فى أمريكا (CAMERA)، وهى غطاء يمينى وموالٍ لإسرائيل لممارسة الرقابة على وسائط الإعلام، إلى المستوطنين الإسرائيليين العنيفين الذين يعيشون على الأرض الفلسطينية وشخصيات من قبيل روبرت سبنسر المؤلف الأكاديمى الزائف"، كما تذكر صحافة ماكس بلومينتال التحقيقية[٢٦]. ويساهم تشرنيك أيضا فى معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى (WINEP) ومعهد هادسون. ومن الجدير بالذكر أن هذه المؤسسات والجماعات اليمينية لا تمثل آراء غالبية الأمريكيين اليهود، حتى وإن كانت تدعى ذلك. فقد سأل استطلاع لمعهد جالوب أجرى فى أغسطس ٢٠١١ مجيبين ينتمون إلى جماعات دينية شتى عما إذا كانوا يعتقدون أن المسلمين الأمريكيين يتعاطفون مع القاعدة. وأجاب سبعون فى المائة من الأمريكيين اليهود بكلمة لا؛ وكانت الجماعات الوحيدة التى كانت نسبة إجابتها بـ " لا" أعلى هى المسلمون والملحدون [٢٧]. ومن الواضح أن هذا أمر يتعلق بالسياسة، لا بالديانة. فالمحافظون من جميع الأنماط يعتبرون فوبيا الإسلام فعالا فى تعزيز أجنداتهم الفردية.

أقصى اليمين المسيحى

إن اليمين المسيحى يشكل جزءا لا يتجزأ من عربة فوبيا الإسلام ويؤيد إسرائيل بحماسة. فبالنسبة للحركة الإنجيلية المسيحية، تُعتبر إسرائيل ذات أهمية جوهرية؛ فالإنجيليون يعتقدون أن اليهود سوف يعودون إلى إسرائيل قبل عودة المسيح. وبينما يعتقدون أيضا أن اليهود سيتحولون إلى المسيحية، فإنهم يؤيدون تأييدا راسخا وجود دولة يهودية على أرض فلسطين [٢٨]. ومن ثم، فقد اصطف اليمين المسيحى مع

الصهاينة فى شيطنة الفلسطينيين. إذ كان اليمين المسيحى، على الأقل منذ ثمانينيات القرن الماضى، قاعدة هامة للحزب الجمهورى. وفى حقيقة الأمر، أصبح اليمين المسيحى والحزب الجمهورى من بين أشد الصهاينة تطرفا (حتى وإن كانا يعتقدان أن اليهود لا يمكن أن يكون مآلهم هو الجنّة). وهذا يمثل تحولا عن سبعينيات القرن الماضى وما قبلها، عندما كانت لإسرائيل صورة عالمية " ديمقراطية اجتماعية" وكان الديمقراطيون الليبراليون هم أشد أنصار الصهيونية حماسة. وقد زادت أحداث ١١ سبتمبر من تدعيم التحالف بين اليمين المسيحى والمحافظين الجدد والصهاينة. وكان الاتساق بين سياسة الولايات المتحدة والسياسة الإسرائيلية معناه، كما يقول هاجوبيان، " اعتبار الدول العربية/المسلمة و/أو الحركات الموجودة داخلها إرهابية أو نصيرة للإرهاب"[٢٩]. بالنسبة للإنجيليين، " يشكل اعتداء قنابل بشرية فلسطينية على إسرائيل اختبارا هاما فى الكفاح العالمى ضد الإرهاب الإسلامى"[٣٠].

ومن ثم، انضمت أصوات إنجيليين من أمثال جون هاجى وبات روبرتسون وجيرى فالويل وفرانكلين جراهام ورالف فريد إلى حملة مهاجمة الإسلام. فقد وصف جراهام الإسلام بأنه " ديانة شريرة ومؤذية إلى حد كبير". فبالنسبة لجراهام، " الإسلام الحقيقي" يدعو إلى ضرب الزوجات وقتل الأطفال الزناة ولذا " لا يمكن ممارسته" فى الولايات المتحدة [٣١]. وإضافة إلى هذه الشخصيات الراسخة، استفاد من حملة الكراهية هذه مقلدون آخرون، من قبيل قس فلوريدا السيئ الصيت حديثا تيرى جونز، الذى برز على الساحة الدولية بإعلانه أنه سوف يحرق نسخة من القرآن[٣٢]. وتوجد صلات متعددة بين اليمين الدينى وبقية شبكة الخوف من الإسلام، التى تشمل جماعات من قبيل جماعة 'مسيحيون متحدون من أجل إسرائيل'. وترتبط أيضا ارتباطا وثيقا باليمين الدينى حركة حزب الشاى. فثمة جماعات على مستوى الولايات وعلى المستوى المحلى، لا سيما فى ولايات تينيسى وكاليفورنيا وفلوريدا، قفزت بحماس على القطار غير المشروع الذى يمثله فوبيا الإسلام. [٣٣]. ففى ميرفريسبورو، بولاية تينيسى، تحالف المتعصبون الذين ينتمون إلى حزب الشاى

مــع اليـمين الديــنى لوقــف بنــاء مـركـز إســلامـى، وبلـغ بـهم الأمـر أنهم أشـعلوا حريقـا فى موقـع بناء المسـجد. وقد سـاعدتهم فى ذلك جمـاعـات من قبـيل جمـاعة "ACT for America"، ألتى أسسـتـهـا بريجيت جبريل (وهى مسـيحية لبنانية)، وهى حركة اشترك أعضاؤها فى تجمعات حاشدة ليس فحسب فى تينيسى بل أيضا فى فلوريدا وولايات أخرى.

ويؤدى أشخاص من قبيل بريجيت جبريل دورا هاما فى شبكة فوبيا الإسلام، فـهم يضـفـون شـرعيـة على الاعـتـداءات العنصـرية على المسلمين والعـرب من خـلال شهادتهم الشخصية. فبرجيت جبريل تجوب البلد لتتحدث عن مدى بشاعة المسلمين فى حقيقة الأمر، استنادا إلى تجربتـها المفترضة أثناء نشـأتها فى لبنان. وقد فسّرت فى مناسبـة مناهِضـة للإرهاب أقيمت فى جامـعة ديوك عـام ٢٠٠٤ الاخـتـلافـات بين العرب (والمسلمين) والإسرائيليين على النحو التالى: " إن المسـألة مسـألة بربرية مقابل حضـارة. إنها مسألة ديمقراطية مقابل ديكتاتورية. إنها مسـألة خير مقابل شر" [٣٤]. وكـان عنوان كـتـابهـا الأول عنوانا كـاشـفًـا، وهو ' لأنهـم يكرهون: ناجيـة من الإرهاب الإسلامى تحذر أمريكا ' (٢٠٠٦).

المسلمون السابقون

لقد لعبت مجموعة كبيرة كاملة من الأشخاص، معظمهم " مسلمون سابقون"، دور إضفاء المشروعية هذا. ومن المنظّرين الإيديولوجيين من هذا القبيل نونى درويش، وهى مديرة منظمة 'مسلمون سابقون متحدون'، التى اشتركت فى تأسيسها مع وفاء سلطان ووليد شـوبات وبن ورّاق. ونونى درويش أصلهـا مـصـرى ونشـأت فى غـزة. وهى تؤمن بأن الإسـلام "سيدمر نفسه لأنه ليس ديانة حقيقيـة" [٣٥]. وقد أقر بايبـس وسـبنسـر وهوروويتز وأيدوا كتبـهـا المعنونة ' الآن يسـموننى كافرة: لماذا نبذت الجـهاد من أجل أمريكا ' (٢٠٠٦)، و ' إسـرائيل والحرب على الإرهاب ' (٢٠٠٧)، و ' العقـاب القاسى وغير العادى: المضامين العالمية المخيفة للقانون الإسلامى ' (٢٠٠٩).

وقد ألقى كل من نونى درويش وشوبات، إلى جانب وليد فارس، وهو أستاذ بجامعة الدفاع القومى ومن المساهمين فى محطة 'فوكس نيوز'، محاضرات بانتظام أمام المسؤولين عن إنفاذ القانون بشأن " الإرهاب" [٣٦]. ويقود فارس عمليات تنظيم حلقات دراسية للموظفين الحكوميين ويلقى خطبا فى مؤتمرات بشأن إنفاذ القانون وأمن الوطن. وهو يقدم دورات دراسية بشأن الإرهاب لمركز الاستخبارات المضادة والدراسات الأمنية (CI CENTRE)، الذى يمثل إحدى عمليات عديدة يقوم بها أقصى اليمين وتغذى صناعة التدريب على مكافحة الإرهاب. وكما يقول توم سينكوتا، تتألف صناعة التدريب على مكافحة الإرهاب هذه من " درع كاملة من شركات تقدم تدريبا على أساليب المراقبة، والأمن السيبرى (الحاسوبى)، واكتشاف القنابل، وسلامة المدارس، والبنية التحتية البالغة الأهمية" [٣٧]. وتتكون مجموعة فرعية من هذه الصناعة من جماعات تقدم دورات دراسية لوكالات إنفاذ القانون بشأن " الجهاد" والخطر الذى يشكله بالنسبة للأمن القومى. ويملأ فارس عقول جمهوره بنظرياته التآمرية عن وجود استراتيجية جهادية لاختراق المؤسسات الرئيسية فى الولايات المتحدة من قبيل قطاع الدفاع، والأوساط الأكاديمية، والمنظمات المجتمعية. ومن بين كتبه كتاب ' الجهاد فى المستقبل: الاستراتيجية الإرهابية ضد أمريكا ' (٢٠٠٥)، وكتاب ' حرب الأفكار: الجهاد ضد الديمقراطية ' (٢٠٠٧)، وكتاب ' المجابهة: كسب الحرب على الجهاد فى المستقبل ' (٢٠٠٨).

كذلك يقول شوبات لجمهوره إن مركز العلاقات الأمريكية – الإسلامية (CAIR) والجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية هما " الجهازان الإرهابيان لوضع القوانين: الشريعة والقرآن والحديث" [٣٨]. وشوبات أكثر تطرفا حتى من زملائه المسلمين السابقين. فهو يرى وفقا لمعتقداته المسيحية الجديدة أن المسلمين سيحاربون إلى جانب الشيطان على الأرض أثناء " أوقات نهاية" النبوة الإنجيلية [٣٩]. ورغم هذه الادعاءات الغريبة (أو ربما بسببها)، يروّج له بحماس زملاؤه فى شبكة فوبيا الإسلام. فقد اندفع جافنى قائلا بحماس " فى السنوات الخمس والعشرين التى قضيتها فى واشنطن لم

أسمع قط شيئا بارعا هكذا ولم أسمع الحقيقة تُقال بهذا القدر من البلاغة من أحد ما"(٤٠). وفى عام ٢٠١١ دفعت له وزارة أمن الوطن خمسة آلاف دولار لكى يبصق هذا الهراء فى مؤتمر بشأن إنفاذ القانون عُقد فى ساوث داكوتا (٤١).

• التثقيف • والدعاية الإعلامية

إن الترويج لمتطرفين من هذا القبيل بوصفهم " مثقفين" لدى أوساط العاملين فى مجال إنفاذ القانون حفز مؤسستىّ "CINCOTTA" و 'Political Research Associates' على إصدار تقرير عن ثلاث منظمات للتدريب على مكافحة الإرهاب هى: الرابطة الدولية لضباط مكافحة الإرهاب، والرابطة الدولية للحلول الأمنية، ومركز الاستخبارات المضادة والدراسات الأمنية. وتستعين هذه الجماعات بدعاة الخوف من الإسلام اليمينيين وتنظِّم بصفة منتظمة مؤتمرات من أجل العاملين فى مجال إنفاذ القانون. وفى هذه البيئة لا يشذ دعاة الخوف من الإسلام اليمينيون؛ بل إنهم فى حقيقة الأمر مناسبون تماما داخل الهياكل القانونية والسياسية الراسخة وكثيرا ما يتشاركون المسرح مع شخصيات عامة من المؤسسة الأمنية. ومن ثم، أدرج مركز الاستخبارات المضادة والدراسات الأمنية (CI CENTRE) بورتر جوس ومايكل هايدن، المديريْن السابقيْن لوكالة المخابرات المركزية، كمتحدثيْن فى مؤتمر " رحلة السفينة بشأن التجسس"، وهو مؤتمر موضوعه الاستخبارات عُقد على متن سفينة سياحية. (كانت الكلمة التى ألقاها جوس تحمل عنوانًا كاشفًا هو " الأصولية الراديكالية والحضارة الغربية (اليهودية – المسيحية) غير قابليْن للتوافق" (٤٢). وعندما يستخدم مكتب التحقيقات الفيدرالى أعمال روبرت سبنسر والمستشرق رفائيل باتى فى تدريباته، فإنه يفعل هذا لأن ذلك العمل يتوافق مع إطاره الإيديولوجى القائم، أو – إذا تحرينا الدقة، مع آراء الشرائح المحافظة فى مكتب التحقيقات الفيدرالى والجهاز الأمنى (انظر الشكل الوارد فى إحدى الصفحات التالية). فمجلة "Wired" وجدت وفضحت عرضا بتقنية باور بوينت لوحدة مكتب التحقيقات الفيدرالى المعنية

بالاتصالات المتعلقة بإنفاذ القانون مستندا إلى الرأى المتسم بدرجة بالغة من التشويه الذى يعتنقه المحاربون دعاة الخوف من الإسلام بشأن الإسلام [٤٣]. واستجابة لهذا وربما لأمور أخرى تكشّفت، دعت إدارة أوباما إلى إعادة النظر فى مواد مكافحة الإرهاب التى تستخدمها وكالاته[٤٤]. وفى حقيقة الأمر توجد خلافات فيما بين مختلف فروع الحكومة بشأن كيفية النظر إلى " الإرهاب الإسلامى"، مثلما صوّرت الفصول السابقة.

وإضافة إلى هذا الدور " التثقيفي" داخل الجهاز الأمنى، تبث شبكة دعاة الخوف من الإسلام آراءها إلى الجمهور. وهى لا تفعل ذلك من خلال وسائط الإعلام اليمينية فقط، من قبيل شبكة الإذاعة المسيحية وفوكس نيوز وبقية إمبراطورية ميردوخ، بل أيضا فى وسائط الإعلام العامة، حيث لا يشكك أحد فى معظم الأحيان فى آرائها المتطرفة. فعدا عن بضعة تقارير إعلامية من قبيل تلك التى قدمها أندرسون كوبر الذى يعمل فى شبكة سى إن إن (CNN)، والذى قدم تحقيقا بشأن وليد شوبات [٤٥]. وبضعة تحقيقات إخبارية بثتها الإذاعة العامة الوطنية (NPR)، كان هناك تجاهل إلى حد كبير لهذا الاتجاه المقلق. بل إن أشخاصا من قبيل إمرسون كان وصولهم إلى وسائط الإعلام العامة أمرا يسيرا وجاهزا. فقد استشهدت بأقواله صحف رئيسية باعتباره "خبيرا فى الإرهاب "، ونُشرت أعمدته الصحفية فى صحيفة " وول ستريت جورنال "، واستعانت به محطة "NBC" باعتباره محللا لشؤون الإرهاب، بحيث ظهر على شاشاتها خمسين مرة خلال أول شهرين بعد أحداث ١١ سبتمبر [٤٦]. كذلك، ظهر بايبس ١١٠ مرات على شاشات التليفزيون وأجريت معه ٤٥٠ مقابلة إذاعية خلال الفترة ما بين سبتمبر ٢٠٠١ وسبتمبر ٢٠٠٢ [٤٧].

ويصوّر مثال واحد كيفية تضخيم الدعاية الكارهة للإسلام فى وسائط الإعلام العامة. فقد ظل المكارثيون الجدد يزعمون مدة طويلة أن ٨٠ فى المائة من المساجد يسيطر عليها الجهاديون. وفى عام ٢٠٠٤، ذكر بيتر كنج، عضو الكونجرس الجمهورى

فى 'برنامج Sean Hannity' الذى تبثه شبكة فوكس نيوز أن " ما يتراوح من ثمانين إلى خمسة وثمانين فى المائة من المساجد فى هذا البلد يسيطر عليها الأصوليون الإسلاميون". ودعم زعمه هذا بالاستشهاد بالبحث الذى أجراه إميرسون وبايبس.(٤٨) وتكرر هذا الهراء مرة تلو الأخرى من جانب دعاة الخوف من الإسلام، حتى فى وسائط الإعلام العامة. ففى عام ٢٠١٠، ذكرت باميلا جيلير على شبكة سى إن إن (CNN) أن " أربعة من كل خمسة مساجد تدعو إلى الكراهية"(٤٩). وفى مارس ٢٠١١، عقد بيتر كنج جلسات استماعه " بشأن الرعب الأخضر" التى دارت حول التحول المفترض إلى الراديكالية فى أوساط المسلمين الأمريكيين. وبعد بضعة أشهر، فى يونيو ٢٠١١، زعم بيروشالمى نفس الزعم فى التقرير الكاذب المذكور أعلاه. وأقر جافنى على الفور فى عموده فى صحيفة 'واشنطن تايمز' استنتاجات جلسات الاستماع(٥٠). وخلاصة هذه الدعاية هى أن قلة فى وسائط الإعلام هى التى شككت فى جلسات الاستماع التى عقدها كنج، مما أضفى مصداقية على فكرة أن المسلمين يجرى بالفعل " تحويلهم إلى الراديكالية" ومن اللازم مساءلتهم ورصدهم بطرائق مماثلة للطرائق التى اتُّبعت مع " الحُمر" فى حقبة الحرب الباردة.

والحراك الدينامى العام يتمثل فى كون وسائط الإعلام اليمينية هى مراكز الدعاية التى تنم عن فوبيا الإسلام، الذى يمتد بعدئذ إلى وسائط الإعلام العامة إما مباشرة، عن طريق المحاربين دعاة الخوف من الإسلام، أو عن طريق ساسة متعاطفين من أمثال كنج ونيوت جنينجريتش وميشيل باخمان وآلان ويست وغيرهم. وكما رأينا فى الفصل السابق، أثناء الجدل الذى سُمى تسمية زائفة هى الجدل بشأن " مسجد جراوند زيرو"، زاد الديمقراطيون فحسب من تأجيج النيران وساعدوا على إيصال طنطنة فوبيا الإسلام إلى وسائط الإعلام العامة، وإن يكن بطرائق أقل شدة. ولعبت أيضا عدة شخصيات عامة هذا الدور، ونتطرق إليها فى ما يلى.

الممكّنون فى وسائط الإعلام العامة والليبراليون

إن نظراء جبريل وشوبات وفارس الأكثر براعة منهم هم أشخاص من قبيل أيان حرسى على وفؤاد عجمى وآزار نفيسى وإرشاد منجى وكنعان ماكيا وبن ورّاق. فهؤلاء الأفراد يسهل عليهم بدرجة أكبر كثيرا الوصول إلى وسائط الإعلام العامة لأن لغتهم أكثر " معقولية" وتروج لهم شخصيات سياسية ذات نفوذ. إذ يقول حميد دباشى، فى كتابه " بشرة سمراء ، وأقنعة بيضاء"، إن هؤلاء الأشخاص، الذين يشير إليهم بأنهم " مخبرون من أهل البلد"، يعززون العنصرية المناهضة للمسلمين والمناهضة للعرب من خلال ما يسردونه من حكايات مقبضة عن بلدانهم الأصلية. وهو يذكر أن المنظّرين الإيديولوجيين العتاة فى إمبراطورية الولايات المتحدة سعوا بنشاط بعد أحداث ١١ سبتمبر مباشرة إلى المثقفين العملاء [المخبرين من أهل البلد الراغبين فى مساعدة الولايات المتحدة، وبخاصة ذوو الأصل الإيرانى والعربى والباكستانى]. وكانت مهمتهم هى ادعاء أنهم حجة، وادعاء أنهم ذوو المصداقية، وادعاء أن لديهم المعرفة المحلية وذلك بإبلاغهم الجمهور الأمريكى بالفظائع التى تُرتكب فى منطقة مولدهم، بحيث يبررون بذلك المخططات الإمبريالية للولايات المتحدة باعتبارها تمثل عملية تحرير"(٥١). وهو يضيف قائلاً إن هذا المنطق " كان صريحا فى بعض الأوقات، كما فى كتابات فؤاد عجمى وكنعان ماكيّا أثناء التجهيز لغزو العراق؛ وكان ضمنيا فى بعض الأحيان، كما فى حالتى نفيسى وحرسى على" (٥٢).

فأيان حرسى على اشتغلت بالسياسة الهولندية مدة قصيرة قبل أن تقبل وظيفة فى معهد إنتربرايز الأمريكى للفكر الذى يسيطر عليه المحافظون الجدد. وقد اضطرت أيان، وهى أصلا من الصومال، إلى الاستقالة من مقعدها فى البرلمان الهولندى بعد أن تبيّن أنها كذبت فى طلبها الحصول على اللجوء السياسى إلى هولندا(٥٣). وقد رحب بها المحافظون الجدد بأذرع مفتوحة، وأصبح كتابها " كافرة" من أكثر الكتب توزيعا لعدة أسابيع حسبما ذكرت صحيفة نيويورك تايمز. وبعد رحلتها عبر المحيط الأطلنطى، قامت بتأليف كتابها " بدوية: من الإسلام إلى أمريكا؛ رحلة شخصية عبر

صدام الحضارات" (٢٠١١)، الذى أعادت فيه ترديد الأكاذيب البالية عن صدام القيم المفترض بين الإسلام والغرب.

أما آزار نفيسي فقد سافرت أيضا من إيران إلى الولايات المتحدة، حيث احتضنها برنارد لويس، وأصبحت زميلة لفؤاد عجمى فى جامعة جونز هوبكنز، وموظفة لدى بول وولفوويتز[٥٤]. ويومياتها " قراءة لوليتا فى طهران" تحكى قصة إنقاذها سبعة طلبة فى طهران بدعوتهم إلى منزلها لتدرّس لهم كتاب "لوليتا" لنابوكوف وغيره من أمهات الكتب الكلاسيكية الغربية. ونجحت نفيسي، بقيامها بذلك، فى إعادة كتابة تاريخ إيران وتحويل شعبها إلى شخصيات كاريكاتيرية. وكما يقول دباشي، " تتوارى إيران كلها كأمة وثقافة ومجتمع وواقع وراء قصة بطلة منغمسة فى ذاتها وسعيدة للغاية بأفعالها البطولية وانتصاراتها الدونكيشوتية"[٥٥]. وقد وضعت صحيفة " نيويورك تايمز" كتابها على قائمتها لأكثر الكتب مبيعا لمدة تجاوزت مائة أسبوع. وتُرجم الكتاب إلى عشرات من اللغات واعتُمد على نطاق واسع فى خلاصات الدورات الدراسية بالجامعات فى مختلف أنحاء الولايات المتحدة.

وساهمت أيان حرسى على وآزار نفيسي وإرشاد منجى (وهو كندى ينحدر من أصول مصرية وجنوب آسيوية) أكبر مساهمة فى الحجة القائلة بأن الولايات المتحدة ينبغى أن تدافع عن حقوق الإنسان وحقوق المرأة فى " عالم المسلمين". وفى ما يلى اقتباس مرة أخرى لما قاله دباشي:

تُذكر الآن بصورة روتينية كأهداف رئيسية للتدخلات الإمبريالية الأمريكية حقوق الإنسان وحقوق المرأة على وجه الخصوص بعد مصالح الأمن القومى. ويتمثل دور حرسى على ونفيسي وإرشاد منجى وأمثالهم فى التكلّم فى صالح هذه الرؤى المتعمقة باعتبارها جزءا لا يتجزأ من المهمة الإنسانية التى تمثل لُب الإمبريالية الأمريكية. فتقديم نقد عنيف، باللغة الإنجليزية من أجل السوق الأمريكية والأوروبية، لحقوق المرأة فى إيران (نفيسي) أو ختان الإناث فى أفريقيا (حرسى على)، أو حقوق المثليين والمثليات جنسيا فى الإسلام بوجه عام (إرشاد منجى) يضع

سلطة تصحيح تلك الأخطاء فى أيدى القراء الأجانب ومسؤوليهم المنتخبين، لا فى أيدى المجتمعات المتضررة(٥٦).

فنفيسى وشركاؤها يحاولون التذرع بطنطنة عبء الرجل الأبيض، بدلا من أن يقفوا تضامنا مع الرجال والنساء فى البلدان التى تقطنها أغلبية من المسلمين والذين يكافحون فى سبيل الحقوق بمختلف أنواعها.

وقد كان خطاب حقوق الإنسان محوريا فى الحرب الدعائية التى يشنها المحافظون الجدد. ولذا من المهم إدراك أن هذه الطنطنة الليبرالية ليست ببساطة معقل الإمبرياليين الليبراليين بل تمثل لُب توجّه المحافظين الجدد أيضا. وما هو مختلف فى طنطنة الإمبرياليين الليبراليين هو أنها تحاول فصل الإسلام عن التأسلم كما يُشاهد فى أعمال الراحلين كريستوفر هيتشنز وبول بيرمان ومارتن آميس ونيك كوهين وبرنارد - هنرى ليفى وآندرو أنتونى(٥٧). فآرون كوندنانى يقول إن هؤلاء

الليبراليين الجدد ينحّون جانبًا (عن حق) هذه الحجج عن طبيعة الإسلام وأنماط التاريخ الإسلامى [كما يعبر عنها لويس والمستشرقون] ويركزون اهتمامهم، بدلا من ذلك، على التأسلم، وهو حركة سياسية حديثة، يعتبرونها (عن غير حق) مناظرة للستالينية أو الفاشية. فالتأسلم يُنظر إليه على أنه صفة يستخدمها الاستبداد الأوروبى الحديث وغريبة أساسا عن " الإسلام التقليدي". والتمييز بين الإسلام والتأسلم هام، لأنه يحمى هذا الخطاب من تهم فوبيا الإسلام المباشرة، فهدفه هو، بعد كل شيء، إيديولوجيا سياسية فى القرن العشرين ذات جذور أوروبية، لا ديانة شرقية (٥٨).

وهيتشنز، الذى كان يكتب عمودا بصفة منتظمة فى مجلة "Nation"، أصبح فى سنواته اللاحقة أحد أقطاب فوبيا الإسلام الليبراليين المفوهين. فهو يستهدف، فى كتابه ' الله ليس عظيما'، جميع الديانات، قائلا، أشبه بفولتير إلى حد كبير، إن الدين "يسمم كل شيء" ومسؤول عن إيجاد أنظمة طغيان فى العصور القديمة والحديثة على حد سواء. غير أن انتقاداته انتقائية: فهو يتهم صدام حسين باستخدام الإسلام

لتحقيق مكسب سياسي ولكنه لا يقول شيئا عن جورج دابليو بوش الذى وُلد مرة أخرى كمسيحي وعن لجوئه إلى الدين لتبرير أهداف سياسته. ويتمادى هيتشنز فى تبجحه ليلقى باللوم على الإسلام لحالة العراق المروعة بعد غزو واحتلال العراق بقيادة الولايات المتحدة. وفى التحليل الأخير، على الرغم من انتقاده لديانات العالم الرئيسية من منطلق تكافؤ الفرص، فإن كتابه يساعد على تعزيز السياسة الخارجية للولايات المتحدة. وهذا أمر يكاد لا يدعو للدهشة بالنظر إلى أنه " مال نحو المحافظين الجدد وظهر بصورة متكررة فى برامج الأحاديث اليمينية وشوهد بصفة منتظمة مع ديفيد هورويتز"، مثلما لاحظ ريتشارد سيمور[٥٩].

وعلى العكس من ذلك، يتردد إمبرياليون ليبراليون آخرون من أمثال مايكل إجناتيف وبول بيرمان ترددا أكبر فى الارتباط علنا بالمحافظين الجدد[٦٠]. وقد أيد بيرمان، الذى ينتمى إلى ما يسميه اليسار " المناهض للاستبداد"، الحرب على العراق فى عام ٢٠٠٣ لأن " القاعدة ... وحزب البعث الذى ينتمى إليه صدام حسين هما اتجاهان داخل ظاهرة أكبر كثيرا، هى ظاهرة استبداد المسلمين"[٦١]. وكما يلاحظ كوندنانى، كان هيتشينز يشاطر بيرمان رأيه المتمثل فى أنه " فور كسب الغرب معركته التاريخية ضد الشيوعية، ظهر استبداد جديد – هو التأسلم – كقوة سياسية. والغرب، كما يُقال، ملزم أخلاقيا بالقضاء على هذا التهديد الاستبدادى فى العالم الإسلامى وأيضا فى أوساط المسلمين" [٦٢]. ومن ثم، على الرغم من استخدام الإمبراليين الليبراليين لغة أكثر رصانة، فإنهم يسوقون فى نهاية الأمر حجة مماثلة لحجة المحافظين الجدد (انظر، مثلا، كتاب بودهوريتز ' الحرب العالمية الرابعة: الكفاح الطويل ضد الفاشية الإسلامية ') ولحجة المحاربين دعاة فوبيا الإسلام. فقد قال دانييل بايبس على نفس النحو إن " ما كانت النازية أو الفاشية تمثله بالنسبة للحرب العالمية الثانية وما كانت اللينينية الماركسية تمثله بالنسبة للحرب الباردة، يمثله الإسلام المناضل بالنسبة لهذه الحرب [أى الحرب على الإرهاب]"[٦٣].

العنصرية العامة

لقد شاركت مجموعة واسعة التنوع من الأشخاص والجماعات فى خلق " تهديد إسلامي" شيطانى. وما شاهدناه فى هذا الفصل هو أن المكارثيين الجدد لا يمثلون حالات شاذة فى نظام يكون عادلاً ومحايداً لولا ذلك، رغم آرائهم المتطرفة فى عنصريتها؛ ويتمثل دورهم فى تجاوز الحدود. وإيجازا، كانت المجموعة الأولى من المكارثيين الجدد التى نوقشت فى هذا الفصل هى فصيل من المحافظين الجدد الذين كرّسوا أنفسهم للدعاية المناهضة للمسلمين من خلال جماعات ومنظمات شتى. ولكن، بالنظر إلى أنهم يشكلون جزءا من مؤسسة السياسة الخارجية أو من المؤسسة العسكرية أو من وكالة المخابرات المركزية أو من وزارة الدفاع أو من أفرع أخرى للجهاز الأمنى فإن إيديولوجيتهم يرددها ويؤيدها آخرون يشاطرونهم آراءهم ولكنهم قد لا يوصفون صراحة بأنهم من المحافظين الجدد. ومن المحاربين الآخرين دعاة فوبيا الإسلام أشخاص يمينيون من أنماط شتى، صهاينة، وأصوليين مسيحيين، ومسلمين سابقين ومسيحيين يمينيين من الشرق الأوسط وجنوب آسيا. وحججهم يجعلها مستساغة بدرجة أكبر دعاة فوبيا الإسلام الليبراليون الذين يعملون فى الأوساط الأكاديمية، ووسائط الإعلام العامة، ومراكز فكر شتى.

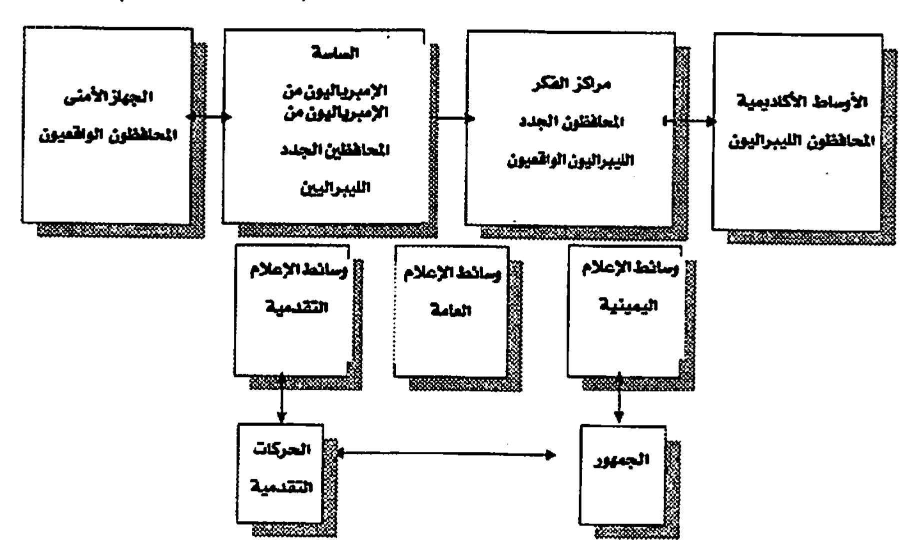
ويحاول الرسم البيانى الوارد فى إحدى الصفحات التالية تصوير مصادر فوبيا الإسلام هذه وأثرها على الخطاب العام. وسيلاحظ القارئ عدم وجود مربع منفصل لدعاة فوبيا الإسلام. وهذا يرجع إلى أنهم، كما هو مبين أعلاه، يشكلون جزءا من المؤسسة ويوجدون داخل مراكز الفكر المعنية بالسياسة الخارجية، والجامعات والكليات، والطبقة السياسية، والجهاز الأمنى (التى تعرّف بأنها أفرع الحكومة التى تترافع عن الحرب على الإرهاب فى الخارج وكذلك فى الداخل). وقد لعبت مراكز الفكر دورا متزايد الأهمية فى تشكل السياسة الخارجية كما شاهدنا فى الفصل السابع. فكما يقول لورانس ديفيدسون فى كتابه ' السياسة الخارجية: خصخصة المصلحة الوطنية الأمريكية'، تلعب أفضل مراكز الفكر تمويلا دوراً حاسما فى تشكيل السياسة

الخارجية وتحديد شروط النقاش العام من خلال ظهور أعضائها المتكرر بوصفهم "خبراء" في وسائط الإعلام العامة. والأوساط الأكاديمية هي مصدر آخر من مصادر الأفكار التي كثيرا ما تكون مرتبطة بمراكز الفكر وبالساسة. فشخصيات سياسية من كل من الحزبين الجمهوري والديمقراطي ربطت أهداف سياستها بطنطنة فوبيا الإسلام، واستخدم جمهوريون كثيرون العنصرية المناهضة للمسلمين لتعزيز حملاتهم الانتخابية. وأخيرا، يوجد لدى المؤسسة الأمنية أفراد يسعون إلى تحقيق رؤاهم بشأن الأمن القومي والداخلي وكثيرا ما تسعى إليهم وسائط الإعلام بوصفهم " خبراء". فقد تبيّن من تحقيقات مجلة "Wired" أن " المؤسسة العسكرية الأمريكية علّمت قادتها في المستقبل أن 'حربًا كاملة' على مسلمي العالم البالغ عددهم ١,٤ مليار شخص ستكون ضرورية لحماية أمريكا من الإرهابيين الإسلاميين"[٦٤]. وكان من بين الخيارات المختلفة التي طُرحت محو مدن بأكملها (مثلما حدث مع هيروشيما) واستهداف "السكان المدنيين أينما كانت هناك ضرورة لذلك". ومع أن البنتاجون أوقفت هذا التدريب منذ ذلك الحين، فإن الضابط المسؤول عن إلقاء هذه المحاضرات يحتفظ بوظيفته داخل المؤسسة العسكرية: ورُقي " القادة والضباط من مختلف الرتب" الذين تلقوا دورته التدريبية واستمعوا إلى تبجحاته بحيث تولوا مهام أعلى مستوى منذ ذلك الحين[٦٥]. وأخيرًا، تجدر الإشارة إلى أن هذه الجماعات كلها تتفاعل فيما بينها. فمثلا، وردت في تقرير مركز السياسة الأمنية (CSP) المعنون ' الشريعة: التهديد الماثل أمام أمريكا ' مقالات لجافني وبيوروشالمي ومكارثي وغيرهم من دعاة فوبيا الإسلام، ولكن وردت فيه أيضا مقالات لجنرالات عسكريين (وليام بويكين وإدوارد سويستر) ولمسؤولين في مكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالة المخابرات المركزية (جون جواندولو وجيمس وولسي)، وآخرين من المؤسسة الأمنية الذين يشاطرونهم آراءهم[٦٦]. والخطوط التي تربط بين مختلف المربعات يُقصد بها تبيان هذه الصلات.

ومن هذا التحليل يمكن استخلاص أن مكارثية القرن الحادي والعشرين ليست نتاج فرد واحد فقط: فهي نتاج الجهد الجماعي لمن ينتمون إلى الجناح اليميني في

الأوساط الأكاديمية، وأوساط مراكز الفكر، والعاملين فى المجال السياسى، والمؤسسة الأمنية. ولكن الرعب الأخضر، مثله تماما مثل نظيره فى القرن العشرين، يؤيده ويقره الليبراليون الموجودون فى كل مجال الذين يشاطرون المحافظين التزاما مشتركا بإمبريالية الولايات المتحدة. ومع ذلك من الجدير بالذكر أن فوبيا الإسلام أقل فعالية من نظيره الأحمر كعامل من عوامل إشاعة الخوف. فأثناء الحرب الباردة، كان الاتحاد السوفييتى يشكل بلا جدال تهديدا شديداً للولايات المتحدة مدججا بالأسلحة النووية. ولا يمكن أن يُقال الشيء نفسه عن الجماعات الإسلامية الراديكالية، وهو ما يعترف به حتى أفراد المؤسسة الأمنية طواعية. إذ إن " الرعب الأخضر" لا يمكن أن يكون فعالا إلا إلى حد ما؛ ويجب إحياؤه باستمرار فى الذاكرة العامة من خلال مشاهد إعلامية من أجل إبقاء الخوف حيا. ويشارك المحافظون والليبراليون على حد سواء فى هذه الجهود.

ولكن فى بعض الأحيان يحدث صدام بين هذين الجناحين من فوبيا الإسلام. فكما شاهدنا أعلاه، أوقفت البنتاجون تدريبها المتطرف النابع من رهاب الإسلام؛ ودعت إدارة أوباما إلى إجراء تحقيق بشأن التدريب على مكافحة الإرهاب. وهذه الصدامات ترجع إلى الاختلافات في الاستراتيجية. فعلى سبيل المثال، عندما هدد قس فلوريدا تيرى جونز بحرق القرآن فى الذكرى السنوية التاسعة لهجمات ١١ سبتمبر، كان على إدارة أوباما أن تكبح جماحه. وكان هذا يتعلق بتشديد إداراته على كسب الأفئدة والعقول فى " عالم المسلمين" أكثر مما كان يتعلق بالتزام أوباما بمكافحة فوبيا الإسلام. فقد قال أوباما، بعد تعزيزه فكرة أن الولايات المتحدة أمة تقوم على التسامح الدينى، عن جونز، فى مقابلة تليفزيونية، " إننى أريد منه فحسب أن يدرك أن هذا العمل المثير الذى يحاول القيام به يمكن أن يعرّض شبابنا رجالا ونساء العسكريين الموجودين فى العراق والموجودين فى أفغانستان لخطر كبير"[٦٧]. وكانت العودة إلى مكافحة التمرد معناها أن الاستفزازات الواضحة من هذا القبيل لا بد من التحكم فيها حتى مع تعزيز منطق الإمبراطورية.



فوبيا الإسلام والنقاش العام

وما صدّ أمثال ترى جونز لم يكن تصرفات الإمبرياليين الليبراليين بل تصرفات الأشخاص العاديين فى فلوريدا الذين نظموا أنفسهم وتظاهروا ضد هذا التعصب الأعمى. فجماعات شعبية من قبيل منظمة ' جينزفيل إنترناشيونال الاشتراكية '، ومنظمة ' طلبة من أجل العدالة فى فلسطين '، ومنظمة "Standup Florida"، ومنظمة العفو الدولية، ومنظمة ' طلبة جينزفيل من أجل مجتمع ديمقراطى ' عبأت صفوفها ضد جونز وأخرجت إلى الشوارع فى ١١ سبتمبر ٢٠١٠ مئات من الأشخاص لوقف حرق نسخ من القرآن خارج كنيسة جونز. وقد نجحت هذه الجماعات؛ فلم تُحرق نسخ من القرآن فى ذلك اليوم(٦٨). والمربع الوارد فى الرسم البيانى ممثلا للحركات التقدمية موضوع إلى جانب المربع المكتوب عليه " الجمهور"، لأن الناشطين يظهرون من صفوف الأشخاص العاديين للاعتراض على العنصرية بجميع أشكالها. ولدى الحركات التقدمية القدرة على إعادة تشكيل النقاش وصدّ العنصرية، والتأثير على ما تقوله الشخصيات السياسية، بل وحتى دفعها إلى اليسار. وقد كان الطلبة وأعضاء هيئة

التدريس الليبراليون والراديكاليون على حد سواء جزءا من هذه الحركات منذ أمد طويل، وكثيرا ما تمتد مشاركتهم إلى بحوثهم وتدريسهم. ومن خلال هذا النشاط على مستوى القواعد الشعبية يمكن النجاح فى مكافحة العنصرية وإحداث تحول فى المجتمع بأكمله.

خاتمـة

مكافحة فوبيا الإسلام

لقد انتقلنا فى هذا الكتاب من القرن السابع إلى القرن الحادى والعشرين وتبين لنا أن العلاقة بين " الشرق" و " الغرب" لم تكن تتسم بـ " صدام حضارات" عبر التاريخ. ورأينا أيضا أن النُخب الحاكمة عبّأت صورة " خطر المسلمين" الداهم لتحقيق أجندة سياسية، سواء كانت سيطرة البابوية على أوروبا فى القرن الحادى عشر أو التوسع الأمريكى الآن. والعدو الخارجى يقترن عادةً بعدو داخلى يجرى توليد خوف وكراهية سائغين ضده. وبالتالى فإن فوبيا الإسلام يتعلق بالسياسة لا بالديانة؛ ولذا يجب مكافحة فوبيا الإسلام فى عالم السياسة.

والحزب الديمقراطى ليس حليفا فى هذا الكفاح. فقد ظن بعض اليساريين، ومسلمون كثيرون، أن رئاسة أوباما ستخفف من الخوف الخبيث من الإسلام الذى أُطلق عنانه أثناء عهد بوش وأنها ستُبطل ذلك الخوف. بيد أنه لم يُحتجز عشرات الآلاف من الأمريكيين المسلمين أو يجرى ترحيلهم فى السنوات التالية لأحداث ١١ سبتمبر فحسب، بل إن مئات الآلاف جرى " استجوابهم" ومن ثم اعتبرتهم وزارة أمن الوطن التى أنشئت حديثا موضع شك. وقد كان هناك قدر كبير من الأمل إبان انتخابات عام ٢٠٠٨ فى أن يتغير هذا كله مع قدوم رئيس ديمقراطى جديد. وتبيّن من استطلاع للرأى العام أجراه مجلس العلاقات الأمريكية - الإسلامية أن ٨٩ فى المائة من الأمريكيين المسلمين أعطوا أصواتهم لأوباما؛ وأن ٢ فى المائة فقط منهم صوتوا

لصالح جون ماكين، الجمهورى، وأعلن أكثر من الثلثين أنهم ديمقراطيون، وذكر ٦٩ فى المائة أنهم مستقلون، وتبين أن ٤ فى المائة فقط جمهوريون(١). بيد أن آمالهم تحطمت. فقد بدت دلائل الخيانة فى أثناء الحملة الانتخابية نفسها. فأوباما، عندما "اتُّهم" بأنه مسلم، نفى التهمة وأكد معتقداته المسيحية. ودأب أيضا على تجنُّب طائفة المسلمين. فقد طُلب إلى امرأتين ترتديان الحجاب، قبل إلقائه خطابا مقررا فى ديترويت، أن تنتقلا من وراء المنصة حتى لا تبدو أى منهما فى نفس الإطار مع المرشح أوباما.

وإذا كان اليمين ينتقد أوباما لكونه " مسلما فى السر" فإن الليبراليين كانوا طرفًا أيضا فى هذا الهجوم. فعلى سبيل المثال، كتب إدوارد لوتواك، وهو زميل مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية، وهو مركز إمبريالى واقعى/ليبرالى من مراكز الفكر، مقالا من مقالات الرأى فى صحيفة ' نيويورك تايمز' كان، كما يقول حامد دباشى " مناهضا للمسلمين، وينم تماما عن كراهية الإسلام بدرجة غير مسبوقة ومخزية"(٢). وكان فحوى حجة لوتواك هو أن أوباما مسلم (لأن والده كان مسلما) وأن المسلمين ملزمون بحكم ديانتهم بإعدامه لأنه اعتنق المسيحية. وفى مواجهة هذا الهراء فى وسائط الإعلام التى يُفترض فيها أنها ليبرالية، من السهل فهم السبب الذى جعل الأمريكيين المسلمين يعتقدون أنهم ينبغى ألا ينتقدوا أوباما أثناء الحملة الانتخابية وأن عليهم بدلا من ذلك أن يصوتوا له وينتظروا.

بيد أن انتظارهم راح سدى. فقد واصل أوباما بعد فوزه فى الانتخابات اتباع أجندة سياسة بوش الخارجية فى مدة ولايته الثانية. وبينما تراجع خطابيا عن استخدام لغة فوبيا الإسلام الخشنة فإنه أرسل عمليا ثلاثين ألف جندى إضافى إلى أفغانستان، وقام بتوسيع نطاق الحرب على باكستان، وحاول تغيير وضع اتفاق القوات فى العراق بحيث لا يمدد احتلال الولايات المتحدة للعراق فحسب بل يمنح حصانة أيضا لجنود الولايات المتحدة من المقاضاة أمام المحاكم العراقية. ولم يقم فحسب بشن عدد من الهجمات بواسطة الطائرات بدون طيار على أفغانستان

وباكستان أكبر كثيرا من عدد الهجمات المماثلة التى شنها سلفه بل إنه أدمج أيضا تلك الهجمات فى استراتيجياته بشأن اليمن والصومال. وقدم عرضا لإظهار ولائه لإسرائيل ولم يقم، مثله مثل كل رئيس سابق، بمنع الهجمات الإرهابية على الفلسطينيين.

وفى سياق الانتفاضات العربية التى حدثت فى عام ٢٠١١، أيدت إدارة أوباما فى البداية حلفاءها الديكتاتوريين (من قبيل حسنى مبارك الذى كان رئيسا لمصر، وهو صديق شخصى لأسرة كلينتون)[٢]. وعندما بات واضحا أن أولئك الحلفاء سيجرى إبعادهم عن السلطة تبنى أوباما الربيع العربى، علنا على الأقل، بينما كان يؤيد فى الوقت ذاته قوى الثورة المضادة فى مختلف أنحاء المنطقة. وواصلت الولايات المتحدة تمويل المؤسسة العسكرية المصرية، وهى المصدر الرئيسى للثورة المضادة فى ذلك البلد. وفى كل مكان آخر التزم البيت الأبيض فى عهد أوباما الصمت، مثلما حدث عندما لم تُخمد المملكة العربية السعودية تمرد الشيعة لديها فحسب بل أرسلت أيضا جنودا إلى البحرين لقمع الانتفاضة فى ذلك البلد. ولو كان أوباما قد أراد أن يتدخل إلى جانب المتظاهرين المناصرين للديمقراطية فى البحرين، لكان قد استخدم الأسطول الخامس، المرابط هناك. ولكنه اختار بدلا من ذلك أن يؤيد القوى الموالية للغرب فى ليبيا وسوريا كوسيلة لإزاحة الحلفاء المتذبذبين ونزع فتيل الحركات التى تطالب بالديمقراطية الحقيقية والتغيير الاجتماعى الحقيقى.

وعلى الصعيد الداخلى، هاجم أوباما المسلمين والعرب بمواصلته سياسات بوش المُتمثلة فى التعذيب، والتنكيل غير العادى، والمقاضاة الاستباقية. وما زال المسلمون الأمريكيون يتعرضون للتحرش والاضطهاد من قِبل الدولة. فمسرحية " الإرهاب الداخلى المنشأ" تصاعدت فحسب فى عهد أوباما عام ٢٠٠٩، مما مهّد السبيل للمحاربين من دعاة فوبيا الإسلام الذين يمثلون أقصى اليمين. بل إن أوباما تمادى أكثر من بوش من عدة نواح. فقد حصل للرئيس على سلطة إعدام مواطنى الولايات المتحدة الذين يُشتبه فى وجود روابط لهم بالإرهاب بدون بذل جهد كبير من قبيل

إجراءات المحاكمة أو عبء الإثبات غير الضرورى فيما يبدو؛ فقد نُفذ حكم الإعدام بإجراءات موجزة فى رجل الدين والمواطن الأمريكى أنور العولقى عام ٢٠١١، ووقّع أوباما أيضا قانون الترخيص الخاص بالدفاع القومى، الذى يتيح للمؤسسة العسكرية، بين جملة أمور أخرى، احتجاز مواطنى الولايات المتحدة " الذين يُشتبه فى صلتهم بالإرهاب" بدون توجيه تهمة لهم. واعتمد أوباما سياسات بوش ودوّنها فى القانون مع أن ذلك أمر غير دستورى وغير قانونى، وفقا لاتحاد الحريات المدنية الأمريكية(٤). وحتى رغم أن هذه العملية قد أبعدت أفراد أسر المسلمين بعضهم عن بعض.

وبدلا من أن يصدّ أوباما المقاضاة الاستباقية والممارسة العنصرية المتمثلة فى استهداف المسلمين قبل أن يفعلوا أى شيء فعلا، فإنه عززهما. وأماط اللثام عن استراتيجيته " لمكافحة التحول إلى الراديكالية" عام ٢٠١١، مما أضفى مصداقية على البرامج القائمة فى أوساط إنفاذ القانون بشأن التحول إلى الراديكالية. وقال أوباما، فى البيان الافتتاحى لوثيقة استراتيجيته، إن " القاعدة والمنظمات المنتسبة إليها حاولت مؤخرا تجنيد أشخاص هنا فى الولايات المتحدة وتحويلهم إلى الراديكالية، كما شاهدنا فى العديد من المخططات والهجمات، ومن بينها الهجوم المميت الذى تعرّض له منذ عامين جنودنا فى فورت هود." وبعد أن قضى أوباما وقتا طويلا عام ٢٠٠٩ فى التشديد على خطر الإرهابيين داخل حدود الولايات المتحدة، كما نوقش فى الفصل التاسع، فإنه طرح خطة لكبح " الإرهاب الداخلى المنشأ" بالتماس مساعدة طائفة المسلمين. بيد أن الخوف الليبرالى من الإسلام لا يستهدف جميع المسلمين. فهو يعترف بوجود " مسلمين أخيار"، وهم أولئك الذين يتعاونون مع أهداف الإمبراطورية. ومن ثم، ذكر أوباما أن المسلمين " أقدر على تولى الدور القيادى لأنهم يعرفون أوساطهم أفضل المعرفة". وأغدق فى مديح الأمريكيين المسلمين الذين عملوا مع المسؤولين عن إنفاذ القانون، ودعا إلى مزيد من هذا العمل. وتلتمس الوثيقة دعم المدرسين والمدربين وأفراد طائفة المسلمين، الذين يتعين تحويلهم إلى نظام مخبرين

على غرار المكارثية[٥]. ويمضى التقرير، متمسكا بمبادئ الخوف الليبرالى من الإسلام، ليقول " علينا أن نتصدى لدعاية القاعدة القائلة بأن الولايات المتحدة فى حالة حرب مع الإسلام بطريقة ما" ويؤكد بدلا من ذلك أن " الإسلام جزء من أمريكا، وهى بلد يعتز بالمشاركة النشطة من قِبل جميع مواطنيه، بصرف النظر عن خلفيتهم ومعتقداتهم. فنحن نعيش فى ظل ما ترفضه القاعدة بعنف، وهو الحرية الدينية والتعددية." وأضاف أوباما قائلا " إن تنوّع خلفياتنا وداناتنا الثرى يجلنا أقوى." وهذا يمثل الأسلوب الذى يعمل به الخوف الليبرالى من الإسلام: وهو رفض مهاجمة الإسلام بعنف، ثم الشروع فى طرح مقترحات تستهدف المسلمين. فعندما عقد النائب بيتر كنج جلسات استماعه على غرار المكارثية فى مارس ٢٠١١ لتحديد مدى تحول المسلمين إلى الراديكالية فى الولايات المتحدة، فإنه تعرّض لهجوم عن حق من قِبل الليبراليين. ومع ذلك، فى شهر أغسطس من ذلك العام، عندما أضفى أوباما طابعا مؤسسيا على هذه العملية من خلال استراتيجيته " لمكافحة التحول إلى الراديكالية" لم يكن هناك أى مظهر من مظاهر الاحتجاج تقريبا.

وفى حقيقة الأمر، القاعدة تمثل قوة عديمة الأهمية، وقدرتها على تجنيد أفراد فى الولايات المتحدة محدودة للغاية. وحتى أعضاء جهاز الأمن يعترفون بذلك. فقبل شهر من إصدار وثيقة " مكافحة التحول إلى الراديكالية"، ذكرت صحيفة " واشنطن بوست" أن من المعتقد على نطاق واسع فى وكالة المخابرات المركزية، فضلا عن أوساط مسؤولى مكافحة الإرهاب، أن القاعدة قد قُضى عليها تقريبا[٦]. وتوصلت إلى نفس هذا الاستنتاج مقالة بقلم جون مولر نُشرت فى مجلة "Foreign Affairs" بعنوان "الحقيقة بشأن القاعدة"[٧]. ومع ذلك، رغم عدم وجود أى دليل ذى مصداقية يشير إلى أن القاعدة ظلت تشكل تهديدا للأمن القومى، أطلقت إدارة أوباما خطة لزيادة التصنيف العنصرى للأمريكيين المسلمين. لماذا؟ ثمة عدد من الأسباب، ولكن أحدها هو بالتأكيد أن استراتيجية " مكافحة التمرد" - أى محاولة " كسب الأفئدة والعقول" - كانت تفشل إلى حد كبير فى الخارج. ولذا اضطر أوباما إلى التحول إلى مكافحة الإرهاب وإحياء العدو " الإرهابى الإسلامى"، وإن يكن تحت قناع ليبرالى.

ويجدر التشديد على أن ما يجعل هذا أمرا غادرا بشدة هو قدرة أوباما على القيام بذلك مع إقناعه للجمهور بحيثيات مناهضته للعنصرية. وعلاوة على ذلك، فإن هذا التركيز على المسلمين كإرهابيين يصرف الاهتمام عن الإرهابيين المسيحيين اليمينيين الذين يواصلون مهاجمة عيادات الإجهاض. وقد أشارت وثيقة أوباما، التى صدرت بعد فترة وجيزة من قيام أندرس بهرينج بريفيك، الإرهابى المسيحى الذى يمثل أقصى اليمين، بتنفيذ هجوم مفجع فى النرويج، إلى التحول صوب إدراج الاستعلائيين البيض تحت مظلة الإرهابيين. بيد أنها أصرت على أن " القاعدة والمنظمات المنتسبة والمنضمة إليها تمثل الخطر الإرهابى المحدق ببلدنا"[٨]. وظلت طائفة المسلمين هى محور التركيز الأول لاستراتيجية " مكافحة التحول إلى الراديكالية". ولذا ينبغى ألا يكون استمرار مسؤولى إنفاذ القانون فى التجسس على المسلمين واختراقهم أثناء عهد أوباما مدعاة للدهشة. فكما يقول عبد الملك مجاهد ، وهو أحد زعماء ائتلاف المسلمين المناصر للسلام، " إن طائفة المسلمين فى الولايات المتحدة تعيش فى معسكر اعتقال تقريبا منذ أحداث ١١ سبتمبر. فمنذ ذلك الحين، استجوب مكتب التحقيقات الفيدرالى ما ينوف على ٧٠٠٠٠٠ مسلم. وهذا معناه أن زهاء ٥٠ فى المائة من جميع أسر المسلمين قد تعرضت لهذا 'التحقيق'. وجميع المساجد تقريبا جرى 'تفتيشها بحثا عن قنابل نووية' أو لأسباب أخرى تثير الخوف. وهذا هو مستوى الثقة الذى 'ننعم' به فى أوساط المسلمين"[٩].

وقد تعلّم رضا شتا بشكل مباشر أنه لا نفع فى الارتباط بمؤسسة إنفاذ القانون. فقد عمل مع مكتب التحقيقات الفيدرالى والشرطة، بحيث كان يدعو الضباط إلى مسجده لتناول الإفطار، بل وكان يتناول العشاء مع العمدة بلومبيرج. وكان يمثل تجسيدا لكل شيء وصفته الإمبريالية الأمريكية بأنه " المسلم الخيّر". ومع ذلك صدر تكليف لضابط شرطة سرى ومخبر بالتجسس عليه وبمواصلة مراقبة مسجده. وقال شتا، عندما علم أن نفس الأشخاص الذين دعاهم إلى مسجده ينظرون إليه على أنه شخص مشتبه فيه: " إن هذا أمر مؤسف للغاية. ... ما الذى يشعر به المرء عندما يرى ذلك من أشخاص منحهم ثقته؟" بل إن تقرير محطة "CBS" الذى ورد فيه ذلك يمضى

ليقول إن "الانفصام بين أن يكون المرء شريكا ومشتبها فيه فى أن واحد أمر شائع فى أوساط بعض مسلمى مدينة نيويورك. فبعض نفس المساجد التى زارها قادة المدينة للتعبير عن تحالفاتهم القوية مع طائفة المسلمين وُضعت أيضا تحت مراقبة إدارة شرطة مدينة نيويورك، واخترقها فى بعض الحالات ضباط ومخبرون سريون" (١٠). وساهمت إدارة أوباما بأموال فيدرالية فى برنامج التجسس التابع لإدارة شرطة مدينة نيويورك(١١).

وقد بدأت قطاعات من طائفة المسلمين تصد ذلك بعد سنوات من عمليات التضليل تحت حكم رئيس ديمقراطى. فعلى سبيل المثال، فى المراحل الأولية لانتخابات عام ٢٠١٢، اعترضت أقلية متزايدة من الأمريكيين المسلمين على بقائها فى خلفية الحافلة. ففى فلوريدا، عندما رفضت رئيسة اللجنة القومية الديمقراطية، ديبى واسرمان شولتز، دعوة لحضور مناسبة استضافتها منظمة إسلامية، فإنها تعرضت للتوبيخ. فقد قال الناشط محمد مالك، موبخًا الجمهوريين والديمقراطيين على حد سواء، " لا أظن أن المسألة تتعلق ببضع تفاحات فاسدة، فما دام رهاب الإسلام مستريحًا فى كنف مؤسساتنا السياسية والاجتماعية، ستظل التهديدات للمشاركة الكاملة والكرامة والحقوق المدنية حية وعفية"(١٢). وقد أظهرت أرقام استطلاعات الرأى العام تدنى ثقة الأمريكيين المسلمين فى أوباما؛ ففى عام ٢٠١١، كان سبعة من كل عشرة من الأمريكيين المسلمين ينظرون إلى أوباما نظرة إيجابية، مقارنة بتسعة من كل عشرة فى عام ٢٠٠٧، (١٣). وفى أوساط الزعماء الدينيين المسلمين، قاطع ١٥ رجلا من رجال الدين فى مدينة نيويورك مأدبة الإفطار السنوية المشتركة بين الأديان التى أقامها عام ٢٠١١ بلومبيرج الذى يُفترض فيه أنه متسامح دينيا، وبعثوا برسالة احتجاج وقّع عليها أيضا حاخامات وراهبات وقساوسة(١٤). وأصدر مائة إمام فى منطقة نيويورك بيانا تأييدا للمظاهرة المناهضة للحرب التى أقيمت فى أبريل ٢٠١١، وقد قام بحشد هذا التأييد نشطاء فى الائتلاف القومى المتحد المناهض للحرب، بمساعدة من ائتلاف المسلمين المناصر للسلام.

وعندما ثارت هوجة المحاربين دعاة فوبيا الإسلام ضد المساجد والمراكز المجتمعية الإسلامية المقترحة فى مختلف أنحاء البلد، تكاتفت ائتلافات صغيرة من نشطاء تقدميين للتصدى لذلك. ففى مدينة نيويورك، أقامت عدة جماعات يسارية ائتلافات لتخطيط إجراءات ضد هجوم الجناح اليمينى على المركز المجتمعى الإسلامى المقترح. وفى ١١ سبتمبر ٢٠١٠، كان عدد التقدميين يفوق بمراحل عدد المتعصبين فى مظاهرتين متوازيتين فى المنطقة الجنوبية من مانهاتن. فقد سار آلاف من أهالى نيويورك من مختلف الألوان والأحجام لمعارضة فوبيا الإسلام، وهم ينشدون قائلين "السلام عليكم، المسلمون محل ترحيب هنا." أما المتعصبون، الذين جرى شحنهم من خارج المدينة إلى حد كبير، فقد تراجعوا. وافتُتح فى عام ٢٠١١ "Park51" وقد تكررت هذه الجهود فى مختلف أنحاء الولايات المتحدة، مسفرة فى بعض الأحيان عن انتصارات، وفى أحيان أخرى عن هزائم. وعبّأت فروع مركز العلاقات الأمريكية - الإسلامية (CAIR) صفوفها ضد التعصب المناهض للمسلمين ووفرت الدفاع القانونى الذى تشتد الحاجة إليه من أجل أفراد الطائفة المحاصرين. وكانت أسر أولئك المستهدفين مصدرا مستمرا للمقاومة ضد العنصرية المناهضة للمسلمين. فقد كافحت، إلى جانب محامين تقدميين، لتحقيق العدل لأفرادها ولإثارة الوعى العام. وبحلول نهاية العقد الأول بعد أحداث ١١ سبتمبر، تجمعت هذه الأسر من مختلف أنحاء البلد فى مؤتمرات شتى للبدء فى شن كفاح جماعى ضد المقاضاة الاستباقية وإساءة معاملة السجناء. وبعد أن انكشف أمر " برنامج التصنيف البشري" التابع لإدارة شرطة نيويورك، دعت منظمة "DRUM"، وهى منظمة تناصر حقوق المهاجرين من جنوب آسيا كان لها نشاطها الذى يدور حول العنصرية المناهضة للمسلمين، إلى مظاهرات ومؤتمرات صحفية. ثم تبنى النشطاء فى حركة 'احتلوا وول ستريت' هذه المسألة، بحيث ساعدوا على تنظيم تجمعات حاشدة للدعوة إلى استقالة راى كيلى مأمور إدارة شرطة نيويورك. وفى تلك التجمعات، ربط النشطاء صراحة بين استهداف إدارة شرطة مدينة نيويورك للسود واللاتينيين والقمع الوحشى لمحتجى حركة 'احتلوا وول ستريت' وبين تصنيفها العنصرى للعرب والمسلمين.

ومن الممكن مكافحة فوبيا الإسلام من خلال جهود شعبية كهذه. وفى سياق ضروب الكفاح هذه، يتضح أن من المهم ربط القضايا المحلية بالسياق الأوسع نطاقا. فكما ذكرت حركة 'احتلوا وول ستريت'، ينتفض " ٩٩ فى المائة" ضد أقلية صغيرة موجودة على قمة المجتمع تستفيد ليس فحسب من نظام اقتصادى جائر بل أيضا من نظام سياسى جائر. وكما يقول مجاهد: " أولا، إن فوبيا الإسلام، والحرب، والإرهاب هى كلها ظواهر مترابطة. ومن ثم علينا أن نكافح الحرب وفوبيا الإسلام، فضلا عن الإرهاب. ثانيا، الكراهية والفقر ليسا المشكلتين اللتين تواجههما طائفة المسلمين وحدها، فهناك طوائف أخرى تواجهها مشاكل مماثلة. ويمكننا وعلينا أن نتحد مع أكبر عدد ممكن من القوى لشن حركة مقاومة"(١٥).

وفى حقيقة الأمر، المسلمون والعرب وغيرهم ممن " يبدون مسلمين" ليسوا الأشخاص الوحيدين الذين سيستفيدون من كفاح ناجح ضد فوبيا الإسلام. فهذا الكفاح يخدم أيضا مصالح الغالبية العظمى من الأمريكيين، الذين سُرقت تريليونات الدولارات من رعايتهم الصحية وتعليمهم وبنيتهم التحتية ووسائل نقلهم العامة ووُجهت إلى آلة الموت. ولن تستفيد الطبقة العاملة من الأمريكيين بجميع أعراقهم شيئا من غنائم الإمبراطورية، وستخسر كل شيء. والمظاهرات المتعددة الأعراق التى جابت شوارع ستاتن آيلاند إلى ميرفبريزبورو إلى جينزفيل اعتراضا على الاعتداءات على المساجد تُبين أن هذا التضامن ممكن. فالسبيل الوحيد إلى تحدى مناخ الخوف والكراهية هو مجابهة التعصب أينما أطل برأسه، والقيام فى الوقت ذاته بإيجاد بديل للأحزاب السائدة التى لم تفشل فحسب فى التصدى للعنصرية بل أججتها بهمة ونشاط. فالسياسة التى تربط بين التعديات على الحقوق المدنية وبين السياسة الإمبريالية التى تنتهجها الولايات المتحدة هى وحدها التى يمكن أن تبين أن التعصب ضد المسلمين يتعلق بإيجاد مناخ سياسى تستطيع فيه الولايات المتحدة غزو بلدان أخرى حسبما تشاء وتخمد الانشقاق فى الداخل.

وفى نهاية الأمر، تُجبَر الغالبية العظمى من الناس العاديين فى مختلف أنحاء العالم على العيش فى ظل نظام جائر وظالم بدرجة بالغة. وقد أظهر عام ٢٠١١ أن هذا النظام بأولوياته الضالة لن ينمحى بدون تحديه. والثورات التى شهدتها تونس ومصر امتدت ليس فحسب إلى بلدان أخرى فى المنطقة بل أيضا إلى أوروبا والولايات المتحدة. وتعلّم المحتجون فنون الاستراتيجية والتكتيكات بعضهم من بعض عندما أصبحت الأماكن العامة مراكز رئيسية للتحركات. فبدءًا من ميدان التحرير فى مصر، إلى ميدان اللؤلؤ فى البحرين، إلى بويرتا دل سول فى مدريد، وميدان سينتاجما فى أثينا، وحديقة زوكوتى فى مدينة نيويورك، كرّمت لحظات الاحتجاج بوعى ذاتى إحداها الأخرى من خلال تحيات التضامن ومحاكاة التكتيكات. وكانت التحركات جميعها، رغم الاختلافات المحلية، موجهة ضد نظام نسبة الواحد فى المائة. فثمة أشخاص فى الغرب كانت نجاحات نظرائهم فى تونس ومصر إلهامًا لهم، بدلا من أن يشعروا بالإشفاق على أشقائهم العرب وشقيقاتهم العربيات. وبدلا من " العبء الواقع على عاتق الرجل الأبيض" بدأت تتخلق سياسة تضامن دولى.

وقد كانت آخر مرة تكاتف فيها الناس من مختلف أنحاء العالم قبل ما يقرب من نصف قرن. فالكفاح فى سبيل التحرر الوطنى الذى اجتاح العالم، بدءًا من الهند إلى الجزائر، فى حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية أزعج مراكز الإمبريالية، حتى عندما بدأ الكفاح ينبثق داخل أوروبا والولايات المتحدة. ونحن الآن على أبواب حقبة مماثلة. حقبة ثورة تحمل فى طياتها إمكانية إقامة مجتمع جديد تماما متحرر من العنصرية والحرب: عالم جديد يُعامل فيه باحترام كل فرد بصرف النظر عن العرق أو الأصل الإثنى أو القومية أو الديانة، عالم تُلقى فيه بإيديولوجية فوبيا الإسلام فى سلة مهملات التاريخ، وسيكون هذا بداية ذلك.

الهوامش

1. Bernard Lewis, "The Roots of Muslim Rage," *Atlantic Monthly*, September 1990.

1. Images of Islam in Europe

1. Norman Daniel, *Islam and the West: The Making of an Image* (One World: Oxford, 1960), reprint, 1993, 14–15.
2. See R. W. Southern, *Western Views of Islam in the Middle Ages* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1962), 16–19.
3. Maxime Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam* (London: I. B. Tauris, 2002), 5.
4. Jason Webster (author of *Andalus: Unlocking the Secrets of Moorish Spain*, New York: Doubleday, 2004), quoted in the documentary film *An Islamic History of Europe* (London: BBC Four, 2009), directed by Rageh Omaar. Available at http://www.youtube.com/watch?v=x0IaCK-7z5o.
5. Southern, *Western Views of Islam*, 21.
6. Iman Feisal Abdul Rauf, interview by Joseph Ward III, *Intersections International*, July 16, 2010, available at http://www.intersectionsinternational.org/files/ImamFeisalAbdulRauf_InterviewTranscript.pdf.
7. George Saliba, *Islamic Science and the Making of the European Renaissance* (Cambridge, MA: MIT Press, 2007).
8. Zachary Lockman, *Contending Visions of the Middle East: The History and Politics of Orientalism* (Cambridge: Cambridge University Press, 2004),31.
9. Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam*, 14–15.
10. John Esposito, *The Islamic Threat: Myth or Reality?*, 3rd ed. (New York: Oxford University Press, 1999), 39.
11. Ibid., 39.
12. Quoted in Neil Faulkner, "A Marxist History of the World, Part 31: Crusade and Jihad," *Counterfire*, April 11, 2011, available at http://www.counterfire.org/index.php/articles/a-marxist-history-of-the-world/11777-a-marxist-history-of-the-world-31-crusade-and-jihad.

13. Southern, *Western Views of Islam*, 5.
14. Ibid., 5.
15. Daniel, *Islam and the West*, 100.
16. Ibid., 35.
17. Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam*, 21–22.
18. Ibid., 29.
19. Ibid., 24–27.
20. Quoted in Esposito, *Islamic Threat*, 41.
21. Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam*, 36.
22. Lockman, *Contending Visions*, 41.
23. Ibid., 42.
24. Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam*, 37.
25. Lockman, *Contending Visions*, 45–6.
26. Ibid., 47.
27. Edward Said, *Orientalism* (New York: Vintage, 1978), 118.
28. Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam*, 59.
29. Ibid., 46–47.
30. Daniel, *Islam and the West*, 312.
31. Emmanuel Chukwudi Eze, *Race and the Enlightenment: A Reader* (Oxford: Blackwell Publishers, 1997), 5.
32. Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam*, 48–49.

2. Colonialism and Orientalism

1. Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam*, 9–10.
2. Arthur Goldschmidt Jr. and Lawrence Davidson, *A Concise History of the Middle East*, 9th ed. (Boulder, CO: Westview, 2010), 162.
3. Said, *Orientalism*, 82.
4. Ibid., 83–84.
5. Ibid., 87.
6. Hans Koning, *The Conquest of America: How the Indian Nations Lost Their Continent* (New York: Cornerstone Press, 1993), 27.
7. George Fredrickson, *Racism: A Short History* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2002), 40–47.
8. Ibid.; see chapter 2.
9. See also Eric Williams, *Capitalism and Slavery* (London: David and Charles, 1964), 7–20, and Robin Blackburn, *The Making of New World Slavery* (New York: Verso, 1997), 12–15.
10. Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam*, 65.
11. Quoted in Melani McAlister, *Epic Encounters: Culture, Media and US Interests in the Middle East since 1945* (Berkeley: University of California Press, 2005), 9.
12. Lockman, *Contending Visions*, 58.
13. Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam*, 62.
14. Ibid., 60.
15. Quoted in Lockman, *Contending Visions*, 94.
16. David Spurr, *The Rhetoric of Empire* (Durham, NC: Duke University Press, 1993), 113.
17. Quoted in Lockman, *Contending Visions*, 78.
18. Quoted in Richard Seymour, *The Liberal Defence of Murder* (New York: Verso, 2008), 99.
19. Raphael Patai, *The Arab Mind* (New York: Hatherleigh Press, 2002).

20. Quoted in Esposito, *Islamic Threat*, 230.
21. Douglas Little, *American Orientalism: The United States and the Middle East since 1945* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2002), 11.
22. Ibid., 12.
23. Ibid., 13.
24. Mark Twain, quoted in ibid., 13.
25. McAlister, *Epic Encounters*, 14–20.
26. Little, *American Orientalism*, 13.
27. Said, *Orientalism*, 294–95.
28. Lockman, *Contending Visions*, 102.
29. Said, *Orientalism*, 297.
30. Ibid., 296.
31. Lockman, *Contending Visions*, 129–30.
32. Sidney Lens, *The Forging of the American Empire: From the Revolution to Vietnam; A History of US Imperialism* (Chicago: Pluto Press and Haymarket Books, 2003), 179.
33. John Foster Dulles, quoted in McAlister, *Epic Encounters*, 45.
34. Henry Luce, quoted in ibid., 47.
35. Ibid., 55.
36. Lens, *Forging of the American Empire*, 367–68.
37. Daniel Lerner, *The Passing of Traditional Society: Modernizing the Middle East* (New York: Free Press, 1965).
38. Everett Rogers, *Diffusion of Innovations*, 5th ed. (New York: Free Press, 2003).

3. The Persistence of Orientalist Myths

1. John McCain, town hall meeting, Lakehall, MN, October 10, 2008. Footage from Associated Press available from Youtube at http://www.youtube.com/watch?v=jrnRU3ocIH4. Accessed August 24, 2011.
2. Associated Press, "Obama Says He's Christian, Not Muslim," *The Boston Channel*, October 2008. Available at http://www.thebostonchannel.com/r/15101761/detail.html, accessed September 9, 2011.
3. *Wikipedia*, s.v. "List of Countries by Muslim Population," last modified September 9, 2011, accessed September 9, 2011.
4. Maxime Rodinson, *The Arabs* (Chicago: University of Chicago Press, 1979).
5. Said, *Orientalism*, 296.
6. Peter Morey and Amina Yaqin, *Framing Muslims* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2011); Stephen Sheehi, *Islamophobia: The Ideological Campaign against Muslims* (Atlanta: Clarity Press, 2011); Jack Shaheen, *Reel Bad Arabs: How Hollywood Vilifies a People*, 2nd ed. (New York: Olive Branch Press, 2009).
7. Quoted in Lockman, *Contending Visions*, 69.
8. See for instance Barbara Hodgson, *Dreaming of East: Western Women and the Exotic Allure of the Orient* (Vancouver: Greystone Books, 2005); Reina Lewis, *Rethinking Orientalism: Women, Travel, and the Ottoman Harem* (New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 2004); Reina Lewis and Nancy Micklewright, eds., *Gender, Modernity and Liberty: Middle Eastern and Western Women's Writings: A Critical Sourcebook* (London: I. B. Tauris, 2006); and Sara Mills, *Discourses of Difference: An Analysis of Women's Travel Writing and Colonialism* (New York: Routledge, 1991), all of which have analyzed European women's contributions to discourse on the "East" in the eighteenth and nineteenth centuries. What these authors show is that while some of the dominant myths about

Muslim women are echoed here, there are also other accounts that contest the notion of Muslim women as horribly oppressed.

9. Leila Ahmed, *Women and Gender in Islam* (New Haven, CT: Yale University Press, 1992), 152–153.
10. Quoted in Bill Sammon, "Bush Urges Afghans to Help Oust Taliban," *Washington Times*, September 26, 2001, accessed October 26, 2009.
11. Laura Bush, quoted in Sharon Smith, "Using Women's Rights to Sell Washington's War," *International Socialist Review* 21, January–February 2002, available at http://www.isreview.org/issues/21/afghan_women.shtml, accessed April 10, 2012.
12. Malalai Joya, *A Woman among Warlords* (New York: Scribner, 2009).
13. Deepa Kumar, "Heroes, Victims, and Veils: Women's Liberation and the Rhetoric of Empire Post-9/11," *Forum on Public Policy* 4, no. 2 (2008): 23–32.
14. N. C. Aizenman, "Nicaragua's Total Ban on Abortion Spurs Critics," *Washington Post*, November 28, 2006, available at http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2006/11/27/AR2006112701577.html, accessed October 28, 2009. See also Michelle Ralston and Elizabeth Podrebarach, "Abortion Laws around the World," Pew Forum on Religion & Public Life, September 30, 2008, available at www.pewforum.org/Abortion/Abortion-Laws-Around-the-World.aspx.
15. Dilip Hiro, *Holy Wars: The Rise of Islamic Fundamentalism* (New York: Routledge, 1989).
16. Maxime Rodinson, *Muhammad* (New York: New Press, 2002).
17. Asma Barlas, *"Believing Women" in Islam: Unreading Patriarchal Interpretations of the Qur'an* (Austin: University of Texas Press, 2002).
18. See Montgomery Watt, *Muhammad at Medina* (Oxford: Clarendon Press, 1956), cited in Ahmed, *Women and Gender in Islam*, 43.
19. Rodinson, *Muhammad*, 230.
20. Ahmed, *Women and Gender in Islam*, 62.
21. The Egyptian civilization (3100–333 BCE) ended with the Greek conquest of Egypt.
22. Quoted in Ahmed, *Women and Gender in Islam*, 29.
23. Pope Benedict XVI, "Faith, Reason, and the Univeristy: Memories and Reflections," delivered September 12, 2006 in Regensburg, Germany, transcript available at http://news.bbc.co.uk/2/shared/bsp/hi/pdfs/15_09_06_pope.pdf, accessed April 10, 2012.
24. Quoted in Mahmood Mamdani, *Good Muslim, Bad Muslim* (New York: Doubleday, 2005), 45.
25. Quoted in Maxime Rodinson, *Marxism and the Muslim World* (New York: Monthly Review Press, 1981), 50.
26. Lockman, *Contending Visions*, 79–80.
27. Earl of Cromer, quoted in Said, *Orientalism*, 38.
28. Richard Seymour, "The Changing Face of Racism," *International Socialism Journal* 126 (April 2010), available at http://www.isj.org.uk/?id=638, accessed April 9, 2012.
29. Karim H. Karim, *Islamic Peril: Media and Global Violence*, 2nd ed. (New York: Black Rose Books, 2003).
30. Talal Asad, *On Suicide Bombing* (New York: Columbia University Press, 2007).
31. Rudolph Guiliani, remarks delivered at Republican presidential debate, May 3, 2007, in Simi Valley, CA, transcript available at http://2008election.procon.org/pdf/Rep20070503.pdf, accessed September 9, 2011.
32. See in particular Stephen Jay Gould's excellent *The Mismeasure of Man*, revised and expanded edition (New York: W. W. Norton, 1996).
33. Tariq Ali, *The Clash of Fundamentalisms: Crusades, Jihad, and Modernity* (New York: Verso, 2002), 54.

34. Saliba, *Islamic Science*.
35. Pope Benedict XVI, "Faith, Reason, and the University."
36. Anthony DiMaggio, "Fort Hood Fallout: Cultural Racism and Deteriorating Public Discourse on Islam," *ZNet*, December 3, 2009, accessed January 18, 2010.
37. Tunku Varadarajan, "Going Muslim," *Forbes*, November 9, 2009, available at http://www.forbes.com/2009/11/08/fort-hood-nidal-malik-hasan-muslims-opinions-columnists-tunku-varadarajan.html, accessed January 18, 2010.
38. Amitabh Pal, *"Islam" Means Peace: Understanding the Muslim Principle of Nonviolence Today* (Westport, CT: Praeger, 2011).
39. Lockman, *Contending Visions*, 19
40. Ali, *Clash of Fundamentalisms*, 40.
41. Colin Wells, quoted in John Feffer, *Crusade 2.0: The West's Resurgent War on Islam* (San Francisco: City Lights Books, 2012), 36.
42. Andrew Curry, "The First Holy War," *U.S. News and World Report*, August 23, 2005.
43. Quoted in Said, *Orientalism*, 32–33.
44. Quoted in Little, *American Orientalism*, 15.
45. See Paul D'Amato's critique of Niall Ferguson's book *Empire*: "When Britannia Waived the Rules," *International Socialist Review* 32, November-December 2003, available at http://www.isreview.org/issues/32/ferguson.shtml, accessed April 9, 2012.
46. After a week in Afghanistan, leader Medea Benjamin reversed Code Pink's antiwar position. See Aunohita Mojumdar, "Code Pink Rethinks Its Call for Afghanistan Pull-out," *Christian Science Monitor*, October 6, 2009, http://www.csmonitor.com/World/Asia-South-Central/2009/1006/p06s10-wosc.html, accessed April 10, 2012.
47. Lens, *Forging of the American Empire*; William Blum, *Rogue State* (Monroe, Maine: Common Courage Press, 2000); Stephen Kinzer, *Overthrow: America's Century of Regime Change from Hawaii to Iraq* (New York: Times Books, 2006).
48. Quoted in Little, *American Orientalism*, 28.
49. Ibid., 27–28.
50. Ervand Abrahamian, *A History of Modern Iran* (Cambridge: Cambridge University Press, 2008).
51. Goldschmidt and Davidson, *Concise History*, 190–93 and 198–201.
52. Bernard Lewis, interview by David Horowitz, "A Mass Expression of Outrage against Injustice," *Jerusalem Post*, February 25, 2011, available at http://www.jpost.com/Opinion/Columnists/Article.aspx?id=209770, accessed April 9, 2012.
53. Ibid.

4. Allies and Enemies: The United States and Political Islam

1. *New York Times*, "US Warship Becomes Arab Court in Miniature for Ibn Saud's Voyage," February 21, 1945.
2. Little, *American Orientalism*, 194–95.
3. Quoted in ibid., 27.
4. Ibid., 195–96.
5. Dwight D. Eisenhower, "The Eisenhower Doctrine on the Middle East: A Message to Congress," *Department of State Bulletin* 36, no. 917 (January 21, 1957): 83–87. Available at http://www.fordham.edu/halsall/mod/1957eisenhowerdoctrine.html, accessed September 22, 2011.
6. Quoted in Robert Dreyfuss, *Devil's Game: How the United States Helped Unleash Fun-*

damentalist Islam (New York: Henry Holt, 2005), 121.

7. Rachel Bronson, *Thicker than Oil: America's Uneasy Partnership with Saudi Arabia* (Oxford: Oxford University Press, 2006), 74.
8. Dreyfuss, *Devil's Game*, 72–73.
9. Ibid., 76–85.
10. Joyce Battle, *US Propaganda in the Middle East: The Early Cold War Version*, National Security Archive Briefing Book 78 (Washington, DC: National Security Archive, 2002). Available at http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB78/essay.htm, accessed September 15, 2011.
11. Ibid., 20.
12. See chapter 4 of Dreyfuss, *Devil's Game*.
13. Ibid., 97–104.
14. Ibid., 125.
15. Walter Laqueur, *Communism and Nationalism in the Middle East* (New York: Praeger, 1956), 6.
16. Fawaz Gerges, *America and Political Islam: Clash of Cultures or Clash of Interests?* (Cambridge: Cambridge University Press, 1999), 40.
17. Ibid., 41.
18. Ibid., 42.
19. Madawi Al-Rasheed, *A History of Saudi Arabia* (New York: Cambridge University Press, 2002).
20. See Gilles Kepel, *Jihad: The Trail of Political Islam* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2003), chapter 3; also Bronson, *Thicker than Oil*, and As'ad AbuKhalil, *The Battle for Saudi Arabia: Royalty, Fundamentalism, and Global Power* (New York: Seven Stories Press, 2003).
21. See chapter 7 of Dreyfuss, *Devil's Game*.
22. Ibid., 172.
23. Ronald Reagan, "Remarks at the Annual Dinner of the Conservative Political Action Conference," speech delivered March 1, 1985, *Public Papers of the Presidents of the United States: Ronald Reagan, 1985*, Bk 1 (Washington, DC: United States Government Printing Office, 1988), 228.
24. Dreyfuss, *Devil's Game*, 113–16.
25. For more about the dynamics of the Iranian revolution, see Nikki Keddie, *Modern Iran: Roots and Results of Revolution* (New Haven, CT: Yale University Press, 2003); Maryam Poya, "Iran 1979: Long Live Revolution . . . Long Live Islam?" in Colin Barker, ed., *Revolutionary Rehearsals* (London: Bookmarks, 1987); and Saman Sepehri, "The Iranian Revolution," *International Socialist Review* 9, August-September 2000.
26. Gerges, *America and Political Islam*, 43.
27. Ibid., 66.
28. Saadia Toor, *The State of Islam: Culture and Cold War Politics in Pakistan* (London: Pluto Press, 2011).
29. Dreyfuss, *Devil's Game*, 244.
30. Robert M. Gates, *From the Shadows: The Ultimate Insider's Story of Five Presidents and How They Won the Cold War* (New York: Simon and Schuster, 1996).
31. Zbigniew Brzezinski, interview by A. G. Frank, *Nouvel Observateur*, January 15-21, 1998.
32. The last description—"definitely dictator material"—was not typically a pejorative in the eyes of the CIA. Tim Weiner, *Blank Check: The Pentagon's Black Budget* (New York: Warner Books, 1990), 32.
33. Reagan, "Remarks," 228.

34. Steve Coll, "Anatomy of a Victory: CIA's Covert Afghan War," *Washington Post*, July 19, 1992.
35. Mamdani, *Good Muslim*, 128, 135
36. John Cooley, *Unholy Wars: Afghanistan, America and International Terrorism* (London: Pluto Press, 2002), 70.
37. Ibid., 70–72.
38. Ibid., 71–73.
39. Mamdani, *Good Muslim*, 130
40. Gerges, *America and Political Islam*, 111.
41. Kepel, *Jihad*, 10.
42. Gerges, *America and Political Islam*, 122–23.
43. Ahmed Rashid, *Taliban: Militant Islam, Oil and Fundamentalism in Central Asia* (New Haven, CT: Yale University Press, 2000).
44. Little, *American Orientalism*, 42.
45. On the portrayal of Arabs in Hollywood, see Shaheen, *Reel Bad Arabs*.
46. Fred Halliday, *Islam and the Myth of Confrontation* (New York: I. B. Tauris, 2003), 188.
47. Israel Ministry of Foreign Affairs, "Benjamin Netanyahu," August 10, 2005, available at http://www.mfa.gov.il/MFA/MFAArchive/2000_2009/2003/2/Benjamin%20Netanyahu, accessed September 15, 2011.
48. Shaul Mishal and Avraham Sela, *The Palestinian Hamas: Vision, Violence, and Coexistence* (New York: Columbia University Press, 2006), 21.
49. Dreyfuss, *Devil's Game*, 197.
50. Gerges, *America and Political Islam*, 52.
51. Kepel, *Jihad*, 9.
52. See chapter 9 of Gerges, *America and Political Islam*.
53. Kepel, *Jihad*, 10.
54. Samih Farsoun, "Roots of the American Antiterrorism Crusade," in Elaine Hagopian, ed., *Civil Rights in Peril* (Chicago: Haymarket Books and Pluto Press, 2004), 137.
55. Gerges, *America and Political Islam*, 52.
56. Lewis, "Roots of Muslim Rage."
57. Judith Miller, "The Challenge of Radical Islam," *Foreign Affairs*, Spring 1993, available at http://www.foreignaffairs.com/articles/48755/judith-miller/the-challenge-of-radical-islam, accessed April 10, 2012.
58. See Gerges, *America and Political Islam*, 20–28.
59. Quoted in ibid., 80.
60. Ibid., 91.

5. The Separation of Mosque and State

1. Willard Oxtoby and Alan Segal, *A Concise Introduction to World Religions* (Oxford: Oxford University Press, 2007), 200.
2. Lewis, "Muslim Rage."
3. Ibid.
4. Bernard Lewis, *What Went Wrong? The Clash between Islam and Modernity in the Middle East* (New York: Harper Perennial, 2003). Quoted in Mamdani, *Good Muslim*, 23.
5. Samuel Huntington, *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order* (New York: Simon and Schuster, 1997), 217.
6. Olivier Roy, *The Failure of Political Islam* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1996), 13–14.

7. Ali, *Clash of Fundamentalisms*, 29.
8. Goldschmidt and Davidson, *Concise History*, see chapter 3.
9. Some scholars argue that during the reign of the first four descendants of Muhammad, the "righteously guided" caliphs, religious and political power were synonymous. Yet Ayoob suggests that even during this era it was politics that drove religious war. See Mohammad Ayoob, *The Many Faces of Political Islam: Religion and Politics in the Muslim World* (Ann Arbor: University of Michigan Press, 2008).
10. Roy, *Failure of Political Islam*, 14.
11. Ayoob, *Many Faces*, 5.
12. Ibid., 11.
13. Goldschmidt and Davidson, *Concise History*, 108–9.
14. Roy, *Failure of Political Islam*, 29.
15. Ayoob, *Many Faces*, 11.
16. Goldschmidt and Davidson, *Concise History*, 114.
17. Ayoob, *Many Faces*, 5.
18. Ibid., 13.
19. Ibid.
20. Esposito, *Islamic Threat*, 52.
21. Goldschmidt and Davidson, *Concise History*, 173–74.
22. Ibid., 173–74.
23. Ibid., 228.
24. Rodinson, *Arabs*, 97.
25. Esposito, *Islamic Threat*, 49.
26. Roy, *Failure of Political Islam*, 33.
27. Ibid. See also Joel Beinin and Joe Stork, "On the Modernity, Historical Specificity, and International Context of Political Islam," in *Political Islam: Essays from Middle East Report* (Berkeley: University of California Press, 1997), 5–6.
28. Roy, *Failure of Political Islam*, 33. Salafist thought has been influential in various Sunni Islamist circles. The connections with Wahhabism are close, particularly since both traditions draw on the teachings of a fourteenth-century *ulama* named Ibn Taymiyya (see Kepel, *Jihad*, 219–20). Today, the Wahhabis prefer to be called Salafis: see Fawaz Gerges, *Journey of the Jihadist: Inside Muslim Militancy* (Orlando, FL: Harcourt, 2006), 106. As an aside, let us note that not all Wahhabis are radicals. While Saudi Arabia is a Wahhabi nation, only a small subset of Saudis are jihadi extremists. The Wahhabi-Salafi jihadis based in the tribal areas of Pakistan offer a literal and even stricter interpretation of Wahhabi-Salafi doctrine.
29. Kepel, *Jihad*, 34.
30. Ibid.
31. Dreyfuss, *Devil's Game*, 20. While there are many connections between the various Islamist forces that Dreyfus points out well, each of these currents also has its own history. In India, for instance, after the last Muslim ruler was deposed by the British in 1857, Muslims found themselves in the minority in a country dominated by Hindus. The Deobandi Islamic movement came into being shortly afterward, in 1867, as a response to this situation. It was founded as a means to provide Muslims in the Indian subcontinent with a set of rules to live by, in order to preserve Islam in a country where Muslims were a minority. Toward this end, the Deobandis trained a core of *ulama* to issue fatwas, or legal opinions, to make sure that Muslims in India conformed to their very rigorous and conservative interpretation of Islam (Kepel, *Jihad*, 223). In this, the Deobandis became very similar to the Wahhabis and in the later part of the

twentieth century established close ties with them in the context of US-sponsored activities in Pakistan (57–58).

32. Rodinson, *Arabs*, 100–101. See also Laqueur, *Communism and Nationalism*, on popular discontent with feudal landowners and corrupt regimes in Lebanon. The Lebanese Communist Party was in power at this time (after 1954). No doubt it influenced the Baath party's shift leftward. Similarly, student struggles in Egypt in 1952–55 (which were Communist-led) and workers' strikes must have impacted Nasser (*Communism and Nationalism*, 54–57 on Egypt, 163 on Lebanon).
33. John L. Esposito and John O. Voll, *Islam and Democracy* (New York: Oxford University Press, 1996), 5.
34. Rodinson, *Arabs*, 111.

6. Political Islam: A Historical Analysis

1. Ervand Abrahamian, *Khomeinism: Essays on the Islamic Republic* (Berkeley: University of California Press, 1993), 19.
2. Nikki Keddie, ed., *Religion and Politics in Iran: Shi'ism from Quietism to Revolution* (New Haven, CT: Yale University Press, 1984). See also Kepel, *Jihad*, 39–42.
3. Abrahamian, *Khomeinism*, 24–26. See also Nikki Keddie, *Roots and Results of Revolution* (New Haven, CT: Yale University Press, 2003), 193.
4. Ayoob, *Many Faces*, 4–5.
5. Khaled Hroub, *Hamas: A Beginner's Guide* (Ann Arbor, MI: Pluto, 2006), 15.
6. Ibid., 13.
7. Sa'id al Ghazali, "Islamic Movement versus National Liberation," *Journal of Palestine Studies* 17, no. 2 (Winter 1988): 177.
8. Tareq Ismael, *The Arab Left* (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 1976), 79.
9. Ibid., 89.
10. Ibid., 79.
11. Rodinson, *Arabs*, 115.
12. Kepel, *Jihad*, 82.
13. Dreyfuss, *Devil's Game*, 153.
14. Phil Marshall, "The Children of Stalinism," *International Socialism Journal* 68 (1995): 118–19.
15. See Laqueur, *Communism and Nationalism*, for a discussion of these struggles.
16. Tareq Ismael, *The Communist Movement in the Arab World* (New York: Routledge, 2005).
17. Ibid., 21.
18. Ibid., 19–20.
19. Ibid., 55.
20. Marshall, "Children of Stalinism," 122.
21. Ibid., 120.
22. Paul Lubeck, "Antinomies of Islamic Movements under Globalization," Center for Global, International, and Regional Studies Working Paper Series, 1999. Available at www2.ucsc.edu/globalinterns/wp/wp99-1.PDF, accessed October 12, 2011.
23. Kepel, *Jihad*, 66.
24. Roy, *Failure of Political Islam*, 49.
25. Ibid., 50.
26. Ibid.
27. Chris Harman, "The Prophet and the Proletariat," *International Socialism Journal* 64

(Autumn 1994): 8–10. Available at www.marxists.de/religion/harman/index.htm, accessed October 12, 2011.

28. Ibid., 9–10.
29. Kepel, *Jihad*, 6.
30. Dreyfuss, *Devil's Game*, 161–62.
31. Hroub, *Hamas*, 69, 125.
32. Roy, *Failure of Political Islam*, 41–42.
33. Cihan Tu, et al., "Nato's Islamists," *New Left Review* 44 (March–April 2007): available at http://www.newleftreview.org/?view=2657, accessed April 9, 2012.
34. Harman, "Prophet," 23–24.
35. Khaled Hroub, *Hamas: Political Thought and Practice* (Washington, DC: Institute for Palestine Studies, 2000), 44.
36. See also Deepa Kumar, "Behind the Myths about Hamas," *International Socialist Review* 64 (March–April 2009).
37. Patrick Cockburn, *Muqtada: Muqtada al-Sadr, the Shia Revival, and the Struggle for Iraq* (New York: Simon and Schuster, 2008).
38. Anand Gopal, "Who Are the Taliban?," lecture at the Socialism 2010 Conference, Chicago, June 17, 2010.
39. Miles Amoore, "Pakistan Puppet Masters Guide the Taliban Killers," *Times of London*, June 13, 2010.
40. Jonathan Schanzer, "Palestinian Uprisings Compared," *Middle East Quarterly*, Summer 2002, 27–37. Available at www.meforum.org/206/palestinian-uprisings-compared, accessed October 12, 2011.
41. Ibid., 114–16.

7. The Foreign Policy Establishment and the "Islamic Threat"

1. Project for the New American Century, *Rebuilding America's Defenses: Strategy, Forces and Resources for a New Century* (Washington, DC: Project for the New American Century, 2000), 9, available at http://www.newamericancentury.org/publicationsreports.htm, accessed April 4, 2012.
2. Ibid, 83.
3. Gary Dorien, *Imperial Designs: Neoconservatives and the New Pax Americana* (New York: Routledge, 2004).
4. Ibid., 7.
5. Stewart Patrick and Shepard Forman, *Multilateralism and US Foreign Policy: Ambivalent Engagement* (Boulder, CO: Lynne Rienner, 2002), 7.
6. Ibid.
7. Danny Cooper, *Neoconservatism and American Foreign Policy: A Critical Analysis* (New York: Routledge, 2011), 14 (both quotes).
8. Dorien, *Imperial Designs*, 21.
9. Quoted in ibid., 11.
10. Ibid., 13.
11. Charles Krauthammer, "The Unipolar Moment," *Foreign Affairs*, 1990.
12. Dorien, *Imperial Designs*, 39.
13. Ibid., 40.
14. Ibid.
15. Maria Ryan, *Neoconservatism and the New American Century* (New York: Palgrave Macmillan, 2010), 22.

16. Ibid., 14.
17. Quoted in Gerges, *America and Political Islam*, 24.
18. Max Boot, "What the Heck Is a 'Neocon'?" *Wall Street Journal*, December 30, 2002.
19. Seymour, *Liberal Defence*, 160.
20. Ibid., 159–60.
21. Dorien, *Imperial Designs*, 196.
22. Robert Kaplan, *Arabists: The Romance of an American Elite* (New York: Free Press, 1995).
23. Stephen Sniegoski, *The Transparent Cabal: The Neoconservative Agenda, War in the Middle East, and the National Interest of Israel* (Norfolk, VA: Enigma Editions, 2008), 84.
24. Quoted in ibid., 26.
25. Quoted in Ryan, *Neoconservatism*, 34.
26. Dorien, *Imperial Designs*, 197.
27. Sniegoski, *Transparent Cabal*, 52.
28. Noam Chomsky, *Fateful Triangle: The United States, Israel and the Palestinians* (Cambridge, MA: South End, 1999), 455.
29. Sniegoski, *Transparent Cabal*, 5.
30. Benjamin Netanyahu, ed., *International Terrorism: Challenge and Response* (New Brunswick, NJ: Transaction Books, 1981).
31. Ibid., 3.
32. Ibid., 6.
33. All quotes taken from ibid., 5.
34. Ibid., 6.
35. Robert Moss, "The Terrorist State," in Netanyahu, ed., *International Terrorism*, 128.
36. Mordecai Abir, "The Arab World, Oil and Terrorism," in Netanyahu, ed., *International Terrorism*, 135–41.
37. Benjamin Netanyahu, ed., *Terrorism: How the West Can Win* (New York: Farrar, Strauss and Giroux, 1986), 12.
38. Ibid., 11.
39. Bernard Lewis, "Islamic Terrorism?," in Netanyahu, ed., *International Terrorism*, 66.
40. Ibid., 67.
41. Elie Kedourie, "Political Terrorism in the Muslim World," in Netanyahu, ed., *International Terrorism*, 70.
42. Ibid., 72.
43. Ibid., 76.
44. Quoted in Halliday, *Islam and the Myth of Confrontation*, 190–91.
45. Dreyfuss, *Devil's Game*, 197.
46. Halliday, *Islam and the Myth of Confrontation*, 190.
47. Ryan, *Neoconservatism*, 57.
48. Ibid.
49. Seymour, *Liberal Defence*, 23.
50. Jean Bricmont, *Humanitarian Imperialism: Using Human Rights to Sell Wars* (New York: Monthly Review Press, 2006), 20.
51. Stephen M. Walt, "What Intervention in Libya Tells Us about the Neocon-Liberal Alliance," *Foreign Policy*, March 21, 2001, available at http://walt.foreignpolicy.com/posts/2011/03/21/what_intervention_in_libya_tells_us_about_the_neocon_liberal_alliance, accessed April 4, 2012.
52. Ibid.
53. Quoted in Noam Chomsky, *The New Military Humanism* (Monroe, ME: Common Courage, 1999), 14.

54. Jean-Marc Coicaud, *Beyond the National Interest: The Failure of UN Peacekeeping and Multilateralism in an Era of U.S. Primacy* (Washington, DC: United States Institute of Peace Press, 2007), 119.
55. Ibid., 117.
56. Chomsky, *New Military Humanism*, 14.
57. See Sheehi, *Islamophobia*.
58. Quoted in Dreyfuss, *Devil's Game*, 85.
59. Lee Wengraf, "Operation Restore Hope, 1992–1994," *International Socialist Review* 77 (May–June 2011).
60. Madeleine Albright, interview by Leslie Stahl, *60 Minutes*, CBS, May 12, 1996, clip available at http://www.youtube.com/watch?v=FbIX1CP9qr4, accessed April 4, 2012.
61. Phyllis Bennis, *Challenging Empire: How People, Governments, and the UN Defy US Power* (Northampton, MA: Olive Branch, 2006).
62. Quoted in Ryan, *Neoconservatism*, 78.
63. Ibid., 79.
64. Ibid., 142.
65. Patrick and Forman, *Multilateralism*, 23.
66. Quoted in Richard A. Clarke, *Against All Enemies: Inside America's War on Terror* (New York: Free Press, 2004), 32.
67. United States Department of Defense, *National Security Strategy*, 2010 USNSS 2 (Washington, DC: United States Department of Defense, 2010), available at www.whitehouse.gov/sites/default/files/rss_viewer/national_security_strategy.pdf, accessed April 4, 2012.
68. Quoted in Jessica Tuchman Matthews, "September 11, One Year Later: A World of Change," Carnegie Endowment for International Peace policy brief, August 2002, available at http://carnegieendowment.org/2002/08/18/september-11-one-year-later-world-of-change/ekx.
69. Sheehi, *Islamophobia*, 44.
70. Ibid., 78.
71. Quoted in ibid.
72. Cooper, *Neoconservatism*, 92.
73. Sheehi, *Islamophobia*, 56.
74. United States Army, *Counterinsurgency* (Washington, DC: United States Department of Defense, 2006), available at http://www.fas.org/irp/doddir/army/fm3-24.pdf, accessed April 4, 2012.
75. James Udris, Michael Udris, and James Der Derian, *Human Terrain*, DVD, UDRIS Film and OXYOPIA Productions (Oley, PA: Bullfrog Films, 2010).
76. Leadership Group on U.S.–Muslim Engagement, "Changing Course: A New Direction for U.S. Relations with the Muslim World" (Washington, DC: U.S.–Muslim Engagement Project, 2009), available at http://www.usmuslimengagement.org/storage/usme/documents/Changing_Course_Second_Printing.pdf, accessed April 4, 2012.
77. Barack Obama, "A New Beginning," speech delivered in Cairo, Egypt, June 4, 2009, video and transcripts available at http://www.whitehouse.gov/blog/NewBeginning/transcripts, accessed April 4, 2012.
78. Joseph S. Nye Sr., "Get Smart: Combining Hard and Soft Power," *Foreign Affairs*, July 2009.
79. Quoted in Ryan Lizza, "The Consequentialist," *New Yorker*, May 2, 2011.
80. United States Department of Defense, *National Security Strategy*, 3.
81. Ty Cobb, "The Defense Strategic Guidance: What's New, What Is the Focus, Is It

Realistic?," *Harvard Law School National Security Journal*, January 8, 2012, available at http://harvardnsj.org/2012/01/the-defense-strategic-guidance-whats-new-what-is-the-focus-is-it-realistic/, accessed April 4, 2012.
82. United States Department of Defense, *Sustaining U.S. Global Leadership: Priorities for 21st Century Defense* (Washington, DC: United States Department of Defense, 2012), available at http://www.defense.gov/news/Defense_Strategic_Guidance.pdf, accessed April 4, 2012.
83. Ibid., 1.
84. Ibid., 2.
85. Ibid., 2.
86. Ibid., preface.
87. Ibid., 6.

8. Legalizing Racism: Muslims and the Attack on Civil Liberties

1. Moustafa Bayoumi, *How Does It Feel to Be a Problem?* (New York: Penguin, 2008), 3.
2. Stephen Downs, *Victims of America's Dirty Wars: Tactics and Reasons from COINTELPRO to the War on Terror* (Albany, NY: Project Salam, 2012), 71, available at http://project-salam.org/downloads/Victims_of_Americas_Dirty_Wars.pdf.
3. Stephan Salisbury, *Mohamed's Ghosts: An American Story of Love and Fear in the Homeland* (New York: Nation Books, 2010), 23.
4. Associated Press, "Documents Show NYPD Infiltrated Liberal Groups," *New York Times*, March 23, 2012, available at http://www.nytimes.com/aponline/2012/03/23/us/ap-us-nypd-intelligence.html?_r=1, accessed April 4, 2012.
5. Rick Perlstein, "How FBI Entrapment Is Inventing 'Terrorists'—and Letting Bad Guys Off the Hook," *Rolling Stone*, May 15, 2012, available at http://www.rollingstone.com/politics/blog/national-affairs/how-fbi-entrapment-is-inventing-terrorists-and-letting-bad-guys-off-the-hook-20120515, accessed May 22, 2012.
6. Salisbury, *Mohamed's Ghosts*, 128.
7. Elaine Hagopian, "Minority Rights in a Nation-State: The Nixon Administration's Campaign against Arab Americans," *Journal of Palestine Studies* 5, no. 1/2 (Autumn 1975): 97–114, quote on pp. 100–101.
8. Hagopian, *Civil Rights in Peril*, 11.
9. Ibid., 18–19.
10. John F. Sugg, "Steven Emerson's Crusade," *Extra!*, January–February 1999, available at http://www.fair.org/index.php?page=1443, accessed April 4, 2012.
11. Ian F. Haney Lopez, "The Social Construction of Race," in Julie Rivkin and Michael Ryan, eds., *Literary Theory: An Anthology*, 2nd ed. (Oxford: Blackwell, 2004), 964–74.
12. Hagopian, *Civil Rights in Peril*, 31.
13. Cited in ibid., 39.
14. Ibid., 44.
15. Salisbury, *Mohamed's Ghosts*, 125.
16. Ibid., 36.
17. Ibid., 37.
18. Ibid., 11.
19. Faiza Patel, *Rethinking Radicalization* (New York: NYU School of Law, 2011), 20.
20. Center for Human Rights and Global Justice, *Targeted and Entrapped: Manufacturing the "Homegrown Threat" in the United States* (New York: NYU School of Law, 2011),

10–11, available at www.chrgj.org/projects/docs/targetedandentrapped.pdf, accessed April 4, 2012.

21. Associated Press, "Highlights of AP's Probe into NYPD Intelligence Operations," last updated March 23, 2012, available at http://www.ap.org/media-center/nypd/investigation, accessed April 4, 2012.
22. New York Police Department, "The Demographics Unit," PowerPoint presentation, published by Associated Press, available at http://wid.ap.org/documents/nypd-demo.pdf, accessed March 29, 2012.
23. Quoted in David B. Caruso, "NYC Mayor, Yale Leader Spar over Muslim Spying," *USA Today*, February 22, 2012, available at http://www.usatoday.com/USCP/PNI/Nation/World/2012-02-22-BCUSNYPD-IntelligenceUniversities4th-Ld_ST_U.htm, accessed April 4, 2012.
24. Alex Kane, "Newark Mayor and Yale President Slam NYPD Spying Program," *Mondoweiss*, February 24, 2012, available at http://mondoweiss.net/2012/02/newark-mayor-and-yale-university-head-slam-nypd-spying-program.html, accessed April 4, 2012.
25. Jeanne Theoharis, "Guantánamo at Home," *Nation*, April 2, 2009, available at http://www.thenation.com/article/guant%C3%A1namo-home, accessed April 4, 2012.
26. Center for Human Rights and Global Justice, Asian American Legal Defense and Education Fund, *Under the Radar: Muslims Deported, Detained, and Denied on Unsubstantiated Terrorism Allegations* (New York: NYU School of Law, 2011), available at http://chrgj.org/projects/docs/undertheradar.pdf, accessed April 4, 2012.
27. Ibid, 2.
28. Ibid., 4.
29. Ibid., 4–5.
30. Alia Malek, ed., *Patriot Acts: Narratives of Post-9/11 Injustice* (San Francisco: McSweeney's, 2011), 23.
31. Bayoumi, *How Does It Feel*, 26.
32. Downs, *Victims of America's Dirty Wars*, 17.
33. Project Salam is analyzing about 750 cases, of which it has found 150 to be cases of preemptive persecution. See the database of cases at projectsalam.org.
34. Michael Ratner, interview by Nicole Colson, "A New Stage in the War on Dissent," *Socialist Worker*, October 19, 2010, available at http://socialistworker.org/2010/10/19/new-stage-in-the-war-on-dissent, accessed April 4, 2012.
35. Downs, *Victims of America's Dirty Wars*, 22.
36. Ibid., 14.
37. Quoted in Jeanne Theoharis, "My Student, the 'Terrorist,'" *Chronicle of Higher Education*, April 3, 2011, available at http://chronicle.com/article/My-Student-the-Terrorist/126937/, accessed April 4, 2012.
38. Ibid.
39. Downs, *Victims of America's Dirty Wars*, 28.
40. Center for Human Rights and Global Justice, *Targeted and Entrapped*, 2.
41. Ibid.
42. Ted Conover, "The Pathetic Newburgh Four," *Slate*, November 23, 2010, available at http://www.slate.com/articles/news_and_politics/jurisprudence/2010/11/the_pathetic_newburgh_four.html, accessed April 4, 2012.
43. Ibid.
44. James Donaghy, "We're Lost without *Lost* and Can No Longer Count on *24*," *Guardian* (UK), May 21, 2010, available at http://www.guardian.co.uk/tv-and-radio/2010/may/22/television-lost, accessed April 4, 2012.

45. Downs, *Victims of America's Dirty Wars*, 17.
46. Charles Kurzman, *Muslim-American Terrorism in the Decade since 9/11* (Chapel Hill, NC: Triangle Center on Terrorism and Homeland Security, 2012), available at http://sanford.duke.edu/centers/tcths/documents/Kurzman_Muslim-American_Terrorism_in_the_Decade_Since_9_11.pdf, accessed April 4, 2012.
47. Ibid.
48. Charles Kurzman, David Schanzer, and Ebrahim Moosa, "Muslim American Terrorism since 9/11: Why So Rare?," *Muslim World* 101:464–83. doi: 10.1111/j.1478-1913.2011.01388.x, available at http://sanford.duke.edu/centers/tcths/documents/Kurzman_Schanzer_Moosa_Muslim_American_Terrorism.pdf, accessed April 4, 2012.
49. Ibid., 471.
50. Ibid., 475.
51. United States Department of State, *Country Reports on Terrorism 2010* (Washington, DC: US State Department, 2010), available at http://www.state.gov/s/ct/rls/crt/2009/index.htm, accessed April 4, 2012.
52. United States Department of State, "Terrorism Deaths, Injuries, Kidnappings of Private U.S. Citizens, 2010," in *Country Reports on Terrorism 2011* (Washington, DC: US State Department, 2011), available at http://www.state.gov/j/ct/rls/crt/2010/170267.htm, accessed April 4, 2012.
53. Zaid Jilani, "Chart: Only 15 Americans Died from Terrorism Last Year—Fewer Than from Dog Bites or Lightning Strikes," *Think Progress*, August 25, 2011, available at http://thinkprogress.org/security/2011/08/25/304113/chart-only-15-americans-died-from-terrorism-last-year-less-than-from-dog-bites-or-lightning-strikes/, accessed April 4, 2012.
54. Susan Heavey, "Study Links 45,000 U.S. Deaths to Lack of Insurance," Reuters, September 17, 2009, available at http://www.reuters.com/article/2009/09/17/us-usa-healthcare-deaths-idUSTRE58G6W520090917, accessed April 4, 2012.
55. Hagopian, *Civil Rights in Peril*, 38.
56. Patel, *Rethinking Radicalization*, 1.
57. Mitchell D. Silber and Arvin Bhatt, *Radicalization in the West: The Homegrown Threat* (New York: NYPD Intelligence Division, 2007), 5, available at http://www.nypdshield.org/public/SiteFiles/documents/NYPD_Report-Radicalization_in_the_West.pdf, accessed April 4, 2012.
58. Quoted in Patel, *Rethinking Radicalization*, 15.
59. United States Department of Homeland Security, *Rightwing Extremism: Current Economic and Political Climate Fueling Resurgence in Radicalization and Recruitment* (Washington, DC: United States Department of Homeland Security, 2009), available at http://www.fas.org/irp/eprint/rightwing.pdf, accessed April 4, 2012.
60. Downs, *Victims of America's Dirty Wars*, 39.
61. Center for Human Rights and Global Justice, *Targeted and Entrapped*, 16.
62. Patel, *Rethinking Radicalization*, 3.
63. Ibid., 8.
64. United States Department of Defense, *Protecting the Force: Lessons from Fort Hood* (Washington, DC: United States Department of Defense, 2010), available at http://www.defense.gov/pubs/pdfs/DOD-ProtectingTheForce-Web_Security_HR_13jan10.pdf, quoted in Patel, *Rethinking Radicalization*, 9.
65. Clark McCauley and Sophia Moskalenko, "Individual and Group Mechanisms of Radicalization," in Laurie Fenstermacher et al., eds., *Protecting the Homeland from International and Domestic Terrorism Threats* (College Park, MD: National Consortium for the Study

of Terrorism and Responses to Terrorism, 2010), available at http://www.start.umd.edu/start/publications/U_Counter_Terrorism_White_Paper_Final_January_2010.pdf, quoted in Patel, *Rethinking Radicalization*, 9.

66. Ibid., 13.
67. Arun Kundnani, "The FBI's 'Good' Muslims," *Nation*, September 19, 2011, available at http://www.agenceglobal.com/article.asp?id=2629, accessed April 4, 2012.
68. Ibid.

9. Green Scare: The Making of the Domestic Muslim Enemy

1. CNN, "Woman in Pennsylvania," *American Morning*, March 10, 2010, accessed March 25, 2010 through Campus Westlaw Research.
2. SourceWatch, "Taking the Fight to the Terrorists," *SourceWatch*, August 11, 2008, available at http://www.sourcewatch.org/index.php?title=Taking_the_fight_to_the_terrorists, accessed January 20, 2012.
3. Quoted in Gerry J. Gillmore, "Bush: West Point Grads Answer History's Call to Duty," American Forces Press Service, June 1, 2002, available at http://www.defense.gov/news/newsarticle.aspx?id=43798, accessed January 20, 2012.
4. Kurzman, Schanzer, and Moosa, "Muslim American Terrorism since 9/11."
5. Ibid., 466.
6. Arun Kundnani, "Islamism and the Roots of Liberal Rage," *Race and Class* 50, 2 (2008): 40–68.
7. Deepa Kumar, "Jihad Jane: Constructing the New Muslim Enemy," *Fifth Estate Online*, April 2010, available at http://www.fifth-estate-online.co.uk/comment/Jihad_Jane_Deepa_Kumar.pdf, accessed January 20, 2012.
8. Anthony DiMaggio, "Fort Hood Fallout: Cultural Racism and Deteriorating Public Discourse on Islam," *Znet*, December 3, 2009, available at http://www.zcommunications.org/fort-hood-fallout-cultural-racism-and-deteriorating-public-discourse-on-islam-by-anthony-dimaggio, accessed January 20, 2012.
9. Jerry Markon, "Pakistan Arrests Five Virginia Men at House with Jihadist Ties," *Washington Post*, December 10, 2009.
10. Tunku Varadarajan, "Going Muslim," *Forbes*, November 2009.
11. Barack Obama, "Remarks by the President in Address to the Nation on the Way Forward in Afghanistan and Pakistan," speech delivered in West Point, New York, December 1, 2009, transcript available at http://www.whitehouse.gov/the-press-office/remarks-president-address-nation-way-forward-afghanistan-and-pakistan, accessed April 5, 2012.
12. Gregory F. Treverton, "Terrorists Will Strike America Again," *Los Angeles Times*, January 19, 2010, available at http://articles.latimes.com/2010/jan/19/opinion/la-oe-treverton19-2010jan19, accessed April 10, 2012.
13. United States Department of State, *Country Reports on Terrorism 2008* (Washington, DC: United States Department of State, 2008), 298–99, available at http://www.state.gov/documents/organization/122599.pdf.
14. United States Department of Labor, "Fatal Occupational Injuries by Industry and Event or Exposure," Bureau of Labor Statistics, available at http://www.bls.gov/iif/oshwc/cfoi/cftb0241.pdf, accessed January 20, 2012.
15. National Highway Safety Administration, "Fatality Analysis Reporting System (FARS) Data Tables," NCSA Data Resource Website, available at http://www-fars.nhtsa

.dot.gov/Main/index.aspx, accessed January 20, 2012.

16. United States Departmentof State, *Country Reports on Terrorism 2008.*
17. Rick "Ozzie" Nelson and Ben Bodurian, "A Growing Terrorist Threat?," Center for Strategic and International Studies, March 2010, available at http://csis.org/files/publication/100304_Nelson_GrowingTerroristThreat_Web.pdf, accessed January 20, 2012.
18. Quoted in Ralph Blumenthal and Sharaf Mowjood, "Muslim Prayers and Renewal near Ground Zero," *New York Times*, December 9, 2009.
19. Justin Elliot, "How the 'Ground Zero Mosque' Fear Mongering Began," *Salon*, August 16, 2010, available at http://www.salon.com/2010/08/16/ground_zero_mosque_origins/, accessed January 20, 2012.
20. Laura Ingraham, interview with Daisy Khan, Fox News, December 21, 2009, available at http://www.youtube.com/watch?v=q7WbTv_gsx4, accessed December 1, 2010. Fox News filed copyright infringement notifications against sites that posted the video (see http://www.aolnews.com/2010/08/17/laura-ingrahams-change-of-heart-on-the-ground-zero-mosque/ for an example), and it no longer appears on the Fox News website.
21. Elliot, "How the 'Ground Zero Mosque' Fear Mongering Began."
22. Pamela Geller, "Monster Mosque Pushes Ahead," *Atlas Shrugs*, May 6, 2010, available at http://atlasshrugs2000.typepad.com/atlas_shrugs/2010/05/monster-mosque-pushes-ahead-in-shadow-of-world-trade-center-islamic-death-and-destruction.html, accessed January 20, 2012.
23. Chris McGreal, "The US Blogger on a Mission to Halt 'Islamic Takeover,'" *Guardian*, August 20, 2010, available at http://www.guardian.co.uk/world/2010/aug/20/rightwing-blogs-islam-america, accessed January 20, 2012.
24. Pamela Geller and Eliza Saxon, "Indomitable Israel," *Israel National News*, May 11, 2008, available at http://www.israelnationalnews.com/Articles/Article.aspx/7968, accessed January 20, 2012.
25. Julie Shapiro, "Politicians Rally against Tea Party Bashing of World Trade Center Mosque," *DNAinfo*, May 20, 2010, available at http://dnainfo.com/20100520/manhattan/politicians-rally-against-tea-party-bashing-of-world-trade-center-mosque, accessed January 20, 2012.
26. Quoted in Oliver Willis, "Mark Williams Calls Allah a 'Monkey God': Is He Still Welcome on CNN's Air?," *Media Matters for America*, May 18, 2010, available at http://mediamatters.org/blog/201005180064, accessed January 20, 2012.
27. Wajahat Ali, Eli Clifton, Matthew Duss, Lee Fang, Scott Keyes, and Faiz Shakir, *Fear Inc.: The Roots of the Islamophobia Network in America* (Washington, DC: Center for American Progress, 2011), 22, available at http://www.americanprogress.org/issues/2011/08/pdf/islamophobia.pdf, accessed January 20, 2012.
28. Quoted in ibid., 30.
29. Quoted in Edward Wyatt, "Three Republicans Criticize Obama's Endorsement of Mosque," *New York Times*, August 14, 2010, available at http://www.nytimes.com/2010/08/15/us/politics/15reaction.html, accessed April 5, 2012.
30. Quoted in Ali et al., *Fear Inc.*, 44.
31. Newt Gingrich, *Fox & Friends*, Fox News, August 16, 2010, available at http://mediamatters.org/mmtv/201008160005, accessed April 5, 2012.
32. Abraham Foxman, "The Mosque at Ground Zero," *Huffington Post*, August 2, 2010, available at http://www.huffingtonpost.com/abraham-h-foxman/the-mosque-at-ground-zero_b_668020.html, accessed January 20, 2012.

33. Quoted in Elliot, "How the 'Ground Zero Mosque' Fear Mongering Began."
34. Adam Lisberg, "Mayor Bloomberg Stands Up for Mosque," *Daily Politics*, August 3, 2010, available at http://www.nydailynews.com/blogs/dailypolitics/2010/08/bloomberg-stands-up-for-mosque.html, accessed January 20, 2012.
35. David W. Dunlap, "When an Arab Enclave Thrived Downtown," *New York Times*, August 24, 2010, available at http://www.nytimes.com/2010/08/25/nyregion/25quarter.html, accessed April 5, 2012.
36. Bobby Ghosh, "Islamophobia: Does America Have a Muslim Problem?," *Time*, August 30, 2010, available at http://www.time.com/time/magazine/article/0,9171,2011936,00.html, accessed April 5, 2012.
37. Aryn Baker, "Afghan Women and the Return of the Taliban," *Time*, August 9, 2010, available at http://www.time.com/time/magazine/article/0,9171,2007407,00.html, accessed April 5, 2012.
38. Rasmussen Reports, "20% Favor Mosque Near Ground Zero, 54% Oppose," *Rasmussen Reports*, July 22, 2010, available at http://www.rasmussenreports.com/public_content/politics/general_politics/july_2010/20_favor_mosque_near_ground_zero_54_oppose, accessed January 20, 2012. See also Jordan Fabian, "Public Strongly Opposes Ground Zero Mosque," *The Hill*, November 8, 2010, available at http://thehill.com/blogs/blog-briefing-room/news/113747-poll-public-strongly-opposes-ground-zero-mosque-, accessed January 20, 2012.
39. Brian Montopoli, "Nancy Pelosi Questions Funding of NYC Mosque Criticism," *CBS News Political Hotsheet*, August 18, 2010, available at http://www.cbsnews.com/8301-503544_162-20014003-503544.html, accessed January 20, 2012.
40. Chris Cillizza, "Democrats Divided over Proposed New York City Mosque," *Washington Post*, August 17, 2010, available at http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2010/08/16/AR2010081605425.html, accessed April 5, 2012.
41. Ibid.
42. Glenn Greenwald, "Howard Dean: 'Mosque' Should Move," *Salon*, August 18, 2010, available at http://www.salon.com/2010/08/18/dean_19/, accessed January 20, 2012.
43. Associated Press, "Obama Clarifies Statement in Mosque Debate," *NBC New York*, August 17, 2010, available at http://www.nbcnewyork.com/news/local-beat/Obama-Backs-Mosque-Near-Ground-Zero-100665264.html, accessed January 20, 2012.
44. Quoted in David Jackson, "Obama: Quran Burning Is 'Stunt' that Threatens Troops," *USA Today*, September 9, 2010, available at http://content.usatoday.com/communities/theoval/post/2010/09/obama-quran-burning-is-stunt-that-threatens-troops/1, accessed January 20, 2012.
45. Max Blumenthal, "The Great Islamophobic Crusade," *Tom Dispatch*, December 19, 2010, available at http://maxblumenthal.com/2010/12/the-great-islamophobic-crusade/, accessed January 20, 2012.
46. Joel Beinin, "The New American McCarthyism: Policing Thought about the Middle East," *Race and Class* 46, no. 1 (2004): 101–15.
47. Ibid., 109.
48. Ibid., 110. Beinin quotes this assertion, and it was also cited on the media watchdog website *SourceWatch* (see http://www.sourcewatch.org/index.php?title=Daniel_Pipes). While the phrase has been taken down from the *Campus Watch* website, the site still links to articles that quote it; a campus-watch.org site search for the phrase "Middle East studies in the United States has become the preserve of Middle East Arabs" returned 123 articles on April 5, 2012.
49. Jeff Jacoby, "The Boston Mosque's Saudi Connection," *Boston Globe*, January 10, 2007,

available at http://www.boston.com/news/globe/editorial_opinion/oped/articles/2007/01/10/the_boston_mosques_saudi_connection/?page=full, accessed April 5, 2012.

50. Blumenthal, "Great Islamophobic Crusade."
51. Pamela Geller, "NYC Public School Madrassa a Failure," *Atlas Shrugs*, March 8, 2011, available at http://atlasshrugs2000.typepad.com/atlas_shrugs/khalil_gibran_international_academy/, accessed January 20, 2012.
52. Daniel Pipes, "A Madrassa Grows in Brooklyn," *New York Sun*, April 24, 2007, available at www.nysun.com/foreign/madrassa-grows-in-brooklyn/53060/, accessed April 5, 2012.
53. Chuck Bennet and Jana Winter, "City Principal Is 'Revolting.'" *New York Post*, August 6, 2007, available at http://www.nypost.com/p/news/regional/item_UerzwvF7fcSQY8YOP1In4K, accessed April 5, 2012.

10. Islamophobia and the New McCarthyism

1. Ali et al., *Fear Inc.*, 1.
2. Andrea Elliot, "The Man behind the Anti-Shariah Movement," *New York Times*, July 30, 2011, available at http://www.nytimes.com/2011/07/31/us/31shariah.html, accessed April 5, 2012.
3. Bob Smietana, "Anti-Muslim Crusaders Make Millions Selling Fear," *Tennessean*, October 24, 2010, available at http://www.tennessean.com/article/20101024/NEWS01/10240374/Anti-Muslim-crusaders-make-millions-spreading-fear, accessed January 25, 2012.
4. Ali et al., *Fear Inc.*
5. Beinin, "New American McCarthyism," 103.
6. See the AVOT website: http://www.claremont.org/projects/projectid.35/project_detail.asp, accessed January 25, 2012.
7. William Kristol and Robert Kagan, "Toward a Neo-Reaganite Foreign Policy," *Foreign Affairs*, July 1, 1996, available at http://www.foreignaffairs.com/articles/52239/william-kristol-and-robert-kagan/toward-a-neo-reaganite-foreign-policy, accessed April 5, 2012.
8. Maria Ryan, *Neoconservatism and the New American Century* (New York: Palgrave Macmillan, 2010), 79.
9. Ibid.
10. Cooper, *Neoconservatism*, 12.
11. Ibid.
12. Dorien, *Imperial Designs*, 2.
13. Elliot, "Man behind the Anti-Shariah Movement."
14. In his *New York Times* column, Friedman focuses blame on internal conditions such as autocratic governments and population explosion, among other factors, as a way to explain the harsh economic conditions in the Arab world. US imperialism and its economic arms, the IMF and World Bank, are of course left blameless. See Thomas Friedman, "Green Shoots in Palestine," *New York Times*, August 4, 2009, available at http://www.nytimes.com/2009/08/05/opinion/05friedman.html, accessed April 5, 2012.
15. Emma Brockes, "Ayaan Hirsi Ali: 'Why Are Muslims So Hypersensitive?'" *Guardian* (UK), May 7, 2010, available at www.guardian.co.uk/world/2010/may/08/ayaan-hirsi-ali-interview, accessed April 5, 2012.
16. Quoted in Sheehi, *Islamophobia*, 103.
17. Ali et al., *Fear Inc.*, 3.
18. Quoted in ibid., 51.

19. Debbie Schlussel, "HAMASGOP: Chris Christie Calls Opponents of Hamas 'Crazies,'" *Debbie Schlussel Blog*, July 29, 2011, available at http://www.debbieschlussel.com/40455/hamasgop-chris-christie-calls-opponents-of-hamas-crazies/, accessed January 25, 2012.
20. Cited in Ali et al., *Fear Inc.*, 41.
21. Ibid., 37.
22. Ibid., 39.
23. David Horowitz, "Muslim Liars: How the Muslim Students Association Deceives the Naïve," *Front Page*, April 27, 2011, available at http://frontpagemag.com/2011/04/27/muslim-liars-how-the-muslim-students-association-deceives-the-naive-2/, accessed January 25, 2012.
24. See the list of interviewees at *The Third Jihad*'s website, http://www.thethirdjihad.com/about_new.php, accessed April 5, 2012.
25. Ali et al., *Fear Inc.*, 14.
26. Blumenthal, "Great Islamophobic Crusade."
27. Nicole Naurath, "Most Muslim Americans See No Justification for Violence," Abu Dhabi Gallup Center, August 2, 2011, available at http://www.gallup.com/poll/148763/muslim-americans-no-justification-violence.aspx, accessed January 25, 2012.
28. Samih Farsoun, "Roots of the American Antiterrorism Crusade," in Hagopian, ed., *Civil Rights in Peril*, 150–52.
29. Elaine Hagopian, "The Interlocking of Right-Wing Politics and US Middle East Policy: Solidifying Arab/Muslim Demonization," in Hagopian, ed., *Civil Rights in Peril*, 194.
30. Quoted in Farsoun, "Roots," 152.
31. Quoted in Ali et al., *Fear Inc.*, 75.
32. Ibid., see chapter 3.
33. Ibid., 64.
34. Quoted in ibid., 66.
35. Quoted in ibid., 58.
36. Thom Cincotta, *Manufacturing the Muslim Menace: Private Firms, Public Servants, and the Threat to Rights and Security* (Somerville, MA: Political Research Associates, 2011), available at http://www.publiceye.org/liberty/training/Muslim_Menace_Complete.pdf, accessed January 25, 2012.
37. Ibid., 15.
38. Quoted in ibid., 31.
39. Ibid., 31.
40. Quoted in Ali et al., *Fear Inc.*, 57.
41. Ibid.
42. Cincotta, *Manufacturing the Muslim Menace*, 23.
43. Spencer Ackerman, "FBI's '101 Guide' Depicted Muslims as 7th-Century Simpletons," *Wired*, July 27, 2011, available at http://www.wired.com/dangerroom/2011/07/fbi-islam-101-guide/, accessed January 25, 2012.
44. Spencer Ackerman, "Obama Orders Government to Clean up Terror Training," *Wired*, November 29, 2011, available at http://www.wired.com/dangerroom/2011/11/obama-islamophobia-review/, accessed May 22, 2012.
45. Anderson Cooper, interview with Walid Shoebat, *Anderson Cooper 360*, CNN, July 13, 2011, available at http://www.youtube.com/watch?v=pJN00dBhZVk, accessed January 25, 2012.
46. Will Youmans, "The New Cold Warriors," in Hagopian, ed., *Civil Rights in Peril*, 111.
47. Ibid., 112.
48. WND, "Congressman: Muslims 'Enemy amongst Us,'" *WND*, February 13, 2004,

available at http://www.wnd.com/2004/02/23257/, accessed January 25, 2012.

49. Quoted in Ali et al., *Fear Inc.*, 86.
50. Ibid., 41.
51. Hamid Dabashi, *Brown Skin, White Masks* (London: Pluto, 2011), 72–73.
52. Ibid., 35.
53. Sheehi, *Islamophobia*, 97.
54. Dabashi, *Brown Skin*, 14.
55. Ibid., 76.
56. Ibid., 35–36.
57. Kundnani, "Islamism."
58. Ibid., 42.
59. Seymour, *Liberal Defence*, 241–42.
60. Ibid., 12.
61. Ibid.
62. Kundnani, "Islamism," 44.
63. Youmans, "New Cold Warriors," 119.
64. Noah Schachtman and Spencer Ackerman, "U.S. Military Taught Officers: Use 'Hiroshima' Tactics for 'Total War' on Islam," *Wired*, May 10, 2012, available at, http://www.wired.com/dangerroom/2012/05/total-war-islam/all/1, accessed May 22, 2012.
65. Ibid.
66. William J. Boykin et al., *Shariah: The Threat to America* (Washington, DC: Center for Security Policy, 2010).
67. Suzan Clarke and Rich McHugh, "President Obama Says Terry Jones' Plan to Burn Korans Is 'a Destructive Act,'" *ABC Good Morning America*, September 9, 2010, available at http://abcnews.go.com/GMA/president-obama-terry-jones-koran-burning-plan-destructive/story?id=11589122#.TxBi8oH4WSo, accessed January 25, 2012.
68. Joe Cenker, "Gainesville's Victory over Bigotry," *Socialist Worker*, September 17, 2010, available at http://socialistworker.org/2010/09/17/gainesville-victory-over-bigotry, accessed January 25, 2012.

Conclusion: Fighting Islamophobia

1. Council on American-Islamic Relations, "American Muslims and the 2008 Elections," November 7, 2008, available at http://www.cair.com/Portals/0/pdf/Post_2008_Election_American_Muslim_Poll.pdf, accessed January 22, 2012.
2. Dabashi, *Brown Skin, White Masks*, 121.
3. Hillary Clinton, interview by Kirit Radia, al-Arabiya network, March 2, 2009, partial transcript available at http://abcnews.go.com/blogs/politics/2011/01/secretary-clinton-in-2009-i-really-consider-president-and-mrs-mubarak-to-be-friends-of-my-family/, accessed April 6, 2012.
4. Amanda Simon, "President Obama Signs Indefinite Detention into Law," ACLU website, December 1, 2011, available at http://www.aclu.org/blog/national-security/president-obama-signs-indefinite-detention-law, accessed January 22, 2012.
5. Barack Obama, "Empowering Local Partners to Prevent Violent Extremism in the United States," August 2011, available at http://www.whitehouse.gov/sites/default/files/empowering_local_partners.pdf, accessed January 22, 2012.
6. Greg Miller, "US Officials Believe al-Qaeda on the Brink of Collapse," *Washington Post*, July 26, 2011, available at http://www.washingtonpost.com/world/national-security

/al-qaeda-could-collapse-us-officials-say/2011/07/21/gIQAFu2pbI_story.html, accessed April 6, 2012.

7. John Mueller, "The Truth about al-Qaeda," *Foreign Affairs*, August 2, 2011, available at http://www.foreignaffairs.com/articles/68012/john-mueller/the-truth-about-al-qaeda?oth-internal-magazine-the_truth_about_al_qaeda-110111, accessed April 6, 2012.
8. Obama, "Empowering Local Partners," 1.
9. Abdul Malik Mujahid, interview by Eric Ruder, "The United States of Islamophobia," *Socialist Worker*, January 19, 2010, available at http://socialistworker.org/2012/01/19/united-states-of-islamophobia, accessed April 6, 2012.
10. "NYPD Spied on Muslim Anti-Terror Partners," *CBS News*, October 6, 2011, available at http://www.cbsnews.com/stories/2011/10/06/national/main20116496.shtml, accessed January 22, 2012.
11. Associated Press, "White House Helps Pay for NYPD Muslim Surveillance," *USA Today*, February 27, 2012, available at http://www.usatoday.com/news/nation/story/2012-02-27/white-house-muslim-NYPD/53267060/1, accessed April 6, 2012.
12. Quoted in Ashley Lopez, "Muslim Activists Say that Democratic Party Is Taking their Vote for Granted," *Florida Independent*, March 21, 2012, available at http://floridaindependent.com/73346/muslim-activists-say-democratic-party-is-taking-their-vote-for-granted, accessed April 6, 2012.
13. Andrew Stern, "Most American Muslims Are Satisfied Obama Backers," Reuters, August 30, 2011, available at http://in.reuters.com/article/2011/08/30/idINIndia-59043020110830, accessed April 6, 2012.
14. Chris Hawley, "Muslims Upset by NYPD to Boycott Mayor's Breakfast," Associated Press, December 29, 2011, available at http://www.ap.org/pages/about/whatsnew/wn_122911a.html, accessed January 22, 2012.
15. Mujahid, "United States of Islamophobia."

المؤلف فى سطور:

ديبا كومار

أستاذ مساعد الدراسات الإعلامية ودراسات الشرق الأوسط بجامعة روتجرز، وهى مؤلفة كتاب "Corporate Media, Globalization and UPS Strike"، وقد عرضت تحليلها لظاهرة فوبيا الإسلام من خلال منافذ متعددة فى أنحاء العالم المختلفة، وكان من بينها هيئة الإذاعة البريطانية BBC و USA Today و Philadephia Inquirer.

المترجمة فى سطور:

أمانى فهمى

- تخرجت فى عام ١٩٦٢ فى قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب، جامعة القاهرة.

- التحقت فى عام ١٩٦٢ بوكالة أنباء الشرق الأوسط مترجمة.

- التحقت فى عام ١٩٧٤ بالأمم المتحدة مترجمة فى إدارة الترجمة العربية، وتدرجت فى مناصبها فأصبحت مراجعة، ثم كبيرة مترجمين، فمسؤولة عن تدريب المترجمين وتقييم أدائهم، إلى أن تولّت رئاسة الإدارة فى عام ٢٠٠٠.

- منحتها فى عام ٢٠٠٠ مجلة روز اليوسف وسام الاحترام، ومنحتها مجلة حواء ميدالية تقدير باعتبارها أول سيدة وأول شخصية مصرية تتولى رئاسة إدارة الترجمة العربية فى الأمم المتحدة منذ إنشاء تلك الإدارة فى خمسينيات القرن العشرين.

- تولّت فى عام ٢٠٠٥ ترجمة قانون البنوك العراقى الجديد بتكليف من صندوق النقد الدولى.

- تولّت على مدى ست سنوات ترجمة تقرير التنمية البشرية الذى يصدر عن برنامج الأمم المتحدة للتنمية، ويعتبر أهم تقرير دولى يحدّد مدى نجاح دول العالم فى تحقيق التنمية البشرية مقيساً بمؤشرات عديدة.

- تولّت ترجمة مئات الدراسات والتقارير المتخصصة المهمة بتكليف من منظمات دولية شتّى، من بينها الأمم المتحدة واليونسكو ومنظمة الصحة العالمية واليونيسيف ومنظمة الأغذية والزراعة والمنظمة العالمية للأرصاد الجوية وصندوق الأمم المتحدة للسكان وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة.

- صدرت لها فى أواخر سبعينيات القرن الماضى أول ترجمة عربية لوثيقة متخصصة سرية تحمل عنوان "كيف يعمل مفاعل ديمونة الإسرائيلى".

- لها مساهمات ضخمة ومتميِّزة فى الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات الدولية فى ترجمة المصطلحات المستحدَثة فى مجالات مختلفة من بينها القانون الدولى والمحلى وقانون البحار، والتكنولوجيا، والفضاء الخارجي، والاقتصاد، والمحاسبة، والمعلوماتية.

- نُشرت لها ترجمة لمجموعة مسرحيات قصيرة للكاتب المسرحى البريطانى هارولد بنتر، ونُشرت لها تراجم لأشعار أفريقية وآسيوية نقلاً عن اللغة الإنجليزية. وكانت من أوائل من نُشرت لهم تراجم فى مجلة "جاليرى ٦٨" الطليعية التى كانت تصدر فى القاهرة فى أواخر ستينيات القرن العشرين.

- شاركت فى إعداد كتاب "كافافى شاعر الإسكندرية" (للشاعر والفنان التشكيلى أحمد مرسى) وذلك بترجمة نبذة عن حياة كافافى.

- صدرت لها حتى الآن عن المركز القومى للترجمة سبعة مجلدات فى سلسلة دساتير العالم، ويتضمَّن المجلد الأول منها ترجمة دساتير الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الروسى وألمانيا وفرنسا والصين ويتضمَّن المجلد الثانى ترجمة دستور الهند. ويتضمَّن المجلد الثالث ترجمة دستورى اليابان والبرازيل. ويتضمَّن المجلدان الرابع والخامس ترجمة دستورى إيران واليونان وترجمة دستورى إيطاليا وأستراليا. وصدر لها فى عام ٢٠١١ مجلدان يتضمَّن الأول منهما ترجمة دستور تركيا ويتضمَّن الثانى ترجمة دستور جنوب أفريقيا. وقد حظيت ترجمة دستور تركيا باهتمام كبير فى أوساط المتخصصين والمثقفين والأحزاب السياسية فى مصر على خلفية النقاش الدائر فيها حول صياغة الدستور المصرى الجديد بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١.

التصحيح اللغوى: خالد مصطفى

الإشراف الفنى: حسن كامل